كتاب المفهم

لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم

لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي

دفين الأسكندرية عام 656هـ - 1258م

عن نسخة نادرة

بخط الرحالة المغربي ابن بطوطة

بالمدرسة العزيزية بدمشق عام 727هـ - 1327م

تقديم وتحقيق

د. عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

والمجامع العربية

الجزء الثالث

1425هـ - 2004م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

كتاب المفهم
لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم

كتاب المفهم

لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم

لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي

دفين الأسكندرية عام 656هـ - 1258م

عن نسخة نادرة

بخط الرحالة المغربي ابن بطوطة

بالمدرسة العزيزية بدمشق عام 727هـ - 1327م

تقديم وتحقيق

د. عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

والمجامع العربية

الجزء الثالث

1425هـ - 2004م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

الـكـتـاب : **كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم**

الـمـؤلـف : أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي

تقديم وتحقيـق : د. عبد الهادي التازي

الـحـقـوق : جميع الحقوق محفوظة للوزارة

الـنـاشـر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الطبعـة الأولى : 1426هـ/2005م

الـمطبـعـة : مطبعة الكرامة – الرباط – المغرب

الهاتف: 037.20.87.52 – فاكس: 037.20.87.53

الإيداع القانوني : 2004/1439

ردمـك : 9954-0-3778-0

كتاب الرؤيا

باب الرؤيا الصادقة من الله والحُلْمُ من الشيطان وما يفعل عند رؤية ما يكره

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سمعت أبا قتادة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا من الله والحُلْمُ من الشَّيطان، فإن رأى أحدكم شيئاً يكرهه فلينفُثْ عن يساره ثلاث مراتٍ، وليتعوذ بالله من شرِّها؛ فإنها

كتاب الرؤيا

(قوله: «الرؤيا من الله. والحُلْم من الشيطان») الرؤيا: مصدر رأي في المنام رُؤيا، على وزن فُعْلى؛ وألفه للتأنيث، ولذلك لم ينصرف. والرؤية: مصدر رأي بعينه في اليقظة رؤية. هذا المعروف من لسان العرب. وقال بعض العلماء: إن الرؤيا قد تجيء بمعنى الرؤية. وعليه قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ**﴾ [1] وقال: إنما يعني بها رؤية النبيِّ ﷺ في الإسراء لما أراه من عجائب السموات والملكوت، وكان الإسراءُ من أوَّله إلى آخره في اليقظة. وقد ذكرنا هذا في باب الإسراء من كتاب الإيمان. والحُلْم - بضم الحاء، وسكون اللام - مصدر حَلَمت -

---

(1) سورة الاسراء الآية 60

لن تضرَّه». فقال: إن كنت لأرى الرؤيا أثقل عليَّ من الجبل فما هو إلا أن سمعتُ بهذا الحديث فما أباليها.

زاد في روايةٍ: «وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه».

بفتح الحاء واللام ـ إذا رأى في منامه رؤيا، وتُجمع على أحلام في القلَّة، وفي الكثرة حلوم، وإنما جُمع وإن كان مصدراً لاختلاف أنواعه. وهو في الأصل عبارةٌ عما يراه الرائي في منامه حسناً كان أو مكروهاً. وأراد به النبيُّ ﷺ هنا ما يكره، أو ما لا ينتظم، على ما يأتي إن شاء الله تعالى. فأما الحِلْم ـ بكسر الحاء ـ فهو مصدر حَلُم ـ بضم اللام ـ يحلم: إذا صفح وتجاوز حتى صار له ذلك كالغريزة. وتحلَّم: تكلَّف الحلم. والحَلَم ـ بفتح الحاء ـ هو فساد الإهاب من الدباغ، وتثقيبه فيه، يقال منه: حَلِم الأديم ـ بكسر اللام ـ يحلَم ـ بفتحها ـ: إذا صار كذلك. وقد اختلف الناسُ في كيفية الرؤيا قديماً وحديثاً، فقال غير المتشرِّعين أقوالاً كثيرة مختلفةً، وصاروا فيها إلى مذاهب مضطربة قد عَرِيَتْ عن البرهان، فأشبهت الهذيان. وسببُ ذلك التخليط العظيم: الإعراض عما جاءت به الأنبياءُ من الطريق المستقيم. وبيان ذلك: أن حقيقةَ الرؤيا إنما هي من إدراكات النفس، وقد غيّب عنا علْم حقيقتها. وإذا لم يعلم ذلك لعدم الطريق الموصل إليه؛ كان أحرى وأولى ألا نعلم ما غيِّب عنا من إدراكاتها، بل نقول: إنا لا نعلم حقيقة كثير مما قد انكشفت لنا جملة من إدراكاتها، كحسّ السمع، والعين، والأذن، وغير ذلك، فإنا إنَّما نعلم منها أموراً جُمليَّةً، لا تفصيليَّة، وأوصافا لازمةً، أو عرضية، لا حقيقيَّةً، وسبيلُ العاقل: ألا يطمعَ في معرفة ما لم يُنْصَبْ له عليه دليلٌ عقليٌّ، ولا حسيّ، ولا مركبٌ منهما؛ إلا أن يخبر بذلك صادقٌ، وهو الذي دلَّ الدليلُ القطعيُّ على صدقه، وهم الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فإنَّهم دلت على صدقهم دلائلُ المعجزات. وإذا كان كذلك: فسبيلُنا أن نُعْرِضَ عن أحوال المعرضين، ونتشاغل بالبحث عن ذلك في كلام الشَّارع والمتشرِّعين.

قال الإمام أبو عبد الله: المذهبُ الصحيحُ ما عليه أهلُ السُّنَّة؛ وهو: أنَّ الله تعالى يخلقُ في قلب النائم اعتقادات، كما يخلقها في قلب اليقظان. وهو تبارك اسمه يفعلُ ما يشاء، وما يمنعه من فعله نومٌ ولا يقظةٌ، وكأنه سبحانه جعل هذه الاعتقادات علماً على أمورٍ أُخَر يخلقُها في ثاني حالٍ، أو كان قد خلقها.

وفي أخرى : « الرؤيا الصالحة من الله، ورؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا يكره منها شيئاً فلينفث عن يساره، وليتعوذْ بالله من الشيطان، لا تضرُّه، ولا يخبر بها أحداً. فإنْ رأى رؤيا حسنةً، فلْيُبْشِر ولا يخبر بها إلا من يحب » .

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ وابن ماجه .

وقال غيرُه: إنَّ للَّه تعالى مَلَكاً مُوكَّلاً يعرضُ المرئيَّات على المحلِّ المدرك من النائم، فيمثِّل له صوراً محسوسةً، فتارةً تكون تلك الصورُ أمثلةً موافقةً لما يقع في الوجود، وتارةً تكون أمثلةً لمعانٍ معقولةٍ غير محسوسةٍ. وفي الحالتين تكون مبشّرةً ومنذرةً.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا مثل الأول في المعنى؛ غير أنه زاد فيه قضية المَلَك، ويحتاجُ في ذلك إلى توقيفٍ من الشرع، إذ يجوز أن يخلقَ اللَّهُ تعالى تلك التمثيلات من غير مَلَكٍ.

وقيل: إن الرؤيا إدراكُ أمثلة منضبطة في التخيل جعلها الله إعلاماً على ما كان أو يكون. وهو أشبهها. فإن قيل : كيف يقال إن الرؤيا إدراكٌ مع أن النوم ضد الإدراك؛ فإنه من الأضداد العامة، كالموت، فلا يجتمعُ معه إدراكٌ؟ فالجواب: أن الجزء المدرك من النائم لم يحلّه النوم، فلم يجتمعْ معه، فقد تكون العينُ نائمة، والقلب يقظان؛ كما قاله النبيُّ ﷺ : « إن عينيَّ تنامان، ولا ينام قلبي » . وإنما قال: منضبطة في التخيُّل؛ لأن الرائي لا يرى في منامه إلا من نوع ما أدركه في اليقظة بحسِّه، غير أنَّه قد تركَّب المتخيَّلات في النوم تركيباً يحصلُ من مجموعها صورةٌ لم يوجدْ لها مثالٌ في الخارج، تكون عَلَمًا على أمرٍ نادرٍ، كمن يرى في نومه موجوداً رأسه رأس الإنسان وجسده جسد الفرس مثلاً، وله جناحان، إلي غير ذلك مما يمكن من التركيبات التي لا يوجد مثلُها في الوجود. وإن كانت آحادُ أجزائها في الوجود الخارجي. وإنما قال: جعلها اللهُ إعْلاماً على ما كان أو يكون؛ لأنه يعني به: الرؤيا الصحيحة المنتظمة الواقعة على شروطها على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

---

(1) سورة الشورى الآية 51

وعن جابرٍ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه».

رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه.

* * *

ثم: إن النبيَّ ﷺ قد ذكر أنواع الرؤيا هنا. وفيما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا ثلاث: فرؤيا حقٌ، ورؤيا يحدِّثُ المرأُ بها نفسه، ورؤيا تحْزين من الشيطان...» وذكر الحديث. فرؤيا الحق: هي المنتظمة التي لا تخليط فيها، وقد سمَّاها في رواية أخرى: «الصادقة». وفي أخرى: «الصالحة»، وهي التي يحصلُ بها التنبيهُ على أمرٍ في اليقظة صحيح، وهي - التي إذا صدرت من الإنسان الصالح - جزءٌ من أجزاء النبوة. أي: خصلة من خصال الأنبياء التي بها يعلمون الوحي من الله تعالى. وأما الثانية: فهي التي تكون عن أحاديث نفسٍ متوالية، وشهواتٍ غالبة، وهموم لازمة، ينام عليها، فيرى ذلك في نومه، فلا التفاتَ إلى هذا، وكذلك الثالثة. فإنها تحْزينٌ، وتهويلٌ، وتخويفٌ، يُدْخِل كلَّ ذلك الشيطانُ على الإنسان في نومه ليشوِّش يقظته. وقد يجتمع هذان السببان؛ أعني: هموم النفس، وأُلقيات الشيطان في منام واحدٍ، فتكون أضغاث أحلام لاختلاطها. والضغث: هي القبضة من الحشيش المختلط.

و(قوله: «الرؤيا من الله») أي: بشرى من الله، أو تحذير وإنذار.

و(قوله: «والحُلْم من الشيطان» يعني به: ما يلقيه مما يهوِّل، أو يخوِّف، أو يُحْزِن به. وهذا النوع هو المأمورُ بالاستعاذة منه؛ لأنه من تخييلات الشيطان وتشويشاته، فإذا استعاذ الرائي منه صادقا في التجائه إلى الله تعالى، ونفث عن يساره ثلاثا، وتحولَّ عن جنبه كما أمره النبيُّ ﷺ في هذا الحديث، وصلى أذهب الله عنه ما أصابه، وما يخافه من مكروه ذلك، ولم يصبه منه شيءٌ ببركة صدق الالتجاء إلى الله تعالى، وامتثال أموامر رسوله ﷺ. وعلى هذا فيكون قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره» إنَّما يعني به: ما يكون سببه الشيطان. وقيل: بل الخبر بحكم عمومه يتناول

باب أصدقكم رؤيا أصدقُكم حديثاً

عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا اقترب الزَّمان لم تكدْ رؤيا المسلم تكذبُ، وأصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزءٌ من

ما يسببه الشيطان. وما لا يسببه مما يكرهه الرائي. ويكون فعل هذه الأمور كلها مانعاً من وقوع ذلك المكروه. كما يقال: إن الدعاء يدفع البلاء، والصَّدقةَ تدفع ميتة السوء. وكل ذلك بقضاء الله تعالى وقَدَره، ولكن الوسائط والأسباب عاديات لا موجودات. وفائدةُ أمره بالتحول عن جنبه الذي كان عليه ليتكامل استيقاظه، وينقطع عن ذلك المنام المكروه. وفائدة الأمر بالصلاة أن تكمل الرغبة، وتصح الطلبة؛ فإنَّ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ.

و(قول أبي سلمة: فما أباليها) أي: ما ألتفتُ إليها، ولا ألقي لها بالاً. أي: لا أخطرها على فكري ثقة بالله تعالى، وبما أمر به رسوله ﷺ.

ومن باب: أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا

(قوله: «إذا اقتربَ الزمانُ لم تكدْ رؤيا المسلم تكذبُ») قيل في اقتراب الزمان قولان:

أحدهما: تقارب الليل والنهار في الاعتدال، وهو الزمان الذي تتفتق فيه الأزهار، وتَيْنعُ فيه الثمار، وموجب صدق الرؤيا في ذلك الزمان اعتدال الأمزجة فيه، فلا يكون في المنام أضغاث الأحلام، فإن من مُوجِبات التخليط فيها غلبة بعض الأخلاط على صاحبها.

وثانيهما: أنَّ المرادَ بذلك: آخر الزمان المُقَارِب للقيامة. وقد روي عن النبيِّ ﷺ من طريق معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «في آخر الزمان لا تكذبُ رؤيا المؤمن».

قال الشيخ: ويعني ـ والله أعلم ـ بآخر الزمان المذكور في هذا الحديث: زمان الطائفة الباقية مع عيسى ـ عليه السلام ـ بعد قتله الدجال المذكور في حديث عبد الله

خمسةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة. والرؤيا ثلاثةٌ: بشرى من الله، ورؤيا تحزينٌ

ابن عمرو الذي قال فيه: «فيبعث الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا تُبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقالُ ذرَّة من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قبضته»، فكان أهل هذا الزمان أحسنَ هذه الأمَّة بعد الصدر المتقدِّم حالاً، وأصدَقهم أقوالاً، وكانت رؤياهم لا تكذب، كما قال ﷺ: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً»، وكما قال: «رؤيا الرجل الصالح جزءٌ من النبوءة».

و(قوله: «لم تكدْ تكذبُ») أي: لم تقاربِ الكذبَ، وقد تكلَّمنا على كاد وأخواتها من أفعال المقاربة فيما تقدَّم.

و(قوله: «أصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً») إنما كان ذلك لأنَّ: من كثر صدقه تنوَّر قلبُه، وقوي إدراكُه، فانتقشت فيه المعاني على وجه الصِّحة، والاستقامة. وأيضاً فإنَّ من كان غالبُ حاله الصدق في يقظته استصحبَ ذلك في نومه، فلا يرى إلا صدقاً. وعكس ذلك الكاذب والمُخلِّط يَفسدُ قلبُه، ويُظلم، فلا يرى إلا تخليطاً وأضغاثاً. هذا غالبُ حال كل واحد من الفريقين، وقد يندرُ فيرى الصادقُ ما لا يصحُّ، ويرى الكاذب ما يصحُّ، لكن ذلك قليل، والأصلُ ما ذكرناه.

و(قوله: «رؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة»)، وفي حديث عبادة: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً»، وفي رواية عن أبي هريرة: «رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً»، [وفي أخرى عنه: «الرؤيا الصالحة»، وفي رواية: «رؤيا الرجل الصالح ستة وأربعون جزءاً من النبوة»] وفي حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -: «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين». وفي غير كتاب مسلمٍ عن ابن عباسٍ: «جزء من أربعين» وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما: «جزء من سبعة وأربعين» وفي حديث العباس - رضي الله عنه -: «من خمسين»، وعن أنس رضي الله عنه: «من ستة وعشرين»، وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه -: «من أربعةٍ وأربعين».

قال أبو عبد الله المازري: والأكثر والأصحُّ عند أهل الحديث: «من ستة وأربعين». وحُكي عن بعض الناس: أنه نُزِّل هذا الحديث بهذه الرواية على مدة

الوحي للنبيِّ ﷺ، وذلك أنه ﷺ أقام يُوحى إليه ثلاثاً وعشرين سنة، منها ستة أشهر يُوحي إليه في نومه، وذلك في أوَّل أمره. وقد اعترض عليه بأن هذه المدة لم يصحَّ نقل تحديدها، ولا هو معروف، فتقديره تحكُّمٌ.

قال الشيخ رحمه الله: القدر الذي اختلف الرواةُ فيه من هذا الحديث أمران:

أحدهما: من أضيفت الرؤيا إليه؛ فتارة سُكت عنه، وأخرى قيل فيه: المسلم، وفي أخرى: المؤمن، وفي أخرى: الصالح. وهذا الأمر: الخلاف فيه أهون من الخلاف في الأمر الثاني، وذلك: أنه حيث سُكت عنه لم يضرَّ السكوتُ عنه، مع العلم بأن الرؤيا مضافةٌ إلى راءٍ ما، فإذا صُرِّح به في موضع آخر فهو المعنيُّ، وأما حيث نُطق به فالمراد به واحد وإن اختلفت الألفاظ. وذلك أن الرؤيا لا تكونُ من أجزاء النبوة إلَا إذا وقعت من مسلم صادق صالح، وهو الذي يناسب حاله حال النبي ﷺ فأُكرم بنوع مما أكرم به الأنبياء، وهو الاطلاع على شيءٍ من علم الغيب، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم، يراها الرجل الصالح، أو تُرى له»، فإن الكافر، والكاذب، والمخلِّط ـ وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات ـ لا تكون من الوحي، ولا من النبوَّة؛ ليس كلُّ من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة. وقد قدَّمنا: أن الكاهن يُخبر بكلمة الحق، وكذلك المنجم قد يحدس فيصدق، لكن على الندور والقلّة. وكذلك: الكافر، والفاسق، والكاذب. وقد يرى المنام الحق، ويكون ذلك المنامُ سبباً في شرٍّ يلحقه، أو أمرٍ يناله. إلى غير ذلك من الوجوه المعتبرة المقصودة به. وقد وقعت لبعض الكفار مناماتٌ صحيحةٌ صادقة؛ كمنام الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن، ومنام عاتكة عمة رسول الله ﷺ، ونحوه كثير، لكن ذلك قليلٌ بالنسبة إلى مناماتهم المخلَّطة والفاسدة. فهذا هو الأمر الأول.

وأما الأمر الثاني: وهو اختلافُ عدد أجزاء النبوة التي جُعلت رؤيا الرجل الصالح واحداً منها: فاختلفت الروايةُ فيه من ستة وعشرين إلى سبعين، كما قد ذكرناه، وأكثرها في الصحيحين، وكلها مشهور فلا سبيلَ إلى أخذ أحدها وطرح الباقي، كما قد فعل أبو عبد الله المازري؛ فإنه قد يكون بعض ما ترك أولى مما قَبلَ إذا بحثنا عن رجال أسانيدها، وربما ترجَّح عند غيره غيره ما اختاره هو، فإذاً: الوجه

الذي يتعيَّن المصيرُ إليه أن يقال: إن هذه الأحاديثَ ـ وإن اختلفت ألفاظها ـ متفقةٌ على أن الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزءٌ من أجزاء النبوة. فهذه شهادةٌ صحيحة من النبيِّ ﷺ لها بأنها وحيٌ من الله تعالى، وأنها صادقةٌ لا كذبَ فيها. ولذلك قال مالك وقد قبل له: أيفسِّر الرؤيا كلُّ أحد؟ فقال: أيلعب بالوحي؟! وإذا كانت هكذا فتعيَّن على الرائي أن يعتنيَ بها، ويسعى في تفهُّمها، ومعرفة تأويلها؛ فإنها إما مُبشِّرة له بخيرٍ، أو محذِّرة له من شرٍّ، فإن أدرك تأويلها بنفسه، وإلا سأل عنها مَن له أهليَّةُ ذلك، وهو اللبيبُ الحبيب. ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقول إذا أصبح: «هل رأى أحدٌ منكم الليلة رؤيا فليقصها؛ أعبِّرها له؟» فكانوا يقصّون عليه، ويَعْبُرُ. وقد سلك أصحابُه [ذلك المسلك في حياته، وبعد وفاته، وقد كان ﷺ يقتبس] الأحكام من منامات أصحابه، كما فعل في رؤيا الأذان، وفي رؤيا ليلة القدر. وكل ذلك بناءً على أنها وحي صحيح. وإذا تقرَّر هذا فلا يضرُّنا الاضطراب [الذي وقع في عدد تلك الأجزاء مع حصول المقصود من الخير؛ غير أن علماءنا قد راموا إزالةَ ذلك الاضطراب]، وتأوَّلوه تأويلات، فلنذكرها. وننبه على الأقرب منها، وهي أربعٌ:

الأول: ما صار إليه أبو عبد الله. وقد ذكرناه، وما ورد عليه.

الثاني: أن المراد بهذا الحديث: أن المنام الصادق خَصْلةٌ من خصال النبوة. كما جاء في الحديث الآخر: «التؤدة، والاقتصاد، وحسن السمت جزء من ستة وعشرين جزءاً من النبوة». أي: النبوة مجموع خصالٍ مبلغ أجزائها ستة وعشرون، هذه الثلاثةُ الأشياء جزءٌ واحدٌ منها، وعلى مقتضى هذه التجزئة: كل جزء من الستة والعشرين ثلاثة أشياء في نفسه، فإذا ضربنا ثلاثة في ستة وعشرين صحَّ لنا أن عدد خصال النبوة من حيث آحادها ثمانية وسبعون. ويصحُّ أن يسمَّى كلُّ اثنين من الثمانية والسبعين جزءاً وخَصْلةً، فيكون جميعها بهذا الاعتبار تسعة وثلاثين جزءاً، ويصحُّ أن يسمىَّ كلُّ أربعة منها جزءاً، فيكون مجموعُ أجزائها بهذا الاعتبار تسعة عشرَ جزءاً ونصف جزء، فتختلف أسماء العدد المجزَّأ بحسب اختلاف اعتبار الأجزاء. وعلى هذا: فلا يكون اختلافُ اعداد أجزاء النبوَّة في أحاديث الرؤيا المذكورة اضطراباً، وإنَّما هو اختلافُ اعتبار مقادير تلك الأجزاء المذكورة. والله تعالى أعلم.

الثالث : ما أشار إليه الطَّبريُّ؛ وهو : أنَّ هذا الاختلاف راجعٌ إلى اختلاف حال الرائي. فالمؤمن الصَّالح تكون نسبة رؤياه من ستةٍ وأربعين. وغيرَ الصالح من سبعين؛ ولهذا لم يشترط في رواية السَّبعين في وصف الرائي ما اشترطه في وصفه في رواية: «ستة وأربعين» فإنَّه شرطَ فيها الصَّلاح في الرائي، وسكت عن اشتراطه في رواية السبعين.

قال الشيخ : وهذا فيه بُعْدٌ لما قدَّمناه من صحَّة احتمال حَمْلِ مطلق الرِّويات على مقيَّدها، وبما قد رُوي عن ابن عبَّاس: «الرؤيا الصالحة جزء من أربعين»، وسكت فيه عن ذكر وصف الرائي. وكذلك حديث عبد الله بن عَمْرٍو حين ذكر سبعةً وأربعين. وحديث العبَّاس حين ذكر خمسين.

الرابع : قيل: يحتمل أن تكون هذه التجزئة في طرق الوحي؛ إذ منه ماسُمع من الله تعالى دون واسطة، كما قال : ﴿ **من وَرَائي حجَاب** ﴾ [1] ، ومنه بواسطة المَلَك، كما قال : ﴿ **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً** ﴾[2]، ومنه ما يُلْقَى في القلب، كما قال : ﴿ **إِلاَّ وَحْياً** ﴾[3] أي: إلهاماً، ثمَّ منه ما يأتيه المَلَكُ على صورته، ومنه ما يأتيه على صورة آدميٍّ يعرفه، ومنه ما يتلقَّاه منه وهو لا يعرفه، وومنه ما يأتيه في مثل صلصلة الجرس، ومنه ما يسمعه من المَلَك قولاً مُفَصَّلاً، إلى غير ذلك من الأحوال التي كانت تختلف على النبيِّ ﷺ في الوحي وحالاته المختلفة، فتكون تلك الحالات إذا عُدِّدَت غايتها انتهت إلى سبعين.

قال الشيخ رحمه الله: ولا يخفى ما في هذا الوجه من البُعْد والتَّساهل؛ فإنَّ تلك الأعدادَ كلَّها إنَّما هي أجزاءُ النبوَّة، وأكثر هذه الأحوال التي ذُكرت هنا ليست من النبوَّة في شيءٍ لكونه يعرف الملك، أو لا يعرفه، أو يأتيه على صورته، أو على غير صورته، ثمَّ مع هذا التكلفُ العظيم لم يقدرْ أن يبلغ عدد ما ذكر إلى ثلاثين.

---

(1) سورة الشورى الآية 51

(2) سورة الشورى الآية 51

(3) سورة الشورى الآية 51

قال الشيخ رحمه الله : وأشبه ما ذكر في ذلك : الوجهُ الثاني؛ مع أنَّه لم تثلج النفسُ به، ولا طابَ لها. وقد ظهر لي وجهٌ خامسٌ، وأنا أستخيرُ اللَّهَ في ذكره، وهو أنَّ النبوَّة معناها : أن يُطْلِعَ اللَّهُ مَن يشاء من خلقه على ما يشاء من أحكامه ووحيه إمَّا بالمشافهة، وإمَّا بواسطة مَلَك، أو بإلقاء في القلب، لكن هذا المعنى المسمَّى بالنبوَّة لا يخصُّ اللهُ به إلا من خصَّه بصفات كمال نوعه من المعارف والعلوم، والفضائل، والآداب، ونزَّهه عن نقائض ذلك. ولذلك قال سبحانه : ﴿ **اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾ (1)، وقال : ﴿ **اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ (2)، وقال تعالى لما ذكر الأنبياء : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَيهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (3)، وقال ﴿ **كُلاًّ هَدَيْنَا** ﴾(4) وقال لنبيِّه ﷺ : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾(5). فقد حصل من هذا : أنَّ النبوَّة لم يخصَّ اللهُ بها إلا أكملَ خلقه، وأبعدهم عن النقائص. ثم : إنَّه لَمَّا شرفهم بالنبوَّة حصلت لهم بذلك على جميع نوعهم الخصوصيَّة، فلمَّا كانت النبوَّة لا يخصُّ لله بها إلا من حصلتْ له خصالُ الكمال أطلقَ على تلك الخصال : نبوةً، كما قال ﷺ : « التؤدة والاقتصاد، والسَّمت الحسن جزءٍ من النبوة ». أي : من خصال الأنبياء، لكنَّ الأنبياءَ في هذه الخصال متفاضلون، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيئِنَ عَلَى بَعْضٍ** ﴾(6)، وقال ﴿ * **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾(7)، فتفاضلهم بحسب ما وُهِبَ لكلٍّ واحدٍ منهم من تلك الصفات، وشُرِّف به من تلك الحالات، وكلٌّ منهم الصدق أعظم صفته في نومه ويقظته، وكانوا تنامُ أعينهم ولا تنامُ قلوبهم، فنائمهم يقظان، ووحيُهم في النَّوم واليقظة سيَّان؛ فمن ناسبَهُمْ في الصِّدق حصل من رؤياه على الحقِّ؛ غير أنَّه لَمَّا كان الأنبياءُ في مقاماتهم وأحوالهم متفاضلين، وكان كذلك

(1) سورة الحج الآية 75
(2) سورة الأنعام الآية 124
(3) سورة الانعام الآية 94
(4) سورة الأنعام الآية 84
(5) سورة القلم الآية 4
(6) سورة الاسراء الآية 55
(7) سورة البقرة الآية 253

من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه، فإذا رأى أحدُكم ما يكره

أتباعُهم من الصَّادقين؛ وكان أقلَّ خصال كمال الأنبياء ما إذا اعتُبر كان ستاً وعشرين جزءاً، وأكثر ما يكون من ذلك سبعين، وبين العددين مراتب مختلفةٌ بحسب ما اختلفتْ ألفاظُ تلك الأحاديث. وعلى هذا: فمن كان من غير الأنبياء في صلاحه وصدْقه على رتبة تناسبُ كمالَ نبيٍّ من الأنبياء؛ كانت رؤياه جزءاً من نبوة ذلك النبيِّ، وكمالاتُهم متفاضلةٌ كما قرَّرناه، فنسبة أجزاء منامات الصَّادقين متفاوتةٌ على ما ما فصَّلناه. وبهذا الذي أظهر الله لنا يرتفعُ الاضطراب. والله الموفق للصَّواب.

و(قوله: «والرؤيا ثلاثةٌ: بشرى من الله») أي: مُبَشِّرةٌ بخير، ومُحذِّرةٌ عن شرٍّ؛ فإنَّ التحذيرَ عن الشرِّ خيرٌ، فتتضمَّنه البشرى. وإنَّما قلنا ذلك هنا لأنَّه قد قال في حديث التِّرمذيِّ المتقدِّم: «الرؤيا ثلاثة: «رؤيا من الله» ـ مكان ـ: «بشرى من الله» فأراد بذلك ـ والله أعلم ـ الرؤيا الصادقةَ المبشرةَ والمحذِّرةَ».

و(قوله: «ورؤيا تحزين») ويلحق بالرؤيا المحزنة المفزعات، المهوِّلات، وأضغاث الأحلام؛ إذ كلُّ ذلك مذمومٌ لأنَّها من آثار الشيطان، وكلُّ ما يُنْسَبُ إليه مذمومٌ.

و(قوله: «ورؤيا ممَّا يُحَدِّثُ المرءُ به نفسه») يدخل فيه ما يلازمه المرءُ في يقظته من الأعمال، والعلوم، والأقوال؛ وما يقوله الأطباء: من أنَّ الرؤيا تكون عن خلْط غالبٍ على الرائي، فيرى في نومه ما يناسب ذلك الخَلْط؛ فمن يغلب عليه البلغمُ رأى السِّباحة في الماء وما أشبهه، لمناسبة الماء طبيعة البلغم. ومن غلبت عليه الصفراء رأى النَّيران والصعود في الارتفاع؛ لمناسبة النَّار في الطبيعة طبيعة الصفراء. وهكذا يقولون في بقية الأخلاط، ونحن ننازعهم في موضعين:

أحدهما: في أصل تأثير الطبيعة؛ فإن قالوا: إنَّ الطبيعة سببٌ عاديٌّ والله تعالى هو الفاعل بالحقيقة. وهو مذهبُ المسلمين؛ فهو الحقُّ. وإن قالوا: إنَّ الطبيعة تفعل ذلك بذاتها؛ حكمنا بتكفيرهم، وانتقل الكلامُ إلى علم الكلام.

والثاني: أنَّ من أراد منهم أنَّ الرؤيا لا تكون إلا عن الأخلاط؛ فهو باطلٌ بما قد ثبت عن الصادق فيما ذكرناه من الأحاديث: أنَّ الرؤيا منها ما يكون من الله، وهي المبشِّرة، والمحذِّرة. وهذا من باب الخبر، وليس في قوَّة الطبيعة أن تُطْلِعَ على الغيب

فليقُم فليصلِّ، ولا يحدِّثْ بها النَّاس» قال: وأُحبُّ القَيْدَ، وأكره الغُلَّ،

بالإخبار عن أمورٍ مستقبلة تقعُ في المستقبل على نحو ما اقتضته الرؤيا بالاتفاق بين العقلاء. ومَن أراد منهم: أنَّ الأخلاطَ قد تكون سبباً لبعض المنامات، فقد يسلمُ ذلك على ما قررناه، ثمَّ يبقى نظرٌ آخر؛ وهو أنه لو كان ما رتَّبوه صحيحاً للزم عليه ألاَّ يرى من غَلَب عليه خلطٌ من تلك الأخلاط إلا ما يناسبه، ونحن نشاهدُ خلافه، فيرى البلغمي النيران، والصعود في الارتفاعات، وعكس ذلك في الصَّفراوي، فبطل ما قالوه بالمشاهدة، والله وليُّ المعاضدة.

و(قوله: «فإذا رأى أحدُكم ما يكره فليقمْ فليصلِّ») ليس هذا مخالفاً لقوله في الرواية الأخرى: «فلينفث عن يساره ثلاثاً، وليتعوَّذ بالله من شرِّها، وليتحوَّل عن جنبه الذي كان عليه» وإنما الأمر بالصلاة زيادةٌ فينيغي أن تزاد على ما في هذه الرواية، فيُفعل الجميع. ويحتمل أن يقال: إنما اقتصر في هذا الموضع على ذكْر الصلاة وحدها؛ لأنه إذا صلَّى تضمَّن فعْلُه للصلاة جميعَ تلك الأمور؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوَّل عن جنبه، وإذا تمضمض نفث وبصق، وإذا قام إلى الصلاة تعوَّذ ودعا، وتفرغ لله تعالى في ذلك في حالٍ هي أقربُ الأحوال إجابة، كما قدَّمناه والله تعالى أعلم.

و(قوله: «ولا يخبر بها أحداً») أي: لا يعلق نفسه بتأويلها؛ إذ لا تأويلَ لها؛ فإنها من ألقيات الشيطان التي يقصدُ بها التشويشَ على المؤمن، إما بتحزين وإما بترويع، أو ما أشبه ذلك، وفعل ما ذكر كافٍ في دَفْع ذلك، ومانعٌ من أن يعودَ الشيطانُ لمثل ذلك، وهذا هو الذي فهمه أبو سلمة من الحديث، والله تعالى أعلم، فقال: إن كنت لأرى الرؤيا أثقل عليَّ من الجبل، فما أباليها. وفي أصل كتاب مسلم كنت أرى الرؤيا أعرى لها غير أني لا أزَّمَّل، أي: تصيبني العُرَوَاءُ، وهي الرَّعدة. وقال في رواية أخرى: إن كنت لأرى الرؤيا فتمرضني غير أني لا أزَّمَّل لها. والتزميل: اللفُّ، والتَّدثير؛ يعني: أنها ما كانت تدومُ عليه فيحتاج إلى أن يدَّثَّر، لكنَّه بنفس ما كان يفعل ما أمَرَ به النبيُّ ﷺ من النفث والتعوُّذ وغيره يزولُ عنه ذلك، ببركة الصدق، والتصديق، والامتثال. وفائدةُ هذا: ألا يشغل الرائي نفسَه بما يكره في نومه، وأن يُعْرِضَ عنه، ولا يلتفت إليه، فإنه لا أصلَ له. هذا هر الظاهر من الأحاديث. والله أعلم.

والقيد ثَباتٌ في الدين. قال أيوب: فلا أدري هو في الحديث، أم قاله ابن سيرين.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود وابن ماجه.

* * *

و(قوله: «وأحبُّ القيد، وأكره الغلَّ... إلى آخره») ظاهرُ: أنه من قول النبي ﷺ غير أن أيوب السختياني هو الذي روى هذا الحديث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، وقد أخبر عن نفسه أنه شكَّ هل هو من قول النبيِّ ﷺ أو من قول ابن سيرين، فلا يعوَّل على ذلك الظاهر؛ غير أن هذا المعنى صحيح في العبارة لأن القيد في الرجلين، وهو يُثَبِّت الإنسان في مكانه، فإذا رآه من هو على حالٍ ما على رجليه كان ذلك دليلاً على ثبوته على تلك الحالة، فإذا رآه من هو من أهل الدين والعلم كان ثباتاً على تلك الحال. ولو رأى المريض قيداً في رجليه لكان ذلك دليلاً على دوام مرضه. وإنما كَرِهَ الغلَّ لأنَّه لا يُجْعَل إلا في الأعناق نكاية، وعقوبةً، وقهراً، وإذلالاً. فيسحب على وجهه، ويجرُّ على قفاه، كما قال تعالى: ﴿**إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ**﴾ (1)، ومنه قوله تعالى: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾ (2): ﴿**وَجَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ**﴾ (3) وعلى الجملة: فهو مذمومٌ شرعاً وعادةً. فرؤيته في النوم دليلٌ على وقوع حالة سيئة بالرائي تلازمه، ولا ينفك عنها، وقد يكون ذلك في دينه، كواجبات فرَّط فيها، أو معاصٍ ارتكبها، أو ديونٍ وحقوقٍ لازمة له. وقد يكون ذلك في دنياه من شدائد تصيبه، أو أنْكادٍ تلازمه. وبالجملة: فالمعتبر في أعظم أصول العبارة النظر إلى أحوال الرائي واختلافها، فقد يرى الرائيان شيئاً واحداً، ويدل في حقِّ أحدهما على خلاف ما يدلُّ عليه في حقِّ الآخر.

---

(1) سورة غافر الآية 71 و 72
(2) سورة المائدة الآية 64
(3) سورة يس الآية 8

باب الرؤيا الصالحة
جزءٌ من أجزاء النبوة

عن عبادة بن الصَّامت قال : قال رسول الله ﷺ : رؤيا المؤمن جزء من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة » .

رواه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا الصالحةُ جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة » .

وفي روايةٍ : برؤيا الرجل الصالح » .

رواه أحمد والبخاري تعليقاً ومسلم .

وعن نافعٍ، عن ابن عمر، قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا الصالحة جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوة » .

رواه مسلم وابن ماجه .

* * *

باب رؤية النبي ﷺ

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّلُ بي».

ومن باب: رؤية النبيِّ ﷺ في المنام

(قوله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»، وفي أخرى: «فإن الشيطان لا ينبغي أن يتشبه بي»، وفي أخرى: «لا ينبغي أن يتمثل في صورتي») وفي غير كتاب مسلم: «لا يتكوَّنُني». اختلف في معنى هذا الحديث؛ فقالت طائفة من القاصرين: هو على ظاهره، فمن رآه في النوم رأى حقيقته، كما يُرى في اليقظة. وهو قولٌ يُدْرَكُ فسادُه بأوائل العقول؛ فإنه يلزم عليه ألاَّ يراه أحدٌ إلا على صورته التي توفي عليها، ويلزم عليه ألاَّ يراه رائيان في وقت واحدٍ في مكانين، ويلزم عليه أن يحيا الآن، ويخرج من قبره، ويمشي في الناس، ويخاطبهم، ويخاطبونه كحالته الأولى التي كان عليها، ويخلو قبره عنه، وعن جسده، فلا يبقى منه فيه شيءٌ فيزار غير جدث، ويسلَّم على غائبٍ؛ لأنه يُرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته، في غير قبره. وهذه جهالات لا يبوءُ بالتزام شيء منها مَن له أدنى مسكة من المعقول، وملتزمُ شيء من ذلك مختلٌّ مخبول. وقالت طائفةٌ أخرى: إنما معناه: أنْ مَن رآه على صفته التي كان عليها في الدنيا فمنامه ذلك هو الصحيح، ورؤيته له حقٌّ؛ فإن الشيطان لا يتصوَّر بصورته التي كان عليها.

وقال الشيخ رحمه الله: وهذا يلزمُ منه: أنَّ مَن رآه على غير صفته التي كان عليها في الدنيا لا تكون رؤيته حقاً، ويكون من باب أضغاث الأحلام. ومن المعلوم: أنه يجوزُ أن يُرى في النوم على حالةٍ تخالفُ ما كان عليها في الوجود من الأحوال اللائقة به، ومع ذلك: فتقع تلك الرؤيا حقاً كما إذا رؤي قد ملأ بلدةً، أو دارا بجسمه يدل على امتلاء تلك تلدة بالحق والشرع، وتلك الدار بالبركة، فإنه يرى كثيرا ما وقع نحو هذا. وأيضاً: فلو تمكَّن الشيطان من التمثُّل في شيءٍ مما كان عليه، أو نُسب إليه

لما صَدَقَ مطلقاً قوله: «فإن الشيطان لا يتمثل بي»؛ فإنه إذا تمثَّل ببعض صفاته وأحواله فقد تمثَّل به، فالأولى أن تُنزَّه رؤية النبيِّ ﷺ، أو رؤية شيءٍ من أحواله، أو مما يُنسب إليه عن تمكُّن الشيطان من شيء منه. ونفي جميع ذلك مطلقاً أبلغ في الحرمة، وأليق بالعصمة، وكما عُصِم من الشيطان في يقظته في كل أوقاته؛ كذلك عصم منه في منامه مع اختلاف حالاته. فالصحيح في معنى هذا الحديث ـ إن شاء الله تعالى ـ أن يقال: إن مقصودَه الشهادةُ منه ﷺ بأن رؤيته في النوم على أيِّ حال كان ليست باطلةً، ولا من أضغاث الأحلام؛ بل هي حقٌّ في نفسها، وأن تصويرَ تلك الصورة، وتمثيل ذلك المثال ليس من قِبَل الشيطان؛ إذ لا سبيل له إلى ذلك، وإنما ذلك من قِبَل الله تعالى. وهذا مذهبُ القاضي أبي بكر وغيره من المحققين. وقد شهد لذلك قولُه ﷺ: من رآني فقد رأى الحق»، أي: الحق الذي قصد إعلام الرائي به، وإذا كانت تلك حقاً فينبغي أن يُبْحَثَ عن تزويلها، ولا يُهْمَل أمرها؛ فإن الله تعالى إنما مثَّل ذلك للرائي بشرى، فينبسط للخير، أو إنذاراً لينزجر عن الشر. أو تنبيهاً على خيرٍ يحصل له في دينٍ، أو دنيا. والله تعالى أعلم.

تنبيه: قد قررنا أن المدركَ في المنام أمثلةٌ للمرئيات لا نفس المرئيات، غير أن تلك الأمثلة تارة تكون مطابقةً لحقيقة المرئيِّ، وقد لا تكون مطابقة. ثم المطابقة قد تظهر في اليقظة على نحو ما أدركت في النوم، كما قد صحَّ عنه ﷺ أنه قال لعائشة: «أُريتُك في سَرقَةٍ [1] من حرير، فإذا هي أنت» ومعناه: أنه رآها في نومه على نحو ما رآها في يقظته.

قال الشيخ رحمه الله: وقد وقع لي هذا مرات. منها: أني لما وصلت إلى تونس قاصداً إلى الحج سمعت أخباراً سيِّئة عن البلاد المصرية من جهة العدوِّ الذي غلب على دمياط، فعزمت على المقام بتونس إلى أن ينجلي أمر العدو، فأريت في النوم كأني في مسجد النبيِّ ﷺ وأنا جالسٌ قريبا من منبره، وأناس يُسلِّمون على النبيِّ

(1) أي: في قطعةٍ من جيِّد الحرير، وجمعها: سَرَق.

ﷺ، فجاءني بعض من سلَّم عليه، فانتهرني وقال: قُمْ فسلِّمْ على النبيِّ ﷺ فقمتُ فشرعت في السلام على النبيِّ ﷺ، فاستيقظت، وأنا أسلِّم عليه. فجدَّد اللهُ لي عزماً، ويسرَّ عليَّ فيما كان قد صعب من أسبابي، وأزال عنِّي ما كنت أتخوَّفه من أمر العدو، وسافرت إلى أن وصلت إلى الإسكندرية عن مدة مقدارها ثلاثون يوماً في كنف السلامة، فوجدتها والديار المصرية على أشدّ خوف، وأعظم كرب، والعدو قد استفحل أمره، وعظمت شوكته، فلم أكمل في الإسكندرية عشرة أيام حتى كسر اللَّهُ العدو، ومكَّن منه من غير صُنْع أحد من المخلوقين، بل بلطف أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين [1]. ثم إن الله تعالى كمَّل عليَّ إحسانه وإنعامه، وأوصلني بعد حجِّ بيته إلى قبر نبيه ومسجده، فرأيته والله في اليقظة على النحو الذي رأيته في المنام من غير زيادة ولا نقصان.

ومنها: أني تزوجت امرأةً، وقبل الدخول بها حُدِّثت عن صفتها ما أوقع في قلبي نُفْرةً، فأريتها في النوم على الصفة التي كانت عليها في بيتها، ثم إني لما اجتمعتُ بها وجدتها هي التي رأتها في النوم. ونحو هذا كثير.

وأما إذا لم يظهر في اليقظة كذلك؛ فيعلم أن المقصود بتلك الصورة معناها لا عينها، وكذلك الحكم إذا خالف ذلك المثال صورة المرئيِّ نفسه إما بزيادة، أو نقصان، أو تغيُّر لون، أو حدوث عيبٍ، أو زيادة عضو، أو عين، أو غير ذلك. والمقصود بذلك أيضاً: التنبيه على معاني تلك الأمور. وإذا تقرر هذا فيجوز أن يُرى النبيُّ ﷺ في النوم على صفته التي كان عليها في الوجود، ويكون من فوائد ذلك: تسكين شَوق الرائي، لكونه مُسْتَهْتَراً [2] بمحبته، وليعمل على مشاهدته وهذا هو الذي أشار إليه النبيُّ ﷺ لَمَّا قال: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة». أي: مَن رآني رؤية معظمٍ لحرمتي، ومُشْتاقٍ لمشاهدتي؛ وصل إلى رؤية محبوبه، وظفر بكلِّ مطلوبه.

---

(1) كانت هذه الأحداث في عام (647 هـ 1250م) وهو تاريخ الحرب الصليبية السابعة: دخول الفرنج الصليبيين إلى دمياط وخروجهم، انظر البداية والنهاية (13/177).

(2) أي مولعا.

وفي رواية: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، أو: «لكأنما رآني في اليقظة؛ لا يتمثَّل الشيطانُ بي».

وفي أخرى: «من رآني فقد رأى الحقَّ».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم من طريق محمد بن عبد الله بن أخي الزُّهري، وأبو داود والترمذيُّ وابن ماجه.

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني، فإنه لا ينبغي للشيطان أنْ يتشبَّه بي».

وفي روايةٍ: «أن يتمثَّل في صورتي». رواه مسلم.

* * *

ويجوز أن يكونَ مقصودَ ذلك المنام معنى صورته، وهو دينه وشريعته، فيعبَّر بحسب ما رآه الرائي من زيادة أو نقصان، أو إساءةٍ أو إحسانٍ. وكذلك الحكم إذا رأى على خلاف الصورة التي كان عليها مما يجوزُ عليه.

فأما رؤيةُ الله تعالى في النوم: فقد قال القاضي عياض: لم يختلف العلماءُ في جواز صحة رؤية الله تعالى في المنام، وإن رئي على صفة لا تليقُ بجلاله من صفات الأجسام؛ يُتحقَّق أن ذلك المرئي غير ذات الله تعالى؛ إذ لا يجوزُ عليه التجسيم، ولا اختلاف الحالات، بخلاف رؤية النبيِّ ﷺ فكانت رؤيته تبارك وتعالى في النوم من باب التمثيل والتخييل. وقال القاضي أبو بكر ـ رحمه الله ـ: رؤيةُ الله تعالى في النوم أوهامٌ وخواطرُ في القلب بأمثال لا تليقُ به بالحقيقة، ويتعالى سبحانه وتعالى عنها، وهي دلالاتٌ للرائي على أمرٍ مما كان أو يكون، كسائر المرئيات. وقال غيرُه: رؤية الله في المنام حقٌّ وصدقٌ لا كذبَ فيها؛ لا في قولٍ ولا في فعل.

ومن باب: (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، أو: «لكأنما رآني في اليقظة») هذا شكٌّ من الراوي؛ فإن كان اللفظ الأول هو الصحيح، فتأويله ما ذكرناه. وإن كان الثاني هو الصحيح، فمعناه: أن رؤيته حقٌّ وصدق كما قدمناه. والله تعالى أعلم.

باب لا يخبر بتلعب الشيطان به

عن جابرٍ قال : جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال : يا رسول الله! رأيت في المنام كأنَّ رأسي ضُربَ، فتدحْرج، فاشتددْت على أثره. فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: «لا تحدِّث الناس بتلعُّب الشيطان بك في منامك».

وقال: سمعت النَّبيَّ ﷺ بعدُ يخطب، فقال: «لا يحدِّثنَّ أحدُكم بتلعب الشيطان به في منامه».

و(قوله للأعرابيِّ الذي أخبَره: أنه رأى أنَّ رأسه قد قُطع: «لا تخبرْ بتلعُّب الشيطان بك في منامك») دليلٌ على منع أن يخبرَ الإنسانُ بما يراه في منامه مما يكرهُه، مما يَظنُّ أنه من الشيطان. وقد تقدَّم بيان ذلك. وهذه المنام على مَساق هذا الحديث ليس في ظاهرها ما يدلُّ على أنها من الشيطان؛ غير أنَّ النبيَّ ﷺ علم أنها من الشيطان بطريقٍ آخر غير ظاهرها، [فإما أن يكونَ ذكرَ الرائي ما يدلُّ على ذلك، ولم ينقلْه الراوي، وإما أن يكونَ ذلك من باب الوحي وهو الظاهر] وقد ذكرَ أهلُ العلم بالعَبَارة قطعَ الرأس في النوم، وذكروا: أنه يدلُّ على زوال نِعم الرائي، أو سلطانه، أو تغيرُّ حاله، أو مفارقة من هو فوقه، فإن كان عبداً دلَّ على عتقه، أو مريضاً فعلى شفاءه أو مدْياناً فعلى قضاء دينه، أو ضرورة[1] فعلى حجه، أو مغمودا فعلى فَرَجه، أو خانفاً فعلى أمنه، إلى غير ذلك مما وسَّعوا القولَ فيه. وقد ذكرَ ابن قتيبة في كتاب: «أصول العَبَارة» أن رجلاً قال: يا رسولَ الله! رأيت فيما يرى النائم كأن رأسي قُطعَ فجعلتُ أنظرُ إليه بإحدى عينيَّ! فضحكَ النبيُّ ﷺ وقال: «بأيَّتهما كنتَ تنظرُ إليه؟» فلبث ما شاء الله ثم قُبِضَ النبيُّ ﷺ فعبَّر النَّاس: أن الرأس كان النبي ﷺ وأن النظرَ إليه كان اتباعَ السُّنَّة.

* * *

---

(1) يُقال: رجل صرورة؛ للذي لم يحج.

وفي رواية : جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا رسول الله! رأيت في المنام كأنّ رأسي قُطِع. قال : فضحك النبي ﷺ . وذكر نحوه.

رواه أحمد ومسلم والنّسائيُّ في اليوم والليلة، وابن ماجه.

* * *

باب استدعاء العابر ما يعبر، وتعبير من لم يُسأل

عن سمرةَ بن جندب قال: كان النَّبيُّ لله إذا صلى الصُّبح أقبل عليهم بوجهه، فقال: «هل رأى أحدٌ منكم البارحة رؤيا!».

رواه أحمد، والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ.

ومن باب: استدعاء العابر ما يعبر

(قوله: كان النبيُّ ﷺ إذ صلَّى الصبحَ أقبلَ علينا بوجهه) فيه دليلٌ على أنَّ الإمام لا يمكثُ في موضع صلاته إذا فرغَ منها، وقد تقدَّم ذلك.

و(قوله: «هل رأى منكم أحدٌ البارحة رؤيا؟») إنما كان النبيُّ ﷺ يسألُهم عن ذلك لما كانوا عليه من الصَّلاح، والصِّدق، فكان قد علمَ أن رؤياهم صحيحة، وإنَّها يُستفاد منها الاطلاع على كثير من علم الغيب، وليُبَيِّن لهم بالفعل الاعتناءَ بالرؤيا، والتشوُّفَ لفوائدها، وليعلِّمَهم كيفيةَ التعبير، وليستكثرَ من الاطلاع على علم الغيب.

و(قوله: «البارحة») يعني به: الليلة البارحة، أي: الذاهبة، اسم فاعلٍ من برحَ الشيءُ: إذا ذهبَ. ومنه قولهم: بَرحَ الخفاء، اي: ذهبَ. وإذا دخَلَ حرف النفي على بَرح صار من أخوات كان التي ترفع الاسم وتنصبُ الخبر. ووقع هذا اللفظ في غير كتاب مسلم: «هل رأى أحدٌ منكم الليلة رؤيا» بدل: «البارحة». واستدلَّ بعض الناس على أنَّ ما بعد طلوع الفجر إلى طُلوع الشمس من الليل وليس بصحيح؛ لأنه إنما أشار لليلة البارحة، لا للساعة الحاضرة بدليل هذه الرواية الصحيحة التي قال فيها: «البارحة». ومعناها: الماضية بالاتفاق، فكأنه قال: الليلة الماضية، أو المنصرمة. ولما

وعن ابن عباسٍ: أنَّ رسول الله ﷺ كان مما يقول لأصحابه: «من رأى منكم رؤيا فليقصَّها أَعْبُرْهَا». قال: فجاء رجلٌ فقال: يا رسول الله! رأيتُ ظُلةً تَنظِفُ السَّمنَ والعسلَ؛ فإذا الناس يتكفَّفون منها بأيديهم، فالمستكثرُ

كانت قريبةَ الانصرامِ أشارَ إليها، ولما كان هذا معلوماً اكتفي بذكر الليلة عن صفتها، ولما كانت «البارحة» صفة معلومة لليلة استعملَها غير تابعةٍ استعمال الأسماء، وكان الأصلُ الجمع بين التابع والمتبوع، فيقال: الليلة البارحة. لكن ذلك جاز لما ذكرناه.

و(قوله: كان مما يقولُ لأصحابه) قال القاضي أبو الفضل: معنى (مما) ها هنا عندهم: كثيراً ما كان يفعلُ كذا. قال ثابت في مثل هذا: كأنَّه يقول: هذا من شأنه، ودأبه، فجعل (ما) كناية عن ذلك. يُريد: ثم أدغم (من) فقال: مما يقول: وقال غيره: معنى (ما) هاهنا: ربما؛ لأن ربما تأتي للتكثير.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا كلامٌ جمليٌّ لم يحصل به بيان تفصيليٌّ؛ فإن هذا الكلامَ من السهل جملةً المتتنع تفصيلا. وبيانه بالإعراب؛ وذلك: أن اسم كان مستتر فيها يعود على النبيِّ ﷺ، وخبرها في الجملة التي بعدها، وذلك: أن (ما) من (مما) بمعنى: الذي، وهي مجرورة بـ(من) وصلتها: يقول، والعائد محذوف. وهذا المجرور: خبر المبتدأ الذي هو: من رأى منكم رؤيا؛ فإنه كلام محكيٌّ معمولٌ للقول؛ تقديره: كان رسول الله ﷺ من جملة القول الذي يقوله هذا القول. ويجوز أن تكونَ مصدريةً، ويكون تقديرها: كان النبيُّ ﷺ من جملة قوله: «مَنْ رأى منكم رؤيا» ومَنْ في كلا الوجهين: استفهام محكيٌّ. والله تعالى أعلم. وأبعدُ ما قيل فيها: قول من قال: إن (من) بمعنى: ربما؛ إذ لا يُساعده اللسان، ولا يلتئم مع تكلُّفه الكلام.

و(قوله: «فليقصَّها أَعْبُرْها») أي: ليذكر قصتها وليتتبعْ جزئياتها حتى لا يترك منها شيئاً، مأخوذ من: قصصت الأثر: إذا تتبعته. و(أعبرْها) أي: أعتبرْها وأُفسرْها. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (1). وأصله من عبرتُ النهر: إذا جُزتُ من إحدى عُدْوَتَيْه إلى الأخرى.

---

(1) سورة يوسف الآية 43

والمستقلُّ، وأرى سبباً واصلاً من السَّماء إلى الأرض، فأراك أخذتَ به، فعلوتَ، ثم أخذ به رجلٌ من بعدك، فعلا، ثم أخذ به رجلٌ آخر، فعلا، ثم أخذ به رجلٌ آخر فانقطع به ثم وُصل له فعلا. قال أبو بكر: يا رسول الله! بأبي أنت وأمِّي! والله لَتَدَعنِّي فلأعْبُرها، قال رسول الله ﷺ: «اعْبُرْها»، قال أبو بكر: أَمَّا الظُّلَّة فظلة الإسلام، وأمَّا الذي ينطف من السمن والعسل: فالقرآن حلاوته، ولينه، وأمَّا ما يتكفف الناسُ من ذلك: فالمستكثر من

و(الظُّلَّة): السَّحابة التي تُظلِّلُ من تحتها. و(تنطف): تقطر. والنُّطفة: القطرة من المائع. و(يتكفَّفون): يأخذون بأكُفِّهم، ويحتمل أن يكون معناه: يأخذون من ذلك كفايتَهم. وهذا أليقُ بقوله: فالمستكثر من ذلك والمستقلُّ. و(السبب): الحبل.

و(قوله: بأبي أنت وأمي) أي: مَفديٌّ من المكاره والمساوىء.

و(قوله: والله لَتدعنِّي فلأعْبُرَها) هذه الفاء: زائدة. و(أَعْبُرَها) منصوب بلام كي، ويصحُّ أن تكون لام الأمر فتجزم. ولا تكونُ لام القسم لما يلزم من فتحها. ومن دخول النون في فعلها.

وفيه من الفقه: جواز الحلف على الغير، وإبرار الحالف؛ فإنَّه ﷺ أجابَ طَلبَته، وأبرَّ قسمَه، فقال له: «اعْبُرْ». ويدل على تمكُّن أبي بكرٍ من علم عَبَارة الرؤيا.

ووجه عَبَارة أبي بكرٍ لهذه الرؤيا واضحةٌ، ومناسباتُها واقعةٌ، غير أنَّ النبيَّ ﷺ لما قال له: «أصبتَ بعضاً، وأخذتَ بعضاً»، ولم يُبيِّن له ما الذي أخذأ فيه. اختلفَ الناس فيه؛ فقيل: معناه: أنه قصْر في ترك بعض أجزاء الرؤيا غير مفسَّرة؛ وذلك أنه ردَّ شيئين لشيءٍ واحد؛ فإنه ردَّ السَّمنَ والعسلَ للقرآن، ولو ردَّ الحلاوة للقرآن والسَّمنَ للسُّنة، لكان أليقَ، وأنسبَ، وإلى هذا أشار الطحاويُّ.

قال الشيخ رحمه الله: وفي هذا بعدٌ، ويرد عليه مؤاخذات يطولُ تتبعها.

وقال بعضهم: إن المنام يدلُّ على خلع عثمان، لأنه الثالث الذي أخذ بالسبب فانقطعَ به؛ غير أنه لم يوصل له بعَوْدِ الخلافة؛ فإنه قُتلَ، وإنما وُصلَ لغيره، وهو عليٌّ - رضي الله عنهما -.

القرآن والمستقلُّ. وأمَّا السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فالحقُّ الذي أنت عليه؛ تأخذُ به فيعليك الله، ثم يأخذُ به أجل من بعدك، فيعلو به، ثم يأخذ به رجلٌ آخر فيعلو به، ثمَّ يأخذُ به رجلٌ آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أخطأت أم أصبت؟ قال رسول الله ﷺ: «أصبتَ بعضاً، وأخطأت بعضاً»، قال: فوالله يا رسول الله! لتحدّثنّي بالذي أخطأتُ ـ قال: «لا تُقْسِمْ».

رواه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ وابن ماجه.

* * *

قال الشيخ رحمه الله: وهذا إنما يصحُّ إذا لم يُرو في الحديث: (له) من (وُصل له) على ها نبَّه عليه القاضي فإنه قال: ليس فيها (له). وإنما هو: (وُصل) فقط. وعلى هذا يمكن أن يُنسبَ الخطأ إلى هذا المعنى؛ لأنه تأوَّلَ الوصلَ له وهو لغيره، لكنَّ الرواية الصحيحة والموجود في الأصول التي وقفتُ عليها ثبوت (له)، وعلى هذا فإنما وُصِلَ له بالشهادة والكرامة التي أعدَّها الله تعالى له في الدار الآخرة، وتأوَّلها أبو بكر ـ رضي الله عنه على الخلافة. والله تعالى أعلم. وبعد هذا فأقول: إن تكلُّفَ إبداء ذلك الخطأ الذي سكت عنه النبيُّ ﷺ ولم يعلمْه أبو بكرٍ، ولا مَنْ كان هناك من أكابر الصحابة وعلمائهم ـ رضي الله عنهم ـ جرأةٌ نستغفرُ الله تعالى منها، وإنما لم يُعيِّنْ ذلك النبيُّ ﷺ أنه ليس من الأحكام التي أُمرَ بتبليغها، ولا أرهقتْ إليه حاجةٌ، ولعلَّه لو عَيَّن ما أخطأ فيه لأفضى ذلك إلى الكلام في الخلافة، ومَّنْ تتمُّ له، ومن لا تتم له، فتنفرُ لذلك نفوسٌ، وتتألَّم قلوبٌ، وتطرأ منه مفاسدُ، فسدَّ النبيُّ ﷺ ذلك الباب. والله تعالى أعلم بالصواب.

و(قوله ﷺ لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «لا تقْسِمْ») مع أنه قد أقسم. معناه: لا تعدْ للقسم. ففيه: ما يدلُّ على أن أمرَ النبيِّ ﷺ بإبرار المُقْسِم ليس بواجبٍ وإنما هو مندوب إليه إذا لم يعارضْه ما هو أولى منه.

* * *

باب فيما رأى النبيُّ ﷺ في نومه

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلةٍ فيما يرى النائم كأنَّا في دار عقبة بن رافع، فأُتيْنَا برُطَب من رطب ابن طاب، فأولتُ الرِّفعةَ لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأنَّ ديننا قد طاب».

رواه مسلم.

ومن باب: ما رأى النبيُّ ﷺ في نومه

حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ هذا وتاويله دليلٌ: على أن تعبير الرؤيا قد تُوخذ من اشتقاق كلماتها؛ فإنه ﷺ أخذ من عقبة: حسن العاقبة، ومن رافع: الرفعة، ومن رطب بن طاب: لذاذة الدّين وكماله. وقد قال علماءُ أهل العَبارة أن لها أربعة طرق.

أحدها: ما يشتق من الأسماء كما ذكرناه آنفا.

وثانيها: ما يعبره مثاله، ويميز شكله كدلالة معلم الكتَّاب على القاضي، والسلطان، وصاحب السجن، ورأس السفينة، وعلى الوصيِّ والوالد.

وثالثها: ما يعبره المعنى المقصود من ذلك الشيء المرئيِّ، كدلالة فِعْل السَّفْر على السَّفر، وفعل السوق على المعيشة، وفعل الدار على الزوجة والجارية.

ورابعها: التعبير بما تقدم له ذكر في القرآن والسنة أو الشعر، أو كلام العرب وأمثالها. وكلام الناس وأمثالهم، أو خبر معروف، أو كلمة حكمة، وذلك كنحو تعبير الخشب بالمنافق، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهم خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [1]. وكتعبير الفأر بفاسق؛ لأنَّه ﷺ سماه: فويسقاً. وكتعبير القارورة بالمرأة؛ لقوله ﷺ: «رفقاً بالقوارير» [2]. يعني: ضَعَفَةَ النساء، وتتبع أمثلة ما ذكر يطول.

---

(1) سورة المنافقون الآية 4

(2) رواه الحميدي في مسنده (1209) بلفظ: «رفقاً قوداً بالقوارير»

وعن عبد الله بن عمر، أنَّ رسولَ الله قالَ : «أراني في المنام أتسوَّكُ بسواكٍ، فجذبني رجلان؛ أحدهما أكبرُ من الآخر، فناولتُ السِّواك الأصغر منْها، فقيل لي: كبِّر؛ فرفعته إلى الأكبر».

رواه البخاريُّ ومسلم.

وعن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قال: رأيتُ في المنام أنِّي أهاجر من مكة إلى أرض بها نخلٌ، فذهبَ وَهَلي إلى أنَّها اليمامة، أو هَجَرُ، فإذا هي المدينة - يثرب - .....

و(قوله ﷺ: «أريت في المنام أني أهاجر إلى أرضٍ بها نخلٌ») هذا يدلُّ: على أن هذه الرؤيا وقعت له وهوبمكة قبل الهجرة، وأن الله تعالي أطلعه بها على ما يكون من حاله وحال أصحابه يوم أُحُد، وبأنهم يصاب من صدورهم معه، وأن الله تعالى يثبتهم بعد ذلك، ويجمع كلمتهم، ويُقيم أمرهم، ويعزُّ دينهم، وقد كمَّل اللَّه تعالى له ذلك بعد بدرٍ الثانية. وهي المرادةُ في هذا الحديث على ما يأتي بيانه - إن شاء الله -.

و(قوله: «فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة، أو هجر، فإذا هي المدينة») أي: ذهب وهمي وظنِّي. والوَهَلُ - بفتح الهاء - : ما يقع في خاطر الإنسان، ويهمُّ به. وقد يكون في موضعٍ، آخر: الغلط، وليس مرادا - هنا بوجه، لأنه لم يجزم بأنها واحدة منهما وإنما جوَّز ذلك؛ إذ ليس في المنام ما يدَّلُ على التعيين، وإنما أُريَ أرضاً ذات نخلٍ، فخطر له ذلك الموضعان لكونهما من أكثر البلاد نخلاً، ثم إنه أمَّا هاجر إلى المدينة تعيَّنت له تلك الأرض، فأخبر عنها بعد هجرته إليها بقوله: «فإذا هي المدينة».

ففيه ما يدلُّ: على أن الرؤيا قد تقعُ موافقةً لظاهرها من غير تأويل. وأن الرؤيا قبل وقوعها لا يقطعُ الإنسانُ بتأويلها، وإنما هي: ظنٌّ وحدسٌ؛ إلا فيما كان منها وحياً للأنبياء، كما وقع لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في قوله لابنه: ﴿**إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾ (1)؛ فإن ذلك لا يكون إلا عن يقين يحصلُ لهم قطعاً، خلافاً لمن قال من

---

(1) سورة الصافات الآية 102

ورأيتُ في رؤياي هذه أني هززتُ سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحدٍ، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء

أهل البدع: إن ذلك كان منه ظناً وحسباناً، وهو قولٌ باطلٌ؛ لأنه لم يكن ليقدَم على معصوم الدم ـ قطعاً ـ محبوب شرعاً وطبعاً بمنام لا أصل له ولا تحقيق فيه.

(وقوله: «ورأيت في رؤياي هذه: أني هززتُ سيفاً فانقطع صدره») . هذا نصٌّ في أن رؤيته لدار هجرته، ولهذه الحالة الدالَّة على قضية يوم أحد كانت مناماً واحداً، وقد تأوَّل ﷺ السيف هنا بالقوم الذين كانوا معه، الناصرين له أخذاً من معنى السيف لأنه به يستنصر على الأعداء، ويُعتضد في اللقاء، كما يعتضد بالأنصار والأولياء. وقد يُتأوَّل على وجوه متعددة في غير هذا الموضع؛ فقد يدلُّ على والولد، والوالد، والعم، والعَصَبة، والزوجة، والسلطان، والحُجَّة القاطعة، وذلك بحسب ما يظهرُ من أحوال الرائي والمرئي، ووقت الرؤيا. وإنما تأوَّل انقطاعَ صدر السَّيف [بقتل من قتل يوم أُحُدٍ؛ لأنهم كانوا معظم صدر عسكره؛ إذ كان فيهم: عمه حمزة، وغيره من أشراف المهاجرين و،الأنصار، فاقتبس صدر القوم من صدر السيف] والقطع الذي رُئي فيه قطع أعمار المقتولين. وهزُّه للسيف: هو حمله إياهم على الجهاد، وحثُّهم عليه. والرواية الصحيحة الفصيحة هي: هززته بزايين، وتاء مثناة من فوق. وقد قاله بعضُ الرواة بزاي واحدة مشدَّدة، وتاء مخففة؛ فيقول: هزَّته، وقيل: هي لغة بكر بن وائل.

و(قوله: «ثم هززته أخرى فعاد أحسنَ ما كان، فإذا هو ما جاء اللَّهُ به من الفتح، واجتماع المؤمنين») يعني به ـ والله أعلم ـ ما صنع اللَّهُ لهم بعد أُحُد، وذلك: أنهم لم ينكلوا عن الجهاد، ولا ضعفوا، ولا استكانوا لما أصابهم يومَ أحُدٍ لكن جدَّدوا نياتهم، وقوَّوْا إيمانهم وعَزَماتهم، واجتمعت على ذلك جماعاتُهم، وصحَّت في ذلك رغباتُهم، فخرجوا على ما بهم من الضعف والجراح فغزوا غزوة حمراء الأسد مستظهرين على عدوهم بالقوة والجَلَد، ثم فتح الله تعال عليهم، ونصرهم في غزوة بني النضير، ثم في غزوة ذات الرِّقاع، ثم لم يزل اللهُ تعالى يجمع المومنين، ويكثرهم،

الله به من الفتح واجتماع المومنين. ورأيتُ أيضاً فيها بقراً، واللهُ خيرٌ، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعدُ، وثواب الصدق الذي آتانا الله بعدَ يومِ بدرٍ».

رواه مسلم وابن ماجه.

ويفتح عليهم إلى بدرٍ الثانية، وكانت في شعبان من السنة الرابعة من الهجرة، وبعد تسعة أشهر ونصف شهر من أُحُد، فما فتح الله عليه به في هذه المدة هو المرادُ هنا كما يأتي.

و(قوله: «ورأيتُ فيها أيضاً بقراً، والله خيرٌ») الضمير في (فيها) عائد على الرؤيا المذكورة. والرواية المشهورة برفع (اللهُ - و - خيرٌ) على الابتداء والخبر. أي: ثوابُ الله خيرٌ للنفر المقتولين بالشهادة، ولمن أصيب بهم بأجر المصيبة، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ تقديره: ورأيت والله بقراً تُنحر. على إعمال (رأيت) في (بقراً) وعلى خفض اسم الله تعالى على القسم. وهكذا روى الخبرَ ابنُ هشام. وسُمِّيَ ذلك خيراً على جهة التفاؤل.

قال الشيخ رحمه الله: والأول أوضح، وأبعد من الاعتراض.

و(قوله: فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحدٍ») يحتمل أن يكون أخذ النفر من لفظ: بقر - مصحفاً -؛ إذ لفظهما واحدٌ، وليس بينهما إلا اختلاف النقط، فيكون هذا تنبيهاً على طريق خامسٍ في طريق العَبَارة المتقدمة. ويحتمل أن يكون أخذ ذلك من أنَّ الرجال المقاتلة في الحرب يشبهون لما معها من أسلحتها التي هي قرونها، ولمدافعتها بها، ومناطحتها بعضاً لبعضٍ بها، وقد كانت العربُ تستعملُ القرونَ في الرماح عند عدم الأسنة. والله تعالى أعلم، وكأن هولاء المؤمنين الذي عبر عنهم بالنفر غير المومنين بصدر السيف، فكأنَّ أولئك صدر الكتيبة، وهؤلاء مقاتلتها، والكلُّ من خير الشهداء، وأفضل الفضلاء.

و(قوله: «فإذا هو ما جاد الله به من الخير بعد») هكذا صحَّت الرواية بضم (بعد) على قطعه عن الإضافة. ويعني به ما أصيبوا به يوم أُحدٍ. والعامل فيه (جاء) و(الخير): هو الذي ذكرناه آنفاً.

وعن ابن عباسٍ قال: قدم مُسيلمَةُ الكذَّابُ على عهد رسول الله ﷺ المدينةَ، فجعَل يقول: إنْ جعل لي محمدٌ الأمر من بعده تبعْتُهُ، فقدمها في بشرٍ كثيرٍ من قومه، فأقبل إليه النبيُّ ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شمَّاس

و(قوله: «وثواب الصِّدق الذي آتانا الله بَعْدَ يوم بدرٍ») كذا صحت الرواية: (بعدَ) منصوباً على الظرف المعرب المضاف إلى (يوم بدرٍ)، [والعامل فيه: (آتانا) . فهذان أمران مختلفان أوتيهما في وقتين مختلفين. أحدهما: بعد أُحُد، والثاني: بعد بدرٍ]؛ مع أنهما مرتَّبان على ما جرى في أحد، فيستحيل أن يكون يوم بدرٍ هنا هو يوم غزوة بدر الكبرى؛ لتقدُّم بدرٍ الكبرى على أُحدٍ بزمانٍ طويلٍ؛ لأنه ﷺ خرج إلى بدرٍ الأولى في شهر رمضان في السَّنة الثانية من الهجرة. وكانت أُحُدٌ في السنة الثالثة في النصف من شوَّالها، ولذلك قال علماؤنا: إن يوم بدرٍ في هذا الحديث هو يوم بدرٍ الثاني، وكان من أمرها: أنَّ قريشاً لما أصابت في أحدٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ ما أصابت، وأخذوا في الرُّجوع نادى أبو سفيان يُسْمِعُ النبيَّ ﷺ فقال: موعدكم يوم بدرٍ في العام المقبل، فأمر النبيُّ ﷺ بعضَ أصحابه أن يجيبَه بنَعَم؛ فلمَّا كان العامُ المقبل - وهي السنة الرابعة من الهجرة - خرج في شعبانها إلى بدرٍ الثانية، فوصل إلى بدرٍ، وأقام هناك ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى بلغ عُسفان. ثمَّ: إنَّهم غلبهم الخوف، فرجعوا، واعتذروا بأنَّ العامَ عامُ جدب. وكان عذراً محتاجاً إلى عذرٍ، فأخزى اللهُ المشركين، ونصر المومنين. ثمَّ: إنَّ النبيَّ ﷺ لم يزل منصوراً، وبما يفتح الله عليه مسروراً، إلى أن أظهر اللهُ تعالى دينه على الأديان، وأخمد كلمة الكفر والطغيان.

و(قول ابن عباسٍ - رضي الله عنهما -: قدم مسيلمةُ الكذَّاب على عهد رسول الله ﷺ المدينة، فجعل يقول: إنْ جَعَل لي محمَّدٌ الأمرَ من بعده تبعتُه) . مسيلمة هذا هو: ابن ثُمامة بن كثير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن عثمان بن الحارث بن ذُهْل بن الدُّوْلُ بن حنيفة. قال ابنُ إسحاق: وكان من شأنه: أنه تنبأ على عهد رسول الله ﷺ سنة عشرٍ، وكان يشهد: أن لا إله إلا الله وأن محمَداً عبده ورسوله، ويزعم: أنَّه شريك معه في نبوَّته. وقال سعيد بن المسيِّب: إنَّه كان قد تسمَّى بالرحمن قبل أن يولد عبد الله بن عبد المطلب - أبو النبي ﷺ -، وأنَّه قُتِل وهو

ابن خمسين ومئة سنة. قال سعيد بن جبير: كان رسول الله ﷺ إذا قال: «بسم الله الرحمن الرَّحيم»؛ قالت قريشٌ: إنَّما يعني: مسيلمة. قال ابن إسحاق: وإنَّه تسارع إليه بنو حنيفة. وأنَّه بعث برجلين من قومه بكتاب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمَّدٍ رسول الله، سلام عليك؛ أما بعد: فإنِّي أُشرِكْتُ معك في الأمر، فلي نصفُ الأرض، ولك نصفُها، ولكن قريس قومٌ لا يعدلون. فلمَّا قرأ رسول الله ﷺ الكتاب؛ قال للرَّسولين: «ما تقولان أنتما؟» قالا: نقول ما قال صاحبنا. فقال رسولُ الله ﷺ: «لولا أنَّ الرُّسل لا تُقْتَل لقتلتكما»، ثم كتب رسولُ الله ﷺ: «باسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسول الله إلى مسيلمة الكذَّاب، سلامٌ على مَن اتَّبع الهدى، أمَّا بعد: فـ: ﴿**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (1) فلما انتهى الكتاب إليه انكسر بعض الانكسار، وقالت بنو حنيفة: لا نرى محمّداً أقرَّ بشركة صاحبنا في الأمر.

قال ابن إسحاق: تنبأ على عهد رسول الله ﷺ مسيلمة، وصاحب صنعاء: الأسود بن عزة العنسيُّ، وطُليحة، وسَجَاح التميمية جاءت إلي مسيلمة فقالت له: ما أوحي إليك؟ قال: أوحي إليَّ: ألم تر إلى ربِّك كيف خلقَ الحُبْلى، أخرج منها نسمةً تسعى بين صفاقٍ وحشا. قالت: وماذا؟ فقال: ألم تر أنَّ الله خلق [للنساء أفراجاً] وخلق الرِّجال لهنَّ أزواجاً، فيولج فيهنَّ قُعْساً إيلاجاً، ثمَّ يخرجه إذا استمنى إخراجاً. فقالت: أشهد أنَّك نبيٌّ! قال: هل لك أن أتزوَّجك، فآكل بقومي وقومك العرب؟ فتزوَّجته، فنادى مناديها: الا إنَّا أصبنا الدِّين في بني حنيفة. ونادى منادي بني حنيفة: ألا إنَّ نبيَّنا تزوج نبيتكم. وقالت له: يا أبا ثمامة! ضعْ عن قومي هاتين الطويلتين؛ صلاة الفجر، وصلاة العشاء الآخرة. فخرج مناديه فنادى بذلك. فقال شيخٌ من بني تميم: جزى الله أبا ثمامة عنَّا خيراً، فوالله: لقد كاد ثقلهما علينا يوتغنا عن ديننا.

(1) سورة الأعراف الآية 128

قال غيرُ ابن إسحاق: ولما استفحل أمرُ مسيلمة قَدم المدينة في بَشَرٍ كثيرٍ، ونزل على عبد الله بن أبيٍّ، فجاءه النبيُّ ﷺ كما ذكر ابن عباس، وفي غير حديث ابن عباس: أنَّ مسيلمة جاء إلى النبيِّ ﷺ. وفي حديثٍ آخر: أنَّ مسيلمة كان في ظهر القوم، وأنَّ النبيَّ ﷺ سأل عنه.

قال الشيخ: فيحتمل أن يكون هذا اختلافُ أحوالٍ في قَدْمةٍ واحدة قدمها مسيلمةُ المدينة، وعند بلوغ قدومه للنَّبي ﷺ سأل عنه، ثمَّ بعد ذلك جاء كلٌّ واحدٍ منهما إلى الآخر، فاجتمعا بموضعٍ غير موضعيهما. وهذا الاحتمال أقربُ من احتمال أن يكون مسيلمةُ قدم على النبيِّ ﷺ ثلاث مرات.

ثم إنَّ مسيلمةَ رجع إلى اليمامة على حالته تلك، إلى أن توفِّي رسول الله ﷺ فعظم أمرُ مسيلمة، وأطبق أهلُ اليمامة عليه، وارتدُّوا عن الإسلام، وانضاف إليهم بشرٌ كثير من أهل الردَّة، وقويت شوكتهم، فكاتبهم أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كتباً كثيرةً يعظهم، ويذكرهم، ويحذرهم، وينذرهم إلى أن بعث لهم كتاباً مع حبيب بن عبد الله الأنصاريِّ، فقتله مسيلمة، فعند ذلك عزم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على قتالهم والمسلمون، فأمر أبو بكر خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنهما ـ وتجهز النَّاس، وعقد الراية لخالد، وصاروا إلى اليمامة، فاجتمع لمسيلمة جيشٌ عظيمٌ، وخرج إلى المسلمين، فالتقوا، وكانت بينهم حروبٌ عظيمةٌ لم يُسْمَعْ بمثلها، واستشهد فيها من قُرَّاء القرآن خَلْقٌ كثيرٌ، حتي خاف أبو بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أن يذهب من القرآن شيءٌ لكثرة مَن قُتل هناك من القراء، ثم إن الله تعالى ثبَّت المسلمين، وقتل اللَّهُ تعالى مسيلمةَ اللعين على يدي وحشيٍّ قاتل حمزة، ورماه بالحربة التي قتل بها حمزة، ثم دفَّف [1] عليه رجلٌ من الأنصار، فاخْتزَّ رأسه، وهزم اللَّهُ جيشَه وأهلكهم، وفتح اللهُ اليمامة، فدخلها خالدٌ ـ رضي الله عنه ـ واستولى على جميع ما حوته من النساء، والولدان، والأموال، وأظهر الله الدين، وجعل العاقبة للمتقين، فالحمد لله الذي صدقنا وعده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيئ بعده، ورنما جاد النبيُّ ﷺ إلى مسيلمة ليبلغه الدعوة، وليسمع قولَه بالمشافهة.

(1) أي: جرحه جرحاً مميتاً وزجهزه عليه.

أصحابه. قال: «لو سألْتَني هذه القطعة ماأعطيتكها، ولن أتعدَّى أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليَعْقِرَنَّك الله،وإني لأراك الذي أريت فيك ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عنِّي» ثم انصرف عنه، فقال ابن عباس: فسألت عن

و(قوله ﷺ: «ولن أتعدَّى أمر الله فيك») كذا في جميع نسخ كتاب مسلم، وفي البخاري. «ولن تعدوَ أمر الله فيك»، وكلاهما صحيح. ومعنى الأول: أن الله تعالى أمر نبيَّه ﷺ أن يغلِّظ القولَ لمسيلة، وأن يُصرِّح بتكذيبه، وأن يخبره بأنه لا يبلغ أمله فيما يريده من التشريك في الرسالة، ولا في الأرض، فلم يتعدَّ النبيُّ ﷺ ذلك. إذ قد فعل كل ذلك. ويحتمل أنه يريدُ بالأمر: ما كتب الله [عليه من الشِّقوة، وما سمعه عليه من الكذب والتكذيب، والأفعال القبيحة. أي: لا أقدر أن أردَّ ما كتب الله] عليك من ذلك؛ غير أن هذا المعنى أظهر من لفظ البخاري منه من لفظ كتاب مسلم.

و(قوله: «ولئن أدبرتَ ليعقرنك الله) أي: لَيُهْلِكَنَّك اللَّهُ بالعقر ـ وهو القتل ـ إن لم تتَّبعني. وكذلك كان كما ذكرناه. فكان هذا من دلائل نبوة محمد نبيِّنا ﷺ وصحة رسالته.

و(قوله ﷺ: «وهذا ثابتٌ يجيبكَ عنِّ») يعني: ثابت بن قيس بن شمَّاس، خطيب رسول الله ﷺ، فكأن النبيَّ ﷺ وجد على مسيلمة في نفسه، فأعرض عنه إعراضَ المحتقر له، المصغِّر لشأنه، وأحال على ثابت لعلمه بأنه يقوم عنه بجواب كل ما يسألونه عنه، إذ كان من أفضل الناس، وأكملهم عقلاً، وأفصحهم لساناً وكان مع ذلك جَهْوَرِيَّ الصوت، حسن النغمة، فكان يقوم بالحجة، ويبالغ في إيراد الخطبة.

و(قوله: «إني لأراك الذي أريت فيه ما أريت») الرواية أُراك ـ بضم الهمزة ـ؛ بمعنى أظنك، على ما قد حصل لهذه الصيغة من غلبة عُرْف الاستعمال، وقد قرَّرنا: أن أصل (أُرَى) من (رأى) بمعنى: علم، أو أبصر، أدخلت عليه همزة التعدية، وبُنيت لما لم يُسَمَّ فاعلُه، وعلى هذا فيصحُّ أن تكون هنا بمعنى العلم. فيكون معناه: إني لأعلم أنك الذي أريت فيه ما أريت، وهذا أوْلى بحال النبي ﷺ فإنَّ رُؤْياه حقٌّ، وتأويله لا يجوزُ عليه الغلط، بخلاف غيره، والله تعالى أعلم.

قول رسول الله ﷺ : «إنك أرى الذي أريتُ فيك ما رأيت، فأخبرني أبو هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بينما أنا نائم رأيت في يَديَّ سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنُهما، فَأُوحيَ إليَّ في المنام: أن انفخهما. فنفختهما، فطارا، . . .

و(قوله: «بينا أنا نائمٌ رأيت في يَدَيَّ سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنهما») السوار: ما تجعله المرأة في ذراعها مما تتحلَّى به من الذهب والفضة، وفيه ثلاث لغات: كسر السِّين، وضمها، وبهمزة مضمومة، فيقال: أُسوار ويجمع أساورةً، فأما أساورة الفرس فَقُوَّادهم. وإنما أهمَّة شأنها؛ أعني: السوارين لأنهما من حلية النساء، ومما يحرم على الرجال.

و(قوله: «فأوحي إليَّ: أن انفخهما. فنفختُهما، فطارا») ظاهرةُ: أنَّ هذا وحيٌ من جهة المَلَكِ على غالب عادته. ويحتمل أن يكون ذلك إلهاماً.

و(قوله: «فأوَّلتهما: كذَّابَيْن يخرجان بعدي») أي: يظهران ويغلبان بعد موتي، وإلا فقد كانا موجودين في حياة النبيِّ ﷺ متَّبَعَيْن، وقد دأَ على هذا قولُه في الرواية الأخرى: «فأوَّلْتُهما الكذَّابَيْن اللذين أنا بينهما». ووجهُ مناسبة هذا التأويل لهذه الرؤيا: أن أهلَ صنعاء وأهلَ اليمامة كانا قد أسلما، وكانا كالسَّاعدين للإسلام، فلما ظهر فيهما هذان الكذَّابان، وتبهرجا لهما بترَّهاتهما، وزخرفا أقوالهما، فانخدع الفريقان بتلك البهرجة، فكان البَلَدان للنبيِّ ﷺ بمنزلة يديه؛ لأنه كان يعتضدُ بهما. والسِّواران فيهما هما: مسيلمة، وصاحب صنعاء بما زخرفا من أقوالهما. ونفخُ النبيِّ ﷺ: هو أن الله أهلكهما على أيدي أهل دينه، كما ذكرناه في شأن مسيلمة. وأما صاحب صنعاء فهو الأسودبن كعب، ويلقَّب بذي حمار؛ وسبب هذا اللقب ـ على ما قاله ابنُ إسحاق ـ: أنه لقيه حمار، فعثر، فسقط لوجهه، فقال: سجد لي الحمار. فارتد عن الإسلام، وأدَّعى النبوة، ومخرق على الجهَّال فاتبعوه، وغلب على صنعاء، وأخرج منها المهاجر بن أسد المخزومي، وكان عاملاً لرسول الله ﷺ عليها، وانتشر أمره، وغلب على امرأة مُسْلِمة من الأساورة، فتزوجها فدسَّت إلى قوم من الأساورة: أني قد صنعت سرباً يوصل منه إلى مرقد الأسود فدلَّتهم على ذلك، فدخل منه قومٌ، منهم فيرُوز الديلمي، وقيس بن مكشوحٍ، فقتلوه، وجاؤوا برأسه إلى رسول الله ﷺ -

فأوّلتُهما: كذابين يخرجان بعدي. فكان أحدُهما: العنسيَّ صاحب صنعاء، والآخر: مسيلمة صاحب اليمامة».

رواه البخاريُّ ومسلم.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم أتيتُ خزائن الأرض فَوُضِعَ في يدَيَّ أُسْواريْن من ذهبٍ، فكبُرا عليَّ، وأهمّاني، فأوحى إلي أن انفخهما، فنفختهما، فذهبا. فأوّلْتُهما الكذابَيْنِ اللَّذيْن أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة».

رواه البخاريُّ ومسلم.

* * *

على ما قاله ابنُ إسحاق ـ. وقال وثيمة [1]: ومنهم من يقول: كان ذلك في خلافة أبي بكرٍ رضي الله عنه ـ.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا هو الصحيح ـ إن شاء الله تعالى ـ؛ لقوله ﷺ: «يخرجان بعدي» أي: بعد وفاتي، والله أعلم.

* * *

(1) هو وثيمة بن موسى بن الفرات المعروف بالوشاء. مؤرخ، له كتاب في «أخبار الردة». توفي سنة (237 هـ).

كتاب النبوات
وفضائل نبينا محمدٍ ﷺ

باب كونه مختاراً من خيار الناس في الدنيا وسيدهم يوم القيامة

عن واثلةَ بنِ الأسقع قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفي من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

كتاب النبوات

قد تقدَّم الكلام في النبوة غير ما مرةٍ.

و(قوله: «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل») اصطفى: اختار، وصفوة الشيء: خياره، ووزنه: افتعل، والطاء فيه بدلٌ من التاء لقرب مخرجيهما. ومعنى اختيار الله تعالى لمن شاء من خَلْقه: تخصيصه إياه بصفات كمال نوعه، وجعله إياه أصلاً لذلك النوع، وإكرامه له على ما سبق في عمله، ونافذ حكمه، من غير وجوب عليه ولا إجبار، بل على ما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[1]. وقد اصطفى الله تعالى من هذا الجنس الحيواني نوعَ بني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2]. ويكفيك من ذلك كله: أن الله تعالى خلق العالم كلَّه لأجله، كما قد صرح بذلك

---

(1) سورة القصص الآية 68
(2) سورة الاسراء الآية 70

وعن أبي هريرةٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يوم القيامة،

عنه لما قال تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ** ﴾ (1). ثم إن الله تعالى اختار من هذا النوع الإنساني مَن جعله مَعْدِن نبوته، ومحلّ رسالته، فأوّلهم: آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ثم إن الله تعالى اختار من نطفته نطفة كريمة، فلم يزلْ ينقلها من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، فكان منها الأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿ * **إِنَّ اللهَ اصْطَفَى ءَادَمَ ونوحاً وَءالَ إِبْرَاهِيمَ وَءالَ عِمْرانَ عَلَى الْعَٰلَمِينَ * ذُرِيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾(2)، ثم إن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وإسحاق كما قال: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ** ﴾(3). ثم إن الله تعالى اصطفى من ولد إسماعيل كنانة كما ذكرهم النبيُّ ﷺ في هذا الحديث. ثم إن الله تعالى ختمهم بختامهم، وأمَّهم بإمامهم، وشرّفهم بصد كتيبتهم، وبيت قصيدتهم، شمس ضحاها، هلال ليلتها، درِّ تقاصيرها (4)، زبرجدها، وهو محمد ﷺ أخَّره عن الأنبياء زماناً، وقدَّمه عليهم رتبةً ومكاناً. جعله اللهُ واسطةَ النظام، وكمَّل بكماله أولئك الملأ الكروام، وخصَّه من بينهم بالمقام المحمود، في اليوم المشهود، فهو شفيعُهم إذا استشفعوا، وقائدهم إذا وفدوا، وخطيبهم إذا جُمِعُوا، وسيِّدهم إذا ذكروا، فاقتبس من الخبر عيونه، فبيده لواء الحمد، تحته آدم فمن دون، ويكفيك أُثْرَةً وكرامةً: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة». والسيد: اسم فاعل، من ساد قومه؛ إذا تقدَّمهم بما فيه من خصال الكمال، وبما يوليهم من الإحسان والإفضال، وأصله: سَيْود؛ لأن: ألف ساد منقلبة عن واو، بدليل: أن مضارعه يسود، فقلبوا الواو ياءً، وأدغموها في الياء، فقالوا: سيدٌ. وهذا كما فعلوا في: ميِّت. وقد تبين للعقل والعيان، ما به كان محمد ﷺ سيد نوع الانسان. وقد ثبت بصحيح الأخبار، ما له من السؤدد في تلك الدار، فمنها أنه قال: «أنا سيد ولد آدم. قال: وتدرون بِمَ ذاك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إذا

---

(1) سورة الجاثية الآية 13
(2) سورة آل عمران الآية 33 ـ 34
(3) سورة النساء الآية 163
(4) جمع تقصارة، وهي القلادة

وأوَّلُ من ينشقُّ عنه القبر، وأوَّل شافعٍ، وأوَّلُ مُشفَّعٍ».

رواه مسلم وأبو داود والترمذي

كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ». وذكر حديث الشفاعة المتقدم. ومضمونه: أن الناس كلهم إذا جمعهم موقفُ القيامة، وطال عليهم، وعظم كربُهم، طلبوا مَن يشفع لهم إلى الله تعالى في إراحتهم من موقفهم، فيبدؤون بآدم عليه السلام، فيسألونه الشفاعة، فيقول: نفسي، نفسي، لستُ لها، وهكذا يقول من سُئلها من الأنبياء، حتى ينتهي الأمرُ إلى سيدنا محمد ﷺ فيقول: «أنا لها». فيقوم في أرفع مقام، ويُخَصُّ بما لا يُحْصىَ من المعارف والإلهام، ويُنادى بألطف خطابٍ وأعظم إكرام: يا محمد! قل تسمع، وسَلْ تعطه، واشفعْ تُشَفَّع. وهذا مقامٌ لم ينله أحدٌ من الأنبياء، ولا سُمعَ بمثله لأحدٍ من الملائكة الكرام، فنسأل الله تعالى باسمه العظيم، وبوجهه الكريم أن يحيينا على شريعته، ويُميتنا على ملَّته، ويحشرنا في زمرته، ولا يجعلنا ممن ذيد عنه، وبُعِد منه.

و(قوله: «أنا أوَّل من ينشقُّ عنه القبر») يعني: أنه أوَّل من يعجَّل إحياؤه مبالغةً في إكرامه، وتخصيصاً له بتعجيل جزيل إنعامه. ويعارض هذا قوله ﷺ في حديث آخر: «أنه أول من يبعث، فيجد موسى متعلِّقاً بساق العرش». وسيأتي هذا مبيَّناً في باب: ذكر موسى عليه السلام -إن شاء الله تعالى-.

و(قوله: «وأول شافع، وأول مُشفَّع») قد تقدَّم القول في الشفاعة وأقسامها في الإيمان. ومقصودُ هذا الحديث أن يُبيِّنَ أنه لا يتقدَّمُه شافع؛ لا من الملائكة، ولا من النبِّيين، ولا من المومنين، في جميع أقسام الشفاعات، على أن الشفاعة العامة لأهل الموقف خاصَّة لا تكون لغيره. وهذه المنزلة أعظُم المراتب، وأشرفُ المناقب، وهذه الخصائص والفضائل التي حدَّث بها النبيُّ ﷺ عن نفسه؛ إنما كان ذلك منه لأنها من جملة ما أُمرَ بتبليغه؛ لما يترتب عليها من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حقٌ في نفسه، وليُرغِّبَ في الدخول في دينه، وليتمسَّكَ به من دخل فيه، وليعلمَ قدر نعمة الله عليه في أن جعلَه من أمَّة مَن هذا حالُه، ولِتَعْظُمَ محبَّتُه في قلوب مُتَّبعيه، فتكثرَ أعمالهم،

وعنه : أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من الآيات ما مثلهُ آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحْيا أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهُم تابعاً يوم القيامة». رواه البخاريُّ.

* * *

وتطيب أحوالهم، فيُحشرون في زمرته، وينالون الحظَّ الأكبرَ من كرامته. وعلى الجملة فيحصُلُ بذلك شرفُ الدنيا، وشرفُ الآخرة؛ لأن شرفَ المتبوع متعدٍّ لشرف التابع على كلِّ حال ـ فإن قيل: كل هذا راجع للاعتقاد، وكيف يحصُل القطعُ بذلك من أخبار الآحاد؟ فالجواب: أن من سمعَ شيئاً من تلك الأمور من النبيِّ ﷺ مشافهةً حصل له العلم بذلك، كما حصلَ للصحابة السامعين منه، ومن لم يشافهْه، فقد يحصُلُ له العلم بذلك، من جهة التواتر المعنويّ؛ إذ قد كثرتْ بذلك الظواهر، وأخبارُ الآحاد حتى حصلَ لسامعها العلم القطعيُّ بذلك المراد.

و(قوله: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا قد أُعطيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشرُ، ورنما كان الذي أُوتيتُه وحياً») يعني: أن كلَّ رسولٍ أُيِّد بمعجزةٍ تدلُّ على صحة رسالته، فيظهرُ صدقه، وتثبت حجَّته، كما قد عُلِمَ من أحوالهم؛ بما أخبرنا الله به وبيَّنه عنهم؛ غير أن معجزاتهم تنقرض بانقراضهم، فلا يبقى منها بعدَهم إلا الإخبارُ بها، وذلك قد يخفى مع توالي الأعصار. ونبيُّنا ﷺ وإن كان قد أُعطي من كل نوع من أنواع معجزات الأنبياء قبلَه، كما قد أوضحناه في كتابنا المسمَّى: بـ(الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام)؛ لكنَّه فُضِّل على جميعهم بالمعجزة العظمى الباقية ما بقيت الدنيا، وهي: الكتاب العزيز الذي أعجزت السورةُ منه الجنَّ والإنسَ أيَّ تعجيرٍ، فإعجازه مشاهدٌ بالعيَان؛ متجددٌ ما تعاقَبَ الجديدان، فمن ارتاب الآن في صدق قوله؛ قيل له: فائت بسورةٍ من مثله، ولما كانت هذه المعجزة قاطعة الظهور، مستمرةً مدى الدهور، اشترك في معرفتها المتقدِّمون والمتأخرون، واستوى في معرفة صدق محمد ﷺ السَّابقون واللاَّحقون، فدخل العقلاءُ في دينه دخولاً مُتتابعاً، وحقَّقَ الله تعالى له رجاءَه، فكان أكثرَ الأنبياء تابعاً.

* * *

باب شواهد نبوته ﷺ وبركته

عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بمكة كان يسلِّمُ عليَّ قبل أن أُبعث؛ إِنِّي لأعرفُه الآن».

رواه أحمد ومسلم والترمذيُّ.

ومن باب: شواهد نبوَّة نبينا محمد ﷺ

(قوله: «إني لأعرف حجراً كان يسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث») يعني: أنه كان يُسلِّم عليه بالنبوة والرسالة قبل أن يُشافهه الملكُ بالرسالة. ذكر العلماءُ بسيرة النبيِّ ﷺ وأحواله: أنه كان من لطف الله بنبيِّه ﷺ أن قدَّم له مقدِّمات، وخصَّه ببشائر وكرامات، درَّجَهُ بذلك إلى أطوارٍ؛ لينقطعَ بذلك عن مألوفات الأغمار، ويتأهَّل على تدريجٍ لقبول ما يُلقى إليه، ولتسهيل مشافهة الملك عليه، فكان ﷺ يرى ضياءً وأنواراً، ويسمع تسليماً وكلاماً، ولا يرى أشخاصاً، فيسمع الحجارة والشجر تناديه، ولا يرى أحداً يناجيه؛ إلى أن استوحش من الخَلْق، ففرَّ إلى الحق، فَحُبِّبَتْ إليه الخَلْوة، فكان سببَ هذه الحبوة، مشافهة الملك فقَبِل فَمَلَك، وقد قدَّمنا: أن الصحيحَ من مذاهب أئمتنا: أن كلام الجمادات راجعٌ إلى أن الله تعالى يخلقُ فيها أصواتاً مقطعة من غير مخارج؛ يفهم منها ما يفهم من الأصوات الخارجة من مخارج الفم، وذلك ممكنٌ في نفسه. والقدرة القديمة لا قصورَ فيها، فقد أخبر بها الصادق، فيجب له التصديق. كيف لا؟ وقد سمع من حَضَر تسبيحَ الحصى في كفِّه، وحنينَ الجذع والمسجدُ قد غصَّ بأهله.

و(قوله: «إني لأعرفه الآن») يعني: أنه ﷺ كان وقت حدَّثهم بهذا الحديث يعرف الحجر معرفةَ مَنْ كان يشاهده. وقيل: إن ذلك الحجر: هو الحجر الأسود، والله أعلم.

وعن أنس بن مالك قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وحانت صلاةُ العصر، فالتمس الناس الوَضُوء فلم يجدوه، فأُتِي رسول الله ﷺ بوَضُوءٍ، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر النَّاس أن يتوضَّؤوا منه، قال: فرأيتُ الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضّأ النَّاس؛ حتَّى توضؤوا من عند آخرهم.

وفي روايةٍ: دعا بماءٍ فأُتي بقدحٍ رَحْراحٍ، فجعل القوم يتوضَّؤون، فَحَزَرْتُ ما بين السِّتين إلى الثمانين، قال: فجعلتُ أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائي.

وعنه: أنَّ نبيَّ الله ﷺ وأصحابه بالزَّوراء، قال: (والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد فيما ثَمَّهْ) دعا بقدحٍ فيه ماء.

و(قوله: أُتي بقدح رحراحٍ) أي: واسع. ويقال: رحرح - بغير ألف -، وإناءٌ أرحُّ، وآنية رحَّاءُ؛ كلُّ ذلك بمعنى الواسع. قال ابنُ الأنباري: ويكون ذلك قصير الجدار.

و(قوله: فرأيت الماء ينبعُ من بين أصابعه) هذه المعجزة تكررت من النبيِّ ﷺ مرات عديدة في مشاهد عظيمة، وجموع كثيرة، بلغتنا بطرق صحيحة من رواية أنس، وعبد الله بن مسعود، وجابرٍ، وعمران بن حصين، وغيرهم ممن يحصل بمجموع أخبارهم العلم القطعيُّ المستفاد من التواتر المعنوي. وبهذا الطريق: حصل لنا العلمُ بأكثر معجزاته الدالة على صدق رسالاته، كما قد ذكرنا جملة ذلك في كتاب «الإعلام». وهذه المعجزة أبلغ من معجزة موسى - عليه السلام - في نبع الماء من الحجر عند ضربه بالعصا، إذ من المألوف نبعُ الماء من بعض الحجارة، فأما نَبْعُه من بين عظم ولحم وعصب ودم فشيءٌ لم يُسْمَع بمثله، ولا تُحُدِّث به عن غيره.

وفي رواية: لا يغمر أصابعه، أو قدر ما يوارى أصابعه، فوضع كفه فيه، فجعل ينبع مِنْ بين أصابعه، فتوضأ جميعُ أصحابه. قال: قُلت: كم كانوا يا أبا حمزة؟ قال: كانوا زهاءَ ثلاثمئةٍ.

رواه مسلم.

وعن جابرٍ: أنَّ أمَّ مالكٍ كانت تُهدي للنَّبيِّ ﷺ في عكَّةٍ لها سمْناً، فيأتيها بَنُوها، فيسألون الأُدم، وليس عندهم شيء، فتعْمدُ إلى الذي كانت

و(قوله: كانوا زهاء ثلاثمائة) أي: قدرها. يقال: هم زهاء كذا، ولهاء كذا - باللام - أي: قدره. وفي الحديث الأول: فحزرت ما بين الستين إلي الثمانين هذا يدلُّ على أن ذلك في موضعين:

أحدهما: بالزوراء، وهي سوقٌ بالمدينة.

والاخر: روي في بعض طرقه ما يدلُّ على أنه كان بغير الزوراء.

وقد وقع منه ﷺ مثل هذا في غزوة الحديبية على ما رواه جابر، وفي غزوة بواط من حديث غيره. و(العكة) للسمن، وهي أصغر من القربة. و(الوَسْقُ) ستون صاعاً كما تقدم في الزكاة، ونماء سمن العكة، وشطر وسق السعير كل ذلك ببركة النبيِّ ﷺ فيما لمسه، أو تناوله، أو تهمَّم به، أو بَرَّك عليه، وكم له منها، وكم! ورفع النماء من ذلك عند العصر والكيل سببه - والله أعلم - الالتفات بعين الحرص مع معاينة إدرار نعم الله تعالى، ومواهب كراماته، وكثرة بركاته، والغفلة عن الشكر عليها، والثقة بالذي وهبها، والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادة، وهذا نحو مما جرى لبني إسرائيل في التيه، لما أُنزل عليهم المنّ والسلوى. وقيل لهم: ﴿ **كُلُوا مِنَ طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَاشْكُرُوا اللهِ** ﴾ (1) فأطاعوا حرص النفس، فادخروا للأيام، فخنز اللحم، وفسد الطعام.

---

(5) سورة المائدة الآية 67

تُهدي فيه للنبيِّ ﷺ فتجد فيها سمناً، فما زال يقيم لها أُدْمَ بيتها حتى عصرتْه فأتت النَّبيَّ ﷺ فقال: «عصرْتيها؟» قالت: نعم، قال: «لو تركتيها ما زال قائماً».

رواه مسلم.

وعنه: أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطْرَ وَسْقِ شعيرٍ، فما زال الرَّجلُ يأكل منه وامرأتُه وضيفُهما حتى كَالَه، فأتى النَّبيَّ ﷺ فقال: «لو لم تكِلْه لأكلتم منه ولَقامَ لكُم».

رواه أحمد ومسلم.

وعن معاذِ بنِ جبل قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يَجْمَع الصَّلاة؛ فصلَّى الظهر والعصر جميعاً؛ والمغرب والعشاء

(قوله لصاحبة العكة: «لو تركتيها ما زال قائماً»، ولصاحب الشطر: «لو لم تكله لقام بكم») يستفاد منه: أن من أُدرَّ عليه رزقٌ، أَو أُكْرِم بكرامة، أو لُطف به في أمرٍ ما، فالمتعيَّن عليه: الشكر، ورؤية المِنَّة لله تعالى، ولا يحدث مغيِّراً في تلك الحالة، ويتركها على حالها. ومعنى رؤية المِنَّة: أن يعلمَ أن ذلك بمحض فَضْل الله، وكرمه؛ لا بحولنا، ولا بقوتنا، ولا استحقاقنا.

و(قوله: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام تبوك) هي موضعٌ معروف بطريق الشام فيه ماء. وهذه الغزوة: هي آخرُ غزاةٍ غزاها رسولُ الله ﷺ يريدُ غزوَ الروم، فخرج فيها في شهر رجب سنة تسع من الهجرة في حرٍّ شديد، لسفرٍ بعيد، وخرج معه أهلُ الصدق من المسلمين، وتخلْف عنه جميعُ المنافقين. وكانت غزوةً أظهر الله فيها من معجزات نبيه ﷺ وكراماته، ما زاد اللَّهُ المؤمنين به إيماناً، وأقام بذلك على الكافرين حجَّةً وبرهاناً.

جميعاً، حتى إذا كان يومٌ آخرُ أخَّرَ الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل، ثم خرج بعْد ذلك، فصلّى المغرب والعشاء جميعاً، ثم قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عينَ تبوك، ورنَّكم لن تأتوها حتّى يُضْحِيَ النَّهارُ، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتى آتي» فجئناها، وقد سبقنَا إليها رجُلان، والعينُ مثلُ الشِّراكِ، تَبِضُّ بشيءٍ من ماءٍ، قال: فسألهما رسولُ الله ﷺ: «هل مَسَسْتُما من مائها شيئاً؟». قالا: نعم، فسبَّهُما النَّبيُّ ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، قال: ثم غرفوا بأيديهم

و(قوله: فكان يجمع الصلاةَ فصلَى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً) ظاهرُ هذا المساق أنه أوقع الظهر والعصر في أول الوقت مجموعتين، وكذلك المغرب والعشاء؛ لأنه قال بعد ذلك: (حتى إذا كان يومٌ آخر أخرَّ الصلاة، ثم خرج، فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل، ثم خرج بعد ذلك، فصلَّى المغرب والعشاء جميعاً). وظاهره أنه آخَّر الصلاتين إلى آخر وقتهما المشترك. وهو حُجَّةٌ لمالك؛ فإنه يقول بجواز كل ذلك، على تفصيل له في الأفضل من ذلك، كما قدَّمناه، وهو أيضاً حجة للشافعيِّ عليه في اشتراطه في جواز الجمع بين الصلاتين استعجال السير، والشافعي لا يشترطه، وقد تقدَّم كل ذلك في كتاب الصلاة.

و(قوله ﷺ: «إنكم ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنكم لن تاتوها حتى يُضْحِيَ النهار») ظاهره: أن هذا منه ﷺ إخبارٌ عن غيبٍ بوحي، ويحتمل غير ذلك.

و(قوله: فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من ماءها شيئاً») إنما نهاهم عن ذلك ليظهر انفراده بالمعجزة، وتتحقق نسبتها إليه، واختصاصه بها، فإنه إذا شاركه غيره في مسّ مائها، لم يتمحض اختصاصه بها، ولذلك لما وجد الرجلين عليها؛ أمر أن يُعْرف له من مائها، وكأنه كان أراد أن يباشر الماء وهو في موضعه، لكن لما سبقه غيره إليها، جمعوا له من مائها، فغسل فيه يديه ووجهه، ثم أمر أن يعاد ذلك الماء فيها، فلما فعلوا ذلك جاءت العين بماء منهمر، وسُمع له حسٌّ كحسِّ الصواعق.

من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، قال: وغَسَلَ رسول الله ﷺ فيه يديه ووجْهَه، ثم أعاده فيه؛ فجَرَت العينُ بماءٍ مُنْهَمرٍ ـ أو قال: غزيرٍ ـ حتى استقى الناس. ثم قال: «يوشِكُ معاذُ إنْ طالتْ بِكَ حياةٌ أن ترى ما ها هنا قد مُلِيءَ جِناناً».

رواه أحمد ومسلم في الفضائل وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه.

وعن أبي حميد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فأتينا واديَ القرى على حديقةٍ لامرأة؛ فقال رسول الله ﷺ: «اخرِصوها»،

و(قوله: والعين مثل الشراك تبضُّ بشيءٍ من ماءٍ) الرواية المشهورة: تَبِضُّ، بالضاد المعجمة، أي: تسيلُ بماء قليلٍ رقيقٍ مثل شراك النعل، وقد روي بالصاد المهملة، وكذلك وقع في البخاري، أي: تبرق. يقال: بصَّ يبص بصيصاً، ووبص يبص وبيصاً بمعناه. وسبُّ النبيِّ ﷺ السابقَيْن للماء يحتملُ أن يكون: لأنهما كانا منافقَين قصدا المخالفة، فصادف السبُّ محلَّه. ويحتمل أن كانا غير منافقين، ولم يعلما بنهي النبيِّ ﷺ، ويكون سبُه لهما لم يصادفْ محلاً، فيكون ذلك لهما رحمةً وزكاةً، كما قاله ﷺ: «اللهم من لعنتُه، أو سببتُه وليس لذلك بأهلٍ، فاجعلْ ذلك له زكاة، ورحمةً، وقربةً تقرِّبه بها إليك يوم القيامة» و(المنهمر): الكثير الانصباب، و(يوشك): يجيء ويسرع. وقد تقدَّم الكلامُ عليها، و(الجنان): البستان من النخل وغيره، سمي بذلك لأنه يُجِنُّ أرضه وما تحته، أي: يستر ذلك.

وقد اشتمل هذا الحديث على معجزين عظيمتين؛ إحداهما: نبع الماء المذكور. والثانية: تعريفه بكثير من علم الغيب؛ فإن تبوك من ذلك الوقت سُكِنَتْ لأجل ذلك الماء، وغُرست بساتين، كما قال النبيُّ ﷺ.

و(قوله ﷺ لأصحابه حين مرَّ على حديقة المرأة: «اخْرِصُوها» دليل على جواز الخرص إذا احتيج إليه، وأنه طريق معتبر شرعاً. وخروج ثمرة هذه الحديقة على مقدار ما خرصه رسول الله ﷺ دليلٌ على صحة حدسه، وقوة إدراكه، وإصابته وجه الصواب

فخرصْناها، وخَرَصَها رسولُ الله ﷺ عشرة أَوْسُقٍ وقال: «أحصيها حتى نرجع إليك أن شاء الله» وانذلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «ستهُبُّ عليكم الليلةَ ريحٌ شديدةٌ. فلا يَقُمْ فيها أحدٌ منكم، فمن كان له بعيرٌ فليشدَّ عقالَه». فهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ، فقال رجلٌ فحملَتهُ الرِّيحُ حتى ألقَتْهُ بجبليْ طيِّءٍ، وجاء رسول ابنِ العَلْماءِ صاحبِ أيْلَةَ إلى رسول الله ﷺ

فيما كان يُحاوله. ولا يُعارَضُ هذا بحديث إبار النخل؛ فإن الله تعالى قد أجرى عادةً ثابتةً متكررةً في إبار النخل لم يعلمها النبيُّ ﷺ، فقال: «ما أرى هذا يغني شيئاً» يعني الإبار، وصَدَق؛ فإن الله تعالى هو الذي يمسكُ الثمرةَ ويطيِّبها إذا شاء؛ لا الإبار، ولا غيره، بخلاف الوصول إلى المقادير بالخرص؛ فإن الغالب فيه من الممارسين له التقريب لا التحقيق. وقد أخبر النبيُّ ﷺ بمقدار ذلك على التحقيق، فَوُجد كما أخبر، فإن كان هذا منه عن حدْس وتخمينٍ، كان دليلاً: على أنه قد خُصَّ من ذلك بشيءٍ لم يصلْ إليه غيره، وإن كان ذلك بالوحي، كان ذلك من شواهد نبوته ﷺ.

(وقوله: «ستهبُّ عليكم ريحٌ شديدة») من المعجزات الغيبية، وهي من الكثرة بحيث لا تحصى، يحصل بمجموعها العلم القطعي بأن النبيَّ ﷺ كان يعلمُ كثيراً من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، أو مَنِ ارتضاه من الرسل فأصلعه الله عليه، والنبيُّ ﷺ قد أطلعه اللهُ عليه، فهو رسولٌ من أفضل الرسل.

و(قوله: «فلا يَقُمْ فيها أحدٌ، ومن كان له بعيرٌ فليشدَّ عقاله») دليلٌ على الأخذ بالحزم، والحذر في النفوس، والأموال، ومَنْ أهمل شيئاً من الأسباب المعتادة، زاعماً أنه متوكل، فقد غلط؛ فإن التوكل لا يناقض التحرُّز، بل: حقيقتُه لا تتم إلا لمن جمع بين الاجتهاد في العمل على سُنَّة الله، وبين التفويض إلى الله تعالى، كما فعل رسولُ الله ﷺ.

وابن العَلماء: هو بفتح العين المهملة وسكون اللام، والمدِّ، وهو تأنيث الأعلم، وهو المشقوق الشفة العليا، والأفلح: هو المشقوق الشفة السفلى. وصاحب أيلة: يعني به: ملكها. وأيلة: بلد معروف بالشام، وإليه تُنسب عَقَبة أيلة.

بكتاب، وأهدى لهُ بغْلةَ بيضاءَ، فكتب إليه رسول الله ﷺ ـ في رواية: ببحْرهم ـ. وأهدى له برداً، ثم أَقْبلنا حتى قدمنا واديَ القُرى، فسألَ رسول الله ﷺ المرأةَ عن حديقتها: «كم بَلَغَ ثمرُها؟» فقالتْ: عشرْةَ أوْسُقٍ، فقال رسول الله ﷺ: «إني مسرعٌ، فمن شاء منكم فليسرع معيَ، ومن شاء فليمكثْ» فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة، فقال: «هذه طابة، وهذا أُحُدٌ، وهو جبل يُحبُّنا ونحبُّه، ثم قال: «إنَّ خير دور الأنصار دارُ بني

(وقوله: وأهدى له بغلةً بيضاء) هذه البغلة قبلها النبي ﷺ وبقيت عنده زماناً طويلاً، ولم تكن له بغلةٌ غيرها، وكانت تسمَّى: الدُّلْدُل، وفيه دليلٌ على قبول هدية الكتابيِّ، وقد تقدَّم القولُ فيه، وفي قوله: «هذا جبل يُحبُّنا ونحبُّه» وفي: «طابة».

و(قوله: فكتب له رسولُ الله ﷺ ببحرهم، وأهدى له برداً) البحر هنا: يُراد به البلد، والبحار: القرى، وقد تقدم. وكأن النبيَّ ﷺ أقطعه بعضَ تلك البلاد، كما قد أقطع تميماً الداريَّ ـ رضي الله عنه ـ بلد الخليل ﷺ قبل فتحه. ويظهر من حال ابن العَلْمَاء أنه استشعر، أو عَلِمَ أنَّ النبيَّ ﷺ سيظهر، ويغلب على ما تحت يده هو من البلاد، فسأله أن يقطعه بعضها. والله أعلم. وأما إهداؤه البرد فمكافأة، ومواصلة، واستئلاف ليدخل في دين الإسلام، وكأن النبيَّ ﷺ لم يحضره في ذلك الوقت إلا ذلك البرد. والله أعلم.

و(قوله: «إن خير دور الأنصار: دار بني النجار، ثم دار بني عبد الأشهل... الحديث إلى آخره») يدلُّ على: جواز تفضيل بعض المعينين على بعض من غير الأنبياء، وإن سمع ذلك المفضول. وقد تقدَّم القولُ في تفضيل الأنبياء. و(الدُّور) جمع دار، وهو في الأصل: المحلة والمنزل، وعبَّر به هنا عن القبائل، وهذا نحو قوله: أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، أي في القبائل والمحلات. وفيه ما يدلُّ على جواز المدح إذا قُصد به الإخبارُ بالحقِّ، ودَعَتْ إلى ذلك حاجة، وأُمنَت الفتنةُ على الممدوح. وفيه دليلٌ على جواز المنافسة في الخير، والدين، والثواب، كما قال سعد: يا رسول الله ﷺ! خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً. طلب أن يلحقهم بالطبقة الأولى. فأجابه بأن قال: «أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار؟». وإنما

النَّجارِ، ثمَّ دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة؛ وفي كل دور الأنصار خير». فلَحقَنَا سعدُ بنُ عبادةَ فقال أبو أُسَيْد: ألم تر أنَّ رسول الله ﷺ خيرَّ دورَ الأنصار فجعلنا آخراً، فأدرك سعدٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله! خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا أخراً، فقال: «أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار؟».

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم في الفضائل وأبو داود.

* * *

يعني بذلك: أن تفضيلهم إنما هو بحسب سبقهم إلى الإسلام، وظهور آثارهم فيه، وتلك الأمور وقعتْ في الوجود مرتبةً على حسب ما شاء الله تعالى في الأزل، وإذا كان كذلك لم يتقدَّم متأخِّر منهم على منزلته، كما لا يتأخر متقدِّمٌ منهم عن مرتبته؛ إذ تلك مراتب معلومة، على قسم مقسومة، وقد سبق لسعادتهم القضاء، (يختص برحمته من يشاء)[1].

و(قوله: «ثم دار بني عبد الحارث») كذا وقع للعذري، والفاسي وهو وهم، والصواب: بني الحارث، بإسقاط عبد، والله أعلم.

و(قوله: وجَعَلْنَا آخراً) وقع في بعض النسخ اخر بغير تنوينٍ ولا ألف. جعله غير منصرف، وليس يصحيح الرواية، ولا المعنى؛ إذ لا مانع من صرفه؛ لأن اخراً هنا: هو الذي يقابل: أولاً، وكلاهما مصروفٌ، وهو منصوبٌ على أنه المفعولُ الثاني لجعل؛ لأنه بمعنى: صيَّر، ويحتمل أن يُتأوَّل في معنى جعل: معنى أنزل، فيكون ظرفاً، أي أنزلتنا منزلاً متأخراً. وعلى الوجهين فلا بد من صرفه، وكذا وجدناه من تقييد المحقِّقين.

و(قوله: «أو ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار») ويروي: «من الأخيار» وكلاهما صحيح.

---

(1) «آل عمران 74

ثم مضينا حتى أتينا جابر بن عبد الله في مسجده، وهو يصلي في ثوبٍ واحدٍ مُشتملاً به، فتخطَّيْتُ القوم حتى جلست بينه وبين القبلة، قفلت: يرحمك الله! أتُصلِّي في ثوب واحدٍ ورداؤُك إلى جنبك! قال: فقال بيده في صدري: هكذا، وفرَّق بين أصابعه وقَوَّسها: أردتُ أن يدخل عليَّ الأحمقُ مثْلُكَ، فيراني كيف أصنع، فيصنعُ مثله، أتانا رسول الله ﷺ في مسجدنا هذا؛ وفي يده عرجونُ ابن طاب؛ فرأى في قبلة المسجد نُخامَةً فحكَّها بالعرجون؛ ثم أقبل علينا فقال: «أيُّكم يحب أن يعرض الله عنه؟» قال: فخشعنا، قال: «أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟» قال: فخشعنا، ثم

و(قوله: إنما فعلته ليراني أحمقُ مثلك) إنما شافهه بهذا اللفظ الجافي مقابلةً له على ما صدر منه من الحركة الجافية. والسؤال الذي أورده مورد الإنكار، فلو تلطَّف في السؤال لما سمع هذا المقال. و(العرجون) واحد العراجين: وهي الشماريخ، وتسمى أيضاً: الكباسة. و(رطب ابن طاب): نوع من الرطب. وقد تقدم القول على البزاق في المسجد.

و(قوله: «أيكم يحبُّ أن يُعْرِضَ اللَّهُ عنه») أي: يعامله معاملة المعرض عنه فلا يثيبه إن قلنا: إن البزاق في المسجد مكروه، وإن تنزلنا: على أن البزاق في المسجد محرَّمٌ - كما تقدم - كان الإعراضُ كنايةً عن تعذيبه على ذلك، وترك رحمته إياه في وقت العذاب، والله تعالى أعلم.

و(قوله: فخشعنا) الرواية الصحيحة فيه بالخاء المعجمة، من الخشوع، وهو الخضوع والتذلل. يعني: أنه ظهرت عليهم أحوال المنكسرين الخائفين. ومن قيده بالجيم فقد أبعد؛ إذ ليس هذا موضعُ الجشع؛ لأنه عبارة عن أشد الحرص. يقال منه: جَشِع الرجل - بكسر الشين - وتجشَّع: إذا حرصه. و(الخَلوق والعَبير): ضروب من الطيب يُجمع بالزعفران. و(ثار الفتي) أي: وثب يجري. و(النخاعة والنخلعة): ما يخرج من أقصى الفم. و(بواط): موضعٌ من ناحية رضوى. وكانت هذه الغزوة على رأس سنة من مقدمه المدينة، خرج فيها يطلبُ المجديَّ بن عمرو، ثم رجع إلى المدينة،

فأخذَ السَّيفَ، فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي. فلم أشْعُرْ إلا والسَّيفُ صلْتٌ في يده. فقال لي: من يمنعك منِّي؟» قال: «قلتُ الله»! ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: «قلت: اللهُ»! قال: «فَشَامَ السَّيفَ، فها هو ذا جالس». ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم في الفضائل.

* * *

و(قوله ﷺ: «إنَّ رجلاً أتاني وزنا نائمٌ فأخذ السَّيف») هذا يدلُّ: على أنَّ النبيَّ ﷺ كان في هذا الوقت لا يحرسه أحدٌ من الناس، بخلاف ما كان عليه في أول أمره؛ فإنَّه كان يُحْرَسُ حتى أنزل اللهُ تعالى عليه ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (1) فقال لمن كان يحرسه: «اذهبوا فإنَّ الله قد عصمني من الناس». فمن ذلك الوقت لم يحرسْه أحدٌ منهم، ثقةً منه بوعد الله، وتوكُّلاً عليه. وفيه: جواز نوم المسافر إذا أمن على نفسه، وأمَّا مع الخوف فالواجب التحرز والحذر.

و(قوله: «فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي والسيفُ صَلْتٌ في يده») روي برفع (صلت) ونصبه. فمن رفعه جعله خبر المبتدأ؛ الذي هو السيف، و(في يده) متعلقٌ به. ومَنْ نصبه؛ جعل الخبر في المجرور، ونصبت صَلْتاً على الحال. أي: مُصْلَتاً. وهو المجرَّدُ مِنْ غمده. والمشهور بفتح اللاَّم من: (صلت). وذكر القتبيُّ: أنَّها تكسر في لغةٍ.

و(قول الرجل للنبيِّ ﷺ: من يمنعك منِّي؟!) استفهامٌ مُشْرَبٌ بالنفي؛ كأنَّه قال: لا مانع لك منِّي! فلم يُبالِ النبيُّ ﷺ بقوله، ولا عرَّج عليه؛ ثقةً منه بوعد الله وتوكلاً عليه، وعلماً منه: بأنَّه لَيس في الوجود فعلٌ إلا للَّه تعالى؛ فإنَّه أعلمُ النَّاس بالله تعالى وأشدَّهم له خشيةً. فأجابه بقوله: «الله! ثانيةَ، وثالثةً -» فلما سمع الرَّجلُ ذلك، وشاهد تلك القوة التي فارق بها عادةَ النَّلس في مثل تلك الحال؛ تحقَّق صِدْقَهُ، وعلم: أنَّهُ لا يصل إليه بضررٍ.

---

(1) سورة البقرة الآية 172

ذكر بعض كرامات رسول الله ﷺ في حال هجرته وفي غيرها

عن البراء بن عازب، قال: جاء أبو بكر إلى أبي في منزله؛ فاشترى منه رحْلا، فقال لعازب: ابعث معي ابنك يحملْه معي إلى منزلي. فقال لي أبي: احمله؛ فحملتهُ، وخرج أبي معه ينتقد ثمنه، فقال له أبي: يا أبا بكر! حدثني كيف صنعتم ليلة سَرَيْتَ مع رسول الله ﷺ؟ قال: نعم؛ أسرَيْنا

وهذا من أعظم الخوارق للعادة، فإنَّه عدوٌّ متمكِّنٌ، بيده سيفٌ شاهرٌ، وموتٌ حاضرٌ، ولا حال تغيّرت، ولا روعة حصلت، هذا محالٌ في العادات، فوقوعُه من أبلغ الكرامات، ومع اقتران التحدِّي به يكون من أوضح المعجزات.

و(قوله: فشام السَّيفَ) أي: أغمده هنا، وهو من الأضداد. يقال: شام السيفَ: جرَّده، وشامَهُ: أغمده.

و(قوله: «فهاهو ذا جالسٌ») هكذا وجدتُه [بخط شيخنا أبي الصَّبر أيوب في نسخته، ووجدته في نسخة أخرى: «فشام السيف، ها هو ذا هو جالسٌ» بإسقاط الفاء، وزيادة هو، والأول أحسن؛ لأن الفاء رابطة، و(هو) لا يحتاجُ إليها، فهي زائدة. ومعنى هذا الكلام أن النبيَّ ﷺ نبَّه على ذلك الرجل، وأخبر عنه، وأشار إليه؛ فكأنه قال: تنبَّهوا لهذا الرجل إذ مُنِعَ ممَّا همَّ به، واستسلم لما يُفْعَلُ فيه، ثم تلافاه المبيُّ ﷺ بعفوه وحِلْمه، وعاد عليه بعوائده الكريمة وصَفْحه، فلم يعرضْ له على ما كان منه.

ومن باب: ذكر بعض كرامات النبيِّ ﷺ

الرَّحْل للبعير: كالسرج للفرس، والإكاف للحمار. ،(سرى) و(أسرى) لغتان، وقد جمع بينهما في هذا الحديث، وهو: سير الليل.

و(قوله: أسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة) أي: اتصل سيرهم من الليل إلى أن قاربوا نصف النهار. و(قائم الظهيرة): هو وهج حرِّها وشدَّته.

ليلتنا كلَّها، حتى قام قائمُ الظهيرة؛ وخلا الطريق فلا يمرُّ فيه أحدٌ؛ حتى رُفعت لنا صخرةٌ طويلةٌ لها ظلٌ؛ لم تأت عليه الشمس بعدُ، فنزلنا عندها، فأتيت الصَّخرة، فسوَّيت بيدي مكاناً ينام فيه النبيُّ ﷺ في ظلّها؛ ثم بسطت عليه فرْوةً، ثم قلت : يا رسول الله! نَمْ وأنا أنفض لك ما حولك؛ فنام، وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براعي غنمٍ مقبلٍ بغنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فلقيتُه، فقلتُ: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجلٍ من

و(قوله: رفعت لنا صخرةٌ طويلةٌ) أي: رفعها السراب فرأوها.

و(قوله: وأنا أنفض لك ما حولك) أي: أنظر وأبحث فيما حولنا هل فيه ما يُكره؟ يقال: إذا تكلَّمت بالليل فاخفض، ورذا تكلَّمت بالنهار فانفض. أي التفت إلى ما حولك.

و(قوله للراعي: لمن أنت؟ فقال: لرجل من أهل المدينة) يعني بالمدينة هنا: مكة، لوجهين:

أحدهما: أنه إنما كانت هذه القصة في سفر هجرتهم؛ وإن هذا إنما كان في مبدأ سفرهم. ألا ترى قوله: أسرينا ليلتنا إلى أن قام قائم الظهيرة؟! فكأنهم إنما لقوا هذا الراعي بعد ليلة ونصف يوم من خروجهم من الغار. وذكرُ حديث سراقة في نفس هذا الحديث يدل على أنه كان قريباً من مكة.

وثانيهما: أنه قد روي من طريق أخرى عن البراء أنه قال للراعي: لمن أنت؟ قال: لرجل من أهل مكة، وسماها مدينة؛ لأن كل بلد يسمي مدينة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ** ﴾ [1]. ولم يرد به دار الهجرة بالاتفاق. وإنَّما سمِّي البلدُ مدينةً، لأنَّ أهله يدينون لمتوليه أن يطيعون. وقيل: من الدين، وهو الملك. و(الكثبة) من اللبن وغيره: القليل المجتمع منه. و(ارتوى) افتعل من (الريِّ) أي: أعدَّ فيها من الشراب ما يُرْوِي. و(القعب): وعاء من خشب. و(الإداوة) من جلد.

---

(1) سورة المائدة الآية 67

أهل المدينة قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلُب لي؟ قال: نعم. فأخذ شاة فقلتُ له: انفُضِ الضَّرع من الشَّعر والتراب والقذى ـ قال: فرأيت البراء يضرب بيده على الأخرى ينفض ـ فحلب لي في قعبٍ معه كُثْبَةً من لبنٍ. قال: ومعي إِدَاوَةٌ أرْتوي فيها للنَّبيِّ ﷺ ليشربَ منها ويتوضأ. قال: فأتيت النَّبيَّ ﷺ وكرهت أن أُوقِظهُ من نومه، فوافقته استيْقظ؛ فصببت على اللبن من الماء حتى بَرَدَ أسفلُه. فقلت يا رسول الله!

و(قوله: وكرهت أن أوقظه) إنما كره ذلك؛ لأن نومه ذلك كان راحةً من تعبٍ؛ ولأنهم كانوا يتوقعون أنه يُوحى إليه في نومه؛ فإيقاظُه يخاف أن يكون قطعاً للوحي.

و(قوله: فصببتُ على اللَّبن من الماء حتى بَرَدَ أسفلُه) يعني: أنَّه صبَّ على إناء اللبن من الماء ليبرد اللبن؛ فإنَّه يخرجُ من الضَّرع حارّاً، وكان الوقت شديد الحرِّ. وعلى هذا فالمراد بأسفله: أسفل الإناء. ويحتمل أن يكون المرادُ به: أنَّه صبَّ الماءَ في اللبن ومزجه به. وخصَّ أسفل اللَّبن لأنه إذا برد أسفلُه برد أعلاه.

وشُرْبُ النبيِّ ﷺ من ذلك اللَّبنِ مع علمه بأنَّ الرَّاعي ليس بمالكٍ ـ اذْ قد صرَّح الراعي بذلك ـ مشكلٌ؛ رذ الورعُ يقتضي التوقُّف، وقد اختلف فيه على أوجهٍ:

أحدُهما: أنَّه علم عين المالك، وأنَّه كان ممن تطيبُ نفسُه بذلك، وقد دلَّ على ذلك: أن أحمد بن حنبل روى هذا الحديث في مسنده، فقال فيه: فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجلٍ من قريشٍ، فسمَّاه، فعرفتُه.

وثانيهما: أنَّ ذلك محمولٌ على ما جرت به عادة العرب في إباحة ذلك القدر في مثل تلك الحال.

وثالثها: أنَّ من احتاج في سفره، ومرَّ على غنمٍ أو ثمرٍ ـ وقد جاع أو عطش ـ فله أن يسدَّ جوعته، ويروي عطشه منها؛ وإن لم يأذن المالك؛ وإن لم ينته الحالُ إلى الضرورة. وإليه ذهب الحسنُ والزُّهريُّ، والجمهور: على أنَّ ذلك إنَّما يجوز لمن اضطرَّ إلى ذلك.

اشْرب من هذا اللبن. قال: فشرب حتى رضيْتُ؛ ثم قال «ألم يأْنِ للرحيل؟» قلت: بلى. قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس واتَّبَعْنا سُرَاقَةُ بن مالك. قال: ونحن في جَلَدٍ من الأرض. فقلت: يا رسول الله! أُتينا! فقال: «لا تَحْزَن إنَّ اللَّه معنا» فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمتْ فرسهُ إلى بطنها،

ورابعها: أنَّ ذلك مال كافرٍ ليس له عهدٌ، فيحلُّ لمن ظفر به.

قال الشيخ رحمه الله وفي هذا بُعْدٌ؛ [لأنَّ تحليلَ الغنائم لم يكن شُرِعَ بعدُ] وأشبهها القول الأول والثاني.

و(قوله: ألم يأن للرحيل) أي: قد حان وقته. و(الجَلَدُ من الأرض): الموضع الصُّلب الغليظ منها.

و(قول أبي بكر - رضي الله عنه -: أُتينا) أي: وُصل إلينا، وأحيط بنا. ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ (1). وهذا من أبي بكرٍ - رضي الله عنه التفاتٌ إلى الأسباب العاديَّة، ومقتضي الجبلَّة البشرية.

و(قوله ﷺ. «لا تحزنْ إنَّ الله معنا») أي: بالحفظ والنصرة. وهذا منه ﷺ ثقةٌ بالوعد الصادق، وتفويض إلي الواحد الخالق.

و(قوله: ارتطمت فرسُه إلى بطنها) أي: غاصت قوائمُها حتي وصل بطنُها إلي الأرض. يقال: ارتطم الرَّجل في الوحل: إذا ثبت فيه.

و(قوله: أُرى) بضم الهمزة، أي: أظنُّ أنها وصل بطنها إلى الأرض.

و(قول سراقة: قد علمتُ انكما دعوتما عليَّ، فادعُوَا لي) يدل: على ما كان في نفوسهم من تعظيمهم للنبيِّ ﷺ ولأصحابه؛ وإن كانوا مخالفين لهم.

و(قوله: فاللهَ لكما أن أردَّ عنكما الطلب) الروايةُ الصحيحةُ: نصب (الله) ولا يجوز غير ذلك؛ لأنه قَسَمٌ حُذفَ حرفُ جره، فتعدَّى الفعلُ المَنْويُّ فَنَصَب؛ فكأنه قال: فأقسمُ باللهِ لكما عليَّ أن أُعمِّيَ خبركما، وأردّ عنكما من يطلبكما.

---

(1) النمل 48

أُرى. فقال: إني علمتُ أنكما قد دعوتُما عليَّ، فادعوا لي، فالله لكُما أن أردَّ عنكما الطلب؛ فدعا الله؛ فنجَا؛ فَرَجَعَ لا يلْقَى أحداً إلاّ قال: قد كفيتكم ما ها هنا، فلا يلقى أحداً رلا ردَّه. قال: ووَفى لنا.

وفي رواية: فلما دنا دعا عليه رسول الله ﷺ فساخ فرسُه في الأرض إلى بطنه؛ وثب عنه، وقال: يا محمد! قد علمتُ أنَّ هذا عملُك؛ فادع الله أن يخلِّصني مما أنا فيه؛ ولك عليَّ لأُعَمِّيَنَّ على من روائي، وهذه كِنانتي فخذ سهماً منها؛ فرنك ستمر على إبلي وغِلماني بمكان كذا وكذا؛ فخذ منها حاجتك. قال: «لا حاجة لي في إبلك». قال: فقدمنا المدينة ليلاً فتنازعوا أيُّهم ينزل عليه، فقال: «أنْزلُ على بني النَّجار أخوالِ عبدِ المطَّلب؛

و(قوله: فدعا اللهَ) فنجا) هذه من بعض دعوات النبيِّ ﷺ المعجَّلة الإجابة، وهي من الكثرة بحيث تفوق الحصر، ويحصل بمجموعها القطع بأن الله تعالى قد أكرم محمداً ﷺ بإجابة دعواته، وأسعفه في كثير من طلباته، وكلُّ ذلك يدل: على مكانته، وصِدْق رسالته.

و(قوله: فقَدِمنا المدينة ليلاً) يعني: أنهم وصلوا إليها ليلاً؛ إلا أنهم أقاموا خارجاً منها، ثم دخلوها نهاراً، وهذا مُبيَّنٌ في حديث عائشة ـ رضي الله عنها .وقد أطبق أهلُ السِّير على: أنه دخل المدينة يوم الإثنين، وأكثرهم يقول لثنتي عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول ضحى ذلك اليوم، وقيل: عند استواء الشمس منه.

و(قوله: «أنْزِلُ على أخوال عبد المطلب») إنما كانت الأنصارُ أخوالَ عبد المطلب؛ لأن أباه هاشماً تزوَّج سلمى بنة زيد بن خداشٍ من بني النجار، فولدت له عبد المطلب، فبنو النجار أخوال جدِّ النبيِّ ﷺ فلذلك أكرمهم الله تعالى بنزول نبيِّه عليهم. وقد صحَّ في كتب السِّيرَ وغيرها أن النبيِّ ﷺ نزل في قباء، فأقام فيهم أياماً، وأسَّس مسجدها، ثم خرج منها راكباً ناقته متوجهاً حيث أمره اللهُ تعالى، فأدركته

أكرِمُهُم بذلك» فصعد الرِّجال والنِّساء فوق البيوت؛ وتفرق الغِلمان والخدَمُ في الطُّرُق؛ ينادون: يا محمدُ! يا رسول اللهِ! يا محمدُ! يا رسولَ اللهِ!

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

الجمعة في بني سالم، فصلاَّها في بطن الوادي، ثم إنه توجَّه إلى دخول المدينة، فتعرضت له ساداتُ قبائلها؛ كلُّهم يعرضُ عليه النزول، ويأخذ بخِطام ناقته وهو يقول: «دعوها، فإنها مأمورة» فلم تزل ناقته كذلك حتى وصلت إلى دار أبي أيوب فبركت عنده، فنزل النبيُّ ﷺ على أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ وهذا هو الذي عبَّر عنه في هذا الحديث بقوله: فتنازعوا أيهم ينزل عليه، أي: تجاذبوا ذلك، وحرصوا عليه.

و(قوله: فصعدَ الرجالُ والنساء فوق البيوت، والغلمان والخدم في الطرق) هذا عطفٌ على المعني نحو قوله:

يا لَيْتَ زَوْجَكِ قَدْ غَدا مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحا

و:

عَلَفْتُها تبناً وماءً باردا [1] .....

لأن الطرق لا يصعد فيها؛ فكأنه قال: وتفرَّق الغلمان والخدم في الطرق، والكل ينادون: يامحمد! يارسول الله! كلُّ ذلك فرحٌ وسرورٌ بقدوم رسول الله ﷺ.

حديث أبي اليَسَر، واسمه: كعب بن عمرو بن غريبٍ من بني سلمة. شهد العقبة وبدراً، فهو عقبيٌّ، بدريٌّ، وهو الذي أسر العباس بن عبد المطلب يوم بدرٍ، وكان رجلاً قصيراً، والعباس طويل ضخمٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه مَلَكٌ»، وهو الذي انتزع راية المشركين من يد أبي عزيز يوم بدرٍ. شهد صفين مع عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ يُعَدُّ في أهل المدينة، وبها توفِّي سنة خمس وخمسين.

---

(1) هذا صدر البيت، وعجزه:

حتى شَتَتْ همالةً عيناها

وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصَّامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحيِّ من الأنصار قبل أن يهلكوا؛ وكان أول من ألقينا أبا اليَسَر صاحبَ رسول الله ﷺ، ومعه غلامٌ له؛ معه ضِمَامةٌ من صُحُف؛ وعلى أبي اليَسَرِ بردةٌ ومَعَافِريٌّ؛ وعلى غلامه بردة ومعافري. فقال له أبي: يا عمِّ! إني أرى في وجهك سُفْعَةً من غضبٍ. قال: أجَلْ! كان لي على فلان بنِ فلانٍ الحرامىِّ مالٌ؛ فأتيتُ أهلَه فسلّمتُ، فقلت: ثَمَّ هو؟ قالوا: لا، فخرج عليَّ ابنٌ له جَفْرٌ، فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك فدخل أريكةَ أمِّي. فقلت: اخرج إليَّ؛ فقد علمت أين أنت؛ فخرج، فقلت: ما

و(قول عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت: خرجت أنا وأبي نطلبُ العلمَ في هذا الحي من الأنصار، قبل أن يهلكوا) دليلٌ على ما كان عليه أهلُ ذلك الصدر من حرصهم على طلب علم الحديث، والرحلة إلى أهله، والاجتهاد في تحصيله، كلُّ ذلك منهم سعيٌ في تحقيق الدِّين، وإظهاره، ونقله، وإبلاغه، جدَّد اللَّهُ عليهم الرحمةَ، فلقد سلكوا طريقاً أفضتْ بهم إلى الجنة.

غريب هذا الحديث:

الحي: القبيل. وضِمامةٌ من صُحُفٍ: هو بكسر الضاد بغير ألف، كذا وقع في كتاب مسلم، وصوابه: إِضمامةٌ. وهي الإِضبارة أيضاً وجمعها أضاميم، وهي كل شيء ضممتَ بعضَه إلى بعض فهو إضمامةٌ. والصحف: جمع صحيفة، وهي الورقة من الكتب، وكل ما انبسط فهو صحيفة. ومنه: صحفة الطعام. والبُرْد: الشملة المخططة، وجمعها: بُرُد وبرود. ومَعافِريٌّ: بفتح الميم، ثوب منسوب إلى معافر، وهي محلة بالفسطاط، قاله أبو الفرج، وقيل هو رجل كان يعملها. والسُّفعة: تغيُّر اللون بسواد مُشربٍ بحمرة، قاله الخليل. والجفر من الغلمان: الذي قوي منهم في نفسه، وقوي في أكله، يقال منه. استجفر الصبيُّ: إذا صار كذلك، وأصله في أولاد الغنم، فإذا أتى عليه أربعةُ أشهر، وفُصِل عن أمه، وأَخَذ في الرعي؛ قيل عليه جفر، والأنثى جفرة. والأريكة: واحدة الأرائك، وهي: السرير الذي عليه كِلَّةٌ، وهي: الحَجَلَة.

حملك على أن اختبأت منِّي؟ قال: أنا! والله أحدِّثك ثم لا أَكْذبُك! خشيتُ والله أن أحدِّثَك فأكْذبَكَ؛ وأنْ أعدَك فأخْلفَك؛ وكنتُ صاحبَ رسول الله ﷺ؛ وكنتُ والله معسراً. قال: قلتُ: آلله! قال: الله. قلت: آلله. قال: الله. قلت: الله. قال: آلله. قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده. فقال: إن وجدتَ قَضَاءً فاقْضني؛ وإلا، فأنت في حلٍّ، فأشْهَدُ بَصَرُ عينيَّ هاتين - ووضع إِصْبَعَيْهِ على عَيْنيه - وسَمْعُ أُذُنيَّ هاتين، .....

(وقول المدين: خشيت والله أن أحدثك فأكذبك، وأعدك فأخلفك، وكنتَ صاحب رسول الله ﷺ) كان هذا الغريم صادقاً في حاله؛ مُتَّقياً على دِيْنه؛ محترماً لأصحاب رسول الله ﷺ، فلما علم منه ربُّ الدَّيْن ذلك كله محا عنه صحيفته، وأنْظَرَه إلى الميسرة، كما قال تعالى [1]. وفيه ما يدلُّ على أن ربَّ الدَّين إذا علم بعُسْرة غريمه، أو ظنَّها حرمتْ عليه مطالبته، وإن لم تثبت عسرتُه عند الحاكم.

و(قوله: آلله؟ قال: الله) هو ممدود لأنها همزة الاستفهام دخلت على الهمزة المعوضة من باء القسم.

و(قوله: فأشهد بَصَرُ عينيَّ هاتين، وسَمَعُ أذنيَّ هاتين) هكذا رواية العذري بفتح الصاد، ورفع الراء على المصدر المضاف إلى ما بعده، وكذلك سَمْعُ أذنيَّ بتسكين الميم، ورواهما الطبري بَصُرَ - بضم الصاد، وفتح الراء - على الفعل الماضي، وعيناي مرفوع على الفاعل، وكذلك: سمع أذناي؛ غير أنه كسر الميم، وكذا عند أبي عليٍّ الغسانيِّ، ورواية الطبريِّ أوضح، و،أقلّ كلفة؛ فإن رواية العذري يحتاج فيها إلى إضمار خبرٍ للمبتدأ الذي هو: بَصَرُ. تقديره: بصر عينيَّ حاصلٌ، أو متعلقٌ، ثم إنه بعد هذا يعطف على هذه الجملة الإسمية جملة فعليَّةً التي هي قوله: ووعاه قلبي، والأحسن في عطف الجمل مراعاة المجانسة في المعطوف، والمعطوف عليه، فرواية الطبريِّ أولى.

---

(1) سورة يونس الآية 24

ووَعاهُ قلبي ـ وأشارَ إلى نياط قلبه ـ رسُولَ الله ﷺ وهو يقول: «من أنْظَرَ مسلماً، أو وضَع عنهُ، أظلَّهُ اللهَ في ظلِّه».

قال: فقلت له أنا: يا عمّ! لو أنك أخذت بُرْدة غلامك وأعطيتَهُ معافرِيَّك، وأخذت معافريَّه، وأعطيته بُرْدَتَك، فكانت عليكَ حُلَّةٌ وعليه حلَّةٌ، فمسح رأسي وقال: اللّهم بارك فيه؛ يابن أخي! بصرُ عينيَّ هاتين، وسمْعُ أُذُنيَّ هاتين، ووعاهُ قلبي هذا ـ وأشار إلى نياط قلبه ـ رسولَ الله ﷺ وهو يقول: «أطعموهُم ممَّا تأكلون، واكسوهم مما تلبَسُون». وكان أنْ أعطيتهُ من متاعِ الدُّنيا أهونَ عليَّ من أن يأخذ من حسناتي يوم القيامة.

و(قوله: ووعاه قلبي رسولَ الله ﷺ) الضمير في وعاه قلبي عائد على غير مذكور قبله، فهو مما يفسره الحال والمشاهدة، وأبدل منه رسول الله ﷺ للبيان، فهو بدل الظاهر من المضمر. ونياطُ القلب: هو معلَّقه، ويروى: مناط، وهو موضع تعلقه. وإنظار المعسر: تأخيره إلى أن يوسر، والوضع عنه: إسقاط الدَّين عن ذمته، وقد جمع هو بينهما لهذا المعسر حيث محا عنه الصحيفة، وقال له: إن وجدت قضاءَ فاقضِ، وإلا فأنت في حلٍّ. وقد مضى تفسيرُ الحُلَّة؛ وأنها ثوبان من جنسٍ واحدٍ ليسا بلِفْقَيْن.

و(قوله: «أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تَلْبَسون») ظاهر هذا وجوبُ تشريك السيِّد عبدَه في نوع ما يأكله، ويلبَسهُ، وهو ليس بواجب اتفاقاً، وقد بيَّنَّا ذلك فيما تقدم، لكن خاف أبو اليَسَر أن يكون تَرْكُ ذلك مُنَقِّصاً من حسناته، فسوَّى بينه وبين عبده في اللباس، وكذلك فعل أبو ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ كما تقدم. والاشتمال: الالتفاف بالشملة. وهذا الاشتمالُ الذي اشتمله جابر هو الذي أذنَ له فيه النبيُّ ﷺ كما تقدَّم في كتاب: الصلاة؛ وهو أن يضعَ وسط الشملة على ظهره، ويُخْرِجَها من تحت ضَبْعَيْه، ويخالف بين طرفيها، ويعقدَها على قفاه. ووضعُه يده على صدره إنما كان ليوقظه من غفلته، ويستحضر فهمه.

باب في عصمة الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام ممن أراد قتله

عن جابر بن عبد الله قال: غزونَا مع رسول الله ﷺ غزوةً قِبَلَ نجد، فأدْركَنا رسولُ الله ﷺ في وادٍ كثير العِضَاه، فنزل رسولُ الله ﷺ تحتَ شجرة، فعلَّق سيفَه بغصنٍ منْ أغصانها؛ قال: وتفرَّق الناسُ في الوادي يستظلُّونَ بالشَّجرِ. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائمٌ

ومن باب: عصمة النبيِّ ﷺ ممَّن يريد قَتْلَه

(قوله: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قِبَل نجد) النجد: المرتفع من الأرض، والغور: المنخفض منها، هذا أصلها، ثم قد صارا بحكم العرف اسمين لجهتين مخصوصتين معروفتين. وصحيح الرواية ومشهورها: (نجد) ووقع للعذري: (أحد).

و(قوله: فأدْرَكَنا رسولُ الله ﷺ في وادٍ كثير العضاه) هذا اللفظ ذكْري فيه: (أدركنا) - بفتح الكاف - رسولُ الله ﷺ بالرفع على الفاعل - وعليه فيكونون قد تقدموه للوادي لمصلحة من مصالحهم ككونهم طليعة، أو صيانةً للنبيِّ ﷺ مما يُخْشى عليه، وغير ذلك. ،يحتمل أن يقيَّد: فأدركْنا رسولَ الله - بسكون الكاف ونصب رسولَ على المفعول، فيكون فيه ما يدلُّ على شجاعة رسول الله ﷺ، ويكون كنحو ما اتفق له لما وقع الفزعُ بالمدينة، فركب فرساً، فسبقهم، فاستبرأ الخبر، ثم رجع، فلقي أحصابَه خروجاً، فقال لهم: «لم تراعوا». والعضاه: كلُّ شجر من شجر البادية له شوك.

و(قوله: فتفرَّق الناسُ في الوادي يستظلّون) فيه جوازُ افتراق العسكر في النزول إذا أمنوا على أنفسهم، وكأنهم قد أجهدهم التعب والحر، فقالوا مستظلين بالشَّجر.

قال: «أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟» قلنا: لا أيُّنا يا رسول الله! قال: «فإنَّ أحدكم إذا قام يصلي فإنَّ الله تبارك وتعالى قِبَلَ وجهه، فلا يبصقنّ قِبَل وجهه، ولا عن يمينه، وليبصق عن يساره تحت رجله اليسرى فإنْ عجلت به بادرةٌ فليقل بثوبه: هكذا». ثم طوى ثوبه بعضه على بعضٍ، فقال «أروني عبيراً»، ثار الفتى من الحيِّ يشتدُّ إلى أهله فجاء بخَلُوقٍ في راحته؛ فأخذه رسول الله ﷺ، فجعله على رأس العُرْجُون، ثمَّ لطخَ به على أثر النُّخامة، فقال جابر: فَمِنْ هناك جعلتم الخلوق في مساجدكم.

وسرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بُواطٍ وهو يطلب المجْديَّ بن عَمْرو الجُهَني، وكان الناضح يعتقبه منَّا الخمسةُ، والستة، والسبعة، قَدَارت عقبةُ رجلٍ من الأنصار على ناضحٍ له، فأناخه، فركبه؛ ثم بعثه فتلدَّن عليه بهض التَّلدُّنِ، فقال له: شأْ لعنك الله! فقال رسول الله ﷺ: «من هذا اللاعن بعيره؟ قال: أنا يارسول الله! قال: «انزل عنه؛ فلا يصحبْنَا ملعونٌ؛ لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعةً يسألُ فيها عطاءٌ فيستجيبُ لكم».

وسرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان عُشَيْشِيَةٌ، ودنونا ماءً من مياه العرب؛ قال رسول الله ﷺ: «من رجلٌ يتقدّمنا، فيمدرُ الحوض، فيشربُ،

ولم يَلْقَ حرباً. و(تلدَّن): تثبط وتلكأ، ولم ينبعث. و(شأْ): صوت تزجر به الإبل، و(اللعن): الطرد والبعد. ولما دعا هذا الرجلُ على بعيره باللعنة أجيب، فأبْعدَ البعيرُ عنه، وحيل بينه وبينه، وهذا من باب العقوبة في المال لربِّه؛ لا من باب عقوبة ما لا يعقل، وفيه ما يدل: على أن الدعاء في حالة الضجر والغضب قد يُستجاب. و(عشيشية): تصغير عشية على غير قاس، و(يمدر الحوض): يُطيِّنه ويسدُّ خلله ليمسك الماء. و(نرعنا): استقينا. و(السِّجْل) الدلو. و(أفهقناه): ملأناه.

ويسقينا؟» قال جابر: فَقُمْتُ فقلت: هذا رجل يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «أيُّ رجل مع جابر؟» فقام جبَّار بن صخر، فانطلقنا إلى البئر فنزعنا في الحوض سَجْلاً أو سجْلين؛ ثم مدرناه، ثم نزعنا فيه حتى أفْهَقْناهُ، فكان أول طالع علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «أتأذنان؟» قلنا: نعم يا رسول الله! فأشرع ناقته؛ فشربتْ، شَنَقَ لها، فَشَجَتْ، فبالت، ثم عدل بها فأناخها، ثم جاء رسول الله ﷺ إلى الحوض، فتوضأ منه، ثم قمتُ فتوضأتُ من متوضَّأ رسول الله ﷺ، فذهب جبَّار بن صخرٍ يقضي حاجته، فقام رسول الله ﷺ ليصلي، وكانت عليَّ بُرْدَةٌ فذهبت إخالف بين طرفيها، فلم تبلغ لي، وكانت لها ذَباذِبُ، فنكستُها، ثم خالفت بين طرفيها، ثم تواقَصْتُ عليها؛ ثم جئت حتى قُمْتُ عن يسار رسول الله ﷺ فأخذ بيدي

و(قوله: «أتأذنان») [دليل على أن من حاز شيئاً من المباح مَلَكه، وأن الماء المحوز يُملك. وفيه] دليلٌ على أنه لا يكتفي في زباحة ملك الغير بالسكوت، بل: لا بد من إذن المالك. و(شنق لها الزمام)، أي: قبضه إليه لتنقطعَ عن الشرب. و(شجَت) ـ مخففة الجيم ـ: قطعت الشرب. يقال: شججت المفازة، أي: قطعتها بالسير. و(الذباذب): الأطراف، سُمِّيت بذلك لتذبذبها، أي: تحركها، وكل شيءٍ معلَّقٍ فحركته: ذبذبته.

و(قوله: وتواقَصْتُ) أي: أمسكت عليها بعنقي لئلا تسقط، أي: حنى عليها بعنقه. وقد تقدَّم القولُ على مواقف المأموم مع الإمام، وهذا الحديث يدلُّ: على أن المشروعَ في حقِّ الإمام: إذا قام رجلٌ عن يمينه، ثم جاء آخر أنه يدفعهما خلفه؛ لا يتقدم ويتركهما؛ فإن النبيِّ ﷺ فعل ذلك بجابر وجبَّار ـ رضي الله عنهما. و(الحَقْو): معقد الإزار من الوسط، وقد سُمِّي الإزار حَقْواً، كما تقدم في قول أم عطية: فأعطانا حَقْوه، أي: إزاره. و(نختبط): نفتعل، من الخبط، وهو ضرب الورق بالعصا ليسقط. و(القرح): الجراح. و(تقرحت) انجرحت. و(الشدق): جانب الفم.

فأرادني حتي أقامني عن يمينه؛ ثم جاء جبَّار بن صخر فتوضأ؛ ثم جاء فقام عن يسار رسول الله ﷺ؛ فأخذ بيَدَيْنا جميعا فدَفَعَنَا حتى أقامنا خلفه؛ فجعل رسول الله ﷺ يرمُقُني وأنا لا أشعر، ثم فَطِنْتُ به، فقال: هكذا؛ بيده؛ يعني: شُدَّ وسَطَكَ، فلما فرغ رسولُ الله ﷺ قال: «ياجابر!» قلتُ: لبيك يا رسول الله! قال: «إذا كان واسعاً فخالِفْ بين طرفيْه؛ وإذا كان ضيِّقاً فاشدُدْهُ على حَقْوِكَ».

سرنا مع رسول الله ﷺ؛ وكان قوتُ كلِّ رجلٍ منَّا في كل يوم تَمْرةً، فكان يَمَصُّها ثم يَصُرُّها في في ثوبه، وكنا تختبطُ بقِسِّنَا ونأكُلُ؛ حتى قَرِحَتْ أشداقُنا، فأقْسِمُ خطِئَها رجلٌ منَّا يوماً، فانطلقنا به نَنْعَشُهُ، فشهدنا له: أنه لم يُعطَها، فأعطيها، فقام فأخذها.

وهذا الحديث يدلُّ على قوَّة صبرهم، وعظيم جَلَدهم، وعلى أن اللَّهَ تعالى خَرَق لهم العادةَ إكراماً لهم؛ لأن إمساكَ القوة على السفر، والسيرَ مع الاغتذاء بتمرة في كل يوم أمرٌ خارقٌ للعادة، وقد وضح ذلك في الرجل الذي أخطأته التمرة فسقط، ثم إنه لما أعطيها قوي في الحال. والعادةُ قاضيةٌ بأن مَن سقطتْ قواه لا ترجع إليه إلا بعد معالجة وترتيب، واستدامة ذلك على تدريج. (ونَنْعَشُه): نرفعه وندعمه ليقوم، وكأنه سقط من الضعف. وقد فسرَّ بعضُ الشارحين ننعشه بـ: نسعى في رفعه بالشهادة له في أنه ما أُعطي التمرة، وما ذكرناه أولى، لأنه قال بعد ذلك: فأُعطيَها فقام، فيعني: أنه سقط من الضعف، فحاولوا رفعه فلم يقدروا حتى أكل التمرة، فقوي وقام. فتأمله. و(الأفيح): الواسع المنبطح، و(شاطىء الوادي): جانبه. و(المخشوش): هو الذي جُعل في أنفه الخِشاش ـ بكسر الخاء ـ: وهو عود، أو وتد ليذل. و(المَنْصَفْ): ملتقى النصفين. وحديث الشجرتين هذا يدلُّ: على أن الله تعالى مكَّن نبيَّهُ ﷺ من انحراق ما شاء من العادات، وأن الجمادات كانت سُخِّرت له، فيتصرَّف فيها كيف شاء، وهذا من أكمل الكرامات، وأعظم الدَّلالات. و(حشرته) ـ بالحاء المهملة ـ: رققته، وحدَّدته، وحكى الأخفش: سهم حشرٌ، وسهامٌ حُشرٌ، أي: محدَّدة.

سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتَّبَعْتُهُ بإداوةٍ من ماءٍ، فنظر رسولُ الله ﷺ فلم يَرَ شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي، فانطلق رسولُ الله ﷺ إلى إحداهُما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش؛ الذي يصانع قائده؛ حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ منْ أغصانها. فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادتْ مَعَهُ كذلك؛ حتى إذا كان بالمَنْصَف مما بينهما لأم بينهما ـ يعني: جمعهما ـ فقال: «التئما عليَّ بإذن الله» فالْتأمتا.

قال جابرٌ: فخرجتُ أُحْضِرُ مخافة أن يُحِسَّ رسولُ الله ﷺ بقربي فيبتعدَ، فجلستُ أحدِّثُ نفسي؛ فحَانَتْ منِّي لَفتةٌ فإذا أنا برسول الله ﷺ مُقبلاً، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كلُّ واحدةٍ منهما على ساقٍ؛ فرأيتُ رسولَ الله ﷺ وقفَ وقفةً؛ فقال برأسه: هكذا ـ وأشار ابن إسماعيل برأسه يميناً وشمالاً ـ ثمَّ أقبلَ، فلما انتهى إليَّ قال: «يا جابر! هل رأيت مقامي؟» قلت: نعم يا رسولَ الله! قال: «فانطلقْ إلى الشجرتين فاقطعْ من كلِّ واحدةٍ منهما غُصناً، فأقْبِلْ بهما، حتي إذا قُمتَ مقامي فأرسلْ غُصْناً عن يمينكَ وغصناً عن يسارك».

و(قوله: فعمَّ ذاك؟) هو استفهام، وذاك إشارة إلى ما أمره رسولُ الله ﷺ به من غرس الغصنين. وفيه دليلٌ: على جواز السؤال عن العلل والحكم. وقد تقدَّم القولُ على القبرين المعذَّبين في كتاب الطهارة. و(الأشجاب): جمع شجب، وهو ما خَلُقَ من الأسقية، وقَدُم، وهي أشدُّ تبريداً للماء من الجُدَد.

و(قوله: على حمارة من جريد) صحيح الرواية فيه بكسر الحاء المهملة وتخفيف الميم، وهي جرائد النخل، أو عيدان يُجمع أعلاها بالربط، ويفتح أسفلها،

قال جابر: فقمت، فأخذت حجراً فكسرته وحشرته، فانذلق لي؛ فأتيتُ الشجرتين، فقطعتُ من كلِّ واحدةٍ منْهُمَا غصناً؛ ثم أقبلتُ بهما أجرُّهما حتى قمت مقام رسول الله ﷺ؛ أرسلتُ غصناً عن يميني، وغصناً عن يساري؛ ثمَّ لحقته فقلت: قد فعلتُ يا رسول الله! فعمَّ ذاك؟ قال: «إنِّي مررتُ بقبرين يُعذَّبان، فأحببت بشفاعتي أن يُرفَّه عنهما ما دام الغصنان رَطْبَيْن».

قال: فأتينا العَسْكرَ. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا جابرُ! ناد بوَضُوءٍ». فقلت: ألا وَضوءَ؟ ألا وَضوءَ؟ ألا وَضوءَ؟ قال: قلت: يا رسول الله! ما وجدتُ في الرَّكب من قطرةٍ، وكان رجلٌ من الأنصار يبرِّدُ لرسول الله ﷺ الماء، في أشجابٍ له على حمارَةٍ من جريدٍ. قال: فقال لي: «انطلق إلى فلان ابنِ فلان الأنصاريِّ، فانْظُرْ هل في أَشْجَابِه من شيء؟» قال: فانطلقتُ إليه، فنظرتُ فيها فلم أجدْ فيها إلا قطرةً في عزلاء شجبٍ منها، لو أنِّي أُفرِغُه لَشَرِبَهُ يابسُه، فأتيتُ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! إني لم أجدْ فيها إلاَّ قطرةً في عزلاءِ شجْبٍ منها، لو أنِّي أفرغه لشَرِبَهُ. قال: «اذهب فائتني به» فأتيته به؛ فأخذهُ بيده، فجعل يتكلمُ بشيءٍ لا أدري ما هو؛ ويغمزه بيديه، ثم أعطانيه. فقال: «يا جابر! نادِ بجَفْنَةٍ» فقلت: ياجَفْنَةَ الرَّكبِ! فأُتيتُ بها

تُعَلَّق فيها الأسقية. وقد رواها بعضُ الرواة: جُمَّارة ـ بجيم مضمومة، وميم مشددة ـ، وفيه بُعدٌ. و(العزلاء): مخرجُ الماد من الراوية أو القربة.

و(قوله: لو أني أفْرِغُه لَشَرِبَهُ يابسُه) أي: لقلَّته، وأعاد الضميرَ مذكَّراً على معنى العزلاء، لا على لفظها، أراد به المخرج، أو الجلد. يعني: أن الماء كان قليلاً، فلو صبَّه لذهب، ويغمزه: يعضه، والغمز: العضّ والطعن. و(جفنة الركب): هي قصعة كبيرة يستصحبها أصحاب الإبل يأكلون فيها مجتمعين.

تُحمَلُ؛ فوضعتُها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده في الجفنة: هكذا؛ فبسطها، وفرَّق بين أصابعه؛ ثمَّ وضعها في قعرِ الجَفْنَة وقال: «خذ ياجابر! فصُبَّ عليَّ؛ وقل: باسم الله». فصببت عليه، وقلت: باسم الله؛ فرأيتُ الماءَ يفورُ من بين أصابعِ رسولِ الله ﷺ؛ ثمَّ فارت الجفنةُ ودارتْ حتى امتلأت؛ فقال: «يا جابر! ناد من كان له حاجةٌ بماء». قال: فأتى الناس، فاستقوا حتى رَوُوا. قال: فقلتُ: هلْ بقي أحدٌ له حاجةٌ؟ فرفعَ رسولُ الله ﷺ يدَهُ من الجفْنَةِ وهي ملأى.

وشكا الناسُ إلى رسول الله ﷺ الجوع، فقال: «عسى الله أنْ يُطعمَكُم». فأتينا سيفَ البحر؛ فزَخرَ البحرُ زخرةً، فألقى دابةً، فأَوْرَيْنا على شِقِّها النَّار؛ فاطَّبَخْنَا واشْتَوينا، وأكلنا حتى شَبِعْنَا. قال جابر: فدخلتُ أنا وفلانٌ وفلانٌ، حتَّى عدَّ خمسةً، في حجاجِ عينِها؛ ما يرانا أحدٌ؛ حتى خرجنا، فأخذنا ضِلَعاً من أضلاعه، فقوَّسناه، ثم دعونا بأعظم رجل في الرَّكب، وأعظم جَمَلٍ في الرَّكب، وأعظم كِفْلٍ في الرَّكب، فدَخَلَ تَحْتَهُ ما يطأطىءُ رَأْسَهُ. رواه مسلم.

* * *

و(قوله: فرأيت الاء يفور من بين أصابعه) أي فجَّر الله تعالى من أصول الأصابع الماء، كما يفجره من الحجر. وقد بيَّنَّا أن هذه المعجزةَ أبلغُ من معجزة موسى ـ عليه السلام ـ في نبع الماء من الحجر. ،(سيف البحر): ساحله. و(زخر البحر): هاج وارتجَّ. و(أوْرَيْنَا): أوقدنا. و(الشق): الجانب. و(حجاج العين) بكسر الحاء وفتحها: هو العظمُ الذي فيه المقلة، وعلى طرفه الأعلى، هو الحاجب. و(يطأطىء رأسه): يخفضه.

* * *

باب مَثَل ما بعث به النَّبيّ ﷺ من الهدى والعلم

عن أبي موسى، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ مَثَل ما بعثني اللَّهُ به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلت الماء، فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير، وكان منها أجادِبُ؛ أمسكت الماء؛

ومن باب: مَثَلُ ما بُعِثَ به النَّبيُّ ﷺ

(الغيث): المطر. و(الطائفة من الأرض): القطعة منها، ومن الناس: الجماعة. و(الطيِّبة): المنبتة. و(قبلت): لم يختلف رواةُ مسلمٍ في هذا الحرف أنه بالباء بواحدة من القبول؛ أي: شربت الماء فانتفعت به، وقيَّده بعضُ رواة البخاري: قيَّلت ـ بباء مثناة من تحت ـ. وقال الأصيلي: إنه تصحيف، وقال غيرُه: ليس كذلك، ومعناه: جمعت، تقول العرب: تقيَّل الماءُ في الموضع المنخفض: إذا اجتمع فيه.

قال الشيخ: وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنه قد ذَكَرَ بعد هذا الطائفةَ الممسكةَ الماء، الجامعةَ له، فعلى ما قاله تكون الطائفتان واحدةً، ويفسد معنى الخبر والتشبيه، وقيل: يكون معنى: قيَّلت: شربت. قال: والقَيْل: شرب نصف النهار، وقيَّلت الإبل: إذا شربت قائلةَ.

قال الشيخ: وهذا أيضاً ليس بشيء؛ لأن مقصودَ الحديث لا يخصُّ شربَ القائلة من غيرها. والأظهار: ما قاله الأصلي. و(الكلأ): المرعى، وهو العشب. والرَّطب: يسمى: الخَلَى. واليابس يسمى: الحشيش.

و(قوله: وكانت منها أجادب) لم أرو هذا إلا بالجيم، والدال المهملة، وهو الصحيح، قال الأصمعي: الأجادبُ من الأرض: ما لا ينبتُ الكلأ. ومعناه: أنها جردة بارزة لا يسترها شيء. وقد رواها بعضُهم أجاذب ـ بالذال المعجمة ـ. وقال بعضُهم: إنما هي أخاذات بالخاء والذال المعجمتين، جمع أخاذة، وهي الماسكة للماء. وقد قال بعضُهم: أحازة ـ بالحاء المهملة والزاي ـ وليس بشيءٍ. وبعضهم قالها أجارد بالجيم والراء، جمع أجرد، وهو الذي لا نبات فيه.

فنفع الله بها الناس؛ فشربوا منها، وسقَوا، ورعَوا، وأصاب طائفةً منها أخرى؛ إنما هي قيعان، لا تُمْسك ماءً، ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فَقُه

قال الشيخ رحمه الله : والصحيح الواضح: الأول روايةَ ومعنًى -إن شاء الله-. ومقصودُ هذا الحديث: ضرب مثلٍ لما جاء به النبيُّ ﷺ من العلم والدِّين، ولمن جاءهم بذلك فشبَّه ما جاء به بالمطر العام الذي يأتي الناسَ في حال إشرافهم على الهلاك يُحييهم، ويُغيثهم. ثم شبَّه السامعينَ له: بالأرض المختلفة؛ فمنهم: العالم العامل المتعلم، فهذا بمنزلة الأرض الطيِّبة شربت، فانتفعت في نفسها، وانبتتْ، فنفعتْ غيرَها. ومنهم الجامعُ للعلم، الحافظُ له، المستغرق لزمانه في جمعه ووعيه، غير أنه لم يبقى يتفرغ للعمل فيما جمعَ، لكنه أدَّاه لغيره كما سمعَه، فهذا بمنزلة الأرض الصُّلبة التي يستقرُّ فيها الماءُ، فينتفعُ الناسُ بذلك الماء، فيشربون ويَسْقُون، وهذا القسم هوالذي قال فيه النبي ﷺ: نظر الله أمرا سمع مني حديثاً فبلغه غيره فرُبَّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه، ورُبَّ حاملِ فقه ليس بفقيه». لا يُقال: فتشبيه هذا القسم بهذه الأرض التي أمسكتْ على غيرها، ولم تشربْ في نفسها يقتضي ألا تكون عملت بما لزمها من العلم ولا من الدِّين، ومن لم يقم بما وجبَ عليه من أمور الدّين، فلا يُنسب للعلماء، ولا للمسلمين؛ لأنا نقول: القيامُ بالواجبات ليس خاصّاً بالعلماء. بل: يستوي فيها العلماء، وغيرهم. ومن لم يقم بواجبات علمه كان من الطائفة الثالثة التي لم تشرب، ولم تُمسك؛ لأنَّه لما لم يعمل بما وجبَ عليه لم ينتفعْ بعمله؛ ولأنه عاصٍ فلا يصلُحُ للأخذ عنه.

و(قوله: «وأثابَ طائفةً أخرى») هذا مثل للطائفة الثالثة التي بلغها الشرعُ فلم تُؤمن، ولم تقبلْ، وشبَّهها بالقيعان. السَّبخة التي لا تقبلُ الماءَ في نفسها وتُفسده على غيرها، فلا يكون منها إنباتٌ، ولا يحصل بما حصل فيها نفعٌ. و(القيعان) جمع قاع، وهو ما انخفض من الأرض، وهو المستنقع أيضاً. وهذا يعمُّ ما يفسد فيه الماء، وما لا يفسدُ، لكنْ مقصودُ، لكنْ مقصودُ الحديث: ما يفسد فيه الماء.

(وقوله: «سَقَوا ورَعَوا») يقال: سقى وأسقى بمعنى واحدٍ. وقيل: سقيته: ناولته ما يشربُ وأسقيته: جعلت له سقيا. ورعَوا: من الرعي، وقد رويته عن بعض المقيِّدين: زرعوا، من الزرع وكلاهما صحيح.

في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فَعَلِم وعلَّم؛ ومثل من لم يرفعْ بذلك رأساً، ولم يقبلْ هُدَى اللهِ الذي أُرسلتُ به».

رواه أحمد والبخاري ومسلم.

وعنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ مثلي ومثلَ ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم! أنِّي رأيت الجيش بعينيَّ؛ وإنِّي أنا النذير العُريانُ؛ فالنجاءَ! فأطاعه طائفة من قومه؛ فأدلجوا، فانطلقوا على مهْلَتِهم؛ وكذَّبت طائفةٌ منهم؛ فأصبحوا مكانهم؛ فصبَّحهم الجيش؛ فأهلكَهُم واجْتَاحهُم؛ فذلك مَثَلُ من أطاعني واتَّبع ما جئتُ به؛ ومثلُ من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحقِّ».

رواه البخاريُّ ومسلم.

(وقوله: «فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُه في دين الله ونفعَه اللهُ بما بعثني الله به فعَلِمَ وعلَّم») هذا مثال الطائفة الأولى.

و(قوله: «ومثل مَنْ لم يقبلْ هُدى الله الذي أُرسلتُ به») مثال الطاءفة الثالثة، وسكت عن الثانية إمَّا لأنها قد دخلت في الأولى بوجه؛ لأنها قد حصل منها نفعٌ في الدين، ورمَّا أخبر بالأهم فالأهمِّ، وهما الطائفتان المتقابلتان: العليا، والسفلى. والله تعالى أعلم.

و(قوله في الحديث الآخر «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومه، فقال: يا قوم! إنِّي رأيتُ الجيش بعينيَّ») هذا ضربُ مثلٍ لحاله في الإنذار، ولأحوال السَّامعينَ لإنذاره؛ فإنَّه أنذرَهم بما علمه من عقاب الله، وبما يتخوَّف عليهم من فجأته، فمن صدَّقه نجا، ومن أعرضَ عنه هلكَ. وهذا بخلاف التمثيل في الحديث الأوَّل؛ فإنَّ ذلك بالنسبة إلى تحصيل العلم والانتفاع به، وإلى الإعراض عنه، فهما مثلان مختلفان.

و(قوله: وإنِّي إنا النذيرُ العُرْيَانُ») هذا مثل؛ قيل: كان أصله: أنَّ رجلاً مُعيَّناً سلبَه العدو، فانفلتَ منهم، فأنذرَ قومَه عُرياناً. وقيل: كان الرَّجل من العرب إذ رأى ما يُوجب إنذارَ قومه تجرَّدَ من ثيابه، وأشارَ رليهم ليعلمَهم بما دَهمَهم، وهذا أشبه، وأليقُ

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما مَثَلي ومَثَلُ أُمَّتي كمثلِ رجلٍ استوقد ناراً؛ فجعلت الدَّوابُّ والفراش يقعن فيه؛ فأنا آخذٌ بحُجَزِكم وأنتم تقحَّمون فيه».

رواه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ

وعن جابرٍ مثله، وقال: «وأنتم تفلَّتون من يدي». رواه مسلم.

* * *

بمقصود الحديث. و(النجاءَ): السرعة، وهو منصوبٌ على المصدر، وهو بالمد، وقيل: بالقصر. حكاه أبو زيد[1]، ولو تكرر لفظه لوجبَ نصبه. و(ادلجوا): ساروا من أول الليل إدلاجاً، والاسم: الدَّلجُ، والدَّلجَةُ ـ بفتح الدال ـ والادِّلاج: الخروج من آخر الليل، والمصدر: الادِّلاج، والاسم: الدُّلجة ـ بضم الدَّال ـ قال ابن قتيبة: ومن النَّاس من يُجبز الوجهين في كلِّ واحدٍ منهما، كما يقال: بَرْهةً من الدَّهر، وبُرْهةً. و(اجتاحهم): أهلكهم، واستأصلَهم. يقال: جاحَتْهُم السَّنَةُ، تجوحُهم، جَوْحاً، وجِيَاحَةً. واجتاحتهم، تجتاحُهم. اجتياحةً.

و(قوله: «استوقدَ ناراً») أي: وقدَها، والسِّين والتَّاء زائدتان. و(الجَنَادبُ) جمع جُندَب ـ بفتح الدَّال وضمها ـ وهي: الجرادة. هذا هو المعروف من اللغة. وقال أبو حاتم: الجندب على خلقة الجرادة، له أربعة أجنحةٍ يُصَرِّرُ باللَّيل صرّاً شديداً. و(الفَرَاش) قال الفراء: هو غوغاء الجراد التي تنفرشُ وتتراكب وقال غيره: هو الطيرُ الذي يتساقطُ في النار وفي السِّراج. قال الشيخ: وهذا أشبهُ بما في الحديث. و(الحُجَزُ) جمع حُجْزة، وهي مَعقد الإزار والسراويل. ويُقال: تحاجز القومُ؛ إذا أخذَ بعضُهم بحُجْزة بعض، وإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطَه أخذ بذلك الموضع منه. والتقحُّم: هو التهجُّم على الشيء من غير تروٍّ، ولا تبصُّرٍ. وهذا مثلٌ لاجتهاد نبينا ﷺ في نجاتنا، وحرصه على تخليصنا من الهلكات التي بين أيدينا، ولجهلنا بقدر ذلك، وغلبة شهواتنا علينا، وظفر عدوِّنا اللعين بنا؛ حتى صرنا أحقرَ من الفَرَاش والجَنَادب، وأذلَّ من الطِّين اللاَّزب.

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإنْ كان ذُو عُسْرَةٍ فنظرةٌ إلى ميْسَرة﴾ سورة البقرة: الآية 280

باب مثل النّبيِّ ﷺ مع الأنبياء

عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلُ الأنبياء كمثل رجلٍ بنى داراً فأتمَّها وأكملها رلا موضع لبنة؛ فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون منها، ويقولون: لولا موضعُ اللَّبنة!». قال رسول الله ﷺ: «فأنا موضعُ اللَّبنة؛ جئت فختمتُ الأنبياءَ».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ.

ونحوه عن أبي هريرة، غير أنَّه قال: «فأنا اللَّبنة، وأنا خاتم النَّبيين».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

* * *

(قوله ﷺ: مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجلٍ بنى داراً، فأتمَّها وأكملها؛ إلا موضع لَبِنَةٍ») اللبنة الطوبة التي يُبنى بها، وفيها لغتان:

إحداهما: فتح اللام وكسر الباء، وتجمع: لَبِن، غير أنك تسقط الهاء من الجمع. كَبِقة ونَبِق.

والثانية: كسر اللام وسكون الباء، وتجمع: لِبَن - بكسر اللام وفتح الباء، كسِدْرَةٍ وسِدَرٍ.

ومقصود هذا المثل: أن يُبيَّن به ﷺ أن الله تعالى ختم به النبيين والمرسلين، وتمَّم به ما سبق في عمله إظهاره من مكارم الأخلاق، وشرائع الرسل، فيه كَمُلَ النظام، وهو ختمُ الأنبياء، والرسل الكرام، صلى الله عليه وعلى آله أفضل صلاة، وسلَّم عليه أبلغ سلام.

* * *

باب إذا رحم الله أمةً قبض نبيَّها قبلها

عن أبي موسى، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله ـ تعالى ـ إذا أراد رحمةَ أمةٍ من عباده قَبَضَ نبيَّهاقبلها، فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمةٍ عذَّبها ونبيُّها حيٌّ، فأهلكها وهو ينظر، فأقرَّ عينهُ بهَلَكَتِها حين كذَّبوهُ وعَصَوْا أمْرَهُ».

رواه مسلم.

وعن سهلٍ، قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «أنا فَرَطكُمْ على الحَوْض؛ من وَرَدَ شرِب؛ ومن شرب لم يظمأ أبداً. ولَيَرِدَنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعْرفوني؛ ثم يُحالُ بيني وبينهم».

رواه البخاريُّ ومسلم.

ومن باب: إذا أراد الله رحمة أمةٍ قبض نبيَّها قبلها

إذا كان موتُ النبيِّ ﷺ قبل أمته رحمةً لأمته؛ لأن الموجبَ لبقائهم بعده إيمانهم به، واتباعهم لشريعته، ثم إنهم يصابون بموته، فتعظم أجورهم بذلك. اذ لا مصيبة أعظم من فقد الأنبياء، فلا أجر أعظم من أجر من أصيب بذلك، ثم يحصل لهم أجر التمسك بشريعته بعده، فتتضاعف الأجور، فتعظم الرحمة. ولهذا قال ﷺ: «حياتي لكم رحمة، ومماتي لكم رحمة». وأما إذا أهلكها قبله فذلك لا يكون إلا لأنهم لم يؤمنوا به، وخالفوه، وعصوا أمره، فإذا استمروا على ذلك من عصيانهم وتمردُهم أبغضهم نبيهم، فربما دعا عليهم فأجاب اللَّهُ دعوتَه فأهلكهم، فأقرَّ عينه فيهم، كما فعل بقوم نوحٍ وغيره من الأنبياء، وقد تقدَّم القولُ في الفَرَط؛ وأنه المتقدم.

ومن حديث أبي سعيد، فيقول: «إنهم منِّي، فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لمن بدَّل بَعْدي».

رواه البخاري ومسلم.

* * *

باب ما خص به النبي ﷺ من الحوض المورود ومن أنه أعطي مفاتيح خزائن الأرض

عن عبدِ الله بن عمرو بنِ العاص قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «حوضي مسيرةُ شهرٍ؛ وزَواياهُ سواءٌ؛ وماؤُه أبيضُ من الوَرِقِ؛ وريحُهُ أطيب من

قال الشيخ رحمه الله: وحديث أبي موسى: هو من الأربعة عشر حديثاً المنقطعة الواقعة في كتاب مسلم؛ لأنه قال في أول سنده: حُدِّثتُ عن أبي أسامة، وممن روى عنه: إبراهيم بن سعيد الجوهري. قال: حدثنا أبو أسامة، ثم ذكر السندَ متصلاً إلى أبي موسى -رضي الله عنه-.

* * *

ومن باب: أحاديث حوض النبيِّ ﷺ وأوانيه

قد تقدَّم القولُ على كثيرٍ من معاني أحاديث هذا الباب في كتاب الطهارة. ومما يجب على كلِّ مكلَّفٍ أن يعلمه، ويصدِّقَ به: أن الله تعالى قد خصَّ نبيَّه محمداً ﷺ بالكوثر الذي هو الحوض المصرَّح باسمه، وصفته، وشرابه وآنيته في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الشهيرة؛ التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، واليقين التواتريُّ؛ إذ قد روى ذلك عن النبيِّ ﷺ من الصحابة نيِّفٌ على الثلاثين، في الصحيحين منهم نيِّفٌ على العشرين، وباقيهم في غيرهما، مما صحَّ نقلُه، واشتهرت روايته، ثم قد رواها عن الصحابة من التابعين أمثالُهم، ثم لم تزلْ تلك الأحاديث مع توالي الأعصار وكثرة الرواة لها في جميع الأقطار، تتوفَّر هممُ الناقلين لها على روايتها

المِسْك؛ كيزانه كنجوم السَّماء، منْ شَرِبَ منه لم يظمأ بعده أبداً».

قال: وقالت أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ: قال رسولُ الله: «إنِّي على الحوض حتى أنظُرَ من يَرِدُ عليَّ منكُم؛ وسيُوخَذُ أُناسٌ دُوني؛ فأقولُ: يا ربِّ! منِّي ومن أمَّتي. فيُقالُ: أما شَعَرْتَ ما عَمِلوا بَعْدكَ؟ والله! ما بَرِحوا بَعْدَك يرجِعُون على أعقابهم».

قال: فكان ابنُ أبي مُلَيكةَ يقول: اللهمَّ إنا نعوذ بك أَنْ نرجع على أعقابنا أو أن نُفتَنَ عن ديننا.

رواه البخاريُّ ومسلم.

وتخايدها في الأمهات، وتدوينها، إلى أن انتهى ذلك إلينا، وقامت به حجةُ الله علينا، فلزمنا الإيمانُ بذلك، والتصديق به، كما أجمع عليه السلف، وأهلُ السنَّة من الخَلَف. وقد أنكرته طائفةٌ من المبتدعة، وأحالوه عن ظاهره، وغلوا في تأويله من غير إحالة عقليَّة ولا عاديَّة، تلزم من إقراره على ظاهره، ولا منازعة سمعية ولا نقلية تدعو إلى تأويله، فتأويله تحريفٌ، صدر عن عقل سخيف، خَرَق به إجماع السلف، وفارق به مذهبَ أئمة الخلف. والحوضُ مجتمعُ الماء. يقال: استحوض الماء؛ إذا اجتمع. ويُجمع: أحواضاً وحياضاً.

و(قوله: «من شرب منه لم يظمأ أبداً») أي: لم يعطش آخرَ ما عليه[1]. وظاهرُ هذا وغيره من الأحاديث: أن الورودَ على هذا الحوض، والشرب منه؛ يكون بعد النجاة من النار، وأهوال القيامة؛ لأن الوصول إلى ذلك المحل الشريف، والشرب منه، والوصول إلى موضع يكون فيه النبيُّ ﷺ ولا يمنع عنه، من أعظم الإكرام، وأجلّ الإنعام، ومن انتهى إلى مثل هذا كيف يُعاد إلى حسابٍ، أو يذوق بعد ذلك تنكيلَ خزيٍ وعذابٍ؟! فالقول بذلك أوهى من السراب.

---

(1) هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، من أئمة الأدب واللغة في البصرة، توفي سنة 215هـ.

وعن عقبةَ بن عامرٍ: أنَّ رسول الله ﷺ خرج فصلَّى على أهل أُحُد صلاته على الميِّت؛ ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «إنِّي فرطٌ لكم؛ وأنا شهيدٌ

و(قوله ﷺ: «حوضي مسيرة شهرٍ زواياه سواء») أي: أركانه معتدلة. يعني: أن ما بين الأركان متساوٍ، فهو معتدلُ التربيع. وقد اختلفت الألفاظ الدَّالةُ على مقدار الحوض، كما هو مُبيَّن في الروايات المذكورة في الأصل. وقد ظنَّ بعضُ القاصرين: أن ذلك اضطراب، وليس كذلك، وإنما تحدَّث النبيُّ ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة إشعاراً بأن ذلك تقديرٌ لا تحقيق، وكلها تفيد: أنه كبيرٌ متسعٌ، متباعد الجوانب والزوايا، ولعلَّ سببَ ذكره للجهات المختلفة في تقدير الحوض: أن ذلك إنما كان بحسب مَن حضره ممن يعرف تلك الجهات، فيخاطبُ كلَّ قوم بالجهة التي يعرفونها، والله أعلم.

و(قوله: «ماؤه أبيض من الوَرِق») جاء أبيض ـ ها هنا ـ في هذا الحديث على الأصل المرفوض[1]، كما قد جاء في قولهم:

..... فأنْتَ أبْيَضُهُم سِرْبَالَ طَبَّاخ[2]

وكما قد جاء قوله ﷺ: «توافون سبعين أمَّةً أنتم أخيرهم» أي: خيرهم، وكما قد جاء عنه ﷺ: «لينتهينَّ أقوامٌ عن وَدْعهم الجمعات»، وكل ذلك جاء مَنْبَهَةً على الأصل المرفوض والمستعمل الفصيح، كما جاء في الرواية الأخرى: «أشد بياضاً من الثلج»، ولا معنى لقول من قال من مُتعسِّفة النحاة: لا يجوزُ التلفظُ بهذه الأصول المرفوضة مع صحَّة هذه الروايات، وشهرة تلك الكلمات.

و(قول عقبة: إن رسول الله ﷺ خرج فصلى على أهل أُحُد صلاته على الميت)، أي: دعا لهم بدعاء الموتى؛ وكأنه ﷺ كان قد استقبل القبلة، ودعا لهم، واستغفر، وهذا كما فعل حيث أمره الله تعالى أن يستغفر لأهل البقيع، فقام عليهم ليلاً، واستغفر لهم ثم انصرف كما تقدم في الجنائز.

---

(1) أي: لا يظمأ ما دام في الموقف للحساب.

(1)أي: على وزن أفعل التي للتفضيل، وهنا في الألوان مرفوضة هذه الصيغة، ويقال: أسدّ بياضاً

عليكم؛ وإنِّي، والله لأَنْظُرُ إلى حوضي الآن! وإنِّي قد أُعْطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض ـ أو مفاتيح الأرض ـ وإنِّي والله ما أخافُ عليكم أنْ تشركوا بعدي! ولكنْ أخافُ عليكم أن تتنافسوا فيها».

و(قوله: «أعطيت مفاتيح خزائن الأرض») أي: بُشِّر بفتح البلاد، وإظهار الدين، وإعلاء كلمة المسلمين، وتمليكه جميع ما كان في أيدي ملوكها من الصفراء، والبيضاء، والنفائس، والذخائر، فقد ملكه اللهُ ديارهم، ورقابهم، وأرضيهم، وأموالهم. كل ذلك وفاءٌ بمضمون: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[1].

و(قوله: «إني والله لستُ أخشى عليكم أن تشركوا بعدي») يعني: أنه قد أمن على جملة أصحابه أن يُبدِّلوا دين الإسلام بدين الشرك. ولا يلزم من ذلك ألاَّ يقعَ ذلك من آحادٍ منهم؛ فإن الخبر ـ عن الجملة ـ لا يلزم صدقُه على كلِّ واحدٍ من آحادها دائماً. كيف لا؟! وهو الذي أخبر بأن منهم من يرتدُّ بعد موته ﷺ كما جاء نصاً في غير ما موضع من أحاديث الحوض وغيرها. وقد ظهر في الوجود ردَّةُ كثيرٍ ممن صحب النبيَّ ﷺ وصلي معه، وجاهد، ثم كفر بعد موته. وقد تقدَّم قولُ ابن إسحاق وحكايتهُ: أنه لم يبق بعد موت النبيِّ ﷺ مسجد من مساجد المسلمين إلا كان في أهله ردَّةٌ، إلا ما كان من ثلاثة مساجد. وقتالُ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لأهل الردة معلومٌ متواترٌ. وإذا كان كذلك فيتعيَّن حَمْلُ هذا الحديث على ما ذكرناه. ويحتمل أن يكون هذا خبراً عن خصوص أصحابه الذين أعلمه اللهُ تعالى بمآل حالهم، وأنهم لا يزالون على هدي الإسلام وشرعه إلى أن يَلْقَوا اللهَ ورسوله على هديه، إذ قد شهد رسولُ الله ﷺ لكثير منهم بذلك، وشوهدت استقامة أحوالهم حتي توفاهم الله تعالى عليه. ويحتمل أن يحملَ هذا الخبرُ على جميع الأمة، فيكون معناه: الإخبار عن دوام الدين، واتصال ظهوره إلى قيام الساعة، وأنه لا ينقطعُ بغلبة الشرك على جميع أهله، ولا بارتدادهم، كما قد شهد بذلك الكتاب والسنّة وإجماع الأمة. والأول أظهر من الحديث. والله أعلم.

---

(2) هذا عجز بيت لطرفة بن العبد، وصدره:

وفي رواية: ثم صَعِدَ المنبرَ كالمودِّع للأحياءِ والأموات. فقال: «إني فرطُكُم على الحوضِ، وإنَّ عرضَه كما بين أيْلةَ إلى الجُحْفة، إنِّي لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكنِّي أخشى عليكم الدُّنيا أنْ تتنافسوا فيها، وتقتتلوا، فتهلِكوا، كما هَلَكَ من كانَ قبلَكُمْ».

قال عقبة: فكانتْ آخر ما رأيت رسولَ الله ﷺ على المنبر.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والنسائيُّ.

* * *

و(قوله: «ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تتنافسوا فيها، وتقتتلوا فتهلِكُوا») هذا الذي توقعه النبيُّ ﷺ هو الذي وقع بعده، فعمَّت الفتن، وعظمت المحن، ولم ينجُ منها إلا من عُصم، ولا يزال الهرجُ إلى يوم القيامة. فسأل اللهَ تعالى عاقبةَ خيرٍ وسلامةٍ. وجرباء: صحيح روايته بفتح الجيم وسكون الراء والمدِّ، وقد وقعَ عند بعض رواة البخاريّ بالقصر وهو خطأ. وأذْرُح: بفتح الهمزة، وذال معجمة ساكنة، وراء مضمومة، وحاء مهملة، وهو الصواب. ووقع في رواية العذريّ بالجيم، وهو خطأ، وقد فسَّرها في الأصل: بأنهما قريتان من قرى الشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام، وقال ابن وضّاح في أذْرُح: أنها فلسطين، وهذا يدل على صحة ماقلناه: أنه كان يُقدَّر الحوض لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافاتِ مواضعها، فيقول هذا لأهل الشام، ويقول لأهل اليمن: من صنعاء إلى عدن، وتارة أخرى يقدِّره بالزمان، فيقولُ مسيرة شهر. وعَمَّان: بفتح العين، وتشديد الميم، وهي قرية من عمل دمشق، وهي من البلقاء، وقد جاء في الترمذيِّ: من عدن إلى عمَّانَ البلقاء، وقيل فيها: عُمَان: بضم العين، وتخفيف الميم وليس بصحيح، وإنما التي هي كذلك: عُمَان التي باليمن؛ بلا خلاف فيها وهي مدينة كبيرة.

باب في عظم حوض النبي ﷺ
ومقداره وكبره وآنيته

عَنْ حارثةَ: أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «حوضهُ ما بين صنعاء والمدينة».

فقال له المُسْتَوْرِدُ: أَلَمْ تسمعْه قال: الأواني؟ قال: لا. قال المستورد: «تُرَى فيه الآنيةُ مثلَ الكواكب».

رواه البخاريُّ ومسلم.

وعن ابنِ عمر: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ أمامَكُم حوضاً كما بين جَرباء وأذْرُح، فيه أباريقُ كنجومِ السَّماء؛ من وَرَدَهُ فشربَ مِنْهُ، لم يظمأُ بعدَها أبداً».

رواه عبيدُ الله: فسألته فقال: قريتين بالشام بينهما مسيرةُ ثلاث ليالٍ.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود.

وعن أبي ذرٍّ، قال: قلتُ: يا رسول الله! ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده! لآنيَتُه أكثرُ من عددِ نجوم السماءِ وكواكبها؛ ألا في الليلة المظلمة المصْحية آنيةُ الجنّة من شرب منها لم يظْمَأْ آخرَ ما عَلَيْه؛ يَشخُبُ فيه ميزابانِ من الجَنَّة؛ مَنْ شَرَبَ منه لم يظمأْ؛ عرْضُه مثلُ طوله ـ ما بين عمَّان إلى أَيْلَةَ! ماؤُهُ أشدُّ بياضاً من اللَّبَن؛ وأحلى من العسل».

رواه مسلم والترمذيُّ.

و(قوله: «إني لَبِعُقْرِ حَوْضي») هو بضم العين، وسكون القاف، وهو موخَّره حيث تقف الإبل إذا وردته، وتُسكَّنُ قافه وتضم، فيقال: عُقْر وعُقُر، كعُسْر وعُسُر، قاله في الصحاح، قال غيره: عَقر الدار: أصلها ـ بفتح العين وقد تُضمُّ ـ.

وعن ثوبان: أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أذودُ النَّاسَ لأهل اليمن؛ أضربُ بعصايَ حتى يرفضَّ عليهم» فسئِلَ عن عرضه، فقال: «من مقامي إلى عمَّان» وسُئِلَ عن شرابه؛ فقال: «أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل: يَشْخَبُ فيه ميزابان يمدَّانه من الجنَّة؛ أحدهما من ذهبٍ، والآخرُ من وَرِقٍ».

رواه أحمد ومسلم والترمذيُّ وابن ماجه.

و(قوله: «أذود الناس لأهل اليمن») يعني: السابقين من أهل اليمن الذين نصرَه الله بهم في حياته، وأظهرَ الدِّين بهم بعد وفاته. وقد تقدَّم أن المدينة من اليمن، وأنهم أحقُّ بهذا الركرام من غيرهم، لما ثبت لهم من سابق النُّصْرة، والأثرة(١)، ولذلك قال للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض». وأذودُ: أدفع؛ فكأنه يطرِّق لهم مبالغةً في إكرامهم حتى يكونوا أوَّلَ شارب، كما يفعلُ بفقراء المهاجرين؛ إذ ينطلقُ بهم إلى الجنة، فيُدخلهمُ الجنَّة قبل الناس كلِّهم، كما قد ثبتَ في الأحاديث. ولا يُظنُّ: أن النبيَّ ﷺ يُلازم المقامَ عند الحوض دائما، بل: يكونُ عند الحوض تارةً، وعند الميزان أخرى، وعند الصِّراط أخرى، كما قد صحَّ عنه: أن رجلاً قال: أين أجدُكَ يا رسولَ الله يوم القيامة؟ قال: «عند الحوض، فإن لم تجدني فعند الميزان، فإن لم تجدني فعند الصراط؛ فإني لا أخطىء هذه المواطنَ الثلاث». وكأنه ﷺ لا يفارق أصحابه، ولا أمته في تلك الشدائد سعياً في تخليصهم منها، وشفقة عليهم، ﷺ، ولا حال بيننا وبينه في تلك المواطن!.

و(قوله: «أضرب بعصاي حتي يرفضَّ») بالمثناه من تحت، أي: يضرب من أراد من الناس الشربَ من الحوض قبل أهل اليمن، ويدفعهم عنه حتى يصل أهلُ اليمن، فيرفضُّ الحوض عليهم؛ أي: يسيل، يقال: رفضَّ الدمع: إذا سال.

و(قوله: «يشْخَبُ فيه ميزيان من الجنة») أي: يسيل، وهو بالشين والخاء المعجمتين، والشَّخب ـ بالفتح في الشين ـ المصدر، وهو السيلان، وبالضم: الإسم يقال

---

(١) إذا الرِّجال شَتوا واشتدَّ أكلهم.

وعن أنسِ بن مالكٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «قدْرُ حوضي كما بين أيلةَ وصنعاء من اليمن؛ وإنَّ فيه من الأباريق كعددِ نجومِ السَّماء.

وفي روايةٍ: «تُرى فيه أباريقُ الذَّهبِ والفضَّةِ كَعَدَدِ نجوم السَّماء».

رواه أحمد ومسلم وابن ماجه.

وعن جابرِ بن سَمُرَة، عن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنِّي فَرطٌ لكمْ على الحوض؛ وإنَّ بُعْدَ ما بين طَرفَيه كما بين صنعاءَ وأَيْلةَ».

رواه مسلم.

* * *

في المثل :شخبفي الأرض وشخب في الإناء. وأصل ذلك في الحالب المفرِّط. وفي الرواية الأخرى: «يغت» بالغين المعجمة، وبالمثناة فوق: هي الرواية المشهورة، ومعناه: الصب المتوالي، المتتابع. وأصله: إتباع الشيء الشيء، يعني: أنه يصب دائماً متتابعاً صباً شديداً سريعاً، وقد رواه العذري: يعب ـ بالعين المهملة، وبالموحدة ـ، وكذا ذكره الحربيُّ، وفسره بالعب، وهو شربُ الماء جُرْعة بعد جُرْعة، ورواه ابنُ ماهان: يثعب ـ بثاء مثلثة قبل العين المهملة ـ ومعناه: تتفجَّر وتسيل، ومنه: وجرحه يثعب دماً.

و(قوله: «يَمُدَّانه من الجنة») فصيحه: يَمُدانه بفتح الياء، وضم الميم ثلاثياً من مَدَّ النهرُ، ومدَّه نهرٌ آخر. فأما الرباعي فقولهم: أمددت الجيش بمدد، وقد جاء الرباعي في الأول، ومعناه: الزيادة على الأول فيهما. واخْتُلجُوا. أُخْرِجُوا من بين الواردين. وأصيحابي: تصغير أصحاب على غير قياس. ولابتا الحوض: جانباه اللذان من خارجه حيث يكون شدة الحر والعطش، وأصل اللاَّبة: الحرَّة؛ وهي أرضٌ ألبستْ حجارة سوداً، ومنه: لابتا المدينة، كما تقدَّم وسُحْقاً سُحْقاً: بُعْداً بُعْداً، والسحيق: المكان البعيد.

* * *

باب شجاعة النَّبيِّ ﷺ وإمداده بالملائكة

عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ أحسنَ النَّاس؛ وكان أجودَ النَّاس؛ وكان أشجع النَّاس؛ ولقد فَزِعَ زهلُ المدينة ذات ليلةٍ، فانطلق ناسٌ قِبلَ الصَّوت؛ وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ - في عُنُقه السيفُ وهو يقولُ: «لَمْ تُراعُوا! لم تُراعُوا!». قال: يوجدناه بحراً - أو - إنَّه لَبَحرٌ». وكان فرساً يُبَطَّأ.

ومن باب: شجاعة النبي ﷺ
وجوده وحُسْن خُلُقه

(قوله: فزع أهل المدينة) أي: ذعروا من عدوٍّ دهمهم، وقد قدمنا أن الفرعَ يقال على أوجهٍ متعددةٍ. و(لم تراعوا)، أي: لم يصبكم روعٌ، أو لا روع عليكم.

و(قوله: وجدناه بحراً) يعني: الفرس. أي: وجدناه يجري كثيراً جرياً متتابعاً كالبحر. وقد تقدَّم: أنَّ أصل البحر: السَّعةُ، والكثرةُ. ويقال: فرَسٌ سحبٌ، وبحرٌ، وسكْبٌ، وفيضٌ، وغمرٌ: إذا كان سريعاً، كثير الجري، شديد العَدْوِ.

و(قوله: وكان فرساً يُبَطَّأ). أي: يُنسب البطءُ إليه، ويعرف به، فلما ركبه رسولُ الله ﷺ أدركته بركتُه، غسابق الجياد، وصار نعم العتاد. والرواية المشهورة: يبطأ بالمثناة تحت والموحدة، من البطء: ضد السرعة، وعند الطبري: ثبطاً، أي: ثقيلاً. وهو بمعنى الأول. والفرس العُري الذي لا سرج عليه، يقال: فرس عري وخيل أعراء. ويقال: رجل عُريان، ورجال عَرايا. وفي هذا الحديث ما يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ كان قد جُمع له من جودة ركوب الخيل، والشجاعة، والشهامة، والانتهاض الغائيّ في الحروب، والفروسية وأهوالها، ما لم يكن عند أحدٍ من الناس، ولذلك قال أصحابه عنه: إنه كان أشجعَ الناس، وأجرأ الناس في حال البأس، ولذلك قالوا: إن الشجاع منهم كان الذي يلوذُ بجنابه إذا التحمت الحروب، وناهيك به؛ فإنه ما ولَّى قطُّ منهزما، ولا تَحَدَّث أحد عنه قطُّ بفرارٍ. ومندوب: اسمُ علم لذلك الفرس. وقيل:

قال في روايةٍ: فاستعار النَّبيُّ ﷺ فرساً لأبي طلحة يُقال له: منذوب؛ فرَكِبَهُ فقال: «ما رأيْنا منْ فَزَعٍ؛ وإنْ وجدناه لَبَحْراً».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ.

وعن سعد بن أبي وقاص، قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يومَ أحدٍ رجلين عليهما ثيابُ بيَاضٍ ما رأيْتُهُما قبلُ ولا بعدُ يعني: جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وفي روايةٍ: يقاتلان عنه كأشد القتال؛ ما رأيتهما قبل ولا بعد.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

* * *

إنه سُمِّي بذلك لأنه كان يَسْبِق، فيجوز الندب، وهو: الخَطَر[1] الذي يُجعل للسابق، وكأنه إنما حدث له هذا الاسم بعد أن ركبه رسولُ الله ﷺ. وقد ذكر أنه كان لرسول الله فرس يسمى مندوباً، ويحتمل أن يكون هذا الفرس انتقل من ملك أبي طلحة إلى مَلْك النبيِّ ﷺ إما بالهبة، وإما بالابتياع، ويحتمل أن يكون فرساً آخر وافقه في ذلك الاسم. والله أعلم.

و(قول سعد: رأيتُ عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله رجلين يوم أحد عليهما ثيابُ بياض، يقاتلان عليه كأشدّ القتال). قال، يعني: جبريل وميكائيل - صلى الله عليهما وسلم رؤية سعدٍ - رضي الله عنه - لهذين الملكين في ذلك اليوم: كرامةٌ من الله تعالى خصَّه بها، كما قد خصَّ عمران بن حصين بتسليم الملائكة عليه، وأسيد بن حضير برؤية الملائكة الذين تنزلوا لقراءة القرآن، وقتال الملائكة للكفار يوم بدرٍ، ويوم أُحُدٍ لم يخرجْ عن عادة القتال المعتاد بين الناس، ولو أذن اللهُ تعالى لملك من أولئك الملائكة بأن يصيحَ صيحة واحدة في عسكر العدوِّ لهلكوا في لحظةٍ

---

(1) سورة التوبة الآية 33.

باب كان رسول الله ﷺ أجود الناس وأحسن الناس خلقاً

عن أبن عباسٍ قال: كان رسول الله ﷺ أجْودَ الناس بالخير؛ وكان أجود ما يكونُ في شهر رمضان. إنَّ جبريل عليه السلام كان يلقاه في كل

واحدة، أو لخسف بهم موضعهم، أو أسقطَ عليهم قطعةً من الجبل المطلِّ عليهم، لكن لو كان ذل؛: لصار الخبرُ عياناً، والإيمان بالغيب مشاهدةً، فيبطل سرُّ التكليف، فلا يتوجَّه لومٌ ولا تعنيفٌ، كما قد صرَّح الله تعالى بذلك قولاً وذكراً؛ إذ قال: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَيَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً** ﴾ (1).

و(قوله: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان أجودَ الناس) أي: أكثرهم جُوداً وسخاءً، هذا هو المعلومُ من خُلُقه؛ فإنه ما سُئل قطُّ شيئاً فمنعه إذا كان مما يصحُّ بذلُه وإعطاؤه.

و(قوله: وكان أجودَ ما يكون في رمضان) إنما كان ذلك لأوجه:

أحدهما: رغبةً في ثواب شهر رمضان، فإنَّ أعمالَ الخير فيه مضاعفةُ الأجر، وليعين الصائمين على صومهم، وليفطرهم، فيحصل له مثل أجورهم كما قال؛ ولأنه كان يلقى فيه جبريلَ لمدارسة القرآن، فكان يتجدد إيمانُه، ويقينه، وتعلو مقاماته، وتظهر عليه بركاته، فيا له من لقاء ما أكرمه! ومن مشهد ما أعظمه! وقيل: إنما كانت عطاياه تكثر في رمضان؛ لأنَّه كان يقدِّم الصدقات بين يدي مناجاة الرسول لقوله تعالي: ﴿ **إِذَا نَـٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ﴾ (2) وفيه بُعْدٌ، لأنه قد كان نسخ ذلك، ولاتبعاد دخول النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا** ﴾(3) ولِبُعْد دخول جبريل في قوله تعالى: ﴿ **إِذَا نَـٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ** ﴾. و(أجود): قيل بالنصب

---

(1) « الأثرة »: المكرمة.

(1) « الخطر »: الرِّهان.

(1) سورة الأنعام الآية 158.

سنة في رمضان حتى ينسلخَ؛ فيَعْرِضُ عليه رسولُ الله ﷺ القُرآن؛ فإذا لَقِيَهُ جبريلُ كان رسولُ الله ﷺ أجودَ بالخيرِ من الرِّيح المُرْسَلَة.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

وعن أنسٍ؛ قال: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنَّ أنساً غلامٌ كَيِّسٌ فَلْيَخْدُمْكَ. قال: فَخَدَمْتُهُ في السَّفَرِ والحَضَرِ؛ والله! ما قال لي لشيءٍ صنعْتُهُ: لِمَ صنعتَ هذا هكذا؟ ولا لشيء لَمْ أصنعهُ: لِمَ لَمْ تصنع هذا هكذا؟.

وفي رواية: والله ما قال لي أُفاً قَطُّ، ولا عاب عليّ شيئاً قطُّ.

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم وأبو داود.

على أنه خبر كان، وفيه بُعْدٌ لأنه يلزم منه: أن يكون خبرُها هو اسمها، وذلك: لا يصح إلا بتأويل بعيد، والرفعُ أولى؛ لأنه يكون مبتدأ مضافاً إلى المصدر، وخبره: في رمضان، وتقديره: أجود أكوانه في رمضان، ويعني بالأكوان: الأحوال والله أعلم.

و(قوله: إن جبريل ﷺ كان يلقاه في كلِّ سنة في رمضان) يصلح الكسر في إن على الابتداء، والفتح فيه أولى، فيكون تعليلاً لجود النبيِّ ﷺ في رمضان، وكان هذا الوجه أولى. والله أعلم، ولا أذكر الآن كيف قيَّدتُها على مَن قرأتُه عليه.

و(قوله: كان أجودَ من الريح المرسلة) أي: بالمطر، وفيه جوازُ المبالغة، والإغياء في الكلام. و(أفٍّ) كلمةُ ذمٍّ وتحقيرٍ واستقذار، وأصلُ الأفِّ والتفِّ: وسخ الأظفار، وفيها: عشر لغات: أفّ بغير تنوين بالفتح والضم والكسر، وبالتنوين للتنكير مع الأوجه الثلاثة، وبكسر الهمزة وفتحها، ويقال: أُفِّي وأفِّه. وفي الصحاح، يقال: كان ذلك على إفٍّ ذلك، وإفَّانه ـ بكسرها ـ أي: في حينه، وأوانه.

وعنه، قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجةٍ. فقلت: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمُرَّ على صبيانٍ وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك. فقال: «يا أُنَيس! ذهبتَ حيث أمرتك؟» قال: قلت: نعم. أنا أذهب يا رسول الله. قال أنس: والله! لقد خدمته تسع سنين؛ ما علمتُه قال لشيءٍ صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ أو لشيء تركته: هلاَّ فعلت كذا وكذا!.

وفي رواية: قال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين.

رواه مسلم.

* * *

و(قول أنسٍ: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب) هذا القول: صَدَرَ عن أنسٍ في حال صغره، وعدم كمال تمييزه؛ إذ لا يصدرُ مثلُه ممن كملٍ تمييزُه. وذلك: أنه حَلَف بالله على الامتناع من فعل ما أمره به رسولُ الله ﷺ مشافهةً، وهو عازمٌ على فعْله، فجمع بين مخالفة رسول الله ﷺ وبين الإخبار بامتناعه، والحلفُ بالله على نفي ذلك مع العزم على أنه كان يفعله، ،فيه ما فيه، ومع ذلك فلم يلتفت النبيُّ ﷺ لشيءٍ من ذلك، ولا عرَّج عليه، ولا أدبه. بل: داعبه، وأخذ بقفاه، وهو يضحكُ رِفْقاً به، واستلطافاً له، ثم قال: «يا أنيسُ! اذهب حيث أمرتُك». فقال له: أنا أذهب. وهذا كله مقتضى خُلُقه الكريم، وحِلْمه العظيم. وقد اختلفت الروايات في مدَّة خدمة أنسٍ رسولَ الله ﷺ فقيل: عشر. وقيل: تسع، وذلك بحسب اختلافهم في سَنَة مَقْدَمِ النبيِّ ﷺ المدينة. فقال الزُّهري: عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ وأنا ابنُ عشرٍ، وتوفي وأنا ابن عشرين سنة.

قلتُ: فعلى هذا خدمه عشر سنين؛ إن قلنا: أنه خدمه من أول مَقْدَم النبيِّ ﷺ المدينة، ويُحتمل: أن تكون تأخرت خدمتُه عن ذلك سنة فتكون مدةُ خدمته له: تسع سنين. وقيل: قدم النبيُّ ﷺ وأنس ابن ثماني سنين.

باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً وقال: لا وفي كثرة عطائه

عن جابر بن عبد الله، قال: ما سئل رسولُ الله ﷺ شيئاً قطُّ فقال: لا.

رواه البخاريُّ مسلم.

وعن أنسٍ، قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً ألا أعطاه. قال: فجاءه رجلٌ فأعطاهُ غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلموا؛ فإنَّ محمداً يعطي عطاءَ لا يخشى الفَاقَة.

قال أنس: إن كان الرجل ليُسْلِمُ ما يريد إلا الدنيا، فما يُسْلِمُ حتى يكون الإسلامُ أحب إليه من الدنيا وما عليها.

رواه مسلم.

و(قوله: فأعطاه غَنَماً بين جبلين) يعني: ملء ما بين جبلين كانا هنالك، وكان هذا ـ والله أعلم ـ يوم حنين لكثرة ما كان هنالك من غنائم الإبل، والبقر، والغنم، والذراري، ولأن هذا الذي أُعطي هذا القَدْرَ كان من المؤلفَّة قلوبُهم، ألا ترى أنه رجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام لأجل العطاء؟.

و(قوله: إنْ كان الرجل ليسلمُ ما يريدُ إلا الدنيا) يعني: أنهم كان منهم من ينقادُ فيدخلُ في الإسلام لكثرة ما كان يعطي النبيُّ ﷺ من يتألَّفه على الدخول فيه، فيكون قصدُه بالدخول فيه الدنيا، وهذا كان حالُ الطلقاء يوم حنين على ما مَرَّ.

و(قوله: فما يسلم حتى يكونَ الإسلامُ أحبّ إليه من الدنيا وما عليها) ظاهرُ مساق هذا الكلام أنَّ إسلامَه الأول لم يكن إسلاماً صحيحاً؛ لأنه كان يبتغي به الدنيا، وإنما يصحُّ له الإسلام إذا استقر الإسلامُ بقلبه، فكان آثر عنده، وأحبَّ إليه من

عن ابن شهاب، قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح ـ فتح مكة ـ ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحُنين، فنَصَرَ الله دينه والمسلمين، وأعطى رسولُ الله ﷺ يومئذٍ صفوانَ بن أمية مئةً من النَّعم، ثم مئة، ثم مئة.

قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيِّب: أنَّ صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني؛ وإنه لأبغضُ الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنَّه لأحبُّ الناسِ إليَّ.

رواه مسلم.

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو قد جاءنا مالُ البحرين لقد أعطيتك هكذا، وهكذا، وهكذا» وقال بيديه جميعاً، فقُبض

الدنيا وما عليها، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا**﴾ (1) وهذا معنًى صحيح ولكنه ليس بمقصود الحديث، وإنما مقصودُ أنس من الحديث: أن الرجل كان يدخلُ في دين الإسلام رغبةً في كثرة العطاء؛ فلا يزال يُعطي حتى ينشرحَ صدرُه للإسلام، ويستقر فيه، ويتنور بأنواره، حتى يكون الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما فيها، كما صرَّح بذلك صفوان حيث قال: واللَّه لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغضُ الناس إليَّ، فما بَرح يُعطيني حتي إنه لأحب الناس إليَّ. وهكذا اتفق لمعظم المؤلَّفة قلوبهم.

و(قوله ﷺ لجابرٍ: «لو قد جاءنا مالُ البحرين لأعطيتك هكذا، وهكذا، وهكذا ـ وقال بيديه جميعاً ـ») هذا يدلُّ على سخاوة نفس النبيِّ ﷺ بالمال، وأنه ما

---

(1) سورة التوبة الآية 24

النبي ﷺ قبل أن يجيء مالُ البحرين، فقَدِمَ على أبي بكر بعدَهُ، فأمَرَ مُنادياً فنادى: من كانت له على النبي ﷺ عِدَةٌ أو دينٌ فليأت! فقمت، فقلت: إنَّ نبي الله ﷺ قال: «لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا، وهكذا، وهكذا» فحَثَى أبو بكرٍ مرَّةً، ثم قال لي: عُدَّها، فعددتُها فإذا هي خمسمئة، فقال: خُذْ مِثْلَيها.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

* * *

كان لنفسه به تعلُّق؛ فإنه كان لا يعدُّه بعدد، ولا يقدره بمقدار، لا عند أخذه، ولا عند بذله. وهذا منه ﷺ كان وعداً لجابرٍ ـ رضي الله عنه ـ، وكان المعلومُ من خُلُقه الوفاء بالوعد، ولذلك نفَّذه له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد موت النبيِّ ﷺ. وهكذا كان خُلُق أبي بكر، وخلق الخلفاء الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ ألا ترى أبا بكر كيف نفَّذ عِدةَ رسول الله ﷺ لجابرٍ بقول جابرٍ، ثمَّ إنَّه رفعها له على نحو ما قال من غير تقدير؟! وأخبارهم في ذلك معروفةٌ، وأحوالهم موصوفةٌ، وكفى بذلك (ما سار مسير المثل) الذي لم يزل يجري على قول عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: يا صفراءُ ويا بيضاءُ غُرِّي غيري.

* * *

باب في رَحْمَةِ رسولِ الله ﷺ للصِّبيانِ والعِيَالِ والرَّقيق

عَنْ عائشةَ، قالت: قَدِمَ ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتُقبِّلونَ صبْيَانَكُم؟ فقالوا: نعم، قالوا: لكنَّا والله ما نُقَبِّلُ! فقال رسول الله ﷺ: «وأمْلِكُ أنْ كان اللَّهُ نَزَعَ منكمُ الرَّحمضةَ؟».

وفي رواية: «مِّنْ قَلْبِكَ».

رواه البخاريُّ ومسلم وابن ماجه.

ومن باب: رحمة رسول الله ﷺ للصِّبيان والعيال

(قوله: «وأملك أنْ كان الله نزع الرَّحمة من قلبك؟!» كذا وقع هذا اللفظ محذوف همزة الاستفهام، وهي مرادةٌ؛ تقديره: أوَ أملكُ؟ وكذا جاء هذا اللفظُ في البخاريِّ بإثباتها، وهو الأحسنُ؛ لقلة حذف همزة الاستفهام. و(أنْ) مفتوحةٌ، وهي مع الفعل بتأويل المصدر، تقديرها: أوَ أملك كون الله نَزَعَ الرَّحمةَ من قلبك؟! وقد أبعد مَنْ كسرها، ولم تصحَّ روايةُ الكسر. ومعنى الكلام: نفي قدرته ﷺ عن الإتيان بما نزع اللهُ من قلبه من الرَّحمة. والرَّحمة في حقِّنا: هي رقَّة وحُنُوٌّ يجده الإنسانُ في نفسه عند مشاهدة مُبتلى، أو ضعيف، أو صغير، يحمله على الإحسان إليه، واللطف به، والرِّفق، والسعي في كشف ما به. وقد جعل اللَّهُ هذه الرَّحمةَ في الحيوان كلِّه ـ عاقله وغير عاقله ـ فبها تعطف الحيوانات على نوعها، وأولادها، ٩٥٣٩٥٣ تحنو عليها، وتلطف بها في حال ضعفها وصغرها. وحكمة هذه الرَّحمة تسخيرُ القوي للضعيف، والكبير للصغير حتى ينخفظَ نوعُه، وتتمَّ مصلحته، وذلك تدبيرُ اللطيف الخبير. وهذه الرحمة التي جعلها الله في القلوب في هذه الدار، وتحصلُ عنها هذه المصلحةُ العظيمةُ هي رحمةٌ واحدةٌ من مئة رحمة ادَّخرها اللهُ تعالي ليوم القيامة، فيرحم بها عبادَه المومنين وقت أهوالها، وشدائدها حتي يُخلِّصَهم منها، ويدخلهم في جنَّته، وكرامته. ولا يفهم من هذا أن: الرحمة التي وصف الحقُّ بها نفسَه هي: رقَّةٌ وحنوٌّ

وعن أبي هريرة: أنَّ الأقرعَ بنَ حابسٍ أَبْصَرَ النبيَّ ﷺ يقبِّلُ الحسنَ، فقال: إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ واحداً منْهُمْ. فقالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّه مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ».

رواه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ.

كما هي في حقِّنا؛ لأن ذلك تغيُّر يوجب للمتصف به الحدوث، والله تعالى مُنَزَّه ومُقدَّس عن ذلك، وعن نقيضه الذي هو القسوة، والغلَظُ، وإنما ذلك راجعٌ في حقِّنا إلى ثمرة تلك الرأفة، وفائدتها، وهي: اللطف بالمبتلى والضعيف، والإحسان إليه، وكشفُ ما هو فيه من البلاء، فإذا هي في حقه سبحانه وتعالى من صفات الفعْل لا من صفات الذات، وهذا كما تقدَّم في غضبه تعالى ورضاه في غير موطن. وإذا تقرر هذا؛ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ تعالى في قلبه هذه الرحمة الحاملة له على الرفق، وكشف ضُرِّ المبتلى، فقد رحمه الله تعالى بذلك في الحال، وجعل ذلك علامةً على رحمته إياه في المآل، ومَن سَلَبَ اللَّهُ ذلك المعنى منه، وابتلاه بنقيض ذلك من القسوة والغلَظ، ولم يلطفْ بضعيف، ولا أشفق على مُبتلىً، فقد أشقاه في الحال، وجعل ذلك عَلَماً على شقوته في المآل، نعوذ بالله من ذلك؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن». وقال: «لا يرحم الله من عباده إلا الرحماء». وقال: «لا تُنْزَع الرحمة إلا من شقي» وقال: «من لا يرحم لا يرحم».

وفي هذه الأحاديث ما يدلُّ على جواز تقبيل الصَّغير على جهة الرحمة والشَّفقة، وكراهة الامتناع من ذلك على جهة أَنَفَة، وهذه القبلةُ هي على الفم، ويُكره مثلُ ذلك في الكبار؛ إذْ لم يكن ذلك معروفاً في الصَّدر الأول، ولا يدلُّ على شفقة. فأما تقبيلُ الرأس فإكرامٌ عند مَن جرتْ عادتُهم بذلك كالأب والأم، وأما تقبيلُ اليد فكَرِهَهُ مالك، ورآه من باب: الكبر، وإذا كان ذلك مكروهاً في اليد كان أحرى في الرِّجْل، وقد أجاز تقبيل اليد والرجل بعض الناس، مستدلاً بأن اليهود قَبَّلوا يد رسول الله ﷺ ورجليه حين سألوه عن مسائل، فأخبرهم بها، ولا حجة في ذلك؛ لأن النبيَّ ﷺ قد نزَّهه الله عن الكبر، وأَمِنَ ذلك عليه، وليس كذلك غيرُه؛ ولأن ذلك أظهرَ من اليهود تعظيمَه، واعتقادَهم صِدْقَه، فأقرَّهم على ذلك ليتبيَّن للحاضرين -

وعن أنس؛ قال: ما رأيتُ أَحداً كانَ أرحمَ بالعيالِ منْ رسول الله ﷺ. قال: كانَ إبراهيمُ مُسترضعاً له في عوالي المدينة، فكانَ يَنْطَلِقُ ونحنُ مَعَهُ، فيدخلُ البيتَ وإنَّه ليُدَّخَنُ، وكان ظئره قَيْناً، فيأخذُهُ فيقبِّلُه، ثم يرجعُ.

بإذلالهم أنفسهم له ـ ما عندهم من معرفتهم بصدقه، وأن كفرَهم بذلك عنادٌ وجحدٌ، ولو فهمت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ جوازَ تقبيل يده ورجله لكانوا أوبق إلى ذلك، فيفعلون ذلك به دائماً وفي كلِّ وقت، كما كانوا يتبركون ببزاقه، ونُخاعته، ويدلكون بذلك وجوهَهم، ويتطيَّبون بعَرَقه، ويقتتلون على وَضوئه، ولم يرو قطُّ عن واحد منهم بطريقٍ صحيحٍ أنه قبَّل له يداً ولا رجلاً، فصحَّ ما قلناه، واللَّهُ وليُّ التوفيق.

و(قوله: وكان ظئرُه قَيْناً) الظِّئْرُ: أصلُه اسم للمرضعة، ثم قد يقال على زوجها صاحبُ اللَّبن ذلك. قال الخليل: ويُقال للمذكر والمؤنث. وقال أبو خاتم: الظِّئْرُ من الناس والإبل: إذا عَطَفَتْ على ولد غيرها، والجمع: ظُؤَار. وقال ابن السِّكيت: لم يأت فُعال بضم الفاء جمعاً إلا تُؤام جمع تَوْءَم وظُؤارٌ جمع ظئر، وعُراقٌ جمع عَرْق، ورُخالٌ جمع رَخلٌ(1)، وفَرارٌ جمع فَرير: وهو ولد الظبية. وغنمٌ رِبابٌ: جمع شاة ربَّاء. قال ابن ولاد: وهي حديثة عهد بنتاج. وقال ابن الأنباري: تُجمع الظئر: ظُؤَاراً، أظؤراً، ولا يُقال: ظؤرة. وحكى أبو زيد في جمعه: ظؤرة. قال الهروي: ولا يُجمع على فَعَلة إلا أربعة أحرف: ظئرٌ وظُؤرة، وصاحبٌ وصُحْبة، وفارهٌ وفُرْهةٌ، ورائق وروقةٌ. وفي الصحاح: الظئر ـ مهموز ـ والجمعُ ظؤار على فُعال بالضم. وظؤور وأظآر. و(القين): الحدَّاد. و(القَيْن): العبد. و(القَيْنة): الأَمَة؛ مغنيَّة كانت أو غير مغنِّية. وقد غلط من ظنها: المغنية فقذ. والجمع: القِيان. قال زهير:

ردَّ القِيَانُ جِمالَ الحيِّ فاحتَمَلُوا ... إلى الظَّهيرة أَمْرٌ بَيْنهمْ لَبِكُ

قال الشيخ رحمه الله: وأصلُ هذه اللفظة من: افتانَ النبتُ افتناناً. أي: حسن، واقتانت الروضة: أخذتْ زخرفها، ومنه قيل للماشطة: قينة، ومقينة؛ لأنها تزيِّن النساء، شبهت بالأمة؛ لأنها تُصلح البيت وتزينه.

---

(1) «الرَّخلُ»: الأنثى من أولاد الضأن.

قال عمرو: فلما تُوفِّي إبراهيمُ قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إبراهيمَ ابني مات في الثَّدْي، وإنَّ له لظئرين يُكَمِّلان رَضَاعَهُ في الجَنَّة».

رواه أحمد ومسلم.

وعن جريرِ بن عبدِ الله، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ لا يَرْحم النَّاس لا يَرْحَمْه الله».

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم.

وعن أنسِ بنِ مالك، قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى الغداةَ جاءَ خَدَمُ المدينة بآنيتهم فيها الماءُ، فما يُؤتى بإناءٍ إلا غمس يَدَهُ فيها، فربما جاؤُوه في الغداة الباردة فيغمسُ فيها.

رواه مسلم.

و(قوله: «إن إبراهيمَ ابني قد مات في الثَّدي») أي: في حال رضاعه، أي: لم يُكملْ مدَّة رضاعه. قيل: إنه مات وهو ابن ستة عشر شهراً. وهذا القول: أخرجه فَرْط الشفقة والرحمة والحزن.

و(قوله: «إنَّ له لظئرين يُكمِّلان رضاعَه في الجنة») هذا يدلُّ على أنَّ حكمَه حكمُ الشهيد؛ فإن الله تعالى قد أجرى عليه رزقَه بعد موته، كما قد أجرى ذلك على الشهيد (1) حيث قال: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (2). وعلى هذا: فمن مات من صغار المسلمين بوجه من تلك الوجوه السبعة التي ذكرنا أنها أسبابُ الشهادة كان شهيداً ويُلحق بالشهداء الكبار بفضل الله ورحمته إياهم؛ وإن لم يبلغوا أسنانَهم، ولم يُكلَّفوا تكليفَهم، فمن قُتل من الصغار في الحرب كان حكمه: جكم الكبير فلا يُغسَّلُ، ولا يُصَلِّي عليه، ويُدغن بثيابه كما يُفعل بالكبير. وموافقة النبيِّ ﷺ صلى

---

(1) في (م 2) و(ع): أخبر لذلك عن الشهداء.
(2) سورة آل عمران الآية 169

وعنه، قال: كانَ لرسول الله ﷺ حادٍ حسنُ الصوت، فقال له رسول الله ﷺ: «رويدك يا أنْجَشَةُ! لا تكسِر القَوَارِيرَ!» يعني: ضَعَفَة النِّساء.

رواه البخاريُّ ومسلم.

وعنه: أنَّ امرأةً كان في عَقْلِها شيءٌ. فقالت: يا رسول الله! إنَّ لي إليكَ حاجةً، فقال: «يا أمَّ فلان! انْظُري أيَّ السِّكك شئت، حتى أقضيَ حاجتك». فخلا معها في بعض الطُّرُق، حتى فَرَغتْ مِنْ حاجَتها.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ وابن ماجه.

* * *

لمن يطلبُ منه غمسَ يده في الماء، وللجارية التي كلَّمته: دليل على كمال حسن خلقه وتواضعه، وإسعافٌ منه لمن طلبَ منه ما يجوز طلبُه، وإن شقَّ ذلك عليه، ويحصل لهم أجرٌ على نيَّاتهم، وبركة في اطعماتهم، وقضاء حاجاتهم، وقد كانت الأَمَةُ تأخذ بيده فتنطلقُ به حيث شاءت من المدينة، وهذا كمالٌ لا يعرفه إلا الذي خصَّه به.

و(قوله لأنجشة: «رويدك») أي: رفقَك، وهو منصوب نصبَ المصدر، أي: ارفقْ رفقَكَ.

و(قوله في الأم: «ويحكَ يا أنجشةُ! رويداً سوقَكَ بالقوارير») ويحَ، قال سيبويه: ويحك: أجر لمن أشرفَ على الهلاك. و(ويل): لمن وقع فيه. وقال الفراء: ويح وويس بمعنى: ويل. وقال غيرهما: ويح: كلمة لمن وقع في هلكة لا يستحقها فيُرثى له ويُرحم. وويل بضدِّه: وويس: تصغير.

قال الشيخ رحمه الله: وهي كلمات منصوبة بأفعال مقدَّرة لا يُستعمل إظهارها. ويصحُّ أن تكونَ رويداً هنا: اسم فعل أمر، أي: ارود، بمعنى: ارفق. و(سوقِك): مفعول به، أو بإسقاط حرف الجر، أي: في سوقك. وقد قال بعض الناس: إن القوارير يُراد بها هنا الإبل، أَمَرَه بالرفق بها لئَلاَّ يُعنِّف عليها في السير

باب في شدَّةِ حياءِ النَّبيِّ ﷺ وكيفيةِ ضَحِكِه

عن أبي سعيد الخدريِّ، قال: كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراء في خِدْرها، وكان إذا كَرِهَ شيئاً عَرَفْناهُ في وَجْهِه.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وابن ماجه.

بطيب صوته فيهلكها، وتفسير الراوي أولى من تفسير هذا المتأخر، وقد تقدَّم أن الصحابي قال: يعني به ضعفةَ النساء، وشَبَّههنَّ بالقوارير لسرعة تأثُّرهنَّ، ولعدم تجلدُّهنَّ، فخاف عليهن من حثِّ السير وسرعته سقوطَ بعضهن، أو تألُّمهن بكثرة الحركة، والاضطراب الذي يكون عن السرعة والاستعجال. وقيل: إنه خاف عليهن الفتنة، وحسنَ الحَدْو وطيبَه، كما قد قال سليمان بن عبد الملك: يا بني أمية! إياكم والغناء؛ فإنه رُقْيَةُ الزنى؛ فإن كنتم ولا بدَّ فاعليه فجنِّبوه النساء.

ومن باب: شدَّة حياء رسول الله ﷺ وحُسْن خُلُقه

(الحياء) ـ ممدود ـ: انقباضٌ يجده الإنسانُ من نفسه يحمله على الامتناع من ملابسة ما يُعاب عليه، ويُستقبح منه، ونقيضه الصَّلَبُ: وهو التَّصلُّب في الأمور، وعدم المبالاة بما يُستقبح ويعاب عليه منها، وكلاهما جبلِّيٌّ ومكتسب؛ غير أنَّ الناسَ منقسمون في القدر الحاصل منهما، فمن الناس من جُبِل على الكثير من الحياء، ومنهم من جُبل على القليل منه، ثم إن أهلَ الكثير من النوعين على مراتب، وكذلك أهل القليل،فقد يكبر أحد النوغين حتى يصير نقيضه كالمعدوم. ثم هذا الجبلِّي سببٌ في تحصيل المكتسب، وقد كان النبيُّ ﷺ قد جُبل من الحياء على الحظِّ الأوفر، والنصيب الأكثر، ولذلك قيل فيه: إنه كان أشد حياءَ من العذراء في خدرها، ثم إنه كان يأخذُ نفسَه بالحياء ويستعمله، ويأمر به، ويحضُّ عليه، فيقول: «الحياء من الإيمان». و«الحياء لا يأتي إلا بخير». و«الحياء خير كله». ويقول لأصحابه: «استحيوا من الله حق الحياء». وكان يُعْرَفُ الحياءُ في وجهه لما يظهر عليه من الخفر والخجل. وكان إذا أراد أن يَعتب رجلاً معيناً أعرض عنه، ويقول: «ما بال رجال يفعلون كذا» ومع هذا كله فكان لا يمنعه الحياءُ من حقٍّ بقوله، أو أمر دينيٍّ يفعله،

عن عبد الله بن عمرو، قال: لم يكنْ رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحِّشاً، وقال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ من خياركم أحاسنكم أخلاقاً».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ.

تمسكاً بقول الحق: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾[1]. وهذا هو نهايةُ الحياء، وكماله، وحُسْنه، واعتداله؛ فإن من يفرط عليه الحياء حتى يمنعه من الحق فقد ترك الحياءَ من الخالق، واستحيا من الخَلْق، ومن كان هكذا فقد حرم نافعَ الحياء، واتصف بالنفاق والرياء. والحياء من الله هو الأصل والأساس، فإن الله تعالىأحق من يستحا منه من الناس. و(العذراء): البكر التي لم تنتزع عذرتها. و(الخدرَ): أصله الهودج، وهو هنا: كناية عن بيتها الذي هي ملازمةٌ له إلى أن تخرج منه إلى بيت روجها. و(الفاحش): هو المجبولُ على الفحش، وهو: الجفاء في الأقوال والأفعال. و(المتفحش): هو المتعاطي لذلك، والمستعمل له. وقد برَّأ اللَّهُ تعالى نبيَّه ﷺ عن جميع ذلك ونزَّهه؛ فإنه كان رحيما، رفيقاً، لطيفاً، سمحاً، متواضعاً، طلقاً، بَرّاً، وصولاً، محبوباً؛ لا تقتحمه عين، ولا تمجُّه نفسٌ، ولا يصدر عنه شيءٌ يُكره ﷺ، وشرَّف وكرَّم.

و(قوله: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً») هو جمع أحسن على وأن أفعل التي للتفضيل، وهي: إن قُرنت بـ(من) كانت للمذكر، والمونث، والاثنين، والجمع، بلفظ واحد، وإن لم تقترن بـ(من) وعرفتها بالألف واللام ذكّرت، وأنثت وثنيت، وجمعت، وإذا أضيفت: ساغ فيها الأمران كما جاء هنا: «أحاسنكم»، وكما قال تعالى: ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾[2]، وقد قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾[3]. وقد روي هذا الحديث: «أحسنكم» موحّداً.

و(الأخلاق): جمع خلق، وهي عبارةٌ عن أوصاف الإنسان التي بها يُعامل

---

(1) سورة الأحزاب الآية 53
(2) سورة الانعام الآية 123
(3) سورة البقرة الآية 96

وعن سِمَاكِ بنِ حربٍ، قال: قلتُ لجابرِ بن سَمُرةَ: أكُنْتَ تُجالِسُ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً! كان لا يقومُ من مصلاّهُ الذي يُصَلِّي فيه الصُّبح حتى تَطْلُعَ الشمس، فإذا طلعتْ قام، وكانوايَتَحدَّثُونَ فيأخذونَ في أمرِ الجاهلية، فيضحكونَ ويتبسَّمُ ﷺ.

رواه مسلم.

* * *

غيره، ويُخالطه، وهي منقسمةٌ: إلى محمودٍ ومذمومٍ. فالمحمود منها: صفاتُ الأنبياء، والأولياء، والفضلاء، كالصبر عند المكاره، والحلْم عند الجفاء، وتحمُّل الأذى، والإحسان للنَّاس، والتودُّد لهم، والمسارعة في حوائجهم، والرحمة، والشفقة، واللطف في المجادلة، والتثبيت في الأمور، ومجانبة المفاسد والشرور. وعلى الجملة فاعتدالها: أن تكون مع غيرك على نفسك، فتنصف منها، ولا تنتصف لها، فتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك. والمذموم منها: نقيض ذلك كلِّه.

وقد جاء هذا الحديثُ في غير كتاب مسلمٍ بزيادةٍ حسنةٍ، فقال: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً، الموطَّؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون»، فهذه الخُلقُ، وهؤلاء المتخلقون.

وقد قدَّمنا في غير موضع: أنَّ أصل الخُلُق جبلّةٌ في نوع الإنسان، غير أنَّ الناسَ في ذلك متفاوتون، فمن النَّاس من يغلب عليه بعضُها ويقف عن بعضها، وهذا هو المأمور بالرِّياضة والمجاهدة حتَّى يقوى ضعيفُها، ويعتدل شادُّها، كما هو مفصَّل في كتب الرياضات.

وقد تقدَّم الكلامُ على كونه ﷺ كان يجلس في مُصلاَّه حتى تطلع الشمس.

* * *

باب بُعد النبي ﷺ من الإثم، وقيامه لمحارم الله عزوجل، وصيانته عما كانت عليه الجاهلية من صغره

عن عروة بن الزبير، عن عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ أنَّها قالت: ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيْسَرهما ما لم يكن إثماً، فإنْ كان إثماً كان أبْعَدَ النَّاس منه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنْتَهَك حرمة الله.

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم وأبو داود

(قول عائشة: ما خيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما) تعني: أنَّه كان ﷺ إذا خيَّره أحدٌ في شيئين يجوز له فعل كلٍّ واحد منهما أو عُرضت عليه مصلحتان؛ مالَ للأيسر منهما، وترك الأثقل أخذاً بالسُّهولة لنفسه، وتعليماً لأمَّته، فإذا كان في أحد الشيئين إثمٌ تركه، وأخذ الآخر ـ وإن كان الأثقل ـ.

وكونه ﷺ سقط إلى الأرض لَمَّا جعل إزاره على عنقه؛ يدلُّ: على أنَّ الله تعالى حفظه من صغره، وتولَّى تأديبه بنفسه، ولم يكله في شيءٍ من ذلك لغيره، ولم يزل اللَّهُ يفعل ذلك به حتَّى كرَّه له أحوال الجاهلية، وحماه عنها، حتى لم يجر عليه شيءٌ منها. كل ذلك لطفٌ به، وعطفٌ عليه، وجمعٌ للمحاسن لديه.

و(قولها: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمةُ الله تعالى) يعني: أنَّه كان يصبر على جهل مَن جهل عليه، ويحتمل جفاه، ويصفح عمَّن آذاه في خاصَّة نفسه، كصفحه عمَّن قال: يا محمد! اعدل، فإنَّ هذه قسمةٌ ما أريد بها وجهُ الله تعالى، وما عدلتَ منذ اليوم! وكصفحه عن الذي جبذ أداءه عليه حتَّى شقَّه، وأثَّر في عنقه. فإنْ قيل: فأذاه انتهاك حرمة من حرم الله، فكيف يترك الانتقامَ لله تعالى فيها؟ وكيف وقد قال الله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (1) فالجواب: أنه ﷺ ترك الانتقام ممَّن آذاه استئلافاً وتركاً لما ينفِّر عن الدخول في دينه،

---

(1) سورة التوبة الآية 61

وعنها، قالت: ما ضَرب رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ بيده، ولا امرأةً، ولا خادماً، إلا أن يجاهدَ في سبيل الله.

رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

وعن جابرِ بنِ عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة إلى الكعبة وعليه إزاره. فقال له العبَّاس: يا بن أخي لو حللت إزارك فجعلته على مَنْكِبِكَ دون الحجارة! فجعله على مَنْكِبِه، فسقط مغشياً عليه. قال: قال: فما رؤي بعد ذلك اليوم عُرياناً.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

* * *

كما قال ﷺ: «لئلا يتحدث النّضاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه». وقد قال مالك: كان رسولُ الله ﷺ يعفو عمَّن شتمه، مشيراً إلى ما ذكرنا. وإذا تقرر هذا فمراد عائشة ـ رضي الله عنها ـ بقولها: إلا أن تُنتهكَ حرمةُ الله: الحرمة التي لا ترجع لحقِّ النبي ﷺ كحرمة الله، وحرمة محارمه؛ فإنه كان يقيمُ حدودَ الله على من انتهك شيئاً منها، ولا يعفو عنها، كما قال في حديث السَّارقة: «لو أنَّ فاطمة سرقت لقطعتُ يدها» لكن ينبغي أن يُفْهَمَ: أنَّ صَفْحَهُ عمَّن آذاه كان مخصوصاً به وبزمانه لما ذكرناه، وأمَّا بعد ذلك فلا يُعْفى عنه بوجهٍ.

قال القاضي عياضٌ ـ رحمه الله ـ: أجمع العلماء: على أنَّ مَن سَبَّ النبيَّ ﷺ كفر. واختلفوا؛ هل حكمه حكم المرتدِّ يُستتاب؟ أو حكم الزنديق لا يُستتاب؟ وهل قَتْلُه للكفر أو للحدِّ؟ فجمهورُهم: على أنَّ حُكْمه حكمُ الزنديق، لا تُقبل توبته، وهو مشهورُ مذهب مالكٍ، وقول الشافعيِّ، وأحمد وإسحاق. ورأوا: أنَّ قَتْلَهُ للحدِّ، ولا ترفعه التوبة، لكن تنفعه عند الله تعالي ولا يسقط حدُّ القتل عنه. وقال أبو حنيفة والثوريُّ: هي كفرٌ وردَّةٌ، وتُقبل توبته إذا تاب. وهي روايةُ الوليد بن مسلم عن مالكٍ.

باب طيب رائحة النَّبي ﷺ وعرقه ولين مسه

عن جابر بن سمرة، قال: صلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجتُ معه، فاستقبله وِلْدانٌ، فجعل يسمح خدَّيْ أحدهم واحداً واحداً. قال: وأما أنا فمسح خدِّي. قال: فوجدت ليده برداً ـ أو ريحاً ـ كأنما أخرجها من جؤنة عطَّارٍ.

رواه مسلم.

واختلفوا في الذمِّي إذا سبَّه بغير الوجه الذي به كفر. فعامَّة العلماء: على أنَّه يُقتل لحقِّ النبيِّ ﷺ. وأبو حنيفة، والثوريُّ، والكوفيُّون: لا يرون قتله. قالوا: ما هو عليه من الكفر أشدُّ. واختلف أهلُ المدينة وأصحاب مالك في قَتْله إذا سبَّه بالوجه الذي به كفرٌ؛ من تكذيبه، وجَحْد نبوَّته؛ والأصحُّ الأشهر قَتْلُه. واختلفوا في إسلام الكافر بعد سبِّه؛ هل يسقط ذلك القتل عنه أم لا؟ والأشهر عندنا: سقوطه؛ لأنَّ الإسلامَ يجبُّ ما قَبْلَه. وحكى أبو محمَّد بن نصر في درء القتل عنه روايتين.

ويُستفاد من حديث عائشة ـ رضي الله ـ عنها ـ ترغيب الحكَّام، وولاة الأمور في الصفح عمَّن جهل عليهم، وجفاهم، والصبر على أذاهم، كما كان النبيُّ ﷺ يفعل، وأنَّ الحاكم لا يحكم لنفسه. وقد أجمع العلماءُ: على أنَّ القاضي لا يحكم لنفسه، ولا لمن لا تجوزُ شهادته له. على ما حكاه عِياضٌ ـ رحمه الله ـ.

ومن باب: طيب رائحة رسول الله ﷺ وحسن شعره وشيبه وحسن خَلْقه

(قول جابر ـ رضي الله عنه ـ: صليتُ مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى) هذا من باب إضافة الاسم إلى صفته، كما قالوا: مسجد الجامع. وقد تقدَّم القولُ فيه، يعني بالصلاة الأولى: صلاة الظهر؛ فإنها أولُ صلاة صلاها جبريلُ بالنبيِّ ﷺ، ويُحتمل أن يريدَ بها صلاة الصبح؛ لأنها أول صلاة النهار.

وعن أنس، قال: ما شممتُ عنبراً قطُّ ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مَسِسْت شيئاً قطُّ ديباجاً ولا حريراً ألين مسّاً من رسول الله ﷺ.

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون؛ كأنَّ عرقه اللؤلؤ، إذا مَشَى مَشَى تكفُّؤا. وذكر نحوه.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم والنسائي.

و(قوله: فوجدتُ ليده برداً أو ريحاً) هذه (أو) الأولى أن تكون بمعنى الواو لا للشك؛ لأنها لو كانت شكاً، فإذا قدرنا إسقاط (أو ريحاً) لم يستقم تشبيه برودة يده بإخراجها من جُؤنة عطار؛ فإن ذلك إنما هو تشبيهٌ للرائحة، فإذا حملت (أو) على معنى الواو الجامعة استقام التشبيه للرائحة، والإخبار عن وجدان برودة اليد التي تكون عن صحة العضو، ويحتمل أن يريدَ بالبرودة برودة الطيب؛ فإنهم يصفونه بالبرودة، كما قال الشاعر[1].

وتَبْـرُدُ بَـرْدَ رِداءِ العَـرُو س في الصَّيْفِ رَقْرَقْتَ فيه العَبيرا

و(الجُؤْنَة): بضم الجيم، وفتح النون: هي سفط يَحْمِلُ فيه العطارُ متاعه. قاله الحربي، وهو مهموز وقد يُسَهَّل، وقال صاحبُ العين: هو سُلَيلَةٌ مستديرة مُغشَّاةٌ أُدْماً.

و(قوله: ما شممتُ عنبراً، ولا مسكاً، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ، هذا يدلُّ على أنه كان طيِّبَ الريح وإن لم يتطيب، ثم إنه كان يستعمل الطيب، ويعجبه رائحته؛ لأنه كان يناجي الملائكة؛ ولأنه مستلذٌّ لحس الشمِّ كالحلاوة لحسِّ الذوق؛ ولأنه مُقوٍّ للدماغ، ومحرِّك لشهوة الجماع؛ ولأنه مما يرضي الله تعالى إذا قصد به القربة، والتهيؤ للصلاة.

و(قوله: كان أزهر اللون) يعني: أبيض اللون في صفاء، كما قال في الرواية الأخرى: ليس بالأبيض الأمهق، أي: المتألق البياض الذي صفته تشبه بياض الثلج، والجصِّ.

---

(1) هو الأعشى.

وعنه، قال: دخل علينا النَّبيُّ ﷺ فقالَ عندنا، فعَرِقَ، وجاءت أمِّي بقارورةٍ، فجعلتْ تسْلُتُ العرق فيها، فاستيقظ النَّبيُّ ﷺ فقال: «يا أم سُلَيم! ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: هذا عرقُك نجعلُهُ في طِيبنا، وهو من أطْيب الطِّيب.

وفي روايةٍ: أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يأتيها، فيقبلُ عندها، فتبسط له نَطْعاً فيقيلُ عليه، وكان كثيرَ العرق، فكانت تجمعُ عَرَقَهُ، فتجعلُهُ في الطِّيب والقوارير، فقال النبي ﷺ: «يا أمَّ سُليم ما هذا؟» قالت: عرقُك أدوفُ به طيبي.

و(قوله: إذا مشى مشى تكفؤاً) مهموزاً. قال شمر: أي مال يميناً وشمالاً. قال الأهري: هذا خطأ، وهذه صفةُ المختال، ولم تكن صفته ﷺ، وإنما معناه: أن يميل إلى سمته، ويقصد في مشيته، كما قال في الرواية الأخرى: كأنما ينحطُّ من صبب.

وقال الشيخ رحمه الله: ويبينه ما قد جاء في رواية ثالثة: يمشي تقلعا.

و(قوله: دخل على رسول الله ﷺ فقال عندنا) أي نام عندهم في القائلة. وفيه دليل على دخول الرجل على ذوات محارمه في القائلة، وتبسطه معهن، ونومه على فراشهن. وكانت أم سليم ذات محرم له من الرضاعة، قاله القاضي عياض.

و(قولها: فجعلتُ أسلتُ العَرَقَ فيها) أي: تجمعه في القارورة، كما قد جاء في الرواية الأخرى. وقولها: أدوف به طيبي ـ بالدار المهملة ـ ثلاثياً، أي: اخلطه، وهكذا صحيحُ الرواية فيه، وهو المشهور عند أهل اللغة، وحُكِيَ فيه: الذال المعجمة، ثلاثياً ورباعياً، وقد استوفيناه في كتاب الإيمان..

و(قوله: كان أهلُ الكتاب يَسْدلون أشعارهم، وكان المشركون يَفْرُقُون رؤوسهم) قال القاضي: سدلُ الشَّعر: إرساله، والمراد به هنا عند العلماء: إرساله على الجبين واتخاذه كالقَصَّة، يقال: سدل شعره وثوبه: إذا أرسله، ولم يضمَّ جوانبه. والفرق: تفريق الشعر بعضه عن بعض، والفرق: تفريقك بين كل شيئين. قال الحربي: والمفرق: موضع الفرق. والفرق في الشعر سُنَّة؛ لأنه الذي رجع إليه النبيُّ ﷺ. والظاهرُ أنه بوحي، لقول أنس: أنه كان يحبُّ موافقة أهل الكتاب فيما لم يومر فيه

وفي أخرى: نرجو بركته لصبياننا. قال: «أصبْت».

رواه أحمد ومسلم.

وعن عائشة؛ قالت: إنْ كان لَيُنْزَلُ على رسول الله ﷺ في الغداة الباردة، ثم تفيضُ جبهتُهُ عَرَقاً.

رواه أحمد ومسلم.

* * *

بشيء، فسدل، ثم فَرَق بَعْدُ، فظاهره: أنه لأمر من الله تعالى، حتى جعله بعضُهم نسخاً، وعلى هذا لا يجوزُ السَّدْلُ، ولا اتِّخاذ الناصية والجُمَّة. وقد روي: ان عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ كان إذا انصرف من الجمعة أقام على باب المسجد حَرَساً يجزُّون كلَّ من لم يفرقْ شعره.

قال الشيخ رحمه الله: وفيما قاله القاضي ـ رحمه الله ـ وحكاه نظر. بل الظاهر من مساق الحديث أن السَّدلَ إنما كان يفعلُه لأجل محبته استئلاف أهل الكتاب بموافقتهم، لكنه كان يوافقهم فيها لم يشرّع له فيه، فلما استمروا على عنادهم، ولم ينتفعوا بالموافقة، أحبَّ مخالفتهم أيضاً فيما لم يشرعْ له، فصارت مخالفتهم محبوبةً له لا واجبةً عليه كما كانت موافقتهم.

و(قوله: فيما لم يومر به) يعني: فيما لم يُطلب منه، والطلب يشملُ الواجبَ والمندوب كما قرَّرناه في الأصول. وأما توهُّم النسخ في هذا، فلا يُلتفت إليه لإمكان الجمع، كما قررناه، وهذا بَعْدَ تسليم أنَّ محبةَ موافقتهم ومخالفتهم حكمٌ شرعي، فإنه يحتمل أن يكون ذلك أمراً مصلحياً، هذا مع أنه لو كان السَّدلُ منسوخاً بوجوب الفرق لصار الصحابة ـ رضي الله عنهم إليه، أو بعضهم، وغايةُ ما روي عنهم: أنه كان منهم من فَرَق، ومنهم من سَدَل، فلم يعبِ السادلُ على الفارق، ولا الفارقُ على السادل، وقد صحَّ عنه ﷺ أنه كان له لَمَّةٌ؛ فإن انفرقت فرقها، وإلا تركها. وهذا يدلُّ على أن هذا كان غالبَ حاله؛ لأن ذلك ذكره مع جملة أوصافه الدائمة، وحلْيته التي كان موصوفاً معروفاً بها، فالصحيح: أن الفرق مستحبٌّ لا واجب، وهذا الذي اختاره مالك. وهو قولُ جلِّ أهلِ العلم والله أعلم.

في شَعرِ رسول الله ﷺ وكيفيته

عن ابن عباس، قال: كان أهل الكتاب يَسْدُلُون أشعارَهُم، وكان المشركون يَفرُقون رؤوسهم، وكان رسول الله ﷺ يحب موافقه أهل الكتاب فيما لم يؤمرْ به، فسَدَلَ رسولُ الله ﷺ ناصيَتَهُ، ثم فرَق بعدُ.

رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه.

و(قوله: كان يحبُّ موافقةً أهل الكتاب) قد قلنا: إن ذلك كان في أوَّل أمره عند قدومه على المدينة في الوقت الذي كان يستقبل قبلتهم، وإن ذلك كلَّه كانت حكمته التأنيس لأهل الكتاب حتى يصغوا إلى ما جاء به، فيتبيَّن لهم أنه الحقُّ، والاستئلاف لهم ليدخلوا في الدين. فلما غلبتْ عليهم الشقوة، ولم ينفعْ معهم ذلك نسخ اللَّهُ تعالى استقبالَه قبلتهم بالتوجُّه نحو الكعبة، وأمَرَ النبيُّ ﷺ بمخالفتهم في غير شيء، كقوله: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم». وذكر أبو عمر في التمهيد عن ابن عمر ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اخضبوا وفرقوا. خالفوا اليهود»، قال: اسناده حسن، ورجاله كلهم ثقات. وكقوله في الحائض: «اصنعوا كل شيءٍ إلا النكاح». حتى قالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفَنا فيه. فاستقر آخر أمره ﷺ على مخالفتهم فيما لم يحكم عليه فيه بحكم. فإذا ثبت هذا فلا حجَّة في قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب. على أن شرعهم شرعٌ لنا، فتأمَّل ذلك. واختلاف هذه الأحاديث في كيفية شَعْر رسول الله ﷺ إنما هو اختلاف أحوالٍ؛ إذ قد فعل ذلك كله، فقد سدل، وفَرَق، وكان شعره لَمَّةً، ووفرةً، وجُمَّة. وقد روى الترمذيُّ من حديث أم هانىء ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَدِم رسول الله ﷺ مكة وله أربع غدائر قال: هذا حديث حسن صحيح.

قال الشيخ رحمه الله: والغدائر: الضفائر، قال امرؤ القيس:

غَدائِره مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا ... تَضِلُّ المدارى في مُثَنّى ومُرْسَلِ

وعن البراء بن عازبٍ، قال ما رأيت من ذي لَمَّةٍ في حُلَّةٍ حمراءَ أحسنَ من رسول الله ﷺ؛ شعره يضربُ مَنْكِبيْه، بعيد ما بين المَنْكِبَيْنِ، ليس بالطويل ولا بالقصير.

رواه مسلم وأبو داود والترمذيُّ والنَّسائي وابن ماجه.

وعن أنسٍ، قال: كان شَعَرُ رسولِ الله ﷺ شَعَراً رَجِلاً، ليس بالجعْد، ولا السَّبْطِ، بين أذنيه وعاتقه.

وفي أخرى: كان يضرب شَعَرُه مَنْكِبَيْهِ.

وفي أخرى: كان شَعَرُه إلى أنصاف أذنيه.

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

* * *

و(قول البراء - رضي الله عنه: ما رأيت من ذي لَمَّة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ). قال شَمِر: الجُمَّةُ أكثر من الوفرة، والجُمَّةُ إذا سقطت على المنكبين، والوفرة إلى شحمة الأذن، واللمة التي ألمت بالمنكبين. وقد تقدَّم القولُ في الحلَّة. وفيه دليلٌ على جواز لباس الأحمر، وقد أخطأ من كره لباسه مطلقاً، غير أنه قد يختصُّ بلباسه في بعض الأوقات أهلُ الفسق والدعارة والمجون، فحينئذ يُكره لباسه؛ لأنه إذ ذاك تشبُّهٌ بهم، وقد قال ﷺ: «من تشبَّه بقوم فهو منهم»، لكن ليس هذا مخصوصاً بالحمرة، بل هو جارٍ في كل الألوان والأحوال، حتى لو اختص أهلُ الظلم والفسق بشيء مما أصله سُنَّة كالخاتم والخضاب والفرق لكان ينبغي لأهل الدين ألاَّ يتشبهوا بهم؛ مخافةَ الوقوع فيما كرهه الشرعُ من التشبه بأهل الفسق؛ ولأنه قد يظنُّ به من لا يعرفه أنه منهم، فيعتقد ذلك فيه، وينسبه إليهم، فيُظَنُّ به ظنَّ السوء، فيأثم الظانُّ بذلك والمظنون بسبب المعونة عليه.

باب في شيب رسول الله ﷺ وخضابه

عن محمد بن سيرين، قال: سألتُ أنسَ بن مالكٍ: أَخَضَبَ رسول الله ﷺ: قال: إنَّه لم ير من الشَّيب إلا قليلاً.

رواه البخاريُّ ومسلم.

وعن ثابتٍ، قال: سئل أنسُ بنُ مالكٍ: أَخَضَبَ رسولُ الله ﷺ؟ قال: لو شئتُ أن أعُدَّ شَمَطَاتٍ كنَّ في رأسه فعلتُ. وقال: لم يختضب. وقد اختضب أبو بكر بالحنَّاء والكَتَم، واختضب عمر بالحنَّاء بحتاً.

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم.

وعن أنسِ بن مالكٍ، قال: يُكرهُ أن ينتفَ الرجلُ الشعرة البيضاء من رأسه ولحيته. قال: ولم يَخْضِبْ رسولُ الله ﷺ، إنَّما كان البياض في عَنْفَقَتِه، وفي الصُّدغين، وفي الرأس نبذةٌ.

رواه مسلم.

وعنه: أنه سئل عن شيب رسول الله ﷺ؟ قال: ما شَانَهُ اللهُ بِبَيضَاءَ.

رواه مسلم.

وعن أبي جُحَيْفَة، قال: رأيت رسول الله ﷺ هذه منه بيضاء ـ ووضع زُهَيْرٌ بعض أصابعه على عنفقته ـ قيل له: مِثلُ من أنتَ يومئذٍ؟ قال: أبْرِي النَّبْلَ وأريشُه.

رواه أحمد ومسلم.

* * *

باب في حسن أوصاف النبي ﷺ

عن البَرَاء، قال: كان رسول الله ﷺ رجلاً مَرْبُوعاً، بعيد ما بين المَنْكِبَين، عظيمَ الجُمَّة إلى شحمة أُذنَيه، عليه حُلَّةٌ حمراءُ، ما رأيت شيئاً قطُّ أحسن منه ﷺ.

وفي روايةٍ: كانَ أحسنَ النَّاسِ وَجْهاً، وأحسَنَهُ خَلْقاً، لَيْسَ بالطَّويلِ الذاهبِ ولا بالقصير.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيّ والنسائي وابن ماجة.

وعن أبي الطُّفيل، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وما على الأرض رجُلٌ رآه غيري: قال: فقلتُ: فكيف رأيته؟ قال: كان أبيضَ مَليحاً مُقَصَّداً.

قال مسلم: " مات أبو الطُّفَيْل سَنَة مئةٍ، وهو آخرُ من ماتَ من أصحاب رسول الله ﷺ.

رواه أحمد ومسلم.

و(قوله: كان أحسن الناس وجهاً، وأحسنه خَلْقاً) الروايةُ بتوحيد ضمير أحسنه، وبفتح الخاء وسكون اللام من خَلْقاً، فأما توحيد الضمير؛ فقال أبو حاتم: العرب تقول: فلان أجمل الناس وأحسنه. يريدون: أحسنهم، ولا يتكلمون به. قال: والنحويون يذهبون به إلى أنه أحسن مَنْ ثمَّة. وأما خَلْقاً: فأراد به: حُسن الجسم، بدليل قوله بعده: ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير. وأما في حديث أنس، فروايته: بضم الخاء واللام؛ لأنه يعني به حسن المعاشرة بدليل سياق ما بعده من الحديث.

و(قوله: كان أبيض مليحاً مُقَصَّداً) أبيض: يعني في صفاء، كما جاء أنه كان أزهر، وكما قال: ليس بالأبيض الأمهق. والملاحة: أصلها في العينين كما تقدَّم. والمقصَّدُ: القصد في جسمه وطوله. يعني: أنه لم يكون ضئيل الجسم، ولا ضخمه، ولا طويلاً ذاهباً، ولا قصيراً متردداً، كان وسطاً فيهما.

و(قو،له : كان شعره رَجِلاً) أي : ليس بالجَعد ، ولا بالسَّبط . الرواية في رَجِلاً ، بفتح الراء وكسر الجيم ، وهي المشهورة . وقال الأصمعيُّ : يقال : شعرٌ رَجِلٌ : بفتح الراء وكسر الجيم ، ورَجَلٌ : بفتح الجيم ، ورَجُل : بسكونها . ثلاث لغات ، إذ كان بين السُّبُوطة ، والجُعُودة ، قال غيره : شعر مرجَّلٌ ، أي : مُسرَّح . وكان شعره ﷺ بأصل خِلْقته مُسَرَّحاً .

و(قول أنس ـ رضي الله عنه ـ وقد سُئِل عن خضاب رسول الله ﷺ : لم ير من الشيب إلا قليلاً . وفي الرّواية الأخرى : لو شئتُ أن أَعُدَّ شمطات كُنَّ في رأسه فعلتُ) ظاهرُهُ : أنه لم يكن ﷺ نجتضب ، كما قد نصَّ عليه في بقية الحديث . وبهذا الظاهر أخذ مالك فقال : لم يختضب رسولُ الله ﷺ ، وإليه ذهب أبو عمر بن عبد البر ، وذهب بعضُ أصحاب الحديث إلى أنه خَضَبَ ، متمسِّكين في ذلك بما رواه أبو داود عن أبي رمثة ، قال : انطلقتُ مع أبي نحو النبيِّ ﷺ فإذا هو ذو وفرة ، وبها ودعٌ من حنًّا ، وعليه بُردان أخضران . وروى أبو داود أيضاً عن زيد بن أسلم : أن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان يصبغُ لحيته بالصفرة حتى تمتلىء ثيابُه من الصفرة . فقال : إنِّي رأيت رسولَ الله ﷺ يصبغ بها ، ولم يكن شيءٌ أحبَّ إليه منها ، وقد كان يصبغ بها ثيابه كلها حتى عمامته . ويعتضد هذا بأمره ﷺ بتغيير الشيب ، كما قال « غيِّرُوا هذا الشيب واجتنبوا السواد » : « غيِّرُوا الشيبَ ولا تشبَّهوا باليهود » ، وما كان ﷺ يأمر بشيء إلا كان أول اخذ به . ومما يُعْتَضَدُ به لذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن موهب ، قال : دخلتُ على أم سلمة ، فأخرجتْ لي شعرات من شعر رسول الله ﷺ مخضوباً . زاد ابن أبي شيبة : بالحناء والكتم ، والإسناد واحد . ومما يعتضد به هؤلاء خضاب الخليفتين ـ رضي الله عنهما ـ فلو علما أن النبيَّ ﷺ لم يختصبْ لما اختصبا ، فإنهما ما كانا باللذين يعدلان عن سُنَّته ، ولا عن اتباعه ، والفَصْل لهؤلاء من أحاديث أنس ، وما في معناها بأن الخضابَ لم يكن منه ﷺ دائماً ، ولا في كلِّ حال ، وإنما كان في بعض الأوقات ، فلم يلتفتْ أنسٌ لهذه الأوقات القليلة ، وأطلق القول ، وأولى من هذا أن يقال : إنه ﷺ لما لم لكن شيبُه كثيراً ، وإنما كان في لحيته وصُدْغيه

نحو العشرين شعرة بيضاً، لم يكن الخضاب يظهر فيها غالباً، والله تعالى أعلم. وقد اعتذر أصحابُ القول الأول عن حديث أبي رمثة وابن عمر بأن ذلك لم يكن خضاباً بالحناء، ورنما كان تغييراً بالطيب، ولذلك قال ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: كان يصبغ بالصفرة، ولم يقل: بالحناء، وهذه الصفرة هي التي قال عنها أبو رمثة: ردع من حناء؛ لأنه شبَّهها بها، وأما حديث أم سلمة فيحتمل أن يكون ذلك فُعِلَ بشعر رسول الله ﷺ بعده بطيب أو غيره احتراماً وإكراماً. والله أعلم.

والشَّمَطات: جمع شمطة، ويعني بها: الشعرات البيض المخالطة للشعر الأسود. قال الأصمعي: إذا رأى الرجلُ البياضَ؛ فهو أشمط. وقد شمط. والكَتَم ـ بالتحريك ـ: نبت يُخلط بالوسمة، يُختصب به قاله في الصحاح. والبحت ـ بالموحدة والحاء المهملة ـ: هو الخالص من الشيء، المنفرد عن غيره. وقال أبو حنيفة اللغوي: الوسمة: الحظر، والعظْلمُ، والشبلج، والتَّنومة؛ وكله يُصْبَغ به. والحناء ممدودة، قال أبو علي: جمع حنَّاءة والكَتَمُ ـ مخفف التاء ـ هو المعروف، وأبو عبيد يقولها بالتشديد. ونبْذٌ: الرواية فيه بفتح النون وسكون الباء. أي: شيءٌ، قليل متبددٌ. وبعض النَّاس يقوله: نُبَذٌ ـ بضم النون وفتح الباء ـ: جمع نُبْذة كغرفة وغُرَف، وظُلْمَة وظُلَم، وهذا لا يستقيمُ هنا؛ لأنه كان يلزم منه أن يكون سَبَبُه نبذاً مجتمعةً في أنفسها، متفرقةً في مواضع عديدةٍ، ويلزم عليه أن يكون سببه كثيراً، فيكون هذا مخالفاً لما قاله أنسٌ في الأحاديث الأخر.

وكراهتُه ﷺ نَتْف الشيب إنّما كان لأنَّه وقارٌ، كما قد روى مالك: «أن أوَّل من رأى الشَّيبَ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ فقال: يا رب! ما هذا؟ فقال: وقار، قال: يا رب زدني وقاراً»، أو لأنَّه نورٌ يوم القيامة، كما روى أبو داود من حديث عمرو بن شعيبٍ عن أبيه، عن جدَّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: لا تنتفوا الشَّيب! ما من مسلم يشيب شيبةً في الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة». وفي أخرى: «إلا كتب الله له حسنةً، وحطَّ عنه خطيئةً».

وعن جابرِ بن سمرة قال : كان رسولُ الله ﷺ قد شَمطَ مُقدَّمُ رأسه ولحيَته، وكان إذا ادَّهَنَ لم يَتَبَيَّن، وإذا شَعِثَ رأسُهُ تَبَيَّنَ، وكان كَثير شعرِ اللِّحيةِ.

فقال رجلٌ: وجُهُهُ مِثلُ السَّيْفِ؟ قال: لا، بل كان مثلَ الشمسِ والقمرِ، وكان مستديراً .....

و(قول أنسٍ - رضي الله عنه -: ما شانَهُ الله بِبَيضاء) أي: لم يكن شيبُه كثيراً بيِّناً حتى تزولَ عنه بهجةُ الشباب، ورونقه، ويلحق بالشيوخ؛ الذين يكون الشيبُ لهم عيباً؛ فإنَّه يدلُّ على ضَعْفهم، ومفارقة قوة الشَّباب ونشاطه. ويحتمل أن يريدَ: أنَّ ما ظهرَ عليه من الشَّيب اليسير زاده ذلك في عين الناظر إليه أُبَّهةً، وتوقيراً، وتعظيماً. و(الشَّيْن): العيب. و(أبري النَّبل): أنحته، و(أريشه): أجعل فيها الريش. ويعني: أنه قد كان كبر، وقوي، وعرف. وهذا حالُ المواهق.

و(قوله: قد شَمطَ مُقَدَّم رأسه ولحيته) أي: خالط الشيبُ ذينك الموضعين. ومُقدَّم اللحية: يعني به: العنفقة، كما قال أبو جحيفة: رأيتُ هذه منه بيضاء. يعني: عنفقته. و(مقدَّمه) يعني به: الصُّدغين، كما قال أنسٌ: إنما كان البياض في عنفقته وصُدْغيه. وهذا يدلُّ: على أنَّ قولَ أنسٍ في الرِّواية الأخرى: إنَّه كان في لحية رسول الله ﷺ ورأسه عشرون شعرةً بيضاء، إنَّما كان ذلك منه تقديراً على جهة التقريب والتقليل لا التحقيق.

و(قوله: وكان إذا ادَّهن لم تتبيَّن، وإذا شَعث تبيَّن) يعني أنه كان إذا تطيَّب بطيبٍ يكون فيه دهنٌ فيه صفرة خفي شيبُه، وهذه هي الصفرةُ التي رأى عليه ابن عمر، وأبو رمثة. والله أعلم. وشعثُ الرأس: انتفاشُ شعره لعدم تسريحه، وأراد به هنا: إذا لم يتطيَّب.

و(قوله: كان وَجْهُه مثلَ السيف) يحتمل هذا التشبيه وجهين:

أحدهما : أن السيوف كانت عندهم مستحسنةً محبوبةً يتجمَّلون بها، ولا يفارقونها، فشُبِّه وَجهُ النبيِّ ﷺ به؛ لأنه مُستحسنٌ محبوبٌ يُتجمَّلُ به حين المجالسة، ولا يُسْتَغْنى عنه.

ورأيتُ الخاتَمَ عند كَتِفه مثلَ بيضةِ الحمامة يُشبهُ جَسَدَهُ.

رواه أحمد ومسلم والترمذيُّ في الشمائل والنسائيّ.

ثانيهما : أنه كان ﷺ أزهر، صافي البياض، يبرق وجهُه، وقد روى: أنه كان يتلألأ وجهُهُ في الجُدُر، فشُبِّه وجهُه بالسيف في صفاء بياضه وبريقه. والله أعلم.

و(قوله: لا! بل: مثل الشمس والقمر) هذا نفيٌ لتشبيه وجهه بالسيف، لما في السيف من الطول، فقد يحتمل أن وجهه كان طويلاً، وإنما كان مستديراً في تمام الخلق؛ ولأنه تقصير في التشبيه، فأضرب عن ذلك، وذكر من التشبيه ما هو أوقع وأبلغ، فقال: بل مثل الشمس والقمر، وهذا التشبيهُ: هو الغايةُ في الحسن؛ إذ ليس فيما نشاهده من هذه الوجوه أحسن، ولا أرفع، ولا أنفع منهما، وهما اللذان جرتْ عادةُ الشعراء والبلغاء بأن يشبهوا بهما ما يستحسنونه.

و(قوله: وكان كثير شعر اللحية) لا يفهم من هذا أنه كان طويلَها؛ فإنه قد صحَّ أنه كان كثَّ اللحية، أي: كثير شعرها غير طويلة، وكان يُخَلِّل لحيتَه.

و(قوله: ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة) الألف واللام في الخاتم لتعريف العهد، أي: خاتم النبوة الذي من علاماته المعروفة له في الكتب السابقة، وفي صدور علماء الملل السالفة، ولذلك لما حصل عند سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ العلم بصفاته، وأحواله. وعلاماته، وموضوع مبعثه، ودار هجرته، جدَّ في الطلب، حتى ظفر بما طلب، ولَمَّا لقيه جعل يتأمَّل ظهره، فعلم النبيُّ ﷺ: أنه يريد أن يقف على ما يعرفه من خاتم النبوة، فنزع رداءه من على ظهره، فلما رأى سلمان الخاتم أكبَّ عليه يقبِّله، وهو يقول: أشهدُ أنك رسول الله. وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: أن النبيَّ ﷺ لَمَّا خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، ونزلوا بصومعة راهبٍ، كان هنالك، وقد سمِّي في غير هذا الخبر (بحيرا)، فخرج إليهم ذلك الراهب. وكان قبل ذلك لا يخرج إليهم، ولا يلتفت إليهم، فلما خرج جعل يتخلَّلهُم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر، ولا

شجر إلا خرَّ ساجداً له، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروفه مثل التفاحة... وذكر الحديث بطوله، وقال في آخره: حديثٌ حسنٌ غريب. وعلى هذا فخاتم النبوة معناه: علامةٌ نبوَّة نبينا محمد ﷺ. وقد اختلفتْ ألفاظُ النقلة في صفة ذلك الخاتم، فروى جابر بن سمرة، وأبو موسى ما ذكرناه آنفا، وروى السائب بن يزيد: أنه مثل زرِّ الحجلة. وروى عبد الله بن سرجس: أنه رأى جُمْعاً عليه خيْلان مثل: الثآليل. وروى الترمذي عن جابر بن سمرة، قال: كان خاتم رسول الله ﷺ، يعني الذي بين كتفيه، غدَّة حمراء مثل بيضة الحمامة، وقال: حسن صحيح.

قال الشيخ رحمه الله: وهذه الكلماتُ كلُّها متقاربةُ المعنى مفيدةٌ: أن خاتم النبوة كان نتوءاً قاتماً أحمر تحت كتفه الأيسر قدره إذا قُلِّل: بيضة الحمامة، وإذا كُثِّر: جَمْع اليد، وقد جاء في البخاري: كان بَضْعةً ناشزة، أي: مرتفعة.

و(قوله: زِرّ الحجلة) الروايةُ المعروفةُ فيه: زرَ - بتقديم الزاي - قال أبو الفرج الجوزي: الحجلة بيت كالقبة يُستر بالثياب، ويُجعل له باب من جنسه، فيه زرٌّ وعروة. تُشَدُّ إذا أُغلق. وقال القاضي أبو الفضل: الزرّ: الذي يَعْقِدُ به النساء عُرى أحْجالهن كأزرار القميص. والحجلة هنا: واحدة الحجال، وهي ستورٌ ذات سُجوفٍ. وقال غيره: الحجلة: هي الطائر المعروف، وزرُّها: بيضتها. كما قال جابر: بيضة الحمامة.

قال الشيخ: والأول: أشهر في الزر، والثاني: أشبه بالمعنى؛ وقد أبعد الخطابيُّ فرواه: رزّ الحجلة بتقديم الراء، أراد: بيضة الحجلة. يقال: أرزتِ الجرادةُ، أي: أدخلت ذنبها في الأرض لتبيض.

قال الشيخ: وهذا لا يُلتفت إليه؛ لأن العرب لا تسمى البيضة رزة، ولا تؤخذاللغةُ قياساً.

قال القاضي أبو الفضل: وهذا الخاتم هو أثر شقِّ الملكين بين كتفيه.

قال الشيخ: هذه غفلةٌ من هذا الإمام؛ فان الشقَّ إنما كان في صدر النبيِّ ﷺ، وأثره إنما كان خطّاً واضحاً من صدره إلى مراقِّ بطنه، كما هو منصوص عليه في

الأحاديث السالفة في كتاب الإيمان من كتاب مسلم، وفي البخاري وغيرهما، ولم يثبتْ قطُّ في روايةٍ صحيحةٍ، ولا حسنةٍ، ولا غريبةٍ أنه بلغ بالشق حتى نفذ من وراء ظهره، ولو قدَّرنا أن ذلك الشقَّ كان نافذاً إلى ظهره، وأن تلك أثره، للزم عليه أن يكون مستطيلاً إلى قطنته؛ لأنه الذي يحاذي الصدر من مسربته إلى مراقٍّ بطنه. فهذه غفلةٌ منه ـ رحمه الله ـ. ولعلَّ هذا غلطٌ وقع من بعض الناسخين لكتابه؛ فأنه لم يُسْمَعْ عليه فيما علمتُ.

وناغض الكتف: هو ما رقَّ منه ولانَ، سمِّي بذلك لنغوضه، أي: حركته، يقال: نغض رأسَه، أي: حرَّكه، ونغضتُ القناةَ: هززْتُها، ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ** ﴾ (1) أي: يحركونها استهزاءً، ويُسمَّى الناغض: الغضروف، وكذا جاء في رواية أخرى.

و(قوله: جُمْعاً عليه خيلانٌ) هو منصوبٌ على الحال، أي: نظرتُ إلى خاتم النبوة مثل الجُمْع قال ابنُ قتيبة: هو جُمْع الكفّ. يقال: ضربه بجُمْع كفِّه، إذا جمعها فضربه بها، وهو بالضم، ويقال بكسرها. والخيْلان: جمع خال، وهي نُقَطٌ سودٌ كانت على الخاتم، شبهها لسَعتها بالتآليل؛ لا أنها كانت ثآليل، وهي جمع تؤلوا: وهي حبيباتٌ تعلو الجلد.

و(قوله: كان رسولُ الله ﷺ ضليعَ الفم) فسَّره سِمَاك في الأصل: بأنه عظيم الفم، وهو بمعنى واسع الفم كما قاله ثعلب. والعرب تتمدَّح بسعة الفم. وتكره صغرَه.

قال الشيخ رحمه الله: وكأنَّهم يتخيَّلون أنَّ سَعة الفم يكون عنها: سَعة الكلام والفصاحة، وأن ضيقَ الفم يكون عنه قلَّةُ الكلام واللُّكنة. وقد وُصِفَ النبيُّ ﷺ بأنه كان يفتتحُ الكلام ويختمه بأشداقه، أي لِسَعة شِدْقيْه، وعدم تصنُّعه، ومن هذا المعنى سُمِّي الرجل أشدق.

---

(1) سورة الاسراء الآية 51

وعن أنسٍ، قال: كانَ رسولُ الله ﷺ ليس بالطَّويل البائنِ، ولا بالقصير، وليس بالأبيضِ الأمْهَق، ولا بالآدَم، ولا بالجَعْدِ القَطَطِ، ولا بالسَّبِط، بعثه الله

و(قوله: أشكلَ العينين) قال أبو عبيد: الشُّهلة: حمرةٌ في سواد العين، والشُكلة: حمرة في بياضها، وهو محمودٌ. قال الشاعر:

ولا عَيْبَ فيهَا غَيْرَ شُكْلَةِ عَيْنِها كَذاكَ عِتَقُ الخَيْلِ شُكْلٌ عُيُونُها

قال صاحب (الأفعال): شَكِلَتِ العينُ: بكسر الكاف، شُكْلةً، وشُكلاً: إذا خالطَ بياضَها حمرةٌ.

قال الشيخ رحمه الله: ومحو هذا في الصحاح، وزاد: عين شَكْلاء: بيِّنة الشَّكَل، ورجلٌ أشكل، ودمٌ أشكل: إذا كان فيه بياض وحمرة، وهذا هو المعروف عند أهل اللغة، فأما ما فسَّره به سِمَاك من أنه طويل شقِّ العين، فغير معروف عندَهم، ولم أقف على من قاله غيره.

(وقوله: منهوس القدمين) يروى بالسين المهملة والمعجمة. قال ابن الأعرابي: يُقال رجل منهوس القدمين، ومنهوش القدمين، أي: قليل لحمهما، كما قال سِمَاك، وهو مأخوذ من النهس والنهش. قال أبو العباس: النهس أخذ بأطراف الأسنان، والنهشُ بالأضراس.

و(قوله: ليس بالطويل البائن) أي: الذي يُبايِن الناسَ بزيادة طوله، وهو الذي عبَّر عنه في الرواية الأخرى: (بالمُشَذَّب)، وفي الأخرى: (بالمُمَعَّط) ـ بالعين والغين ـ: أي: المتناهي في الطول، وهو عند العرب: العَشَنَّقُ، والعَشَنَّطُ.

و(قوله: ولا بالقصير المتردِّد) أي الذي تداخلَ بعضُه في بعضٍ، وهو المسمَّى عند العرب: بحنبل، وأقصر منه: الحنتل. وكلا الطرفين مستقبحٌ عند العرب، وخيرُالامور أوساطها. وكذلك كان النبيُّ ﷺ في جميع أحواله.

و(قوله: ليس بالأبيض الأمْهق) أي: الشديد البياض؛ الذي لا يخُالط بياضَه حمرةٌ، ولا غيرُها. والعربُ تكرهه؛ لأنه يُشبه البرصَ.

(وقوله: ليس بالآدَم) أي: الذي تغلبُ سمرتَه السوادُ؛ فإنَّ السُّمرة بياضٌ يميل إلى سوادٍ، والسَّحْمَة ـ بالسين ـ فوقه، ثم الصَّحْمَة ـ بالصَّاد ـ فوقه، وهو غالبُ لون

على رأس أربعين سنةً، فأقام بمكّة عَشْر سنينَ، وبالمدينة عَشْرَ سنين، وتوفَّاه الله على رأس ستِّينَ سنةً، وليس في رأسه ولحيته عشرونَ شعرةً بيضاءَ. وفي رواية: كان أزْهَرَ.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ.

* * *

الحبشة، ثم الأدَمة فوقه، وهو غالبُ ألوان العرب. والنبيُّ ﷺ كان بياضُه مُشْرَباً بحمرة في صفاء، فصدقَ عليه أنه أزهرُ. وأنه مُشْرَبٌ، وهذا اللون: هو أعدلُ الألوان وأحسنها.

و(قوله: ولا بالجَعْدِ القَطَط) يروي بفتح الطاء وكسرها، وهو الشديد الجعودة الذي لا يطول إلا باليد، وهو حالُ شعور السودان.

و(قوله: ولا بالسَّبِط) يعني المسترسل الذي لا تكسُّر فيه، وهو غالبُ شعور الروم، والرَّجلُ هو الوسط بين ذينك.

و(قول أنس: بعثَه الله على رأس أربعين سنةً) يعني: من مولده، أي عند كمالها بعثَه الله رسولا. وهذا هو أكثرُ الأقوال، وقد جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه بُعث على رأس ثلاث وأربعين سنة، وهو قول سعيد بن المسيب.

و(قوله: فأقامَ بمكة عَشْراً) يعني: بعد البعث وقبل الهجرة. وهذا مما اختلف فيه. فقيل: عشر، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: خمس عشرة، ولم يُختلف أنه أقامَ بالمدينة عشراً.

و(قوله: وتوفَّاه الله على رأسِ ستينَ سنة) هذا أحد قولي أنس، وفي الرواية الأخرى عنه: ثلاث وستين. ووافقه على ذلك: عبد الله بن عباس ومعاوية وعائشة، وهو أصح الأقوال، وأصح الروايات على ماذكره البخاري، وقد ذكر عن إنس: خمس وستين سنة، وهي الرواية الأخرى عن ابن عباس، ولا خلافَ أنه ﷺ وُلد عام الفيل.

و(قوله: وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء) قد قلنا إن هذا منه تقديرٌ على جهة التقليل، وذكرنا: أن شيبَه كان أكثر من هذا.

باب في خاتم النُّبُوَّةِ

عن السائب بن يزيدَ، قال: ذَهَبَتْ بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إنَّ ابنَ أختي وَجعٌ فَمَسَحَ رأسي، ودعا لي بالبركة، ثم توضَّأ فشربتُ من وَضُوئه، ثم قُمتُ خلف ظهرِه، فنظرتُ إلى خاتَمِه بين كَتِفيه مِثلُ زرِّ الحَجَلَة.

رواه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ

وعن عبد الله بن سَرْجس، قال: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ، وأكلتُ معه خُبْزاً ولَحْماً ـ أو قال: ثريداً ـ قال: فقلت له: اَسْتَغْفَرَ لَكَ النبيُّ ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(1).

قال: ثم دُرتُ خلفَهُ فنظرتُ إلى خاتَم النُّبوة بين كَتِفَيْه ناغِضِ كَتِفِه اليُسْرى جُمْعاً، عليه خيلانٌ كأمثال الثَّآليل.

رواه أحمد ومسلم والترمذيُّ في الشمائل.

* * *

(1) سورة محمد الآية 19 ـ

باب كم كانَ سِنُّ رسولِ الله ﷺ يوم قُبض؟ وكم أقام بمكة؟

عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وهو ابنُ ثلاثٍ وستين، وأبو بكر وهو ابن ثلاثٍ وستين، وعمرُ وهو ابن ثلاث وستين.

رواه مسلم.

عن ابن عباس، قال: أقامَ رسولُ الله ﷺ بمكة ثلاثَ عَشْرةَ سنةً يوحى إليه، وبالمدينة عَشْراً، ومات وهو ابن ثلاثٍ وستين سنةً.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ.

وعنه، أنَّ رسول الله ﷺ توفى وهو ابن خمسٍ وستين.

وفي رواية: أربعين بُعِثَ لها: خَمْسَ عَشْرَة بمكة، يأمن، ويخاف. وعَشْراً مُهَاجِرُه إلى المدينة.

و(قول عمرو في الأصل لعروة: كم كانَ رسول الله ﷺ بمكة؟ قال: عَشْراً) كذا وقع لبعض الرواة. معناه: كم مُدَّة كونه وإقامتَه بها؟ أي: بعد المبعث، وقد روي: لبثَ، بمعناه.

و(قوله: فإن ابن عباس يقول: بضع عشرة) قد تقدَّم أن الأشهر في البضع أنه من الثلاث إلى التسع، فيصلح البضعُ هنا لقول ابن عباس الثلاث عشرة والخمس عشرة، فأنكر عروةُ ذلك.

و(قوله: فغَفَّرَ) من المغفرة، وهي رواية الجلودي، أي: قال غفر اللهَ. وفي رواية ابن ماهان: فصغَّره من الصغر، أي أشار إلى أن ابن عباس كان صغيراً في ذلك الوقت،

وفي أخرى: أَقَامَ رسولُ الله ﷺ بمكةَ خَمْس عشرة سنة، يَسْمَعُ الصَّوْتَ، ويرى الضوء سَبْعَ سنين ولا يرى شيئاً، وثمانَ سنِين يُوحَى إليه، وأَقامَ بالمدينة عشراً.

رواه أحمد ومسلم.

فلم يضبطه لصغره، وقيل: إنه ولد في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وهذا هو المناسب لقول عروة.

و(قوله: إنما اخذه من قول الشاعر) يعني به: قول أبي قيس بن صَرْمَة:

ثَوَى في قُريشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً يُذَكَّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقاً مُوَاتِيَا

و(قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خمس عشرة سنة، يأمنُ، ويخاف) يعني: أنه كان في تلك الحال غير مستقلٍ لإظهار أمره، فكان إذا أخفى أمره تركوه، فأمن على نفسه، وإذا أعلن أمره وأفشاه، بأن يدعوهم إلى الله، ويفتح عليهم، تكالبوا عليه، وهمُّو بقتله، فيخاف على نفسه إلى أن أخبره الله تعالى بعصمته منهم، فلم يكن يبالي بهم كما قدمناه.

و(قوله: يسمع الصوت، ويرى الضوء سبع سنين) أي: أصوات الملائكة والجمادات والحجارة، فيسلمون عليه بالرسالة، كما خرَّجه الترمذي عن عليٍّ بَن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبلٌ، ولا شجرٌ، إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله. قال: هذا حديث حسن غريب. ويعني بالضوء: نور الملائكة، ويحتملُ أن يكون أنواراً تنور بين يديه في أوقات الظلمة، يحجب عنها غيره. ولذلك نقل: أنه كان يُبصر بالليل كما يبصر بالنهار، ويعني: أن هذه الحالة ثبتتْ عليه سبع سنين، ثم بعد ذلك أوحى الله إليه. أي: جاءه الوحي، وشافهه بالخطاب ثماني سنين، وعلى هذا: فكمل له بمكة خمس عشرة سنة.

وعن جريرٍ: أنَّه سمع معاوية يخطبُ، فقال: مات رسول الله ﷺ وهو ابنُ ثلاثٍ وستين، وأبو بكرٍ وعمرُ، وأنا ابن ثلاث وستين.

رواه أحمد ومسلم والترمذيّ.

* * *

(وقول معاوية: مات رسولُ الله ﷺ وهو ابنُ ثلاث وستين سنة، وأبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ) معطوفان على رسول الله ﷺ، ويحتمل أن يُرفعا بالابتداء، وخبرهما محذوف، أي: وهما كذلك.

و(قوله: وابن ثلاث وستين) الواو للحال، فيحتمل أن يريدَ أنه كان وقت توفي رسولُ الله ﷺ ابن ثلاث وستين، ويحتمل أن يكون كذلك وقت حدَّث بهذا الحديث، والحاصل: أنه وصل إلى ثلاث وستين سنة. وقد قيل في هذا: إن معاوية استشعر أنه يوافقهم في السنِّ فيموت وهو ابن ثلاث وستين سنة، وليس بصحيح عند أحدٍ من علماء التاريخ؛ فإن أقلَّ ما قيل في عمره يوم توفي: أنه كان ثمانياً وسبعين سنة، وأكثر ما قيل فيه: ست وثمانون، وقيل: اثنان وثمانون سنة، [وكانت وفاته بدمشق، وبها دُفن سنة ستين في النصف من رجبها. قال ابن إسحاق: كان معاوية أميراً عشرين سنة]، وكان خليفةً عشرين سنةً، وقال غيره: كانت خلافته تسع عشرة سنةً أشهرٍ وثمانية وعشرين يوماً.

* * *

باب عدد أسماء النَّبيِّ ﷺ

عن جُبَيرِ بن مُطْعم، عن أبيه: أنَّ النبي ﷺ قال: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يُمحى بي الكُفر، وأنا الحاشرُ الذي يُحشر الناسُ على عَقبي، وأنا العاقب» والعاقب الذي ليس بعده نبي.

ومن باب: عدد أسماء رسول الله ﷺ

(قوله ﷺ: «أنا محمد، وأنا أحمد») كلاهما مأخوذٌ من الحمد، وقد تكلَّمنا على الحمد في أول الكتاب. فمحمَّد: مفعَّل من حمَّدت الرجل مشدداً: إذا نسبت الحمد إليه، كما يقال: شجَّعت الرجل، وبخَّلته: إذا نسبت ذلك إليه، فهو بمعنى المحمود. والنبيُّ ﷺ أحقُّ الخلق بهذا الاسم؛ فإن الله تعالى قد حمده بما لم يحمد به أحداً من الخلق، وأعطاه من المحامد ما لم يعط مثله أحداً من الخلق، ويُلْهِمُه يوم القيامة من محامده ما لم يلهمه أحداً من الخلق، وقد حمده أهلُ السموات والأرض والدنيا والآخرة، حمداً لم يحمد به أحداً من الخلق، فهو أحمدُ المحمودين، وأحمدُ الحامدين.

و(قوله: «وأنا الماحي الذي يُمحى بي الكفر») أي: من الأرض التي زويت له، وأُرِي أن مُلْكَ أمته سيبلغه، أو يعني بذلك: أنه محى به معظم الكفر وغالبه بظهور دينه على كل الأديان بالحجج الواضحة، والغلبة العامة الفادحة، كما قد صرَّح به الحقُّ بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (1).

و(قوله: «وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي») الحاشر: اسم فاعل من حشر، أي: جمع. فيعني به: أنه الذي يُحشر الخلقُ يوم القيامة على أثره، أي: ليس بينه وبين القيامة نبيٌّ آخر؛ ولا أمَّةٌ أخرى، وهذا كما قال: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى.

---

(1) سورة التوبة الآية 33

وفي رواية : «الذي يحشر الناس على قدميّ» وقد سمَّاه الله رؤوفاً رحيماً.

و(قوله في الرواية الأخرى: «على قدمي») قيل فيه: على سابقتي، كما قال تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [1] أي: سابقة خير وإكرام. وقيل: على سنَّتي. وقيل: بَعْدي. أي: يتبعوني إلى يوم القيامة. وهذا أشبهها؛ لأنه يكون معناه معنى عقبي؛ لأنه وقع موقعه في تلك الرواية، ووجه توسُّعه فيه: كأنه قال: يحشر الناسُ على أثر قدمي، أي: بعدي. ولله أعلم.

و(قوله ﷺ: «وأنا العاقب»، وفي الرواية الأخرى: «المقفى») ومعناهما واحد، وهو أنه ﷺ آخر الأنبياء، وخاتمهم، وأكرم أعقابهم، وأفضل مَن قبلهم. وقَفَّاهم، أي: كان بعدهم، واتبه آثارهم. قال ابنُ الأنباري: المقفَّى: المتَّبع للنبيين قبله، يقال: قفوته، أقفوه، وقفيته: إذا تبعته، ومثله: قفته، أقوفه، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [2] ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [3]، وقافية كل شيءٍ: آخره.

و(قوله: «ونبيُّ التوبة») أي: تكثر التوبةُ في أمته، وتعمُّ حتى لا يوجد فيما ملكته أمته ولا تائب من الكفر، فيقرب معناه على هذا من (الماحي)؛ إلا أن ذلك يشهدُ بمحو ما ظهر من الكفر، وهذا يشهدُ بصحَّة ما يخفى من توبة أمته منه، ويحتمل أن يكون معناه: أن أمته لما كانت أكثرَ الأمم كانت توبتُهم أكثرَ من توبة غيرهم، ويحتمل أن تكون توبةُ أمته أبلغ حتى يكون التائبُ منهم كمن لم يذنب، ولا يُؤاخذ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ويكون غيرُهم يُؤاخذ في الدنيا؛ وإن لم يؤاخذ في الاخرة، والله أعلم. والذي أحوجَ إلى هذه الأوجه: اختصاصُ نبينا ﷺ بهذا الاسم مع أن كل نبيٍّ جاء بتوبه أمته، فيصدق أنه نبيُّ التوبة، فلا بُدَّ من إبداء مزيَّةٍ لنبينا يختصُّ بها كما بيَّنَّا.

---

(1) سورة يونس الآية 3
(2) سورة الحديد الآية 26
(3) سورة الاسراء الآية 36

رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذيُّ.

عن أبي موسى الأشعري، قال: كان رسول الله ﷺ يُسميِّ لنا نفسهُ أسماءً. فقال: «أنا محمد، وأحمدُ والمُقفِّي، والحاشر، ونبي التَّوبة، ونبي الرحمة».

رواه أحمد ومسلم.

* * *

و(قوله: «ونبيُّ الرحمة»، وفي أخرى: «المرحمة»، وفي أخرى: «الملحمة»). فأما الرحمة والمرحمة فكلاهما بمعنىً واحد، وقد تقدَّم أن الرحمةَ إفاضةُ النعم على المحتاجين، والشفقة عليهم، واللطف بهم، وقد أعطى الله نبينا ﷺ وأمته منها ما لم يُعطه أحداً من العالمين، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [1] فهو أعظمُ كلِّ رحمة، وأمته القابلة لما جاء به قد حصلت على أعظم حظٍّ من هذه الرحمة، وشفاعتُه يوم القيامة لأهل الموقف أعمُّ كلِّ رحمة، ولأهل الكبائر أجلُّ كلِّ نعمة، وخاتمة ذلك شفاعته في ترفيع منازل أهل الجنَّة. وأما رواية مَن روى: نبيُّ الملحمة: فهذا صحيحٌ في نعته، ومعلومٌ في الكتب القديمة من وصفه، فإنه قد جاء فيها: أنه نبيُّ الملاحم، وأنه يجيء بالسيف والانتقام ممن خالفه من جميع الأنام، فمنها ما جاء في صحف حبقوق [2]، قال: جاء الله من التين، وتقدس من فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وتقديسه، وملأ الأرض من هيبته. وفيها أيضاً: تضيء الأرض بنورك، وستنزع في قوسك رغراقاً، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً. ويعني بالتين الجبال التي تنتبه، وهي جبال بيت المقدس، ومجيء الله تعالى منها عبارة عن أظهار كلامه الذي هو الإنجيلُ على لسان عيسى عليه السلام. وفاران: مكة، كما قال تعالي في التوراة: إن الله أنزل هاجر وابنها إسماعيل فاران،

---

(1) سورة الأنبياء الآية 107

(2) من أنبياء اليهود.

يعني: مكة بلا خلاف بينهم. وفي التوراة قال: قد جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلى من فاران. فمجيئه تعالي من سيناء: كناية عن ظهور موسى عليه السلام بها. وإشراقه من ساعير: وهي جبال الروم من أدوم: كناية عن ظهور عيسى عليه السلام. واستعلاؤه من فاران: كناية عن القهر الذي يقهر به نبيُّنا ﷺ الكفرَ كلَّه بالقتل والقتال. وقال في التوراة: يا موسي! إنِّي أقيم لبني إسرائيل من أخوتهم نبياً مثلك، أجعل كلامي على فيه، فمن عصاه انتقمتُ منه، وإخوة بني إسرائيلالعرب؛ فإنهم ولد إسماعيل عليه السلام، وهم المعنيون هنا. وقوله: أجعل كلامي على فيه. يعني به: القرآن، والانتقام ممن عصاه: هو القتلُ والقتال الذي جاء به، ومثل هذا كثير. وقد ذكرنا منه مواضع كثيرة جاءت في كتب أنبياء بني إسرائيل في كتاب (الأعلام).

وقد قال النبيُّ ﷺ: «يا معشر قريش! لقد جئتُكم بالذبح». وقال: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلهَ إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به»، فهو نبي الملحمة التي بسببها عمَّت الرحمة وثبتت المرحمة. وقد تتبَّع القاضي أبو الفضل ما جاء في كتاب الله تعالي، وفي سُنَّة رسول ﷺ، ومما نقل في الكتب القديمة. وإطلاق الزمَّة أسماءً كثيرةً، وصفاتٍ عديدة للنبيِّ ﷺ صدقت عليه مسمَّياتها، ووجدت فيه معانيها، وعُرِف في كتاب (الشفا في التعريف بحقوق المصطفى). وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب (الأحكام) من أسماء النبيُّ ﷺ سبعة وستين اسماً، من أرادها وجدها هنالك.

و(قوله: وقد سمَّاه الله رؤوفاً رحيماً) ليس هذا من قول النبي ﷺ بل: من قول غيره، وهو الصحابي، والله أعلم، ألا تراه كيف أخبر عنه بخطاب الغيبة، ولو كان من قوله ﷺ لقال: وقد سماني الله: رؤوفاً رحيماً. هذا الظاهرُ، ويحتمل أن يكون ذلك من قوله. وقد يخرج المتكلم من الحضور إلى الغيبة كما قال تعالى: ﴿**حَتَى إِذا كُنْتُمْ فِي**

كان النبيُّ ﷺ أعلمَ الناس بالله وأشدهم له خشية

عن عائشة، قالت: صَنَعَ رسول الله ﷺ أمراً فترخَّص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتنزَّهوا عنه، فَبَلَغه ذلك، فقام خطيباً

﴿ الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ (1) وفي هذا إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (2). والرؤوف: الكثير الرأفة. والرحيم: الكثير الرحمة؛ فإنها للمبالغة. وقد جاء في الصحيح: «لي خمسة أسماء» فحصرها بالعدد، وذكر الأسماء المتقدِّمة. وقد يقال: ما وجهُ تخصيص هذه الأسماء الخمسة بالذكر مع أن أسماءه أكثر من ذلك؟ فيجاب عنه: بأن هذه الخمسة الأسماء هي الموجودةُ في الكتب المتقدِّمة، وأَعرفُ عند الأمم السالفة. ويُحتمل أن يقالَ: إنه في الوقت الذي أخبر بهذه الأسماء الخمسة لم يكن أوحي إليه في غيرها بشيءٍ، فان أسماءه إنَّما تلقَّاها من الوحي، ولا يُسمَّى إلا بما سمَّاه الله به، وهذا أسدُّ الجوابين إن شاء الله تعالى.

* * *

ومن باب: كون النبيِّ ﷺ أعلم الناس بالله وأشدهم له خشية

إنما كان النبيُّ ﷺ أعلمَ الناس بالله؛ لما خصَّه الله تعالى به في أصل الخِلْقة من كمال الفطنة، وجودة القريحة، وسَداد النظر، وسرعة الإدراك، ولما رفعَ اللهُ عنه من موانع الإدراك، وقواطع النظر قبل تمامه، ومَن اجتمعتْ له هذه الأمورُ سهل عليه الوصول إلى العلوم النظرية، وصارت في حقِّه كالضرورية، ثم إن الله تعالي قد أطلعه من علم صفاته وأحكامه، وأحوال العالم كله على ما لم يُطْلع عليه غيره، وهذا كلُّه معلومٌ من حاله ﷺ بالعقل الصريح، والنقل الصحيح، وإذا كان في علمه بالله تعالي أعلم الناس لزم أن يكون أخشى الناس لله تعالي؛ لأن الخشيةَ منبعثةٌ من العلم،

---

(1) سورة يونس الآية 22
(2) سورة التوبة الآية 128

فقال: «ما بالُ رجالٍ بَلَغَهم عنِّي أمرٌ ترخَّصتُ فيه فكرهُوه وتنزهُوا عنه، فوالله لأنا أعلمُهُم بالله، وأشدُّهم له خشيةً!».

رواه ومسلم.

* * *

وبحسبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (1). وقد أشار بعضُ المتصوفة إلى أن علوم الأنبياء ضرورية، وسماها: كشفاً، وهذا كلامٌ فيه إجمالٌ، ويحتاجُ إلى استفصال، فيقال لقائله: إن أردت بكونها ضرورية أنها حاصلةٌ في أصل فطرتهم، وأنهم جُبِلُوا عليها، بحيث لم يستعملوا في شيء منها أفكارهم، ولا حدقوا نحوها بصائرهم، ولا أنظارهم، فهو قولٌ باطل؛ لما يعلم قطعاً أنهم مُكلَّفون بمعرفة الله، ومعرفة صفاته وأحكامه، ومأمورون بها، والضروريُّ لا يكلَّف به؛ أنه حاصل، والحاصل لا يطلب، ولا يُبتغى؛ ولأن الإنسانَ لا يتمكن من ترك ما جُبِل عليه، ولا من فعله، وما كان كذلك لم يقعْ في الشريعة التكليفُ به بالنص والإجماع. وإنما الخلافُ في جوازه عقلاً، وإن أراد به أن تلك العلومَ تصيرُ في حقهم ضرورية بعد تحصيلها بالطرق النظرية، والقيام بالوظائف التكليفية، فتتوالى عليهم تلك العلومُ، فلا يتأتى لهم التشكك فيها، ولا الانفكاك عنها، فنقول: ذلك صحيحٌ في حقِّ الأنبياء قطعاً، وخصوصاً في حق النبيِّ ﷺ كما هو المعلوم من حاله وحالهم - صلّى الله عليه وعليهم أجمعين - وأما غيرهم فيجوز أن يكرم اللَّهُ تعالى بعضَ أوليائه بشيء من نوع من ذلك، لكن على وجه الندور والقلة، وليس مطَّرداً في كُلِّ الأولياء، ومَن فُتِح له بشيءٍ من ذلك في بعض الأوقات وبعض المعلومات، ويكون ذلك خَرْقاً للعادات؛ فإن سُنَّة الله تعالى في العلوم النظرية: أنها لا تتولى، ولا تدوم، ويمكن أن يُتشكَّكَ فيما كان منها معلوماً، هذه سُنَّة الله الجارية، وحكمته الماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

و(قول عائشة - رضي الله عنها -: صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخّص فيه) أي: فعل أمراً ترك فيه التشديد لأنَّه رُخِّص له فيه، كما قال في طريق آخر: «ما بالُ رجالٍ

---

(1) سورة فاطر الآية 28

يرغبون عما رُخِّص لي فيه» ولعل هذا من عائشة ـ رضي الله عنها ـ إشارة لحديث النَّفر الذين استقلُّوا عبادة النبيِّ ﷺ، فقال أحدهم: أما أنا فأصلِّي ولا أنام، وقال الآخر: وأنا أصوم ولا أفطر، وقال الاخر: وأنا لا أنكح النساء، فلما بلغ النبيَّ ﷺ ذلك، قال: وأما أنا فأصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فمن رغب عن شنَّتي فليس مني». وقد تقدَّم في النكاح.

و(قوله: «ما بالُ رجالٍ بلغهم عني أني ترخَّصت في أمر فكرهوه وتنزَّهُوا عنه») هذا منه ﷺ عدولٌ عن مواجهة هؤلاء القوم بالعتاب، وكانوا معينين عنده، لكنَّه فعل ذلك لغلبة الحياء عليه، ولتلطُّفه في التأديب، ولستْر المعاتب. وتنزُّه هؤلاء عما ترخَّص فيه النبيُّ ﷺ غَلَطٌ أوقعهم فيه ظنُّ أن المغفورَ له يُسامح في بعض الأمور، ويسقط عنه بعض التكاليف، والأمر بالعكس لوجهين:

أحدهما: أن المغفورَ له يتعيَّنُ عليه وظيفةُ الشكر، كما قال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكورا».

وثانيهما: أن الأعلم بالله وبأحكامه: هو الأخشى له، كما قال ﷺ: «إني لأعلمكم بالله تعالى، وأشدكم له خشية» وقال في موضع اخر: «وأعلمكم بما أتقي الله».

ويستفاد من هذا الحديث النهيُ عن التنطُّع في الدين، وعن الأخذ بالتشديد في جميع الأمور، فإن دينَ الله يُسْرٌ، وهو: الحنيفية السَّمحة؛ فإن الله يُحبُّ أن تُؤتى رخصه، كما يُحبُّ أن تؤتى عزائمه. وحاصل الأمر: أنَّ الواجبَ التمسك بالاقتداء بهدي النبيِّ ﷺ، فما شدَّد فيه التزمناه على شدَّته، وفعلناه على مشقَّته، وما ترخَّص فيه أخذنا برخصته، وشكَرْنا الله تعالى على تخفيفه ونعمته، ومن رَغِبَ عن هذا، فليس على سُنَّته، ولا على منهاج شريعته، وفيه حُجَّة على القول بمشروعية الاقتداء به في جميع أفعاله، كما نقولهُ في جميع أحواله، إلا ما دلَّ دليلٌ على: أنه من خصوصياته، وقد أوضحنا هذا في الأصول.

باب وجوب الإذعان لحكم رسول الله ﷺ والانتهاء عما نهى عنه

عن عبد الله بن الزُّبير: أنَّ رجلاً من الأنصار خاصَم الزُّبيرَ عند رسول الله ﷺ في شِراج الحرَّة التي يسقون بها النخلَ، فقال الأنصاريُّ: سرِّح الماءَ يمرُّ. فأبى عليهم، فاختصموا عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزُّبير: «اسق يا زبيرُ؛ ثم أرسل الماء إلى جارك». فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله! أنْ كانَ ابنَ عمتك؟! فتلوّن وجه نبي الله ﷺ. ثم قال: «يا

ومن باب: وجوب الإذعان لحكم رسول الله ﷺ

(قوله: إنَّ رجلاً من الأنصار خاصمَ الزبير في شِراج الحرَّة) قيل: إنَّ هذا الرَّجل كان من الأنصار نسباً، ولم يكن منهم نصرةً وديناً، بل كان منافقاً؛ لما صدر عنه من تهمة رسول الله ﷺ بالجَوْر في الأحكام لأجل قرابته، ولأنَّه لم يرضَ بحكمه، ولأنَّ اللَّهَ تعالى قد أنزل فيه: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.(1) هذا هو الظَّهر من حاله. ويحتمل: أنَّه لم يكن منافقا، ولكنْ أصدرَ ذلك منه بادرةُ نفسٍ، وزلَّةُ شيطانٍ، كما قد اتَّفقَ لحاطب ابن أبي بلتعة، ولحسَّانَ، ومِسْطح، وحَمْنَة في قضية الإفك، وغيرهم ممَّن بدرتْ منهم بوادرُ شيطانيَّة، وأهواءُ نفسانية، لكنْ لُطفَ بهم حتى رجعوا عن الزَّلة، وصحَّت لهم التوبة، ولم يؤاخذوا بالحَوْبة.

و(الشَّراج) - بالشين والجيم المعجمتين - جمع شَرِجَة، وهي مسيل الماء إلى النَّخل والشَّجر. ورضافتها إلى الحرة لكونها فيها.

والمخاصمة إنَّما كانت في السَّقي بالماء الذي يسيلُ فيها، وكان الزبيرُ يتقدَّم شَرْبُه على شَرْب الأنصاريُّ، فكان الربيرُ يُمسكُ الماءَ لحاجته، فطلبَ الأنصاريُّ أن يُسرِّحَه له قبل استيفاءِ حاجته، فلما ترافعا إلى النبيِّ ﷺ سلكَ النبيُّ ﷺ معهما مسلكَ

---

(1) سورة النساء الآية 65

زبير! اسق، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر». فقال الزبير: والله إني لأحْسِبُ هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ...﴾

الصُّلح، فقال له: «اسق يا زبير! ثمَّ أرسلِ الماءَ إلى جارك» أي: تساهلْ في سقيكَ، وعجِّل في إرسال الماء إلى جارك، يحُضُّه على المسامحة والتيسير. فلمَّا سمعَ الأنصاريُّ بهذا لم يرضَ بذلك، وغضبَ لأنه كان يريدُ ألا يمسكَ الماءَ أصلاً؛ وعند ذلك نطقَ بالكلمة الجاذرة المهلكة الفاقرة، فقال: آنْ كان ابنَ عمتك؟! بكدٍّ همزة «أنْ» المفتوحة؛ لأنَّه استفهامٌ على جهة الإنكار. أي: أتحكمُ لهِ عليَّ لأجل أنَّه فرابتُك؟! وعند ذلك تلوَّنَ وجهُ رسول الله ﷺ غضباً عليه وتألُّماً من كلمته. ثمَّ إنَّه بعدَ ذلك حكَم للزبير باستيفاء حقِّه، فقال: «اسقِ يا زبير، ثمَّ أمسكِ الماءَ حتى يرجع إلى الجدْر». وفي غير هذه الرِّواية: فاستوعى للزبير حقَّه.

و(الجدْر» بفتح الجيم وسكون الدال هي روايتي، ويُجمع: جُدوراً. وهو الأصل. ويعني به: يصلَ الماء إلى أصول النَّخل والشجر، وتأخذَ منه حقَّها. وفي بعض طرقه: حتى يبلغَ الماء إلى الكعبين. فيعني به. ـ والله أعلم ـ: حتى يجتمع الماد في الشَّربات. وهي: الحفر التي تُحفر في أصول النَّخل والشجر إلى أن تصل من الواقف فيها إلى الكعبين. وقد روي (الجِدْر) بكسر الجيم، وهو الجدار، ويجمع على (جُدُر)، ويعني به: جدران الشَّربات، فإنها تُرفع حتى تكونَ تشبهُ الجدار.

فإن قيل: كيف كان حكم النبيِّ ﷺ للزبير على الأنصاريّ في حال غضبه وقد قال ﷺ: «لا يقضي القاضي وهو غضبان». فالجوابُ: أنَّا قدَّمنا أنَّ هذا النَّهي مُعَلَّلٌ بما يُخافُ على القاضي التشويش المؤدِّي به إلى الغلط في الحكم، والخطإ فيه، والنَّبيُّ ﷺ معصومٌ من الخطأ في التبليغ والأحكام، بدليل العقل الدَّالِّ على صدقه فيما يُبلِّغُه عن اللَّه تعالى وفي أحكامه، ولذلك قالوا: أنكتب عنك في الرِّضا والغضب؟ قال: «نعم» فدلَّ ذلك: على أنَّ المراد بالحديث: من يجوزُ عليه الخطأ من القضاة، فلم يدخل النَّبيُّ ﷺ في ذلك العموم.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه.

وعن أبي هريرة: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم.

و(قوله: واللَّه إنِّي لأحسبُ هذه الآية نزلتْ في ذلك: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾)[1] هذا أحدُ ما قيل في سبب نزول هذه الآية. وقيل: نزلتْ في رجلين تحاكما إلى النبيِّ ﷺ فحكم على أحدهما فقال له: ارفعني إلى عمر بن الخطاب، وقيل: إلى أبي بكرٍ، وقيل: حكم النبيُّ ﷺ ليهودي على منافق، فلم يرض المنافق، وأتيا عمر بن الخطاب فأخبراه، فقال: أمهلاني حتى أدخل بيتي، فدخل بيته فأخرج السيف، فقتل المنافق، وجاد إلى النبي ﷺ فقال: إنه ردَّ حكمك، فقال له رسول الله ﷺ: «فرَّقت بين الحق والباطل». وقال مجاهد نحوه؛ غير أنه قال: إن المنافق طلب أن يُردَّ إلى حكم الكاهن، ولم يذكر قضية قتل عمر بن الخطاب المنافق، وقال الطبريُّ: لا ينكر أن تكون الآية نزلت في الجميع، والله تعالي أعلم.

وفي هذا الحديث أبواب من الفقه؛ فمنها: الاكتفاء من الخصوم بما يفهم عنه مقصودهم، وألا يكلَّفوا النص على الدعاوي، ولا تحديد المدعي فيه، ولا حَصْره بجميع صفاته، كما قد تنطَّع في ذلك قضاةُ الشافعية. ومنها: إرشاد الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم، فإن اصطلحوا وإلا استوفي لذي الحق حقّه، وبتَّ الحكم. ومنها: أن الأولى بالماء الجاري: الأول فالأول حتى يستوفي حاجته، وهذا ما لم يكن أصلُه ملكاً للأسفل مختصاً به، فليس للأعلى أن يشربَ منه شيئاً؛ وإن كان يمرُّ عليه. ومنها: الصَّفح عن جفاء الخصوم ما لم يؤدِّ إلى هتك حُرْمة الشّرع، والاستهانة بالأحكام؛ فإن كان ذلك فالأدب، وهذا الذي صدر من خصم الزبير أذىً للنبيِّ ﷺ ولم يقتله النبيُّ ﷺ لما قدَّمناه من عظم حِلْمه وصَفْحه، ولئلا يكون قتله منفراً لغيره

---

(1) سورة النساء الآية 65

وفي روايةٍ: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم لكثرة مسائلهم...» الحديث.

رواه أحمد ومسلم والترمذيُّ والنسائي وابن ماجه.

* * *

عن الدخول في دين الأسلام، فلو صدر اليوم مثلُ هذا من أحدٍ في حقِّ النبيِّ لقُتِل قتلةً زنديق، وقد أشبعنا القولَ في ذلك. ومنها: أن القدرَ الذي يستحقُّ الأعلى من الماء: كفايته، وغاية ذلك: أن يبلغ الماء إلى الكعبين، فقيل: في الشَّرَبَة (1) كما قلنا، وقيل: في أرض الحائط، وفيه بُعْدٌ.

و(قوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه») أي: لا تُقدموا على فِعْل شيءٍ من المنهي عنه، وإن قلَّ؛ لأنه تحصلُ بذلك المخالفة؛ لأن النهي: طلبُ الانكفاف المطلق، والأمر المطلق على النقيض من ذلك؛ لأنه يحصلُ الامتثالُ بفعلِ أقلِّ ما ينطلقُ عليه الاسم المأمور به على أيِّ وجه فُعِل، وفي أي زمان فعل. ويكفيكهن ذلك مثال بقرة بني إسرائيل، فإنهم لما أمروا بذبح بقرةٍ فلو بادروا وذبحوا بقرةً - أيَّ بقرةٍ كانت - لحصل لهم الامتثال، لكنهم كثَّروا الأسئلة فكثرت أجوبتهم، فقلَّ الموصوف، فعظم الامتحانُ عليهم، فهلكوا. فحذَّر النبيُّ ﷺ أمته عن أن يقعوا في مثل ما وقعوا فيه، فلذلك قال: «إنما أهلك الذين قبلكم كثرةُ سؤالهم»، ولذلك قال ﷺ للذي سأله عن تكرار الحج بقوله: أفي كلِّ عام يا رسول الله؟! فقال: «لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، ذروني ما تركتكم» وذكر نحو ما تقدَّم، فالواجبُ على هذا الأصل أن على السامع لنهي الشارع الانكفاف مطلقاً، وإذا سمع الأمر: أن يفعل فيه ما يصدق عليه ذلك الأمر، ولا يتنطَّع؛ فيكثر من السؤال، فيحصل على الإصر والأغلال، وقد استوفينا هذا المعنى في الأصول.

* * *

---

(1) «الشَّرَبَةُ»: حُوَيْض يُحفر حول النخلة والشجرة يُملأ ماء، فيكون ريَّها.

باب ترك الإكثار من مساءلة رسول الله ﷺ توقيراً له واحتراماً

عن أنسِ بن مالكٍ: أنَّ الناس سألوا النَّبيَّ ﷺ حتى أحفوه في المسألة. فخرج ذات يوم فصعد المنبر. فقال: «سلوني:! لا تسألوني عن شيء إلا بَيَّنْتُهُ لكم». وفي رواية: «ما دمت في مقامي هذا». فلما سمع ذلك القوم

ومن باب: ترك الإكثار من مساءلة رسول الله ﷺ توقيراً له واحتراماً

(قوله: سألوا رسول الله ﷺ حتى أحْفَوه في المسألة) أي: حتى ألحُّوا عليه، يقال: أحفى في المسألة، وألحَّ بمعنىً واحدٍ. وقد أشبعنا القولَ فيه فيما تقدَّم في حديث أبي موسى -رضي الله عنه-.

و(قوله: فلما أُكْثِرَ عليه غَضِب) يحتملُ أن يكون غَضَبُ النبيِّ ﷺ من إكثارهم عليه من المساءل؛ فإن ذلك: يقلِّل حرمةَ العالم، ويجرىء على الإقدام عليه، فتذهب أبَّهةُ العالمِ ووقاره، فإنه إذا كثرت المسائل كثرت الأجوبة، فحصل جميعُ ما ذكرناه من المفاسد. ويحتمل أنَّ غضبَه بسبب أنه تحقَّق أنَّه كان هنالك من يسأل تعنيتاً وتبكيتاً، قصداً للتعجيز والتنقيص، كما كان يفعلُ المنافقون واليهود، ويدلُّ على هذا قوله: «سلوني، سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلا أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا»؛ فإنَّ هذا يصلحُ أن يكون جواباً لمن قصد التعجيز والتبكيت حتى يبطل فهمه، ويظهر خرقه وذمُّه، ويحتمل أن يكون من تلك المسائل ما يكره، كما قال في حديث أبي موسى: سُئل رسولُ الله ﷺ عن أشياء كرهها، وكما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**لاَ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [1]. ويحتمل أن يكون غضبُه لمجموع تلك الأمور كلِّها، والله تعالى أعلم.

---

(1) سورة المائدة الآية 101

أرمُّو ورَهبوا أن يكون بين يدي أمرٍ قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً؛ فإذا كلُّ رجلٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي،.....

و(قوله: فأرمَّ القوم أي: سكتوا، وأصله من المرمَّة، وهي: الشَّفة، فكأنهم أطبقوا مرمَّاتهم فلم يُحرِّكوها بلفظة.

و(قوله: ورهبوا أن يكون من أمرٍ قد حضرا) أي: خافوا أن تقع بهم عقوبةٌ عند غضبه.

(وقوله: فجعلتُ ألتفتُ يمينا وشمالا كلُّ إنسان لافٌّ رأسّه في ثوبه يبكي) هذه حالةُ العارفين بالله تعالى، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما تفعله جهَّالُ العوامِّ، والمبتدعة الطَّغام من الزعيق اولزفير، ومن النهيق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وَجْدٌ وخشوعٌ: إنك لم تبلغ ذلك، أي: تساوي حال رسول الله ﷺ، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله تعالى، والبكاء خوفاً من الله، والوقار حياءً من الله، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة فقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [1] فصدَّر اللهُ تعالى الكلامَ في هذه الآية بـ(إنما) الحاصرة لما بعدها، المحققة له؛ فكأنه قال: المؤمنون على التحقيق هم الذين تكون أحوالهم هكذا عند سماع ذكر الله، وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم، ولا على طريقتهم، وكذلك قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَاأُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّهِدِينَ**﴾ [2]. فهذا وصفُ حالهم، وحكايةُ مقالهم، فمن كان مُستنّاً فليستنَّ، ومّن تعاطى أحوال المجانين والمجون، فهو من أخسِّهم حالاً، والجنون فنون. فإن قيل: فقد صحَّ عن جماعة من السلف أنهم صرخوا عند سماع القرآن، والمواعظ، فقد روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَقِعٌ * مَّا لَه مِن**

---

(1) سورة الانفال الآية 8

(2) سورة المائدة الآية 83

دَافِعٍ﴾ [1] فصاح صيحةً خرَّ مغشياً عليه، فحمل إلى أهله، فلم يزلْ مريضاً شهراً. وروي أن زرارة بن أوفى قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [2] فصُعق ومات في محرابه. وقرأ صالح المُزَني على أبي جهين فمات، وسمع الشافعي قارئاً يقرأ: ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [3] فغشي عليه. وسمع عليٌّ بن الفضل قارئاً يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَلَمِينَ﴾ [4] فسقط مغشياً عليه. فالجواب: أين الدرُّ من الصدف، والمسك من الجيف؟ هيهات قياس الملائكة بالحدَّادين، والمحقِّقين بالممخرقين [5]. فإن كنت ـ يا من لُبِّس عليه ـ تدَّعي أنك على نعتهم فمت كموتهم، فتنبَّه لبهرجتك؛ فإن الناقد بصيرٌ، والمحاسب خبير. ثم يقال لمن صرخ في حال خُطبة الجمعة: إن كنت قد ذهب عقلك حال صعقتك، فقد خسرت في صفقتك؛ إذ قد سُلب عقلك، وذهب فَهْمُك، ولحقتَ بغير المكلَّفين، وصرت كالصبيان والمجانين، وحُرِمْتَ سماعَ الموعظة، وشهود الخُطبة. وقد قال مشايخُ الصوفية: مهما كان الوارد مانعا من القيام بفرض ومانعا من الخير فهو من الشيطان. ثم يلزم مَن ذهب عقله أن ينتقض وضوؤه، فان صلى بعد تلك الغشية الجمعة ولم يتوضأ، كان كمن يشهد الخُطبة، ولا صلَّى، فأيُّ صفقةٍ أخسر ممن هذه صفقته، وأيُّ مصيبة أعظم ممَّن هذه مصيبته؟ وإن كان وقت صراخه في غفلة فقد تكلَّم فيحال الخطْبة، وشوَّش على الحاضرين سماعها، وأظهر بدعةً في مجتمع الناس، وعرَّضهم لأن يجب عليهم تغييرها، فإن لم يفعلوا عصوا، فقد عصى اللهَ من جهاتٍ متعددة، وحمل الناسَ على المعصية، إلى ما ينضافُ إلى ذلك من رياءٍ كامنٍ في القلب، وفسْقٍ ظاهر على الجوارح. فنسأل اللهَ تعالى الوقايةَ من الخذلان، وكفاية أحوال الجهَّال والمجَّان.

و(قوله: ثم أنشأ رجلٌ من المسجد كان يُلاحى فَيُدْعى لغير أبيه) أنشأ: أخذ في الكلام، وشرع فيه، ويُلاحى: يُعيَّرُ ويُذَمُّ؛ بأن يُنْسَبَ إلى غير أبيه، ويُنفى عن أبيه

(1) سورة الطور الآيتين 7 ـ 8
(2) سورة المدثر الآية 8
(3) سورة المرسلات الآيتين 35 ـ 36
(4) سورة المطففين الآية 6
(5) جمع ممخرق، وهو المموِّه

فأنشأ رجلٌ من المسجد ـ كان يُلاحَى فيدعى لغير أبيه ـ فقال: يا نبي الله! من أبي! فقال: «أبوك حُذافةُ» ثم أنشأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً، عائذٌ بالله من سوء الفتن فقال رسول الله ﷺ: «لم أر كاليوم قطُّ في الخير والشرِّ. إني صُوِّرتْ لي الجنةُ والنَّار، فرأيتهما دون هذا الحائط.

ـ وسببُ هذا ما كانت أنكحةُ الجاهلية عليه؛ فإنها كانت على ضروب كما ذكرناه في النكاح. وكان منها: أن المرأة يطؤها جماعة؛ فإذا حملتْ، فولدت دُعي لها كلُّ مَن أصابها، فتُلْحِقُ الولدَ بمن شاءت، فيُلْحَقُ به. فربما يكون الولدُ من خسيس القدر، فتلحقه بكبير القدر، فإذا نفي عمَّن له مقدار، وأُلحق بمن لا مقدار له لحقه من ذلك نقصٌ وعارٌ. وكانوا يسألون رسولَ الله ﷺ عن تحقيق ذلك لينسب لأبيه الحقيقي الذي وُلد من نطفته، وتزول عنه تلك المعرَّة. فسأل هذان الرجلان النبيَّ ﷺ عن تحقيق ذلك، فقال لأحدهما: «أبوك حذافة»، وقال للآخر: «أبوك سالم» فتحقَّق نسبهما، وزالت معرَّتُهما.

و(قول عمر ـ رضب الله عنه ـ: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً) كلامٌ يقتضي إفرادَ الحق بما يجبُ له تعالى من الربوبية، ولرسوله من الرسالة اليقينية، والتسليم لأمرهما، وحكمهما بالكلية، والاعتراف لدين الإسلام بأنَّه أفضل الأديان. ورنما صدَّر عمرُ ـ رضي الله عنه ـ كلامَه بنون الجمع؛ لأنه متكلمٌ عن نفسه، وعن كلِّ مَن حَضَر هنالك من المسلمين.

و(قوله: عائذٌ بالله من سوء الفتن) كذا صحَّت الروايةُ عائذٌ بالرفع، أي: أنا عائذ، أي: مُسْتجير. والفتن: جمع فتنة، وقد تقدَّم: أن أصلها الاختبار، وأنها تنصرفُ على أمور متعددة، ويعني بها هنا: المحن، والمشقات، والعذاب، ولذلك قال: من سوء الفتن، أي: من سيئها ومكروهها. ولما قال ذلك عمر، وضمَّ إلى ذلك قوله: إنا نتوب إلى الله ـ عز وجل ـ. كما جاد في الرواية الأخرى: سكن غَضَبُ رسول الله ﷺ، ثم أخذ يُحدِّثهم بما أطلعه الله عليه من أمور الآخرة، فقال: «لم أر كاليوم قطُّ في الخير والشرِّ». هذا الكلامُ محمولٌ على الحقيقة لا التوسع والمجاز، فإنه: لاخير مثل خير الجنَّة، ولا شرَّ مثل شرِّ النار. وقطُّ: هي الظرفية الزمانية، وروينا ها هنا مفتوحة

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «أولى! والذي نفس محمد بيده: لقد عُرضت عليَّ الجنة والنار آنفاً في عُرْض هذا الحائط».

وفي أخرى: فنزلت هذه الآية: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لاَ تَسْئلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَلَكُمْ**...»

رواه أحمد والبخاري ومسلم.

القاف، مضمومة الطاء مشدَّدة، وهي إحدى لغاتها، وتقال بالتخفيف، وتقال: بضم القاف على رإباع حركتها لحركة الطاء، وذلك مع التشديد والتخفيف، فأما قَط بمعنى حسب فبتخفيف الطاء وسكونها، وقد تزاد عليها نون بعدها. فيقال: قطني، وقد تحذف النون فيقال: قطي، وقد تحذف الياء، فيقال: قط بكسر الطاء، وقد يبدل من الطاء دال مهملة، فيقال: قد، ويقال على تلك الأوجه كلها، كله من الصحاح.

(وقوله: «إني صُوِّرَتْ لي الجنةُ والنار فرأيتهما دون هذا الحائط»، وفي البخاري: «لقد عرضت عليَّ الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط»، وفي البخاري في هذا الحديث: «لقد رأيتُ الآن ـ منذ صليتُ بكم الصلاةَ ـ الجنة والنار ممثلتين في قبلة هذا الجدار») ظاهر هذه الروايات ـ وإن اختلفتْ ألفاظها ـ: أنه ﷺ رأى مثال الجنة والنار في الجدار الذي استقبله مُصوَّرتين فيه. وهذا لا إحالة فيه، كما تتمثل المرئيات في الأجسام الصقيلة. يبقى أن يقال: فالحائط ليس بصقيل. ويجاب: بأن اشترط الصقالة في ذلك: ليس بشرط عقلي، بل: عادي، وذلك محل خرق العادة ووقتها، فيجوز أن يمثلها الله فيما ليس بصقيلٍ[1]، هذا على مقتضى ظاهر هذا الحديث، وأما على مقتضى ظاهر أحاديث الكسوف فيكون رآهما حقيقة، ومدَّ يده ليأخذ قطْفاً من الجنة، ورأى النار وتأخَّر مخافة أن يصيبه لفحها، ورأى فيها فلاناً وفلانةَ. وبمجموع الحديثين تحصَّل أنَّ الله تعالى أطلعَ نبيَّه ﷺ على الجنة والنار مرتين:

إحداهما: في صلاة الكسوف إطلاع رؤية كما فصلناه في الكسوف.

---

(1) في هذا إشارة إلى أنَّ رسول الله ﷺ رأى مثال الجنة والنار علي الحائط، كما يرى الناسُ في هذا العصر من الصور المتحركة علي الشاشات الصغيرة والكبيرة.

وعن أبي موسى قال: سئل النَّبيُّ ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أُكْثِرَ عليه غَضِب. ثم قال للنَّاس: «سلُوني عَمَّ شئتم». فقال رجلٌ: من أبي؟ قال: «أبوك خذافة»، فقام آخر فقال: من أبي يارسول الله؟ قال: «أبوك سالم مولى شيبة». فلما رأى عمر ما في وجه رسول الله ﷺ من الغضب قال: يا رسول الله! إنا نتوب إلى الله!

رواه البخاريُّ ومسلم.

وثانيهما: هذه الإطلاعة، وكانت في صلاة الظهر، كما قد جاء في بعض طرق حديث أنس: أنه ﷺ خرج إليهم بعدما زاغت الشمس، فصلَّى بهم الظُّهْرَ، ثم قام فخطب، وذكر نحو ما تقدَّم. وقد نصَّ عليه البخاريُّ كما نقلته عنه آنفا. وعُرْض الشيء ـ بالضم ـ: جانبه، وصفحه. والعَرض ـ بالفتح ـ: خلاف الطول.

و(قوله: «أولى») هذه كلمة تهديد ووعيد، واذا كُرِّرت كان التهديدُ أعظم، كما قال تعالى: ﴿**أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى**﴾ [1]. وهذا المقام الذي قامه النبيُّ ﷺ كان مُقاماً هائلاً مَخُوفاً، ولذلك قال أنس في بعض الطرق الواقعة في الأم: بلغَ رسولُ الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ، فخطبَ فقال: «عُرضتْ عليَّ الجنَّة والنَّار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً». قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُّ منه. قال: غطَّوا رؤوسَهم، ولهم خنين. والرواية المشهورة بالخاء المعجمة، وقد رواه العذريُّ بالحاء المهملة، فالمعجمة: معناها البكاء مع تردُّد الصوت، وقال أبو زيد: الخنين: ضربٌ من الحنين، وهو الشديد من البكاد. وقوله في هذه الرواية: إنه بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ. أي: عن بعض أصحابه، وذلك أنَّه بلغه ـ والله تعالى أعلم ـ: أن بعضَ من دخل في أصحابه، ولم يتحقَّق إيمانُه: همَّ أن يمتحنَ النبيَّ ﷺ بالأسئلة، ويُكثرَ عليه منها ليعجزَه، وهذا كان دأبُ المنافقين وغيرهم من المعادين له ولدين الإسلام؛ فإنهم كانوا: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [2] ولذلك لَمَّا فهم

---

(1) سورة القيامة الآية 34

(2) سورة التوبة الآية 32

وعن عامر بن سعيد؛ عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْماً، من سأل عن شيءٍ لم يُحرَّم على المسلمين فحُرِّم عليهم من أجل مسألته».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود.

* * *

النبيُّ ﷺ ذلك قال لهم في هذا المجلس: «سلوني، سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلا أنبأتكم به!» فكلُّ من سأله في ذلك المقام عن شيءٍ أخبره به ـ أحبَّه أو كرهه ـ، ولذلك زنزَلَ الله تعالى في ذلك قوله تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ أَنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْئَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَلَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ (1) فأدَّبهم الله تعالى بترك السؤال عما ليس بمهمٍّ، وخصوصاً كما تقدَّم من أحوال الجاهلية التي قد عفا الله عنها، وغفرَها. ولما سمعت الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ هذا كلَّه انتهت عن سؤال رسول الله ﷺ إلا في أمرٍ لا يجدون منه بُدّاً، ولذلك قال أنس ـ فيما تقدم ـ: نُهينا أن نسألَ رسول الله ﷺ عن شيءٍ، فكان يُعجبنا أن يجيءَ الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمعُ.

و(قوله ﷺ: «إن أعظمَ المسلمين جُرْماً في المسلمين مَن سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ على المسلمين فحُرِّم عليهم من أجل مسألته») قال أبو الفرج الجوزيُّ: هذا محمولٌ على أنَّ من سأل عن الشيء عنتاً وعبثاً، فعُوقِب لسوء قصده بتحريم ما سألَ عنه، والتحريم يعمُّ.

قال الشيخ رحمه الله: والجرمُ والجريمة: الذنب. وهذا صريحٌ في أن السؤالَ الذي يكون على هذا الوجه، ويحصلُ للمسلمين عنه هذا الحرجُ: هو من أعظم الذنوب، والله تعالى أعلم.

* * *

---

(1) سورة المائدة الآية 101

باب عِصْمَةِ رسولِ الله ﷺ
عنِ الخطأ فيما يُبلِّغه عن الله تعالى

عن موسى بنِ طلحةَ، عن أبيه، قال: مرَرْتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ بقومٍ على رؤوس النَّخلِ فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» فقالوا: يُلقِّحونَه، يجعلون الذكر في الأنثى؛ فتَلْقَحُ. فقال رسول الله ﷺ: «ما أظن ذلك يغني شيئاً»،

ومن باب: عصمة رسول الله ﷺ
عن الخطأ فيما يبلِّغه عن الله تعالى

معنى هذه الترجمة معلومٌ من حال النبي ﷺ قطعاً بدليل المعجزة، وذلك أن النبي ﷺ لما قال للناس: أنا رسول الله إليكم، أبلغكم ما أرسلني به إليكم من الأحكام والأخبار عن الدار الاخرة وغيرها، وأنا صادق في كل ما أخبركم به عنه، ويشهد لي على ذلك ما أيّدني به من المعجزات، ثم وقعت المعجزاتُ مقرونةٌ بتحدّيه، علمنا على القطع والبتات استحالة الخطأ والغلط عليه فيما بلغه عن الله، إما لأن المعجزة تنزّلت منزلةَ قول الله تعالى لنا: صدق، أو لأنها تدل على أن الله تعالى أراد تصديقَه فيما قاله عنه، دلالةً على قرائن الأحوال، وعلى الوجهين فيحصل العلمُ الضروري بصدقه، بحيث لا يجوزُ عليه شيءٌ من الخطأ في كل ما يبلغه عن الله تعالي بقوله، وأما أمور الدنيا التي لا تعلّق لها بالدّين فهو فيها واحد من البشر، كما قال: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون»، وكما قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم، وأنا أعلم بدينكم». وقد تقدم القولُ في الإبار.

ويلقّحون مضارع ألقحَ الفحلُ الناقة، والريحُ السحابَ، و: رياحٌ لواقحُ، ولا يقال: ملاقحُ، وهو من النوادر، وقد قيل: الأصلُ فيه: مُلْقِحَةٌ، ولكنها لا تُلْقِحُ إلا وهي في نفسها لاقحٌ، ويقال: لَقِحَت الناقةُ ـ بالكسر ـ لَقَحاً ولقاحاً بالفتح، فهي لاقح، واللقاحُ أيضاً ـ بالفتح ـ ما تُلْقَحُ به النخل.

(وقوله: «ما أظنُّ ذلك يغني شيئاً») يعني به الإبار، إنما قال النبيُّ ﷺ هذا؛ لأنه لم يكن عنده علمٌ باستمرار هذه العادة، فإنه لم يكن ممن عانى الزراعة، ولا الفلاحة، ولا باشر شيئاً من ذلك، فخفيت عليه تلك الحالة، وتمسَّك بالقاعدة الكلِّية المعلومة التي هي: أنه

قال: فأُخْبِرُوا بذلك فتركوه، فأُخبر رسولُ الله ﷺ بذلك، فقال: «إنْ كان ينفعُهُم ذلك فليصنعوه. فإنِّي إنما ظَنَنْتُ ظنّاً، فلا تؤاخذوني بالظَّنِّ. ولكن إذا حدّثْتُكُم عن الله شيئاً فخذوا به، فإنِّي لَنْ أكْذِبَ على الله عزَّ وجلَّ».

رواه مسلم.

ليس في الوجود ولا في الإمكان فاعل، ولا خالق، ولا مؤثِّر إلا الله تعالى، فإذا نُسب شيء إلى غيره نسبة التأثير فتلك النسبةُ مجازيَّة عَرَضيَّة لا حقيقية، فصدق قوله ﷺ: «ما أظن ذلك يغني شيئاً» لأن الذي يغني في الأشياء عن الأشياء بالحقيقة هو الله تعالى، غير أنَّ الله تعالى قد أجرى عادتَه بأن سَتَر تأإثير قدرته في بعض الأشياء بأسباب معتادة، فجعلها مقارنة لها، ومغطّاةً بها ليؤمنَ مَن سبقت له السعادة بالغيب، وليضلّ مَن سبقت له الشقاوة بالجهل والرَّيب: ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾ (1).

و(قوله: «إنما ظننتُ ظناً فلا تؤاخذوني بالظن»، وقوله في الأخرى: «إنما أنا بشر») هذا كلُّه منه ﷺ اعتذارٌ لمن ضعف عقلهُ مخافةَ أن يزيله الشيطان فيكذِّب النبيَّ ﷺ فيكفر، وإلا فما جرى شيءٌ يحتاج فيه إلى عذر، غاية ما جرى: مصلحة دنيوية، خاصَّة بقوم مخصوصين لم يعرفها من لم يباشرها، ولا كان من أهلها المباشرين لعملها، وأوضح ما في هذه الألفاظ المعتذر بها في هذه القصَّة قوله: يأنتم أعلم بأمر دنياكم»، وكأنه قال: وأنا أعلم بأمر دينكم.

و(قوله: «إذا حدثتكم عن الله فخذوا به») أمر جزم بوجوب الأخذ عنه في كل أحواله: من الغضب والرضا، والمرض والصحة. (وقوله: «فلن أكذب على الله») أي: لا يقع منه فيما يُبلِّغه عن الله كذب، لا غلط، ولا سهواً ولا عمداً. وقد قلنا: إن صدقه في ذلك هو مدلولُ المعجزة، وأما الكذب العمد المحض فلم يقعْ قط منه في خبرٍ من الأخبار، ولا جُرِّب عليه شيءٌ من ذلك منذ أنشأ الله تعالى وإلى أن توفَّاه الله تعالى، وقد كان في صغره معروفاً بالصدق والأمانة، ومجانبة أهل الكذب والخيانة، حتى إنه كان يسمى بالصادق الأمين، يشهدُ له بذلك كلُّ من عرفه وإن كان من أعدائه، وقد خالفه.

و(قوله: «إذا أمرتكم بشيءٍ من رأيي») يعني به في مصالح الدنيا كما دلَّ عليه

---

(1) سورة الأنفال الآية 42

وعن رافعِ بن خَـديج، قـال: قَـدمَ نَبيُّ الله ﷺ المدينةَ وَهُـمْ يأبـرُونَ النَّخل، يقول: يُلَقِّحون النَّخْلَ. فقال: «ما تصنعون؟» قالوا: كنا نَصْنَعُهُ. قال: «لعلكم لَوْ لَمْ تفعلوا كان خيراً!»، قال: فتركوه. فَنَفَضَتْ ـ أو: فَنَقَصَتْ ـ قال: فذكروا ذلك له؛ فقال: «إنَّما أنا بَشَرٌ إذا أَمَرْتُكُمْ بشيءٍ مِنْ دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ مِنْ رَأْيِي فإنَّما أنا بشرٌ».

رواه مسلم.

وعن أنسٍ، أنَّ النَّبيّ ﷺ مَرَّ بقوم يُلَقِّحفون، فقال: «لَوْ لَمْ تفعلوا لَصَلُحَ»، قال: فخرجَ شِيْصاً، فمرَّ بهم فقال: «ما لِنخْلِكم؟!» قالوا: قُلْتَ كذا، وكذا، قال: «أنتم أعلمُ بأمر دُنياكُم».

رواه أحمد ومسلم وابن ماجه.

* * *

بساطُ هذه القصَّة، ونصُّه على ذلك، ولم يتناول هذا اللفظ ما يحكم فيه باجتهاده إذا تنزلنا على ذلك؛ لأن ذلك أمر دينيٌّ تجبُ عصمته فيه، كما إذا بلَّغه نصاً؛ إذ كلُّ ذلك تبليغُ شرعه، وبيان حُكم دينه، وإن اختلفتْ مآخذُ الأحكام، كما قد أوضحناه في الأصول.

و(قوله: «فإنما أنا بشر») أي: واحد منهم في البشرية، ومساوٍ لهم فيما ليس من الأمور الدينية، وهذه إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**﴾ [1] فقد ساوى البشرَ في البشرية، وامتاز عنهم بالخصوصية الإلهيَّة التي هي: تبليغُ الأمور الدينية.

و(قوله: فنفضت أو نقصت) ظاهره أنه شكٌّ من بعض الرواة في أيِّ اللفظين قال. ويحتمل أن يكون (أو) بمعنى الواو. أي: نفضت ثمرها ونقصت في حملها، وقد دلَّ على هذا قولُه في الرواية الأخرى: فخرج شيصاً، وهو البلح الذي لا ينعقدُ نواه، ولا يكون فيه حلاوةٌ إذا أبسر، ويسقط فيصير حَشَفاً.

* * *

---

(1) سورة الكهف الآية 110

باب كيف كان يأتيه الوحي؟

عن عائشة أنَّ الحارث بن هشام سأل النَّبيَّ ﷺ كيف يأتيك الوحيُ؟ قال: «أحياناً يأتيني في مثل صَلْصَلةِ الجرس، وهو أشدُّهُ عليَّ،.....

ومن باب: كيف كان يأتيه الوحي

قد تقدَّم الكلامُ على الوحي لغة.

و(قوله: كيف يأتيك الوحي؟) سؤالٌ عن كيفية تلقِّي النبيِّ ﷺ الوحي عن المَلَك، والمرادُ بالوحي هنا: ما يُلقى للنبيِّ ﷺ من القرآن والأحكام، فأجاب ﷺ بأن ذلك يأتيه على حالتين:

إحداهما: أن يسمعَ صوتاً شديداً متتابعاً يُشبه صلصلةَ الجرس، وهو الناقوس، أو شبهه، وهو الذي تعلَّقه العربُ في أعناق الإبل لصوته، وقال بعضُ العلماء: وعلى هذا النحو تتلقى الملائكةُ الوحيَ عن الله تعالى، كما جاء في الحديث الصحيح: «إذا قضى اللَّهُ الأمرَ في السماء ضربت الملائكةُ الأرض بأجنحتها خَضعاناً لقوله، كأنَّه سلسلةٌ على صَفْوان».

قال الشيخ رحمه الله: والذي عندي في هذا الحديث: أن هذا تشبيهٌ لأصوات خَفْق أجنحة الملائكة، فيعني: أنها متتابعة متلاحقة، لا أن الله تعالى يتكلم بصوت؛ فإن كلامه تعالى ليس بحرفٍ، ولا صوت، كما هو مبرهنٌ عليه في موضعه. فإن إزاء هذا القائل: أن كلامَ الله تعالى القائم به صوتٌ يُسْمَعُ بحاسَّة الأذن، فهو علطٌ فاحشٌ، وما هذا اعتقادُ أهل الحق، وإن أراد: أن الملائكة تسمعُ كلامَ مَلَك آخر يبلِّغهم عن الله بصوتٍ فصحيح، كما تقرر ذلك في حقِّ جبريل، فيما كان يبلغه النبيَّ ﷺ.

و(قوله: «وهو أشدُّه عليَّ») إنما كان أشدَّ عليه لسماعه صوتَ المَلَك الذي هو غيرُ معتاد، وربما كان شاهَدَ المَلَك على صُورته التي خُلِقَ عليها، كما أخبر بذلك عن نفسه في غير هذا الموضع، وكان يشتدُّ عليه أيضاً؛ لأنه كان يريدُ أن يحفظَه ويفهمه مع كونه صوتاً متتابعاً مزعجاً، ولذلك كان يتغيَّر لونه، ويتفصَّد عرقاً، ويعتريه مثل حال المحموم، ولولا أن الله تعالى قوَّاه على ذلك، ومكَّنه منه بقدرته لما استطاع شيئاً من ذلك، ولَهَلَك عند مشافهة المَلَك، إذ ليس في قوى البشر المعتادة تحمُّل ذلك بوجهٍ.

ثم يفصِمُ عنِّي، وقد وعيتهُ، وأحياناً مَلَكٌ في صورة رجلٍ فَأَعِي ما يقولُ».

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم والترمذي والنسائي.

وعن عبادة بن الصامت، قال: كان نبيُّ الله ﷺ إذا أُنْزلَ عليه الوحيُ

والحالة الثانية: وهي أن يتمثلَ له المَلَكُ في صورة رجلٍ، فيكلِّمه بكلامه المعتاد، فلا يجدُ إلى ذلك شيئاً من المشقات، والشدائد. وهذا كما اتَّفق له معه حيث تمثَّل له في صورة الأعرابي، فسأله عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وكما كان يأتيه في صورة دحية بن خليفة، وكانت صورتُه حسنةَ. والحاصلُ من هذا الحديث، ومن قوله تعالى: ﴿**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً**﴾ (1)، ومن غير ذلك من الكتاب والسنَّة: أن الله تعالى قد مكّن الملائكة والجنَّ من التشكُّل في الصور المختلفة، والتمثيل بها؛ مع أن للنوعين في أنفسهما خلَقاً خاصة بهما، خلقهما اللهُ تعالى عليها، كما قال ﷺ: «لم أر جبريلَ على صورته التي خُلق عليها إلاَّ مرتين». والبحثُ عن كيفية ذلك التمثيل، بحثٌ بيس وراءه تحصيل، والواجبُ التصديقُ بما جاء من ذلك. ومَن أنكر وجودَ الملائكة والجن وتمثُّلهم في الصور فقد كفر.

و(قوله: «فيفصم عني، وقد وعيتُ عنه») أي: يذهبُ عني، ويقلع. يقال منه: فصم، وأفصم بالفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿**لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (2) أي: لا انقطاع، والفصم ـ بالفاء ـ انصداع من غير بينونة، وبالقاف انصداعٌ مع بينونة. هذا أصلُهما، ثم قد يتوسَّعُ في كلٍّ واحدٍ منهما. و(وعيت): فهمتُ وحفظت، تقول العرب: وعيتُ العلم ـ ثلاثياً ـ وأوعيتُ المتاعَ في الوعاء ـ رباعيّاً ـ وأصلُهما: من جعلت الشيء في الوعاء، غير أن استعمالهم فرَّق بينهما كما قلناه.

وقد اقتصر في هذا الحديث على ذكر طريقي الوحي، ولم يذكر الرؤيا، وهي من الوحي كما تقدم؛ لأنه فهم عن السائل: أنه إنما سأل عن كيفية تلقِّيه الوحي من المَلَك، والله أعلم.

و(قوله: كان إذا أنزل عليه الوحي كُرِب لذلك) وجدناه بتقييد من يُوثَق بتقييده مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله، أي: أصيب بالكَرْب، وهو الألم والغمُّ. و(تربَّد وجهه): عَلَتْه رُبْدَة

---

(1) سورة مريم الآية 17

(2) سورة البقرة الآية 256

كُرِبَ لذلك، وتربَّد وجهُهُ، ونكَسَ رأسهُ، ونَكَسَ أصحابُهُ رؤوسهم، فلما، أُتْلِيَ عنه رفع رأسه.

رواه أحمد ومسلم.

وعن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ليأتينَّ على أحدِكُمْ يومٌ لا يَراني، ثم لأَنْ يراني أحبُّ إليه من أهله ومالِهِ معهم».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

* * *

وهي: لونٌ بين السواد والغبرة، ومنه قيل للنعام: رُبْدٌ، وجمع ربداء، كحمراء وحُمْرٌ. وتنكبسُ النبيِّ ﷺ رأسه لثقل ما يُلقى عليه، ولشدَّة ما يجده من الكَرْب. وتنكيس أصحابه رؤوسهم عند ذلك استعظامٌ لذلك الأمر، وهيبة له.

و(قوله: فلما أُتلي عنه رفع رأسَه) اختلف الرواةُ في هذا الحرف؛ قال القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ: قيَّده شيخُنا أبو عبد الله محمد بن عيسى الجياني بضم الهمزة، وتاء باثنتين من فوقها ساكنة، ولام مكسورة، مثل: أعطي، وعند الفارسي مثله؛ إلا أنه بثاء مثلثة وعند العذريِّ من طريق شيخه الأسديِّ: بكسر الثاء المثلثة: أُثلَ مثل: ضُرِبَ. وكان عند شيخنا الحافظ أبي عليٍّ: أُجْلِيَ بالجيم مثل: أُعْطِي، وعند ابن ماهان: انجلى بالنون، وكذا رواه البخاريُّ، وهاتان الروايتان لهما وجه، أي: انكشف عنه وذهب، وفُرِّج عنه. يقال: انجلى عنه الغمّ، وأجليته، أي: فرجته فتفرج، وأجلوا عن قتيل، أي: برحوا عنه وتركوه، ورواه البخاري في كتاب الاعتصام: فلما صَعِد الوحي. وهو صحيح، وفي البخاري في سورة سبحان: فلما نزل الوحي. وكذا في مسلم في حديث سؤال اليهودي، وهذا وهم بيِّنٌ. ورواه ابنُ أبي خيثمة: فلما أعلى عنه. أي: نحَّي عنه. كما قال أبو جهل: اعلُ عني، أي: تنحَّ. نقلته من كتاب «مشارق الأنوار» للقاضي.

و(قوله: «والذي نفسُ محمد بيده ليأتينَّ على أحدكم يومٌ لأن يراني، ثم لأن يراني أحبُّ إليه من أهله وماله معهم») كذا صحيحُ الرواية، ومعنى هذا الحديث: إخباره ﷺ بأنه إذا فُقِد تغيَّرت الحالُ على أصحابه من عدم مشاهدته، وفقد عظيم فوائدتها، ولما طرأ

في ذكر عيسى ابن مريم عليهما السلام

عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى النَّاسِ بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة». قالوا: كيف يا رسول الله؟! قال: «الأنبياء إِخوةٌ من عَلاَّتٍ، أمَّهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ، وليس بيننا نبيٌّ».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

عليهم من الخلاف والمحن، والفتن. وعلى الجملة: فساعةُ موته اختلفت الآراء، ونجمت الأهواء، وكاد النظام ينحلُّ لولا أن اللَّهَ تبارك وتعالى تداركه بثاني اثنين، وأهل العقد والحلّ، وقد عبَّر الصحابةُ عند مبدأ ذلك التغيرُّ لنا بقولهم: ما سوَّينا الترابَ على رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا؛ فكلما حصل واحدٌ منهم في كربة من تلك الكرب، ودَّ أنه رأى رسول الله ﷺ بكلِّ ما معه من مال وأهل ونشب، وذلك لتذكره ما فات من بركات مشاهدته، ولما حصل بعده من فساد الأمر، وتغيُّر حالته. والله أعلم.

* * *

ومن باب: ذكر عيسى عليه السلام

(قوله ﷺ: «أنا أوْلى النَّاس بعيسى ابن مريم») أي: أخَصُّ، وأقربُ وأقعدُ، كقوله ﷺ: «فَلأولِى عصبةٍ» أي: أقربُ، وأحقُ.

و(قوله: «في الأولى والآخرة») أي: في الدنيا وفي الدار الآخرة.

و(قوله: كيف يا رسولَ الله؟) سؤال عن وجه الأولوية. فقال في الجواب: «الأنبياء إِخوةٌ من عَلاَّت، أُمَّهاتهم شتَّى، ودينهم واحد وليس بيني وبينه نبيٌ» وفي لفظ آخر: «أولادُ عَلات». وفي الصحاح: بنو العَلاَّت: هم أولاد الرجل من نسوة شتَّى، سميت بذلك لأن الذي يتزوجها على أولى كانت قبلها، ثم علَّ من هذه، والعَلَلُ: الشُّرب الثاني، يقال: عَلَلٌ بعد نهلٍ، وعلَّهُ يعلُّه: إذا سقاه السُّقية الثانية، وقال غيره: سمُّوا بذلك لأنهم أولاد ضرائر، والعَلاَّت الضرائر. وشتَّى: مختلفون، ومنه قوله تعالى:

وعنه : أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « ما مِنْ مولودٍ يُولد إلا نَخَسَهُ الشيطانُ فيستهلُّ صَارخاً من نَخسة الشيطان إلاّ ابن مريم وأمَّه » . ثم قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ .

﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** ﴾ (1) . قال القاضي أبو الفضل عياض : معناه : أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، فهم أولاد عَلاَّت إذ لم يجمعْهم زمانٌ واحدٌ، كما لم يجمعْ أولادَ العَلاَّت بطنٌ واحدٌ، وعيسى ـ عليه السلام ـ لما كان قريبَ الزمان منه ﷺ ـ ولم يكن بينهما نبيٌّ، كانا كأنهما في زمانٍ واحدٍ، فكانا بخلاف غيرهما .

قال الشيخ رحمه الله : هذا أشبهُ ما قيل في هذا الحديث، ويستفاد منه : إبطال قول من قال : إنه كان بعد عيسى أنبياء ورسل، فقد قال بعض الناس : إن الحواريِّين كانوا أنبياء، وأنهم أُرسلوا إلى الناس بعد عيسى، وهو قول أكثر النصارى، كما ذكرناه في كتاب (الإعلام) .

و(قوله : ودينهم واحدٌ ») أي : توحيدهم، وأصول أديانهم، وطاعتهم لله تعالى، واتِّباعهم لشرائعه، والقيام بالحقِّ، كما قال تعالى : ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً . . .** ﴾ **الآية** (2) ، ولم يُردْ فروع الشرائع؛ فإنهم مختلفون فيها كما قال تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً** ﴾ (3) .

(وقوله : « ما من مولود يُولد إلا نخسَه الشيطانُ فيستهلُّ صارخاً من نَخْسَة الشيطان ») يعني به : أول وقت الولادة حين يَستهلُّ أوَّلَ استهلال، بدليل قوله في الرواية الأخرى : « يوم يولد » . أي : حين يُولد . والعرب قد تطلق اليومَ وتريد به الوقت والحين . كما قال تعالى : ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا** ﴾ (4) . أي : حين يرون،

---

(1) سورة الحشر الآية 14
(2) سورة الشورى الآية 14
(3) سورة المائدة الآية 48
(4) سورة الاحقاق الآية 35

وفي روايةٍ: «كُلُّ بني آدم يمسُّه الشيطان يوم وَلَدَتْهُ أُمُّه. إلا مريمَ وابنَها».

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم

وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: رأى عيسى ابنُ مريم رجلاً يسرقُ، فقال له عيسى: سَرَقْتَ! قال: كلّ والذي لا إلهَ إلا هو! فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذَّبتُ نفسي».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم والنسائي وابن ماجه.

* * *

كما تقدَّم في الحديث قبل هذا: «ليأتينَّ على أحدكُم يومٌ لا يَراني» أي: زمنٌ ووقتٌ، وهو كثير. وكأنَّ النَّخس من الشيطان إشعار منه بالتمكن والتسليط وحفظ الله تعالى لمريمَ وابنها من نَخْسته تلك التي هي ابتداء التسليط ـ ببركة رجابة دعوة أُمِّها حين قالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[1]. فاستجابَ الله لها حضرها في ذلك الوقت من صدق الالتجاء إلى الله تعالى، وصحة التوكُّل، وأمُّها هي امرأة عمران، واسمُها حنَّة لنت فاقود، وكانت لما حمَلت نذرت، وزوجبت على نفسها: أن تجعلَ ما تلدُه منزَّهاً منقطعاً للعبادة، لا يشتغل بشيءٍ مما في الوجود، على شريعتهم في الرهبانية، وملازمتهم الكنائسَ، وانقطاعهم فيها إلى الله تعالى بالكلِّية. ولذلك لما ولدتها أنثى قالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾[2]، أي: فيما نذرته له من الرهبانية.

(وقوله: «كل مولود» و«ما من مولود») ظاهرٌ قويٌ في العموم والإحاطة، ولما استثنى منه مريم وابنها التحق بالنصوص لا سيَّما مع النظر الذي أبديناه، فأفاد هذا: أن الشيطان يَنْخَسُ جميع ولد آدم حتى الأنبياء، والأولياء، إلا مريم وابنها، وإن لم يكن كذا بطلت الخصوصية بهما، ولا يفُهم من هذا أن نخسَ الشيطان يلزم منه إضلالُ المنخوس وإغواؤه؛ فإن ذلك ظنٌّ فاسد، وكم قد تعرَّض الشيطان للأنبياء، والأولياء بأنواع الإفساد،

---

(1) سورة آل عمران الآية 36

(2) سورة آل عمران الآية 36

والإغواء، ومع ذلك يعصمُهم الله مما يرومه الشيطان، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (3) هذا مع أن كلَّ واحدٍ من بني آدم قد وُكِّل به قرينُه من الشياطين، كما قال رسول الله ﷺ. وعلى هذا فمريم وابنها - وإن عُصما من نَخْسه - فلم يُعصما من ملازمته لهما، ومقارنته. وقد خصَّ الله تعالى نبينا ﷺ بخاصِّيَّة كَمُلَ عليه بها إنعامه، بأن أعانَه على شيطانه حتَّى صحَّ إسلامه، فلا يكون عنده شرٌّ، ولا يأمره إلا بخير، وهذه خاصَّة لم يؤتها أحدٌ غيره، لا عيسى ولا أمُّه. وفي غير كتاب مسلم: «فذهب الشيطان ليطعنَ في حاضرته فطعنَ في الحجاب» أي: في الحجاب الذي حُجِبَ به عيسى - عليه السلام -، فرما حجاب مهده، ورما حجاب بيته.

و(قوله: «صياح المولود نزغة من الشيطان») الرواية المعروفة: نزغةٌ - بالنون والزاي ساكنة والغين المعجمة - من النزغ: وهو الرسوسة، والإغراء بالفساد، ووقع لبعض الرواة: فزعةٌ - بالفاء والعين المهملة -: من الفزع.

و(قوله: «رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرقُ فقال: سرقتَ. قال: كلا والذي لا إله إلا هو!») ظاهر قول عيسى لهذا الرجل: سرقتَ أنه خبرٌ عما فعلَ الرجل من السرقة، وكأنَّه حقَّق السرقة عليه، لأنه رآه قد أخذ مالاً لغيره من حرز في خفيةٍ، ويُحتمل أن يكونَ مستفهماً له عن تحقيق ذلك، فحذف همزة الاستفهام، وحذفها قليل.

و(قول الرجل: كلا) أي: لا، نفى ذلك، ثم أكَّده باليمين.

و(قول عيسى: «آمنتُ باللَّه، وكذَّبتُ نفسي») أي: صدَّقت من حلف بالله، وكذَّبت ما ظهر من ظاهر السَّرقة، فإنه يحتمل: أن يكون الرَّجل أخذ ماله فيه حقٌّ، أو يكون صاحبُه قد أذنَ له في ذلك، ويحتمل أن يكون أخذه ليُقلِّبَه، وينظرَ إليه. ويُستفاد من هذا الحديث درء الحد بالشُّبهة.

---

(3) سورة الاسراء الآية 65

باب في ذكر إبراهيم عليه السلام

عن أنسٍ، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خيرَ البريَّة! فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام».

رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذيُّ.

ومن باب: ذكر إبراهيم عليه السلام

(قوله ﷺ للذي قال له: يا خيرَ البرية: «ذاك إبراهيم») البريَّة: الخلق، وتهمز، ولا تهمز، وقد قرىء بهما، واختلف في اشتقاقها، فقيل: هي مأخوذة من البراء، وهي: التراب. فعلى هذا لا يُهمز، وقيل: هي مزخرذة من برأ الله الخلقَ ـ بالهمز ـ، أي: خلقَهم، وعلى هذا فيهمز، وقد يكون من هذا، وتسهَّل همزتها، كما سهَّلوا همزة خابية، وهي من: خبأت مهموزاً. والبريَّة في الوجهين: فعيلة بمعنى مفعولة، وقد عارضَ هذا الحديث قولَه ﷺ: «أنا سيِّد ولد آدم». وما علم من غير ما موضع من الكتاب والسُّنَّة، وأقوال السلف والأمَّة: أنه أفضل ولد آدم، وقد انفصل عن هذا بوجهين:

أحدُهما: أن ذلك من النبيِّ ﷺ على جهة التواضع، وترك التطاول على الأنبياء، كما قال «أنا سيد ولد آدم يومَ القيامة ولا فخر، وأنا أكرمُ ولد آدم على ربي يوم القيامة ولا فخر». وخصوصاً على إبراهيم؛ الذي هو أعظمُ آبائه وأشرفهم.

وثانيهما: أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلمَ بمنزلته عند الله تعالى، ثم إنه أُعلم بأنه أكرمُ وأفضلُ، فأخبر به كما أُمر، ألا ترى أنَّه كان في أوَّل أمره يسألُ أن يبلغَ درجة إبراهيم من الصلاة عليه والرحمة، والبركة، والخُلَّة، ثم بعدَ ذلك أخبرنا أنَّ الله تعالى قد أوصلَه إلى ذلك لَمَّا قال: «إن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيمَ خليلاً» ثم بعد ذلك زاد الله من فضله، فشرَّفه وكرَّمه وفضَّله على جميع خلقه. وقد أورِد على كل واحدٍ من هذين الوجهين استبعاد. قال: رُدَّ على الأول؛ أن قيل: كيف يصحُّ من الصادق المعصوم أن يُخبرَ عن الشيء بخلاف ما هو عليه لأجل التواضع والأدب؟ والوارد على الثاني: أن ذلك خبرٌ عن أمرٍ وجوديٍّ، والأخبار الوجودية لا

وعن أبي هريرةَ قال : قال رسول الله ﷺ : «اخْتتن إبراهيم عليه السلام، وهو ابن ثمانين سنةً بالقَدُوم».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

يدخلُها النسخ. والجواب عنهما : أن يقال: إن ذلك ليس إخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه، فإنَّه تواضع يمنع إطلاق ذلك اللفظ عليه، وتأدُّبٌ مع أبيه بإضافة ذلك اللفظ إليه، ولم يتعرَّض للمعنى، فكأنه قال: لا تطلقوا هذا اللفظ عليَّ، وأطلقوه على أبي إبراهيم أدباً معه، واحتراماً له، ولو صرَّح بهذا لكان صحيحاً غير مستبعد، لا عقلاً، ولا نقلاً، وهذا كما قال: «لا تفضلوني على موسى» أي: لا تقولوا: محمد أفضل من موسى مخافة أن يُخيَّل نقص في المفضول، كما قدَّمناه ويأتي. بهذا أظهرَ هذا اللفظ: أن ذلك راجعٌ إلى منع إطلاق لفظٍ وإباحته، فذلك خبرٌ عن الحكم الشرعي، لا عن المعنى الوجوديِّ، وإذا ثبتَ ذلك جاز رفعُه، ووضعُه، وصحَّ الحكم به، ونسخُه من غير تعرُّض للمعنى، والله أعلم.

سلَّمنا أنه خبر عن أمر وجوديٍّ، لكن لا نسلِّم أن كلَّ أمر وجوديٍّ لا يتبدَّل، بل : منها ما يتبدلَّ، ولا يلزم من تبدُّله تناقض، ولا مُحالٌ، ولا نسخٌ؛ كالإخبار عن الأمور الوضعية. وبيان ذلك : أن معنى كون الإنسان مكرَّماً مفضَّلاً إنما ذلك بحسب ما يُكرَّم به، ويُفضَّل على غيره، ففي وقت يُكرَّم بما يُساوي فيه غيرَه، وفي وقت يُزاد على ذلك الغير، وفي وقتٌ يُكرَّم بشيء لم يكرَّم به أحدٌ، فيقال: غلبه في المنزلة الأولى مكرَّم مقرَّب، وفي الثانية مفضَّل بقيد، وفي الثالثة، مفضَّل مطلقاً. ولا يلزم من ذلك تناقضٌ، ولا نسخٌ، ولا مُحالٌ، وهذا واضحٌ وحسنٌ جداً، فاغتبطْ عليه وشدَّ عليه يداً.

و(قوله : «اختتنَ إبراهيمُ عليه السلام بالقدوم، وهو ابن ثمانين سنة») اختلف الرواة في تخفيف دال القدوم وتشديدها، واختلفوا أيضاً في معناها. فالذي عليه أكثرُ الرُّواة التخفيف، ويعني به: آلة النَّجَار، وهو قول أكثر أهل اللغة في آلة النَّجارة.

ورواه بعضهم مُشدَّداً. وفسَّره بعض اللغويين: بأنه موضع معروف بالشام، ومنهم من قال: بالسَّرَاة، وحكي عن أبي جعفر اللُّغوي: قدُّوم: المكان مشدَّد، معرفة، لا تدخله الألف واللام، قال: ومن رواه في حديث إبراهيم عليه السلام مخفَّفاً فإنما يعني بها الآلة التي يُنجر بها، وفي الصحاح: القدوم: الذي ينحت به مخفَّفاً، قال ابن السِّكت: لا تقل: قدُّوم بالتشديد، والجمع: قُدُمٌ. قال الأعشى:

أقامَ بهِ شَاهَبُورُ الجُنُو دَ حَوْلَيْنِ يَضْرِبُ فِيهِ القُدُمْ

وجمع القُدُم: قدائم، مثل: قُلُص، وقلائص، والقدوم أيضاً: اسم موضع مخفَّف.

قال الشيخ: ويحصل من أقوالهم: أن القدوم إذا أريد به الآلة فهو مخفَّف، وإذا أريد به الموضع ففيه التشديد والتخفيف، ويحتمل أن يُراد بالقدوم في الحديث: الآلة والموضع.

و(قوله: «وهو ابن ثمانين سنة») وفي غير كتاب مسلم: أنه اختتن وهو ابن ثمانين سنة، وعاش مئة وعشرين سنة. قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: قد جاء هذا الحديث من رواية مالك، والأوزاعي، وفيه: اختتن إبراهيم وهو ابن مئةٍ وعشرين سنة، ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة. إلا أنَّ مالكاً ومن تابعَه وقفوه على أبي هريرة.

قال الشيخ رحمه الله: قد تقدَّم: أنَّ إبراهيم أوَّلُ من اختتن، وأنَّ ذلك لم تزلْ سُنَّة عامَّةً معمولاً بها في ذريته وأهل الأديان المنتمين إلى دينه. وهو حكم التوراة على بني إسرائيل كلِّهم، ولم تزل أنبياء بني إسرائيل يختتنون حتى عيسى عليه السلام، غير أنَّ طوائف من النَّصارى تأوَّلوا ما جاء في التوراة من ذلك، بأنَّ المقصودَ زوال غُلْفة القلب، لا جلدة الذَّكر، فتركوا المشروعَ من الختَّان، بضربٍ من الهذيان، وليس هذا بأوَّل جهالاتهم، فكم لهم منها وكم؟! ويكفيك من ذلك: أنَّهم زادوا على أنبيائهم في الفهم، وغلَّطوهم فيما عملوا عليه وقضوا به من الحكم. وقد أسبغنَا القول في هذا في كتاب الإعلام.

وعنه : أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لم يكذب إبراهيمُ النَّبيُّ عليه السلام قطُّ إلا ثلاثَ كَذَبات؛ ثِنتَين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمّ هَذَا﴾ .....

و(قوله: «لم يكذب إبراهيمُ النبيُّ ـ عليه السلام ـ قطُّ إلا ثلاثَ كَذَبات، ثنتين في ذات الله: قوله: ﴿إنّي سقيم﴾. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾. وواحدةً في شأن سَارة») قد تقدَّم الكلامُ على هذه الكذَبات في كتاب الإيمان، وذكرنا هناك: أنها أربعٌ، زيد فيها قوله للكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [1] ولم يذكرْها في هذا الحديث، مع أنَّه قد جاءَ بلفظ الحصر، فينبغي ألا يقال عليها: كَذْبَةٌ في حقِّ إبراهيم؛ إذ قد نَفاها الرَّسول ﷺ بهذا الحصر، وإنما لم تُعدَّ عليه كذْبَةً وهي أدخلُ في الكذب من هذه الثلاث؛ لأنَّه ـ والله أعلم ـ حين قال ذلك في حال الطفوليَّة، وليست حالَ تكليف، ويقوِّي هذا المعني قول من حكى عنه ذلك، كما تقدَّم في الإيمان.

و(قوله: «اثنتين في ذات الله») أي: في الدفع عن وجود الله، وبيان حجَّته على أن المستحقَّ للإلهية هو الله تعالى لا غيره، فاعتذر عمَّا دعوه إليه من الخروج معهم بأنه سقيم، فورَّى بهذا اللفظ، وهو يُريد خلاف ما فهموا عنه ـ كما بيَّناه في الإيمان ـ حتى يخلوَ بالأصنام فيكسرَها، ففعل ذلك، وترك كبيرَ الأصنام لينسبَ إليه كسرَها بذلك، قولاً يقطعهم به، فإنهم لما رجعوا من عيدهم فوجدوا الأصنام مكسَّرة: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِئَالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِين﴾ [2]، فقال بعضهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [3] وكان هذا الذكر هو قول إبراهيم لهم: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [4] فلما أحضروه: ﴿قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِئَالِهَتِنَا يَإِبْرَاهِيمُ﴾ [5]

---

(1) سورة الانعام الآية 77 &78
(2) سورة الانبياء الآية 59
(3) سورة الانبياء الآية 60
(4) سورة الانبياء الآية 57
(5) سورة الانبياء الآية 62

وواحدةً في شأن سارة، فإنَّه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها : إنَّ هذا الجبَّار إنْ يعلم أنَّكِ امرأتي يَغْلِبَني عليك، .....

فأحابهم بقوله: ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ** ﴾ [1] ﴿ **فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ** ﴾ [2] أى : رجع بعضُهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجَّة المتفطِّن لحجَّة خصمه : ﴿ **قَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [3] أي : بعبادة من لا ينطق بلفظة، ولا يملك لنفسه لحظة، فكيف ينفعُ عابديه، ويدفع عنهم البأس، من لا يردُّ عن رأسه الفأس: ﴿ **ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ** ﴾ [4] أي : عادوا إلى جهلهم وعنادهم، فقالوا: ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ** ﴾ [5] فقال قاطعاً لما به يهذون، ومفحماً لهم فيما يتقوَّلون: ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [6].

و(قوله : « ذات الله ») يعني به: وجود الله المنزَّه عن صفات المخلوقات، والمقدَّس عن ذوات المحدثات، وفيه دليلٌ على جواز إطلاق لفظ الذات على وجود الله تعالى، فلا يُلتفت لإنكار من أنكرَ إطلاقه على المتكلِّمين.

و(قوله: « وواحدةٌ في شأن سارة ») هذه الواحدة هي من إبراهيم عليه السلام مدافعةٌ عن حكم الله تعالي الذي هو: تحريمُ سارة على الجبَّار، والثنتان المتقدِّمتان مدافعةٌ عن وجود الله تعالى، فافترقا، فلذلك فرَّق في الإخبار بين النوعين.

و(قوله : « إنْ يعلم أنَّك امرأتي يغلبنْي عليك ») قيل : إن ذلك الجبَّار كانت سيرته: أنه لا يغلبُ الأخَ على أخته، ولا يظلمُه فيها، وكان يغلبُ الزوجَ على زوجته، وعلى هذا يدلُّ هذا الحديث، وإلا فما الذي غرَّق بينهما في حقِّ جبارٍ ظالمٍ؟.

---

(1) سورة الانبياء الآية 63
(2) سورة الانبياء الآية 64
(3) سورة الانبياء الآية 64
(4) سورة الانبياء الآية 65
(5) سورة الانبياء الآية 66
(6) سورة لانبياء الآية 66-67

فإن سَأَلَكِ فأخبر به أنك أختي، فإنَّك أختي في الإسلام، فإنِّي لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغَيرك. فلما دخل أرضه رآها بعضُ أهلِ الجبَّار، أتاه فقال له : لَقَدْ قَدِم أرضَكَ امرأةٌ لا ينبغي لها أن تكونَ إلا لَكَ، فأرسل إليْها فأُتِي بها، فقامَ إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلمَّا دخلت عليه لم يَتمالَكْ

و(قوله : « فإنْ سألك فأخبربه : أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام ») هذا صحيح ليس فيه من الكذب شيءٌ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[1] لكنْ لما كانَ الأسبق للفهم من لفظ الأخوَّة إنما هو أخوَّة النسب، كان من باب المعاريض؛ لأن ظاهرَ اللفظ يُوهم شيئاً، ومُراد المتكلِّم غيره. وقيل عليه كذبٌ توسُّعاً، واطلقَ النبيُّ ﷺ عليها كذباً؛ لأن الله تعالى قد أعلمَه : أن إبراهيم يُطلق ذلك على نفسه يوم القيامة كما تقدَّم في كتاب الإيمان، وأيضاً : فليُنبِّه بذلك على أن الأنبياء مُنزَّهون عن الكذب الحقيقي؛ لأنَّهم إذا كانوا يَفْرَقُون من مثل هذه المعاريض التي يُجادلون بها عن الله تعالى، وعن دينه، وهي من باب الواجب وتُعَدُّ عليهم؛ كان أحرى وأوْلى أن لا يصدرَ عنهم شيءٌ من الكذب الممنوع، وفي هذا ما يدلُّ على جواز المعاريض والحيَل في التخلُّص من الظَّلَمة، بل نقول : إنه إذا لم يُخلِّص من الظالم إلا الكذب الصُّرَاح جاز أن يكذبَه، بل : قد يجبُ في بعض الصُّور بالاتفاق بين الفرق، ككذبة تنجي نبيّاً أو ولياً ممن يُريد قتلَه، أو أمناً من المسلم من عدوهم. وفيه : ما يدل على أنَّ العمل بالأسباب المعتادة التي يُرجى بها دفعُ مَضرَّة، أو جلبُ متفعة لا يقدح في التوكل، خلافاً لما ذهبَ إليه جهَّال المتوكِّلة، وقد تقدَّم كثيرٌ من نحو هذا.

و(قول الجبَّار لسَارة حين قُبضت يده عنها : ادعي الله لي) يدلُّ على أنَّ هذا الجبَّار كان عنده معرفة بالله تعالى، وبأن لله منْ عباده مَن إذا دعاه أجابَه، ومع ذلك فلم يكن مسلماً؛ لأن إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ قد قال لسارة : « ما أعلمُ على الأرضِ مسلماً غيري وغيرك ».

و(قول الجبَّار : لَكِ اللهَ ألا أضرُّك) الرواية فيه بالنصب، لا يجوز غيره، وهو قَسَمٌ، ومُقْسَمٌ به، ومقسم عليه، وفيه حذف يتبيَّن بالتقدير، وتقدير ذلك : أقسمُ

---

(1) سورة الحجرات الآية 10

أن بَسَطَ يَدَهُ إليْها. فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شديدةً فقال لها: ادْعِي اللهَ أن يُطْلِق يَدي ولا أضُرُّك، ففَعَلَتْ، فعادَ، فقُبِضَت أشدّ من القبضة الأولى. فقاللها مثل ذلك ففعلت» فعاد، فقُبِضَت أشدّ من القبضتين الأُولَيَيْن. فقال: ادعي الله أن يُطْلِقَ يدي، فَلَكِ اللهُ أنْ لا أضرُّك! ففعلت، وأُطْلِقَتْ يدُه. ودعا الذي جاء بها، وقال له: إنك إنما أتيتني بشيطانٍ، ولم تأتني بإنسانٍ، فَأَخْرِجْها من أرْضي، وأَعْطها هاجَرَ. قال: فأقبَلَتْ تمشي، فلما راها إبراهيم عليه السلام انصرف، فقال لها: مَهْيَم؟ قالت: خيراً؛ كَفَّ اللهُ يَدَ الفاجر وأخدَمَ خادماً». قال أبو هريرة: فتلك أمُّكم يا بني ماءِ السماء.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود.

* * *

بالله على ألا أضرَّك، فحذف الخافضَ، فتعدَّى الفعل فَنَصبَ، ثم حُذفَ فعل القسم، وبقي المقسم به ـ وهو الله تعالى ـ منصوباً، وكذلك المقسم عليه وهو: ألا أضرَّك، يعني مفتوح همزة ألا. ويجوز في أضرُّك رفع الراء على أن تكون أن مخففةً من الثقيلة، ويجوز فيه النصب على أن تكون أن الناصبة للفعل المضارع.

و(قول الجبار للذي جاءَه بسارة: إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان) كلام يُناقض قوله: ادعي الله لي. فيكون ذمُّه لها عناداً، بَعْد أن ظهرَ له كرامتُها على الله. أو إخفاءً لحالها لئلاَّ يُتَحَدَّثَ بما ظهر عليها من الكرامة، فتَعْظم في نفوس الناس وتُتَّبع، فلبَّس على السامع بقوله: إنما أتيتني بشيطان.

و(قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ: مَهْيَمْ) قال الخليل: هي كلمةٌ لأهل اليمن خاصة. معناها: ما هذا؟ وفي الصحاح: هي كلمةٌ يُستفهم بها، معناها: ما حالكِ؟ وما شأنك؟ ونحوَه قال الطبريُّ.

و(قوله: قالت: خيراً) هو منصوب بفعل مضمرٍ. أي: فعل الله خيراً. ثم فسَّرت الخيرَ بقولها: (كَبَتَ اللهُ يدَ الفاجرِ، وأخدمَ خادماً). أي: عصمَها الله منه بما أظهرَ من كرامتها، وأعطاها الله خادماً، وهي: هاجر. ويُقال: آجر بالهمزة يُبدلونها من الهاء ـ وفيه: جواز قبول هدية المشرك، وقد تقدَّم القول فيها.

باب في ذكر موسى عليه السلام

عن أبي هريرةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بَنُو رسرائيل يغتسلون عُرَاةً؛ ينظرُ بعضهم إلى سَوْءَة بعضٍ، وكان موسى عليه السلام يغتسلُ وحدَه، فقالوا: والله! ما يمنع موسى عليه السلام أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدرُ!. قال: فذهب مرةً يغتسِلُ، فوضع ثَوْبه على حجرٍ، ففرَّ الحجر بثوبه.

و(قول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: فتلكَ أُمُّكم يا بني ماء السَّماء) فتلك: إشارة إلى هاجر، والمُخاطَب: العرب: قال الخطَّابي: سُمُّوا بذلك لانتجاعهم المطرَ، وماءِ السماء للرعي. وقال غيره: سُمُّو بذلك لخلوص نسبهم، وصفائه. وشبَّهه بماء السماء. قال القاضي أبو الفضل: والأظهر عندي: أن المرادَ به الأنصار. نسبَهم إلى جَدِّهم عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وكان يُعرف بماء السماء، وهو مشهور. والأنصار كلُّهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر المذكور، والله أعلم.

* * *

ومن باب: ذكر موسى ـ عليه السلام

(قوله: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراةً، ينظر بعضُهم إلى سوأة بعضٍ») إنما كانت بنو إسرائيل تفعلُ ذلك معاندةً للشرع، ومخالفةً لموسى ـ عليه السلام ـ وهو من جملة عتوِّهم، وقلَّة مبالاتهم باتباع شرع موسى، ألا ترى أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ كان يستترُ عند الغُسْل، فلو كانوا أهل توفيق وعقل اتبعوه. ثم لم يكفهم مخالفتهم له حتي آذوه بما نسبوا إليه من آفة الأُدْرة، فأظهرَ الله تعالى براءَته مما قالوا بطريق خارق للعادة، زيادة في أدلَّة صدق موسى ـ عليه السلام ـ، ومبالغةً في قيام الحجة عليهم. وفي هذا الحديث ما يدلُّ: على أن الله تعالى كمَّل أنبياءَه خَلْقاً وخُلُقاً، ونزَّههم في أوَّل خلقهم من المعايب والنقائص المنفِّرة عن الاقتداء بهم، المبعدة عنهم، ولذلك لم يُسمع أنه كان في الأنبياء والرسل من خَلَقَه الله تعالى أعمى، ولا أعور، ولا أقطع، ولا أبرص، ولا أجذم، ولا غير ذلك من العيوب والآفات التي تكون نقصاً ووصماً يُوجب

قال: فجمح موسى بأَثَره يقول: ثوبي. حَجَر! ثوبي حجر! حتى نَظَرَتْ بنو إسرائيل إلى سَوْءَة موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس. فقام الحجرُ بعدُ حتى نُظِرَ إليه. قال: فأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً».

لمن اتَّصف بها شيناً وذمّاً، ومن تصفَّح أخبارَهم، وعلم أحوالَهم علم ذلك على القطع. وقد ذكر القاضي ـ رحمه الله ـ في الشفاء من هذا جملة وافرةً. ولا يُعترض عليها بعمى يعقوب، وبابتلاء أيوب؛ فإن ذلك كان طارئاً عليهم محبَّة لهم، وليقتدي بهم من ابتلي ببلاء في حالهم وصبرهم، وفي أن ذلك لم يقطعْهم عن عبادة ربِّهم. ثم إنَّ الله تعالى أظهرَ كرامتهم ومعجراتهم بأن أعادَ يعقوب بصيراً عند وصول قميص يُوسف له، وأزالَ عن أيوب جذامَه وبلاءَه عند اغتساله من العين التي أنبعَ الله تعالى له عند رَكْضه الأرضَ برجله، فكان ذلك زيادة في معجزاتهم، وتمكيناً في كمالهم، ومنزلتهم. والآدر ـ بمد الهمزة ـ: هو ذو الأُدْرة، بضم الهمزة، وسكون الدال، وهي عِظَمُ الخصْيتين، وانتفاخهما.

و(قوله: «فجمح موسي بأثره») أي: أسرع في مشيه خلفَ الحجر ليأخذ ثوبَه. والجَمُوح من الخيل: هو الذي يركب رأسه في إسراعه، ولا يَثْنيه شيءٌ، وهو عيب فيها، وإنما أطلق على إسراع موسى خلفَ الحجر جماحاً؛ لأنه أشتدَّ خلفَه اشتداداً لا يَثنيه شيءٌ عن أخذ ثوبه، وهو مع ذلك يُنادي: ثوبي حجر! ثوبي حجر! كل ذلك استعظام لكشف عورته، فسبقه الحجر إلى أن وصل إلى جمع بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى، وكذَّبهم الله في قولهم، وقامت حجَّته عليهم.

و(قول موسي ـ عليه السلام ـ: «ثوبي حجر! ثوبي حجر!») منصوب بفعل مضمر، وحجر مناد مفرد محذوف حرف النداء، وتقدير الكلام: أعطني ثوبي يا حجر! أو: اتركْ ثوبي يا حجر! فحذف الفعل لدلالة الحال عليه. وحُذفَ حرف النداء هنا استعجالاً للمنادى، وقد جاد في كلام العرب حذف حرف النداء مع النكرة، كما استعجالاً للمنادى، وقد جاء في كلام العرب حذف حرف النداء مع النكرة، كما قالوا: اطرقْ كرا، وافتد مخنوق، وهو قليل. وإنما نادى موسى ـ عليه السلام ـ الحجر نداد من يعقل؛ لأنه صدر عن الحجر فعل من يعقل، وفي وضع موسى ثوبَه على الحجر، ودخوله في الماد عُرياناً: دليلٌ على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور، ومنعه

قال أبو هريرة: والله! إنه بالحجر نَدَبٌ ستةٌ أو سبعةٌ، ضَرْبُ موسى عليه السلام بالحجر.

وفي رواية: قال أبو هريرة: كان موسى عليه السلام رجلاً حَيِّياً.

قال: فكان لا يُرى متجرّداً. وذكر نحوه. قال: ونزلت: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً** ﴾.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم في الفضائل والترمذيّ.

وعن أنسِ بن مالكٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مررتُ على موسى ليلةَ أسريَ بي عند الكثيبِ الأحْمَر، وهو قائمٌ يُصلِّي في قبره».

رواه أحمد ومسلم والنسائي.

* * *

ابن أبي ليلى، واحتجَّ بحديث لم يصحَّ، وهو قوله ﷺ: «لا تدخلوا الماء ولا بمئزر؛ فإن للماء عامراً». قال القاضي: وهو ضعيف عند أهل العلم. وجاء في الأم قال: «فاغتسل عند مُوَيْه» وهو تصغير ماء، هكذا في رواية العذريِّ، ورواها أكثر الرواة: المَشْرَبة ـ بفتح الميم والراء ـ وأصله: موضع الشرب، وأراد به الماء. والمَشْرَبة ـ بفتحها أيضاً ـ: الأرض اللَّينة، فأما المَشْرَبَة التي هي الغرفة فتقال: بفتح الراء وضمها، كما تقدَّم. وطَفِق: من أفعال المقاربة، كجعل وأخذ، ويقال: بفتح الفاء وكسرها، والنَّدَب: الأثر وهو بفتح الدال.

و(قوله: «مررت على موسى ليلة أُسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو يُصلِّي في قبره»): الكثيب: هو الكوم من الرمل ويجمع كُثُباً، وهذا الكثيب هو بطريق بيت المقدس، كما سيأتي. وهذا الحديث يدلُّ بظاهره على: أنه ﷺ رأى موسى رؤية حقيقية في اليقظة، وأن موسى كان في قبره حياً، يُصلِّي فيه الصلاة التي كان يُصلِّيها في الحياة، وهذا كلُّه ممكن لا إحالة في شيءٍ منه، وقد صحَّ أن الشهداءَ أحياءٌ يرزقون، ووُجد منهم من لم يتغير في قبره من السنين كما ذكَّرناه. وإذا كان هذا في

باب قصة موسى مع الخضر عليه السلام

عن سعيدِ بن جبير، قال : قلت لابن عباس: إنَّ نَوْفاً البِكَالِيَّ يزعم: أنَّ موسى عليه السلام صاحبَ بني إسرائيل ليس هو موسى صاحبَ الخضر،

الشهداء كان في الأنبياء أحرى وأولى. فإن قيل: كيف يُصلُّون بعد الموت وليست تلك الحال حال تكليف؟ فالجواب: أن ذلك ليس بحكم التكليف، وإنما ذلك بحكم الإكرام لهم والتشريف، وذلك أنهم كانوا في الدنيا حبِّبت لهم عبادة الله والصلاة بحيث كانوا يلازمون ذلك، ثم توفُّوا وهم على ذلك، فشرَّفهم الله تعالى بعد موتهم بأن أبقى عليهم ما كانوا يُحبُّون، وما عُرفوا به، فتكون عبادتهم إلعاميَّة كعبادة الملائكة، لا تكليفية. وقد وقعَ مثل هذا لثابتٍ البُنانيِّ ـ رضي الله عنه ـ فإنه حُبِّبت الصلاة إليه حتى كان يقولُ: اللَّهم إن كنت أعطيتَ أحداً يُصلِّي لك في قبره، فأعطني ذلك. فرآه مُلْحدُه، بعدما سوَّى عليه لحْدَه قائماً يُصلِّي في قبره. وقد دلَّ على صحة ذلك كلِّه قولُ نَبيَّنا ﷺ: «يموتُ المرء على ما عاشَ عليه، ويُحشر على ما مات عليه». وقد جاء في الصحيح: «أن أهلَ الجنَّة يُلهمون التسبيحَ كما تُلهمون النَّفَس».

* * *

ومن باب: قصة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ

(قوله : إن نَوْفاً البِكَاليّ) لم يُخْتلف في أن نوفاً هو بفتح النون، وإسكان الواو وفتح الفاء منونَّة، وأمَّا البِكالي: فروايتي فيه بكسر الباء، وفتح الكاف وتخفيفها على كل من قرأتُه عليه في البخاريِّ ومسلم، وهي المعروفة، وقد ضبطهَا الخشني، وأبو بكر بفتح الباء والكاف، وتشديد الكاف، والأوَّل الصَّواب. وبِكَال: بطنٌ من حِمْيَر، وقيل من هَمْدان، وإليهم يُنسب نوف هذا، وهو نوف بن فضالة على ما قاله ابن دريد، وغيره. يكنَّى بأبي زيد، وكان عالماً فاضلاً، وإماماً لأهل دمشق، وقيل: هو ابن امرأة كعب الأحبار، وقيل: ابن أخته.

و(قول ابن عباس: كذبَ عدوُّ الله) قول أصدَره غضبٌ على من يتكلَّم بما لم يصحَّ، فهو إعلاظٌ، وردعٌ، وقد صارَ غيرُ نوفٍ إلى ما قالَه نوفٌ، لكنَّ الصحيح ما قاله ابن عباس على ما حكاه في الحديث.

عليه السلام. فقال: كَذَبَ عدوُّ الله، سمعت أُبيَّ بنَ كعبٍ يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. قال: فعتَب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، .....

و(قوله: «قام موسى خطيبا، فسئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا؟، فعَتَب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه») مساق هذه الرواية هو أكمل ما سيق الحديث عليه فلنبحث فيه، وظاهر هذا اللفظ: أن الذي عَتَب الله تعالى على موسى إنما هو أن قال: أنا أعلم، فأضاف الأعلمية إليه، ولم يقل: الله أعلمُ بمن هو أعلم الناس، فيفوِّض ذلك إلى الله، فيكون هذا من نوع ما عَتَبه النبيُّ ﷺ على لوطٍ ـ عليه السلام ـ حيث قال: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [1] وسيأتي تكميل هذا المعنى في كتاب التفسير ـ إن شاء الله تعالى ـ. فكان الأولى بموسى ـ عليه السلام ـ أن يقول: الله أعلم بمن هو أعلم الناس، لكن لما لم يعلم في أمانه رسولاً آتاه الله كتاباً فيه علم كل شيءٍ وتفصيل الأحكام سواه، قال ذلك حسب ما كان في علمه، لكنَّه تعالى لم يرضَ منه بذلك لكمال معرفته بالله تعالى، ولعلوِّ منصبه. وفي بعض طرق البخاري: «أن السائل قال لموسى: هل في الأرض أعلمُ منك؟ قال: لا، فعَتَب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه».

قال الشيخ رحمه الله: وهذان اللفظان هما اللذان يتوجَّه العتب على موسى فيهما. وقد رُوي بألفاظ أُخر، يبعد توجّه العتب عليها، فقد رُوي أنه قال: لا أعلم في الأرض خيراً ولا أعلم منِّي، وفي أخرى قيل له: هل تعلم أحداً أعلمُ منك؟ فقال: لا. فهذان اللفظان قد نفى فيهما العلم فيما سُئل عنه عن نفسه، وهو حقٌّ صحيح، وتبرؤٌ صريحٌ، فكيف يتوجَّه على من قال مثل ذلك عتب، أو ينسب إلى تقصير؟ فالصحيح من حيث المعنى الذي صدر من موسى ـ عليه السلام ـ معنى اللفظين السابقين؛ فإنه جزمَ فيهما بأنه أعلم أهل الأرض، وهذا محلُّ العتب على مثله، فإنه كان الأولى به أن يُفوِّض علم ذلك إلى الله تعالى، وهذا يدلُّ على صحة ما قلناه فيما تقدَّم من أن

---

(1) سورة هود الآية 80

فأوحى الله إليه: أنَّ عبداً من عبادي بمَجْمَع البحرين هو أعلم منك. قال موسى عليه السلام: أي رب! كيف لي به؟ فقيلَ له: احمل حوتاً ـ في رواية: مالحاً ـ في مِكْتَلٍ، فحيث تَفْقِدُ الحوت فهو ثَمَّ. فانطلق وانطلق معه

الذنوبَ المنسوبة إلى الأنبياء المعدَّدة عليهم إنما هي من باب ترك الأولى، وعُوتبوا عليها بحسب مقاديرهم، فان حسنات الأبرار سيئات المُقرَّبين.

و(قوله تعالى: «إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلمُ منك»، وفي الرواية الأخرى: «بل عبدُنا الخَضِر»)، اسم الخضر: بليا بن مَلْكان على ما قاله بعضُ المفسرين، وسُمِّي الخضر، لأنه كان أينما صلَّى اخضرَّ ما حولَه، وفي الترمذيِّ من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إنما سُمِّي الخضر لأنه جلسَ على فروة بيضاء فاهتزت تحتَه خضراء». وقال: هذا حديث حسن صحيح.

و(مجمع البحرين): ملقاهما. قال قتادة: هما بحرا فارس والروم. والسُّدِّي: هي الكرُّ. والرَّسُّ بأرمينية [1]. أبي: وهما بإفريقية. القرطبي [2] طنجة. وحُكي عن ابن عباس: إن بحريْ العلم: الخضر وموسى، وكأنَّ هذا لا يصحُّ عنه والله أعلم.

(وقوله: «هو أعلمُ منك») أي: بأحكام مفصَّلة، وحكمٍ نوازلَ معينَّة، لا مطلقاً، بدليل قول الخضر لموسي: إنَّك على علمٍ علَّمكه الله لا أعلمُه أنا، وأنا على علمٍ علَّمنيه الله لا تعلمُه أنت. وعلى هذا فيصدق على كلِّ واحدٍ منهما: أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمُه كل واحدٍ منهما، ولا يعلمُه الآخر، فلما سمع موسي هذا تشوَّفت نفسُه الفاضلةُ، وهمَّتُه العاليةُ لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم، فعزم فسأل سؤال الذليل: كيف السبيل؟ فأُمر بالارتحال على كلِّ حال، وقيل له: احمل معك حُوتاً مالحاً في مكتلٍ، وهو الزِّنبيلُ. فحيث يحيا وتفقده فثَمَّ السَّبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهداً طَلِباً قائلاً: ﴿ **لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً** ﴾ [3] والحُقُب: بضم الحاء والقاف: الدهر، والجمع أحقاب،

---

(1) هذه الأسماء ضبطت من معجم البلدان، لياقوت الحموي.
(2) القصد إلى ابن عبد البر القرطبي المالكي المتوفى سنة 463 هـ.
(3) سورة الكهف الآية 60

فتاه ـ وهو يوشع بن نون ـ فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مكتلٍ. وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصَّخرة، فرقد موسى عليه السلام وفتاه، فاضطرب الحوت في المكتب، حتى خرج من المكتل، فسقط في البحر.

وبضم الحاء وسكون القاف، ثمانون سنة، ويقال أكثر من ذلك، والجمع حِقَاب، والحِقبةُ بكسر الحاء، واحدة الحُقُب، وهي: السِّنون. من الصحاح.

وفيه من الفقه: رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم، والصاَّحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء، وإن بَعُدَتْ أقطارُهم، وذلك كان دأب السَّلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحَظِّ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت في العلوم لهم أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذكر والأجر أفضل الأقسام. ثم إنَّ موسى أزعجه القلق، فانطلق مغموراً بما عنده من الشوق والحرق، يمشي مع فتاه على الشطِّ، ولا يُبالي بمن حطَّ، لا يجدُ نَصَباً، ولا يُخطىء سبباً. إلى أن أويا إلى الصخرة فناما في ظلِّها. قال بعض المفسرين: وكانت على مجمع البحرين، وعندها ماء الحياة ـ حكى معناها الترمذي عن سفيان بن عيينة ـ فانتضح منه على الحوت فحيي واضطربَ، فخرج من المكتل يضطرب حتي سقط في الماء، فأمسكَ الله جِرْية الماء عن موضع دخوله حتى كان مثل الطاق، وهو النِّقب الذي يُدْخُل منه.

و(قوله: « فكان للحوت سَرَباً ») أي: مسلكاً. عن مجاهد قال قتادة: جمد الماء فصارَ كالسَّرَب.

و(قوله: « وكان لموسى وفتاة عجباً ») لما تذكرا، فرجعا، فعجبا من قدرة الله على إحياء الحوت، ومن إمساك جري الماء حتى صَار بحيث يسلكُ فيه.

و(قوله: « فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ») يعني: بعد أن قاما من نومهما، ونسيا حوتهما. أي: غفلا عنه، ولم يطلباه لاستعجالهما. وقيل نسي يُوشع الحوت، وموسى أن يأمره فيه بشيء. وقيل: نسي يُوشع فنسب النسيان إليهما للصحبة، كقوله تعالى: ﴿ **يَخْرجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ [1] وعلى هذا القول يدلُّ قوله في الحديث: « ونسَي صاحبُ موسى أن يخبره » ويظهر منه: أن يوشع أبصرَ ما كان من الحوت ونسيَ

---

(1) سورة الرحمن الآية 22

قال: وأمسك الله عنه جرية الماء حتى كان مثل الطَّاق، فكان للحوت سَرَباً، وكان لموسى فتاهُ عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، ونسي صاحب موسى أن يُخْبره، فلما أصبح موسى عليه السلام، قال لفتاه: ﴿ **ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً** ﴾ ـ قال: ولم ينصب موسى حتى جاوز المكان الذي أُمر به ـ: ﴿ **قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا** ﴾

أن يخبرَ موسى في ذلك الوقت.

و(قوله: «فلما أصبحَ قال موسى: ﴿ **لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً** ﴾ [1] هذا يدلُّ على أنهما كانا تزوَّدا، وقيل: كان زادهما الحوت، وكان مُمَلَّحاً.

وقال الشيخ رحمه الله: والظاهر من الحديث: أنه إنما حملَ الحوت معه؛ ليكون فقدُه دليلاً على موضع الخَضِر، كما تقدَّم من قوله تعالى لموسى: «احمل معك حوتاً في مكتلٍ، فحيث تفقدُ الحوتَ فهو ثَمَّ». وعلى هذا فيكون تزوَّدَا شيئاً آخرَ غير الحوت. والنَّصب: التعب والمشقة. وقيل: عنى به هنا: الجوع. وفيه دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرِّضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجرٍ ولا تسخُّطٍ.

(وقواه: «ولم ينصبْ حتى جاوزَ المكان الذي أُمر به») أي: لم يجد موسى ألَم النَّصب إلا بعدَ أن جاوزَ موضعَ فقد الحوت، وكأنَّ الله تعالى جعلَ وجدان النَّصب بسبب طلب الغداء سَبَب تذكُّرِ ما كان من الحوت. ومن هنا قيل: إن النَّصب هنا هو الجوع.

و(قوله: ﴿ **أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ** ﴾ [2] هذا قول يُوشع جواباً لموسى، وإخباراً له عما جرى. ومعنى أوينا: انضممنا، وهي هنا: بقصر الهمزة لأنه لازمٌ، وقد تقدَّم ذكر الخلاف في المتعدِّي في قصره ومدِّه. ونسبة الفتى النسيانَ إلى نفسه نسبةٌ عاديةٌ لا حقيقية.

---

(1) سورة الكهف الآية 62

(2) سورة الكهف الآية 63

﴿ أَنسيتُ وَمَا أَنسانيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَه وَاتَخذَ سَبيلَهُ في الْبَحْرِ عَجَباً ﴾، قال موسى: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فارْتَدَّا عَلَى ءاثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾. ـ قال: يقصّان آثارهما ـ حتى أتيا الصخرة فرأى رجلاً مسجّىً عليه بثوبٍ ـ وفي رواية: مستلقياً على القفا أو قال: على حلاوة القفا ـ فسلم عليه موسى؛ فقال له

و(قوله: ﴿ وَمَا أَنسانِيهِ إِلاَّ الشَّيطَانُ أَنْ أَذْكُرَه ﴾ [1] أنْ مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير في انسانيه، وهو بدل الظاهر من المضمر، وهذا إنما ذكرَه يُوشع في معرض الاعتذار، وذلك أن في البخاري: أن موسى قال لفتاه: «لا أُكلِّفك إلا أن تُخبرني بحيث يفارقك الحوتُ، فاعتذر بذلك القول» ويعني بذلك: أن الشيطان سبب للنسيان، والغفلة، بما يُورده على القلب من الخوض في غير المعنى المطلوب، ومن المعلوم أن النسيان لا صنعَ فيه للإنسان، وأنه مغلوب عليه، ولذلك لم يؤاخذ اللهُ تعالى به، وإنما محلُّ المؤاخذة الإهمال والتفريط، والانصراف عن الأمور المهمة إلى ما ليس بمهمٍّ حتى ينسى المهمَّ، وهذا هو فعل الشيطان المذموم أن يُشغلَ ذكْرَ الإنسان بما ليس بمهم، ويزيِّنه له حتي ينصرفَ عن المهم فيذمَّ على ذلك ويُعاقبَ، فيحصَل مقصود الشيطان من الإنسان.

و(قوله: ﴿ وَاتَّخَذَ سَبيلَهُ في البحْرِ عَجَباً ﴾ [2] أي: اتَّخذ الحوتُ طريقه في البحر سرباً، تعجب منه يُوشع، ويتعجَّب به غيرُه ممن شاهده، أو سمع قضيته و﴿ نبغ ﴾: نطلب. و﴿ ارتدا ﴾: رجعا. و﴿ قصصاً ﴾: تتبُّعاً لآثار طريقهما. و﴿ الصخرة ﴾: هي التي كان أوَيا إليها. و(المسجَّى): المغطَّى. و(مُستلقياً على القفا) أي: مباشراً بظهره وقفاه الأرضَ مستقبلاً بوجهه السماء كهيئة الميت.

و(قوله: «على حلاوة القفا») شكّ من بعض الرُّواة. و(حلاوة القفا) يعني بها ـ والله أعلم ـ: أن هذه الضجعة مما تُستحلى؛ لأنها ضجعة استراحة، فكأنه قال: أو حلاوة ضجعة القفا، ويُقال بضم الحاء وفتحها، وحلاءً بالضم والمد، وبه وبالقصر، وكأن هذه الضجعة من الخَضِر كانت بعد تعب عبادة. وآثر هذه الضجعة لما فيها من ترْك البصر في المخلوقات، ورؤية عجائب السماوات، فكان الخضر في هذه الضجعة

---

(1) سورة الكهف الآية 63
(2) سورة الكهف الآية 63

الخضر : أنَّى بأرضك السلام، من أنت؟ قال : أنا موسى. قال : موسى بني إسرائيل؟ قال : نعم. وفي رواية قال : مجيءٌ ما جاء بك!

متفرَّغ عن الخليقة، مملوء بما لاح له من الحقِّ والحقيقة، ولذلك لما سلَّم عليه موسى ـ عليه السلام ـ كشفَ الثوب عن وجهه، وقال : وعليك السلام، من أنت؟.

و(قوله : « أنَّى بأرضك السَّلام ») معناه : من أين تعرف السلام بهذه الأرض التي أنت فيها؟! وهذا يحتمل وجهين :

أحدهما : أن ذلك الموضع كان قفراً لم يكن به أحدٌ يصحبه، ولا أنيس فيكلِّمه.

ويحتمل أن يكون أهل ذلك الموضع لا يعرفون السلام الذي سلَّم به موسى، إما لأنهم ليسوا على دين موسى، وإما لأنه ليس من كلامهم.

و(أنَّى) تأتي بمعنى : حيث، وكيف، وأين، ومتى، حكاه القاضي. وفي هذا من الفقه : تسليم القائم على المضطجع، وهذا القول من الخضر كان بعد أن ردَّ عليه السلام، لا قبله، كما قد ذكرناه، ومساق هذه الرواية يدل : على أن اجتماع موسى ـ عليه السلام ـ بالخضر كان في البرِّ عند الصخرة، وهو ظاهر قوله : « حتى إذا أتى الصخرةَ فرأى رجلاً مسجّى »، وفي بعض طرق البخاريّ : « حتى أتى الصخرة، فإذا رجلٌ مسجّى » فعطفه بالفاء المعقبة، وإذا المفاجئة، غير أنه قد ذكرَ البخاريُّ ما يقتضي أنه رآه في كبد البحر، وذلك أنه قال فيها : فوجدَ خَضِراً على طنْفسَةٍ خضراء على كبد البحر مسجّىً بثوبه، وجعلَ طرفهَ تحت رجليْه، وطرفَه تحَت رأسه. و(كبد البحر) : وسطه. وهذا يدلُّ على أنه اجتمع به في البحر. ويحتمل أن موسى مشى على الماء، وتلاقيا عليه، وهذا لايستبعد على موسى والخضر، فإن الذي خُرق لهما من العادة أكثرُ من هذا وأعظمُ. وعلى هذا فهذه الزيادة تُضمُّ إلى الرواية المتقدمة، ويُجمع بينهما بأن يقال : إن وصولَ موسى للصخرة، واجتماعه مع الخضر كان في زمان متقارب، أو وقتٍ واحدٍ لطيِّ الأرض، وتسخير البحر، والقدرة صالحةٌ، وهذه الحالة خارقةٌ للعادة؛ ولما كان كذلك عبَّر عنها بصيغ التعقيب والاتصال، والله أعلم.

و(قوله : « نعم ») هو حرف جواب في الإيجاب، فكأنَّه قال : أنا موسي بني إسرائيل، فهو نصٌّ في الرد على نوفٍ، وعلى من قال بقوله : وهم أكثر اليهود.

قال : جئتُ لتُعَلِّمَني مما عُلمتَ رُشْداً قال : إنك على علمٍ من علم الله علَّمكَه الله لا أعْلَمُهُ، وأنا على علم من علم الله علَّمنيه لا تعلمه قال

و(قوله : « مجيء ما جاء بك ») قيَّدها ابن ماهان بالهمز والتنوين، وعلى هذا تكون (ما) نكرة صفة لمجيء، وهي التي تكون للتفخيم والتعظيم، كقولهم : لأمرٍ ما تسوَّدَ من تسوَّدَ، ولأمر ما تدرَّعت الدروع. فيكون معناه: مجيءٌ عظيمٌ، وأمرٌ مهمٌ حملك على أن تركت ما كنت عليه من أمر بني إسرائيل، واقتحمتَ الأسفارَ، وقطعَ المفاوز والقفار. وقد زاد فيه بعض الرواة: « أن الخضر قال له : وعليك السلام، أني بزرضنا يا نبيَّ بني إسرائيل، أما كان لك فيهم شغلٌ؟! قال : بلى ولكني أُمرت أن أصحبك، مستفيداً منك ». فأجاب بجواب المتعلم المسترشد بين يدي العالم المرشد مُلازماً للأدب والحُرْمة، ومعظِّماً لمن شرَّفه الله بالعلم وأعلى رسمه، فقال: جئتُك لتعلمني مما عُلِّمتَ رشداً. قرأه الجماعة بضم الراء وسكون الشين، وقرأه يعقوب وأبو عمرو بالفتح فيهما، وهما لغتان، ويُقال: رَشَد: بالفتح يرشد رُشداً بالضم، ورَشِدَ بالكسر يرشَد رَشداً بالفتح، ومعنى الرشد: الاستقامة في الأمور، وإصابة وجه السَّداد، والصواب فيهما، وضده الغيُّ. وهو منصوب على المصدر، ويكون في موضع الحال، ويصحُّ أن يكونَ مفعولاً من أجله. وفيه من الفقه التذلُّل، والتواضع للعالم، وبين يديّه، واستئذانه في سؤاله، والمبالغة في احترامه وإعظامه، ومن لم يفعل هكذا فليس على سُنَّة الأنبياء، ولا على هديهم، كما قال نبيُّنا ﷺ : « ليس منا من لم يُجِلَّ كبيرَنا ويرحمْ صغيرَنا ويعرفْ لعالمنا حقَّه ».

و(قوله : « إنك على علم من علم الله علَّمكه الله) لا أعلمُه، وأنا على علم من علم الله علَّمَنيه لا تعلمُه أنت ») ظاهر هذا : أن الخضر كان لا يعلمَ التوراة ولا ما علمه موسى من الأحكام. وقد جاء هذا الكلام في بعض روايات البخاري بغير هذا اللفظ، وبزيادة فيه؛ فقال: « أما يكفيك أنَّ التوراة بين يديْك، وأنَّ الوحيَ يأتيك يا موسى؟ إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمَه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه ».

قال الشيخ رحمه الله: ولا بعد فيما ظهر من رواية مسلم؛ لأنَّ الخَضِر إن كان نبياً فقد اكتفى بما تعبده الله به من الأحكام، وإن كان غير نبيٍّ فليس متعبَّداً بشريعة

موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أعصِي لَكَ أَمْراً﴾.....

بني إسرائيل؛ إذ يمكن أن لا يكون منهم، والله أعلم. وسيأتي القول في نبوته. وأما مساق رواية البخاري، فهو مساق حسن لا يَرِدُ من هذا الاستبعاد شيءٌ؛ لأن مقتضاه: أن لكلٍّ واحدٍ منهما علماً خاصاً به لا يعلمه الآخر، ويجوز أن يشتركا في علم التوراة، وغيرها مما شاء الله أن يشركهما فيه من العلوم، ويظهر لي أن الذي خصَّ به موسى ـ عليه السلام ـ: العلم بالأحكام، والمصالح الكلِّية التي تنتظم بها مصالح الدنيا؛ لأنه أُرسل إلى عامَّة بني إسرائيل.

و(قول موسى: ﴿هَلْ اتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ﴾ [1] سؤال ملاطفة، أي: هل يمكن كوني معك حتى أتعلَّمَ منك؟ فأجابه بما يقتضي أن ذلك ممكن لولا المانع الذي من جهتك، وهو عدم صبرك، فقال جازماً في قضيته، لما علمه من حالته: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [2] ثم بيَّن وجه عذره عن ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ [3]، معناه: إنك لا تصبر عن الإنكار والسؤال، وأنت في ذلك كالمعذور؛ لأنك تشاهد أموراً ظاهرة، ولا تعرف بواطنها وأسرارها. وانتصبت (خُبْراً) على التمييز المنقول عن الفاعل، وقيل على المصدر الملاقي في المعنى؛ لأن قوله لم تُحط معناه: لم تُخبرْ، فكأنَّه قال: لم تُخبرْه خُبْرا، وإليه أشار مجاهد. والخبير بالأمور: هو العالم بخفاياها، وبما يختبر منها.

(وقوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ [4] هذا تفويضٌ إلى الله تعالى في الصبر، وجزمٌ بنفي المعصية، وإنما كان منه ذلك لأن الصبرَ أمر مستقبل، ولا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزومٌ عليه حاصلٌ في

---

(1) سورة الكهف الآية 66
(2) سورة الكهف الآية 67
(3) سورة الكهف الآية 68
(4) سورة الكهف الآية 69

قال له الخضر: ﴿ **فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْئَلْنِي عَن شَيءٍ حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً** ﴾، قال: نعم. فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر. فمرَّت بهما سفينة، فكلَّماهُم أن يَحملُوهما، فعرفوا الخَضِر فحَمَلُوهما بغير نَوْل، فَعَمَدَ الخَضِر إلى لَوحٍ من ألواح السَّفينة فَنَزَعَه، فقال له موسى: قومٌ حملُونا بغير نولٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرقَ أهلها. لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي**

الحال، فالاستثناء فيه يُنافي العزم عليه والله تعالى أعلم. ويُمكن أن يفرَّق بينهما بأن الصبرَ ليس مُكتسباً لنا بخلاف فعل المعصية وتركها، فإن ذلك كلَّه مكتسبٌ لنا.

(وقوله: ﴿ **فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْئَلْنِي عَن شَيءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً** ﴾ [1] هذا من الخَضِر تأديبٌ، وإرشادٌ لما يقتضي دوامَ الصُّحبة، ووعدٌ بأنه يُعرِّفه بأسرار ما يراه من العجائب، فلو صبرَ ودَأَبَ، لرأى العجبَ، لكنَّه أكثر من الاعتراض، فتعيَّن الفِراق والإعراض.

و(قوله: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر») يعني: الخضر وموسى، ولم يذكر معهما فتى موسى، فدلَّ على أنه لم يكن معهما، أو أنه تخلَّف عنهما، ويحتمل أنه اكتفى بذكر المتبوع عن التابع.

و(قوله: «فعرفوا الخَضِر، فحملوهما بغير نَوْل») أي: بغير شيء ناله أصحابُ السفينة منهما. أي: بغير جُعْلٍ، والنَّوالُ والنَّيْلُ: العطاء. وفيه ما يدلُّ على قَبُول الرجل الصالح ما يُكرمه به من يعتقدُ فيه صلاحاً، وما لم يتسبَّب هو بأظهار صلاحه لذلك، فيكون قد أكلَ بدينه وذلك مُحرَّم وربا.

و(قوله: ﴿ **لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا** ﴾ [2] قرأه حمزة والكسائيُّ بالمثناه تحت مفتوحة. وأصلُها بالرفع على أنه فاعل يُغرق، والباقون بمثناةٍ فوق مضمومة. أهلَها: بالنصب،

---

(1) سورة الكهف الآية 70
(2) سورة الكهف الآية 7

بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾. ثم خرَجا من السَّفينة، فبيْنما هُما يمشيان على الساحل إذا غلامٌ يلعب مع الغِلْمانِ، فأخذ الخضرُ برأسه،

فعلى الأول تكون اللام للمآل، كما قال تعالى: ﴿ فَالْتَقَطه ءالُ فِرْعَوْنَ لِيكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [1]. وعليها: فلم يَنسبْ له أنه أراد الإغراق، وعلى القراءة الثانية: تكون اللام: لام كي، ويكون نَسَبَ إليه: أنه قصد بفعله ذلك إغراقهم، وحملَه على ذلك فرطُ الشفقة عليهم؛ ولأنهم قد أحسنوا فلا يُقابلون بالاساءة، ولم يقل: لتغرقني؛ لأن الذي غلبت عليه في الحال: فَرْطُ الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم.

و(قوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ [2] أي: ضعيف الحجة. يُقال: رجل إمرٌ: أي ضعيف الرأي ذاهبُه، يحتاج إلى أن يُؤمر، قال معناه أبو عبيد. مجاهد: منكراً. مقاتل: عجباً. الأخفش: يُقال أمِرَ أَمْرُهُ، يأمر أَمْراً: أي: اشتد، والاسم: الإِمْرُ. قال الراجز:

قَدْ لَقِيَ الأُقْرَانُ مِنِّي نُكْرا ... داهِيَةً دَهْيَاءَ إِذّاً إِمْرا

وفيه من الفقه: العمل بالمصالح؛ إذا تحقق وجهها، وجواز إصلاح كل المال بفساد بعضه.

و(قوله: ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ [3] أي: من عهدك، فتكون (ما) مع الفعل بتأويل المصدر. أي: سهوي وغفلتي. وصدقَ، ولذلك قال رسول الله ﷺ: « كانت الأولى من موسى نسياناً ».

و(قوله: ﴿ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِى عُسْراً ﴾ [4] أي: لا تفندني فيما تركته. قاله الضحَّاك. وقال مقاتل: لا تكلِّفني ما لا أقدرُ عليه من التحفُّظ عن السهو.

و(قوله: « فإذا غلامٌ يلعب مع الغلمان ») قد تقدم: أن الغلام في الرجال يُقال على من لم يبلغ، وتُقابله الجارية في النساء. قال الكلبيُّ: اسم هذا الغلام: شمعون.

---

(1) سورة القصص الآية 8
(2) سورة الكهف الآية 71
(3) سورة الكهف الآية 73
(4) سورة الكهف الآية 73

فاقتضلَعَهُ بيده، فقتله. ـ وفي رواية: فدُعرَ عندها موسى عليه السلام ذَعْره مُنْكرةً ـ فقال موسى: ﴿ **أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً** ﴾

وقال الضحَّاك: حيسون. وقال وهب: اسم ابيه سلاس، واسم أمه: رُحمى، وقال ابن عباس: كان شابّاً يقطعُ الطريقَ.

قال الشيخ رحمه الله: ويظهرُ من كلام ابن عبَّاس هذا: أنه كان بالغاً، وأنه بلغَ سنَّ التكليف، وليس هذا معروفاً في إطلاق اسم الغلام في اللغة، ومساقُ الحديث يدلُّ على أنه لم يبلغُ سنَّ التكليف، فلعلَّ هذا القول لم يصحَّ عن ابن عباس. بل الصحيح عنه: أنه كان لم يبلغ، كما يأتي.

و(قوله: «فذُعرَ موسى عندَ هذا ذَعْرَةً شديدة») أي: فزع فزعا شديداً عند هذه الفعلة التي هي قتله الغلام، وعند ذلك لم يتمالك موسى أن بادرَ بالإنكار، تاركاً للاعتذار، فقال: ﴿ **أَقَتَلْتَ نَفْساً زَاكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً** ﴾ [1] هذه قراءة العامة [2]، وقرأه الكوفيون، وابن عامرٍ: (زكيَّة) بغير ألف، وتشديد الياء. قال ثعلب: الزكيَّة أبلغ. قال أبو عُبيد: الزكية في الدِّين، والزاكية في البدن. قال الكسائي: هما بمعنًى واحدٍ؛ كقاسية وقسيَّة. ابن عباس: مسلمَة. أبو عمرو: التي ما حلَّ ذنبها. ابن جبير: يريد على الظاهر.

و(قوله: ﴿ **بِغَيْرِ نَفْسٍ** ﴾) يعني: لم تقتل نفساً فتستحق القتل و(النُّكر): أسدُّ المنكر، وأفحشه، قاله قتادة. وفيه لغتان: ضم الكاف، وسكونها، وقرىء بهما. وهذه بادرةٌ من موسى ترك بها كل ما كان التزم له من الصبر، وترك المخالفة؛ لكن حملَه على ذلك: استقباح ظاهر الحال، وتحريم ذلك في شرعه، ولذلك قال النبي ﷺ: «وهذه أشدُّ من الأولى».

و(قوله: «رحمه الله علينا وعلى موسى») قال الزاوي: وكان إذا ذكرَ أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه. هذا إنما كان يفعله النبيُّ ﷺ في الأدعية وأشباهها، مما يعودُ عليه بالثواب والأجر الأخروي، حرصاً على تحصيل المنازل الرفيعة عند الله تعالى، كما قال

---

(1) سورة الكهف الآية 74

(2) أي: ﴿ زاكية ﴾ كما أوردها المؤلف في الأصول.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً ﴾ قال : وهذه أشدُّ من الأولى. ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ - وفي روايةٍ : لِئاماً - فَطَافا في المجالس

في الوسيلة : « إنها درجةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو ». وحاصلةُ : أن القرب من الله تعالى، وثوابَه ليس مما يُؤثر الغير به بل تنبغي المنافسة فيه، والمسابقة إليه، بخلاف أمور الدنيا، وحظوظها؛ فإن الفضل في تركها، وإيثار الغير بما يجوز منها.

و(قوله : « ولكنَّه أخذته ذمامةٌ من صَاحبه ») هو بالذال المعجمة مفتوحةً، وهي بمعنى : المذمَّة - بفتح الذال وكسرها - وهي : الرقة، والعار من ترك الحرمة. يُقال : أخذتني منه مذمَّةٌ ومذمَّةٌ، وذمامة، بمعناه، وكأنَّه استحيا من تكرار مخالفته، ومما صدرَ عنه من تغليظ الإنكار.

و(قوله : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً ﴾ [1] إنما ذكر (لك) في هذه المرة، ولم يذكرها في الأولى مقابلةً له على قلَّة احترامه في هذه الكرَّة؛ فإنَّ مقابلته بـ (لك) مع كاف خطاب المفرد يُشعر بقلة احترامه. والله أعلم.

و(قوله : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي ﴾ [2] هذا القول أبرزه من موسى استحياؤه من كثرة المخالفة، وتهديدُه لنفسه عند معاودتها للاعتراض بالمفارقة.

و(قوله : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ [3] أي : قد صرت عندي معذوراً. وقد تقدَّم الفرق بين لدنِّي وعندي، وأن في لدنِّي لغاتٍ، وقرئت من لدُنِي بضم الدال، [وتخفيف النون، وسكون الدال، وإشمامها الضم، وتخفيف النون لأبي بكرٍ عن عاصم، وبضم الدال] وتشديد النون، والأولى لنافعٍ والثالثة للباقين.

---

(1) سورة الكهف الآية 75
(2) سورة الكهف الآية 76
(3) سورة الكهف الآية 76

فـ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يقول: مائلِ .....

و(قوله : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ «لئام فـ» :﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾[1] قتادة: القرية أَيْلَة. وقيل: أنطاكية. و(لئام) هنا: بخلاء، واللؤم في الأصل: هو البخل مع دناءة الآباء. و(الاستطعام): سؤال الطعام، والمراد به هنا: أنهما سألا الضيافة بدليل قوله تعالي: ﴿ فأبوا أن يُضيِّفوهما ﴾ فاستحقَّ أهلُ القرية أن يُذمُّوا ويُنسبوا إلى اللؤم كما وصفهم بذلك نبيُّنا ﷺ وبظهر من ذلك: أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأنَّ الخَضِرَ وموسى إنما سألا ما يجبُ لهما من الضيافة. وهذا هو الأليق بحال الأنبياء والفضلاء، وبعيدٌ أن يُذمَّ من ترك المندوبَ هذا الذمَّ، مع أنه يحتمل أن يقال: إن الضيافة لما كانت من المكارم المعروفة المعتادة عند أهل البوادي، ذُمَّ المتخلف عنها عادةً، كما قد قالوا: (شرُّ القُرى التي تَبْخَل بالقِرى)، ويحتمل أن يكون سؤالهما الضيافة عند حاجتها إلى ذلك، وقد بيَّنَّا: أن من جاعَ عليه أن يطلبَ ما يردُّ به جوعَه، ففيه ما يدلُّ: على جواز المطالبة بالضيافة، كما قال ﷺ: «إذا نزلتم بقوم فلم يضيّفوكم فاطلبوا منْهم حقَّ الضيف». وقد تقدَّم القول في الضيافة وأحكامها، ويعفوالله عن الحريري؛ فإنَّه تسخَّف في هذه الآية وتمجَّن، فاستدلَّ بها على الكُدْيَة[2] والإلحاح فيها؛ وأن ذلك ليس بعيب على فاعله ولا منقصة عليه فقال:

فإن رُدِدْتَ فَمَا بالردِّ مَنْقَصَةٌ ... عَلَيكَ قَدْ رُدَّ موسى قَبلُ والخَضِرُ

هذا لعبٌ بالدِّين، وانسلال عن احترام النبيِّين، فهي: شنشنةٌ أدبيةٌ وهفوة سخافيَّة، ويرحمُ الله السَّلف الصالح فإنهم بالغوا في وصية كل ذي عقلٍ راجح، فقالوا: مهما كنت لاعباً بشيءٍ، فإيَّاك أن تلعبَ بدينك.

و(قوله : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَه ﴾[3] الجدار: الحائط. وينقضَّ: يسقط. ووصفُه بالإرادة مجازٌ مستعمل، وقد فسَّره في الحديث بقوله:

---

(1) سورة الكهف الآية 77

(2) الكُدْية : حرفة السائل المُلحُ (الشَّحادة).

(3) سورة الكهف الآية 77

قال الخُضر بيده: هكذا؛ فأقامه. قال له موسى: قوم أتيناهم فلم يُضَيِّفُونا، ولم يُطْعِمُونا ﴿ **لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** ﴾، ﴿ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً** ﴾، قال رسول الله ﷺ: «يرحمُ الله موسى. لوددتُ أنه كان صَبَر حتى يُقَصَّ علينا من أخبارهما». قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «كانت الأولى من مُوسى نِسْياناً». قال: وجاء عُصفور حتى وقع على حرف السفينة. ثم نقر في الْبَحر. فقال له الخضر: ما نقص علمي وعِلمُكَ من علم الله إلا مِثْلَ ما نقص هذا العصفورُ من البحر».

«يقول: مائل» فكان فيه دليلٌ على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهبُ الجمهور، ومما يدلُّ على استعمال ذلك المجاز وشهرته، قول الشاعر:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَراءٍ ... وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

وقال آخر:

إِن دَهْراً يلفُّ شَمْلِي ... لَزَمَانٌ يَهُمُّ بالإِحْسَانِ

وقال آخر:

فِيْ مَهْمَهٍ فُلِقَتْ بَه هاماتُنَا ... فَلْقَ الفُؤُوسِ إِذَا أَرَدْنا نُصُولا

والنصول هنا: الثبوت في الأرض، من قولهم: نصلَ السَّهم: إذا ثبت في الرَّميَّة، فشبَّه وقعَ السيوف على رؤوسهم بوقع الفؤوس في الأرض الشديدة؛ فإن الفأس يقع فيها ويثبت، ولا يكاد يخرج. والمجاز موجود في القرآن والسُّنَّة كما هو موجودٌ في كلام العرب، وقد استوفينا مباحث هذه المسألة في الأصول.

و(قوله: «قال الخضر بيده ـ هكذا ـ فأقامه») يعني به أنه أشار إليه بيده، فقام. فيه دليل على كرامات الأولياء، وكذلك كلُّ ما وصف عن أحوال الخَضِر في هذا الحديث، وكلُّها أمورٌ خارقةٌ للعادة. هذا إذا تنزلنا على أنه وليٌّ لا نبيٌّ، وقد اختلف فيه أئمة أهل السُّنَّة. والظاهر من مساق قصته واستقراء أحواله، مع قوله: ﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** ﴾ أنه نبيٌّ يوحى إليه بالتكاليف والأحكام، كما أُوحى إلى الأنبياء، غير أنه ليس برسول.

قال سعيد بن جبير : وكان يقرأ : (وكان أمَامَهُم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ

و(قول : ﴿ **لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** ﴾ [1] هذه قراءة ابن كثير، وأبي عمرون ويعقوب، وقراءة غيرهم : ﴿ **لَتَّخَذْتَ** ﴾ وهما لغتان بمعنى واحدٍ من الأخذ، وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العرض، لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر : ﴿ **هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ أي : هذا وقت ذلك، بحكم ما شرطتَه على نفسكَ، ثم وعدَه بأن يُخبرَه بحكم تلك الأحكام، فقال : ﴿ **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ** ﴾ القراءة المتواترة بتخفيف السين، جمع مسكين. سمّوا بذلك على جهة الشفقة والترحُّم، وقيل : كانوا فيها أجراء، وروي عن ابن عباس أنه قرأها : مسَّاكين ـ بتشديد السين ـ جمع مسَّاك ؛ لإمساكهم السفينة، قيل : كانوا عشرة، خمسة منهم يعملون في البحر، وخمسة منهم زَمْنى [2]، وقد تقدَّم الفرق بينَ المسكين والفقير في كتاب الزكاة.

و(قوله : ﴿ **وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** ﴾ [3] وراء في أصلها : بمعنى خلف، فقال بعض المفسرين : إنه كان خلفهم، وكان رجوعهم عليه، والأكثر على أن معنى وراءَ هنا : أمام، وهذا القول أولى لقراءة سعيد : (وكان أمامَهم) ولما يأتي في بقية الحديث، وقال بعضهم : وراء : يكون من الأضداد. قال الشاعر :

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وقَوْمِي تَمِيمٌ وَالفَلاةُ وَرَائِيَا

أي : أمامي. وأصل هذا : أن كلَّ ما يُوارى عنك فهو وراء، وقيل : اسم هذا المَلك : هُدَد بن بدد بن جُريج. وقال الكلبيُّ : الجَلَنْدى. والغصْب : أخذ مال الغير على جهة القهر والغلبة والمجاهرة. وقد بيَّن وجه الحكمة في خرق السفينة في الرواية الأخرى، بقوله : « فإذا جاءَ الذي يُسخِّرُها وجدَها منخرقةً فيجاوزها، فأصلحوها بخشبة » ويحصلُ من هذا : الحضُّ على الصبر في الشدائد، فكم في ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾ [4].

---

(1) سورة الكهف الآية 77

(2) زَمْنى : من الزَمانة، وهي العاهة، والمرض الدائم.

(3) سورة الكهف الآية 79

(4) سورة البقرة الآية 216

سفينةٍ صالحةٍ غصْباً)، وكان يقرأُ: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِراً﴾.

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجَّل لرأي العَجَبَ، ولكنَّه أخذَتْهُ من صَاحبه ذمامة. ﴿عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا

و(قوله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ فكان كافراً») هذا حديث مرفوع من رواية أُبيّ، كما قال في الرواية الأخرى: «طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً» وقد روي أنَّ أُبيّاً كان يقرأ: (أما الغلام فكان كافراً، وكان أبواه مومنين) وهذا محمول على أن أُبيّاً فسَّر، لا أنه قرأ كذلك؛ لأنه لم يثبتها في المصحف، وهو من جُمْلة كَتَبَته. والجمهور على أن هذا الغلام لم يكن بلغ سِنَّ التكليف، وقد ذهب ابن جُبير إلى أنه بلغ سِنَّ التكليف، وقد حكي ذلك عن ابن عباس كما تقدَّم. والصحيحُ عنه أنه كان صغيراً لم يبلغ كما تقدَّم من كتابه إلى نجدة الحروري، كما ذكرناه في الجهاد، وهذا هو المعروف من اسم الغلام كما قد تقدَّم. وإنما صارَ ابن جُبير إلى ذلك لقوله ﷺ كان كافراً، والكفر والإيمان من صفات المكلَّفين، ولا يُطلق على غير مُكلَّفٍ إلا بحكم التبعيةلأبويْه، وأبوا الغلام كانا مومنين بالنص، فلا يصدقُ عليه اسم الكافر إلا بالبلوغ، فتعيَّن أن يُصار إليه، وقد يُطلقُ الغلام على الكبير إذا كان قريباً من زمان الغلومية توسُّعاً، وهو موجود في كلام العرب، كما قالت ليلى الأخيلية:

شَفَاها مِنَ الداءِ العُضَالِ الذي بِها ... غُلامٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ شَفَاها [1]

وقال صفوان لحسَّان:

تَلقَّ ذُبابَ السَّيف عنِّي فإنَّني ... غلامٌ إذا هُوجيت لستُ بشاعرِ

قال الشيخ رحمه لله: وما صارَ إليه الجمهور أوْلى تمسُّكاً بحقيقة لفظ الغلام، ولقوله ﷺ: «وأما الغلامُ فطُبع يومَ طُبعَ كافراً» أي: خُلق قلبُه على صفة قلب الكافر من القَسْوة، والجهل، ومحبَّة الفساد، وضرر العباد، ولقوله: «ولو أدركَ لأرهقَ بويْه طُغياناً وكفراً» أي: لو بلغ. ولمَّا علمَ الله تعالى ذلك منه، أعلمَ الخضرَ بذلك، وأمرَه

---

(1) غي اللسان: سقاها.

﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ ولو صبر لرأى العَجَبَ».

قال: وكان إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه: «رحمة الله علينا وعلى أخي كذا، رحمة الله علينا».

وقال بعد قوله: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ أخذ بثوبه.. قال: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ... ﴾ فإذا جاء الذي يُسخِّرُها وجدها منخرقةً، فتجاوزها، فأصلحوها بخشبةٍ. وأما الغلام فطبع يوم طبع كافراً، وكان أبواه قد

بقتله، فيكونُ قتله من باب دفع الضرر، كقتل الحيَّات، والسِّباع العادية، لا من باب القتل المترتب على التكليف، وهذا لا إشكالَ على أصول أهل السُّنة فيه؛ فإنَّ الله تعالى الفَعَّال لما يُريد، القادرُ على ما يشاء لا يتوجَّه عليه وجوبٌ، ولا حقٌّ، ولا يثبت عليه لومٌ ولا حكمٌ. وأما على أصول أهل البدع القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين وما يتولَّد على ذلك من الأصول الفاسدة من التجويز، والتعديل، والإيجاب على الله تعالى، فلا يُلتفت إليها، ولا يُعرَّج عليها، لظهور فسادها، كما بيَّناه في الأصول.

و(قوله: «وكان أبواه قد عطفَا عليه») أي: أحبَّاه، وأقبلا عليه بشفقتهما، وحنوِّهما، فخافَ الخَضِرُ، لَمَّا أعلمَه الله تعالى بمآل حاله أنه إن عاشَ لهما حتى يكبَر ويستقلَّ بنفسه جبلَهما بحكم محبَّتهما له أن يُطيعاه ويُوافقاه على ما يصدرُ عنه من الكفر والفساد، فيكفران بذلك، وهذا معنى قولة ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [1] وعلى هذا فيكون ﴿ فَخَشِينَا ﴾ من كلام الخضر، وهو الذي يشهدُ له مساق الكلام، وهو قول كثيرٍ من المفسرين، وذهبَ بعضهم إلى أنه من كلام الله تعالى؛ وفسَّر ﴿ خشينا ﴾ بمعنى علمنا، وحكى أن أُبيّاً قرأها: (فعلمَ ربُّكَ). ومعنى يُرهقهما: يُلحق بهما ما يشقُّ عليهما، ويُتعبهما، والطغيان هنا: الزيادة في المفاسد.

---

(1) سورة الكهف الآية 80

عطفا عليه، فلو أنه أدرك أرهقهما طغياناً وكفراً: ﴿ **فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ . . .** ﴾ إلى آخر الآية.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذي

* * *

(وقوله : ﴿ **فَأَرَدْنَا أَن يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً** ﴾ [1] وهذا قول الخضر قطعاً، وهو يشهدُ بأن قوله: ﴿ **فَخَشِينَا** ﴾ من قوله. و﴿ **يُبَدِّلَهُمَا** ﴾: قرىء مشدَّداً ومخفَّفاً، وهما لغتان. و﴿ **زَكَاةً** ﴾: منصوب على التمييز. يعني: نماءً وصلاحاً، وديناً. و﴿ **رُحْماً** ﴾: معطوف على زكاة. أي: رحمة، يُقال: رحمةً، ورُحْماً، وألفه للتأنيث، ومذكَّرُه رحيم، وقيل: إن الرُّحمى هنا بمعنى: الرَّحم، قرأها ابن عباس، وأوصل رُحْماً أي: رحماً. وحكي عنه: أنهما زرقا جارية ولدت نبيّاً، وقيل: كان من نسلها سبعون نبيّاً. ويُفيد هذا تهوين المصائب بفقد الأولاد؛ وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سلَّم للقضاء، سفرتْ عاقبتُه عن اليد البيضاء.

و(قوله : ﴿ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ [2] قيل:

اسمهما أصرم وأُصيرم، وقد تقدَّم: أن اليُتْم في الناس من قبل فقد الأب، وفي غيرهم من الحيوان من قبل الأم.

و(قوله: ﴿ **وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَّهُمَا** ﴾ [3] أي : تحت الجدار، وظاهر الكنز أنَّه مالٌ مكنوز، أي مجموع. وقال ابن جُبير: كان صُحفَ العلم. وقال ابن عبَّاس: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن! عجبتُ لمن يُؤمن بالرزق كيف يتعب! عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح! عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل! عجبتُ لمن يعرف الدنيا وتقليبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إلاه إلا الله محمد رسول الله.

---

(1) سورة الكهف الآية 81
(2) سورة الكهف الآية 82
(3) سورة الكهف الآية 82

و(قوله : ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً** ﴾ [1] قال أهل التفسير : إنَّه كان جدَّهما السابع، وكان يُسمَّى كاسحاً، ففيه ما يدلُّ : على أنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في تفسه وفي ولده وإن بَعُدوا عنه، وقد روي : أَنَّ الله تعالى يحفظُ الصالح في سبعة من ذويه. وعلى هذا يدلُّ قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ وَلِيَّ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾ [2] .

و(قوله : ﴿ **فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَ أَشُدَّهُمَا** ﴾ [3] أي : قوتهما وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنةً. واختلف النحويون؛ هل هو واحدٌ على بناء الجمع؛ كأنعم، ولا نظيرَ لهما من لفظهما. وكان سيبويه يقول : هو جمع، واحده : شدةٌ. قال الجوهري : وهو صحيح في المعنى، لأنَّه يُقال : بلغ الغلامُ شدَّته. ولكنه لا تجمع فِعْلةٌ على أَفْعُل، وأما أنْعُمٌ : فهو جمع : نُعْم من قولهم : يومٌ بؤسٌ، ويومٌ نُعْمٌ. وأمَّا قول من قال : واحده شَدٌّ مثل كلبٍ وأكلب؛ فإنَّما هو قياس، كما قالوا في واحد الأبابيل : أبُول، قياساً على : عَجُول، وليس هو شيءٌ سُمع من العرب. وقد أضاف الخضر ـ عليه السلام ـ قضيَّة استخراج كنز الغلامين لله تعالى، وأضاف عيبَ السفينة إلى نفسه تنبيهاً على التأدُّب في إطلاق الكلمات على الله تعالى فيُضاف إليه ما يُستحسن منها، ويُطلق عليه، ولا يُضاف ما يُستقبح منها إليه، وهذا كما قاله تعالى : ﴿ **بِيَدِكَ الْخَيْرَ** ﴾ [4] واقتصرَ عليه، ولم ينسب الشَّرَّ إليه، وإن كان بيده الخير والشَّرُّ، والنَّفع والضرُّ؛ إذ هو على كل شيءٍ قدير، وبكلِّ شيءٍ خبير.

و(قوله : « وجاءَ عُصفورٌ حتى وقعَ على حرف السَّفينة، ثم نقر في البحر، فقال الخَضِر : ما نقصَ علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقصَ هذا العصفور من البحر ») وحرف السفينة : طرفها، وحرف كلِّ شيءٍ : طرفه، وشفيره، وحدُّه، ومنه حرفُ الجبل : وهو أعلاه المُحدَّد. والحَرْف : واحد حروف التَّهجي. والحرف : الكلمة. والحرف : اللغة، كما تقدَّم. والحرف : النَّاقة الضامرة. والحرف : الجهة الواحدة. ومنه

---

(1) سورة الكهف الآية 82
(2) سورة الاعراف الآية 196
(3) سورة الكهف الآية 82
(1) سورة آل عمران الآية 26

قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ** ﴾ [1] أي: يعبدُه في الرَّخاء، ولا يعبدُه في الشِّدَّة. والحرف: مأخوذ من الانحراف، وهو الميل.

والعلم ها هنا: بمعنى: المعلوم، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ** ﴾ [2] أي: من معلوماته. وهذا من الخضر ـ عليه السلام ـ تمثيلٌ. أي معلوماتي ومعلوماتك في علم الله تعالى لا أثرَ لها، كما أنَّ ما أخذَ هذا العُصفور من البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر. [وإنَّما مثَّل له ذلك بالبحر] لأنه أكبرُ ما نشاهده مما بين أيدينا. وهذا نحو مما قاله تعالى: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى** ﴾ [3]. وإطلاقُ لفظ النقص هنا تجوُّزٌ قصدَ به التمثيل، والتَّفهم؛ إذ لا نقصَ في علم الله تعالى ولا نهاية لمعلوماته. وقد أورَد البخاريُّ هذا اللفظ من رواية ابن جُريجٍ على لفظٍ أحسنَ مساقاً من هذا وأبعدَ عن الإشكال، فقال: «ما علمي وعلمُك في جنب علم الله إلا كما أخذ العصفور بمنقاره من البحر». وهو مفسِّرٌ للفظ كتاب مسلم والله تعالى أعلم.

وفي هذا الحديث تنبيهٌ على أصول عظيمة. منها: أنَّ الله تعالى بحكم ملْكه ومُلْكه أن يفعلَ ما يُريد، ويحكم في خلقه بما يشاء مما ينفعنا، أو يضرُّنا، فلا مدخلَ لعقولنا في أفعاله، ولا معارضة لأحكامه، بل يجبُ علينا الرضا والتسليم؛ فإن إدراكَ العقل لأسرار أحكام الربوبية قاصرٌ سقيم، فلا يتوجَّه عليه في فعله لم؟ وكيف؟ كما لا يتوجّه عليه في وجوده أين؟ وحيث. ومنها: أن العقلَ لا يُحسِّن، ولا يُقبِّحُ، وأنَّ ذلك راجعٌ إلى الشرع، فما حسَّنه بالثناء عليه فهو حسنٌ، وما قبَّحه بالذمِّ عليه فهو القبيح. ومنها: أنَّ لله تعالى فيما يُجريه حِكَماً وأسراراً راعاها، ومصالحَ راجعةً إلى خلقه اعتبرها. كلُّ ذلك بمشيئته وإرادته من غير وجوبٍ عليه، ولا حكم عقليٍّ يتوجَّه إليه، بل ذلك بحسب ما سبقَ في علمه، ونافذٍ حكمه، فما اطلع عليه من تلك

(1) سورة الحج الآية 11
(1) سورة البقرة الآية 255
(1) سورة الكهف الآية 104

الأسرار عُرِفَ، وما لا فالعقل عندَه يقف. وحذارِ من الاعتراض والإنكار! فإنَّ مَآلَ ذلك إلى الخيبة وعذاب النَّار. ومنها: أنَّه عالمٌ بما كانَ، وبما يكون، وبما لا يكون: أنْ لو كان كيف كان يكون. وفوائد هذا الحديث كثيرةٌ، وعلومُه غزيرةٌ، وفيما ذكرناه كفايةٌ. والله الموفق للهداية.

تنبيه على مَغْلَطتيْن: الأولى: وقع لبعض الجهَّال: أنَّ الخضرَ أفضلُ من موسى ـ عليهما السلام ـ متمسِّكاً بهذه القصة، وبما اشتملت عليه. وهذا إنَّما يصدرُ ممَّن قَصُرَ نظرُه على هذه القصة، ولم ينظر في شيءٍ من أحوال موسى ـ عليه السلام ـ ولا فيما خصَّه الله تعالي من الرِّسالة وسماع كلام الله تعالى المُنزَّه عن الحروف والأصوات، وإعطائه التوراة التي فيها علم كلِّ شيءٍ، وأنَّ أنبياءَ بني إسرائيلَ كلَّهم داخلون تحت شريعته، ومُخاطبون بأحكام توراته حتى عيسى ـ عليه السلام ـ ألا ترى: أن الله تعالى قال: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا**... ﴾ [1]، والإنجيلُ وإن كان هدىً فليس فيه من الأحكام إلا قليلٌ، ولم يجىء عيسى ـ عليه السلام ـ ناسخاً لأحكام التوراة، بل مُعلِّماً لها، ومبيِّناً أحكامَها، كما قال تعالى حكايةً عنه: ﴿ **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ [2]. وعلى هذا فهو أمامُهم، وإمامهم، وأعلمُهم، وأفضلُهم. ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي** ﴾ [3] وأنَّ موسى من أُولي العزم من الرُّسل، وأنَّ أوَّل مَنْ (ينشق عنه القبر) نبيُّنا ﷺ فيجد موسى ـ عليه السلام ـ متعلِّقاً بساق العرش، وأنَّه ليس في محشر يوم القيامة أكثرَ من أمَّته بعد أمَّة نبيِّنا ﷺ. إلى غير ذلك من فضائله. فأمَّا الخَضرَ ـ عليه السلام ـ فلم يُتَّفقْ على أنَّه نبيٌّ، بل هو أمرٌ مختلفٌ فيه؛ هل هو نبيٌّ أو وليٌّ؟ فإنْ كان نبيًّا فليس برسول بالاتفاق؛ إذ لم يقل أحدٌ: أنَّ الخضرَ ـ عليه السلام ـ أُرسل إلى أمّة، والرَّسول أفضلُ من نبيٍّ ليس برسول. وإن تنزَّلنا على أنَّه رسولٌ؛ فرسالة موسى أعظمُ، وأمَّتُه أكثر، فهو أفضلُ. وإن قلنا: إنَّ

(1) سورة المائدة الآية 44
(1) سورة آل عمران الآية 48
(1) سورة الاعراف الآية 144

الخضرَ كان وليّاً؛ فلا إشكالَ أنَّ النبيَّ أفضلُ من الوليِّ. وهذا أمرٌ مقطوعٌ به عقلاً ونقلاً، والصائرُ إلى خلافه كافرٌ، فإنَّه أمرٌ معلومٌ من الشرائع بالضرورة؛ ولأنه واحدٌ من أمَّة موسى، أو غيره من الأنبياء، ونبيُّ كلِّ أمَّةٍ أفضلُ منها قطعاً، آحداً أو جمعاً. وإنما كانت قصة موسى مع الخضر امتحاناً لموسى ليتأدَّبَ ويعتبر، كما قد ابتلي غيرُه من الأنبياء، بأنواعٍ من المِحن والبَلاء.

المَغْلَطة الثانية: ذهبَ قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق يلزم منه هدُّ الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية إنما يُحكم بها على الأغنياء والعامَّة، وأمَّا الأولياء وأهلُ الخصوص، فلا يختاجون إلى تلك النصوص، بل: إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. قالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوِّها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربَّانية، فيقفون على أسرار الكاذنات، ويَعلمون أحكامَ الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع والكلِّيات، كما اتَّفق للخضر؛ فإنه استغنى بما تجلَّى له من تلك العلوم، عمَّا كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفتِ قلبَك وإن أفتاكَ المُفتون.

قلتُ: وهذا القول زندقة، وكفر يقتل قائلُه ولا يُستتاب؛ لأنَّه إنكارُ ما عُلم من الشرائع. فإنَّ الله تعالى قد أجرى سُنَّته، وأنفذ حكمته؛ فإن أحكامَه لا تُعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه، وبين خلقه، وهم المبلِّغون عنه رسالاته وكلامَه، المُبيِّنون شرائعه وأحكامَه، اختارهم لذلك، وخصَّهم بما هنالك، كما قال الله تعالى: ﴿ **اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾ [1] وقال: ﴿ **اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتَهُ** ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ [3] وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا

(1) سورة الحج الآية 75
(2) سورة الانعام الآية 124
(3) سورة البقرة الآية 213

به، وأخبر : أن الهدى في طاعتهم، والاقتداء بهم، في غير موضع من كتابه، وعلى ألسنة رسله، كقوله تعالى : ﴿ **وأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾ [1]، وكقوله : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ [2]، وقال : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه** ﴾ [3] **وقال** : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [4]، وقال ﷺ : « تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسَّكتم بهما، كتابَ الله، وسنَّة نبيِّه » . ومثل هذا لا يُحصى كثرةً .

وعلى الجملة فقد حصلَ العلمُ القطعيُّ، واليقين الضروريُّ، وإجماع السَّلف والخلف : على ألاَّ طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرف شيء منها إلا من جهة الرسل الكِرام . فمن قال : إن هناك طريقاً آخر يُعرف بها أمرُه ونهيُه غير الرسل بحيث يُستغني بها عن الرسل، فهو كافر، يُقتل ولا يُستتاب، ولا يُحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قولٌ بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبيَّ بعدَه ولا رسول، وبيان ذلك : أنه من قال : يأخذُ عن قلبه، وإنَّ ما وقعَ فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه؛ وإنه لا يحتاج في ذلك إلى كتاب ولا سنَّة، فقد أثبتَ لنفسه خاصَّة النبوَّة؛ فإن هذا نحو مما قاله رسولُ الله ﷺ : « إن روح القدس نفث في رُوْعي » ولقد سمعنا عن بعض المُمْخَرِقين المتظاهرين بالدِّين أنه قال : أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما اخذُ عن الحيِّ الذي لا يموت، وإنما أروي عن قلبي عن ربي . ومثل هذا كثير . فنسأل اللَّهَ الهداية والعِصمة، وسلوكَ طريق سلفِ هذه الأمَّة، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله .

* * *

(1) سورة المائدة الآية 92
(2) سورة النساء الآية 64
(3) سورة الانعام الآية 90
(4) سورة الحجر الآية 42

في وفاة موسى عليه السلام

عن أبي هريرة، قال: أُرْسِل ملكُ الموتِ إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكَّه، وفقأ عينه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يُريدُ الموت. قال: فردَّ الله إليه عينه وقال: ارْجعْ إليه، فقُل له: يضعُ يده على متن ثور، فله بما غطَّت يدُهُ بكل شعرةٍ سنة، قال: أي رب! ثمَّ مه؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. فسأا الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجرٍ، فقال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر».

وفي روايةٍ: قال: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال له:

ومن باب: وفاة موسى ـ عليه السلام

(قوله: «فجاء مَلَكَ الموت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: أجبْ ربَّك، فلطم موسى عينَ مَلَك الموت ففقأها، فرجع إلى ربِّه فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريدُ الموت») ظاهرُ هذا الحديث: أن مَلَك الموت تمثّل لموسى في صورةٍ لها عين،، وأنه دعاه لقبض روحه، وأنَّ موسى عَرَفَ أنه مَلَكُ الموت، وأنه لطمه بيده على عينه ففقأها، ولما ظهر هذا من هذا الحديث شنّعته الملحدة، وقالوا: إنَّ هذا كلَّه محالٌ، ولا يصحّ. وقد اختلفت أقوالُ علمائنا في تأويل هذا الحديث. فقال بعضُهم: كانت عيناً متخيَّلةً لا حقيقية. ومنهم من قال: هي عينٌ معنويةٌ. وإنما فقأها بالحجَّة. وهذان القولان لا يلتفت إليهما لظهور فسادهما، وخصوصاً الأول؛ فإنه يؤدي إلى: أن ما يراه الأنبياءُ من صُور الملائكة لا حقيقةَ له، وهو قولٌ باطلٌ بالنصوص المنقولة، والأدلة المعقولة. ومنهم من قال: كان ذلك ابتلاءً وامتحاناً لملك الموت؛ فإن اللَّهَ تعالى يمتحنُ خلقه بما شاء. وهذا ليس بجواب؛ فإنه إنما وقع الإشكالُ في صدور سبب هذا

أجب ربك. قال: فلَطَمَ موسى عليه السلام عينَ ملكِ الموت ففقأها». وذكر نحوه.

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

* * *

الامتحان من موسى، وكيف يجوز وقوع مثل هذا؟ وأشبه ما قيل فيه: ما قاله الشيخُ الإمامُ أبو بكر بن خزيمة؛ وهو أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ لم يعرفْ مَلَك الموت، وأنه رأى رجلاً دَخَل منزلَه بغير إذنه يريدُ نفْسه، فدافعَ عن نفسه، فلطَم عينه، ففقأها، وتجبُ المدافعةُ في مثل هذا بكلِّ ممكنٍ. وهذا وَجْهٌ حسن، غير أنَّ هذا اعتُرِضَ عليه بما في الحديث، وهو أنَّ مَلَك الموت لما رجع إلى الله قال: «يا ربِّ! أرسلتني إلى عبد لا يُريدُ الموت»، فلو لم يعرفه موسى ـ وإنما دفعه عن نفسه ـ لما صَدَق هذا القولُ من ملك الموت.

قال الشيخ رحمه الله: وقد أظهر ذو الطَّول والإفضال، وَجهاً حسناً يحسمُ مادَّة الإشكال؛ وهو أنَّ موسى عَرَف مَلَكَ الموت، وأنه جاء ليقبضَ روحه، لكنه جاء مجيئَ الجازم بأنه قد أمر بقبض روحه من غير تخيير، وعند موسى ما قد نصَّ عليه نبينا ﷺ من: «أن الله تعالى لا يقبضُ روحَ نبيٍّ حتى يُخيِّره» فلمَّا جاءه على غير الوجه الذي أُعلم به، بادر بشهامته، وقوة نفسه إلى أدب مَلَكَ الموت، فلطمه فانفقأت عينُه امتحاناً لملك الموت إذ لم يُصَرِّح له بالتخيير. ومما يدلُّ على صحة هذا: أنه لما رجع إليه مَلَكُ الموت، فخيَّره بين الحياة والموت؛ اختار الموتَ واستسلم. وهذا الوجه ـ إن شاء الله ـ أحسن ما قيل فيه وأسْلَمُ، وقد تقدَّم القولُ في تمثل الملائكة في الصُّور المختلفة عقلاً، وثبوت وقوع ذلك نقلاً.

و(قوله: «قال: أي رب! ثم مه؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن») (مه): هي (ما) الاستفهامية، لما وقف زاد هاء السكت وهي: لغة العرب اذا وقفوا على أسماء

الاستفهام، نحو: عمَّه، وله، وفيمه، فإذا وصلوا حذوفها. و(فالآن): ظرف زمان غير متكن، وهو اسمٌ لزمان الحال الذي يكون المتكلم عليها، وهو الزمانُ الفاصلُ بين الماضي والمستقبل، وهذا يدلُّ على : أن موسى لما خيَّرهُ اللهُ بين الحياة والموت؛ اختار الموتَ شوقاً للقاء الله ـ عز وجل ـ واستعجالاً لما له عند الله من الثواب والخير، واستراحة من الدنيا المكدرة. وهذا كما خُيِّر نبينا ﷺ عند موته، فقال: « اللّهم الرفيق الأعلى ».

و(قوله : « فسأل الله تعالى أن يدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجرٍ ») أي: مقدار رمية بحجر، فهو منصوب على أنه ظرف مكان. والأرض المقدسة: هي البيت المقدَّس، وإنما سأل موسى ـ عليه السلام ـ ذلك تبركاً بالكون في تلك البقعة، وبيدفن مع من فيها من الأنبياء، والأولياء؛ ولأنها أرض المحشر على ما قبل.

و(قوله: « ولو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر ») ثَمَّ ـ مفتوحة الثاء ـ: اسم يشار به إلى موضع، فأما ثُمَّ ـ بضم الثاء ـ: فحرف عطف. ويعني بالطريق : طريق بيت المقدس، وقد تقدَّم أن النبيَّ ﷺ مرَّ في طريقه إلى بيت المقدس ـ ليلة أسرى به ـ بقبر موسى وهو قائم يُصلي فيه، وهذا يدلُّ على أن قبر موسى أخفاه الله تعالي عن الخلق، ولم يجعله مشهوراً عندهم، ولعلَّ ذلك لئلاَّ يُعْبَد، والله أعلم. وقد وقع في الرواية الأخرى: « إلى جانب الطور » مكان: « الطريق ». والطور: الجبل بالسريانية، وقال أيضاً في الرواية الأخرى: « فما توارت يدك » مكان: « غطَّت يدك » وهو بمعناه، والتاء فيه زائدةٌ؛ لأن معناه: وارت، والله أعلم.

* * *

باب في ذكر يونس ويوسف وزكريا عليهم السلام

عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال ـ يعني: الله تبارك وتعالى ـ: «لا ينبغي لعبدٍ ـ وفي روايةٍ: لعبدي ـ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متَّى».

رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود.

ومن باب: ذكر يونس ويوسف وزكريا - عليهم السلام

(قوله: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى») أي لا يصلح، ولا يجوز. و(لعبدٍ): منوَن مُنكَّر، أي: لعبد من عباد الله وفي الرواية الأخرى. «لعبدي» بأضافته إلى الياء المتكلم وهو الله تعالى في هذه الرواية، فيتحمل أن يُراد به النكرة] فتكون إضافته غير محضة، كما قال الشاعر:

وسائلي بمعجزي عن وطني ... ما ضاقَ بي جنابُه ولا نبا

فأدخل ربَّ على سائلي مع أنه مضافٌ إلى ياء المتكلم، فدل على: أنه لم يردُ به سائلاً واحداً، فكأنه قال: ورب سائل، وكذلك الوطن في قوله: عن وطني؛ لأنَّ الجملة التي بعده صفة له، أي: عن وطن لم ينبُ بي جنابه، أي: غير نابٍ. ويصحُّ أن تكون إضافة عبدي محضةً ومعرفةً، ويعني به: عبدي المكرم عندي كما قال: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [1] أي: عبادي المكرمون عندي، والمشرَّفون لديَّ، وقد شهد لهذا المعنى ما قد روي في كتاب أبي داود في هذا الحديث: «لا ينبغي لبني أن يقول: أنا خير من يونس» كما قد رُوي أيضاً ما يشهد بتنكير «عبد» في كتاب مسلم: «لا أقول: إن أحداً أفضل من يونس» وعلى هذا فيقيَّد مطلق الرواية الأولى بمقيد هذه الرواية، فيكون معناه: لا ينبغي لعبد نبيٍّ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس. وهذا هو الأولى؛ لأنه مَن ليس بنبيٍّ لا يمكنه بوجه أن يقول: أنا أفضل من النبيِّ لأنه من المعلوم الضروري عند المتشرعين: أنَّ درجةَ النبيِّ لا يبلغها وليٌّ، ولا غيرُه، ورنما يمكن ذلك في الأنبياء، لأنهم صلوات الله وسلامه عليهم قد تساووا في النبوة، وتفاضلوا فيما بينهم بما خص به بعضهم دون بعض؛ فإن منهم من اتخذه الله خليلا، ومنهم من اتخذه حبيباً، ومنهم

---

(1) سورة البقرة الآية 253

وعن ابن عباسٍ، عن النَّبيِّ قال: «ما ينبغي لعبدٍ أنْ يقول أنا خير من يونس بن متَّى». ونَسَبَهُ إلى أبيه.

أولو العزم، ومنهم من كلَّم الله على ما هو المعروف من أحوالهم، وقد قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1]. فإن قيل: إذا كانوا متفاضلين في أنفهم فكيف ينهي عن التفضيل؟ وكيف لا يقول مَن هو في درجة عليا: أنا خيرٌ من فلان، لمن هو دونه، على جهة الإخبار عن المعنى الصحيح؟ فالجواب: أن مقتضى هذا الحديث المنعُ من إطلاق ذلك اللفظ، لا المنع من اعتقاد معناه أدبا مع يونس، وتحذيرا من أن يفهم في يونس نقص من إطلاق ذلك اللفظ. وإنما خُصَّ يونسُ عليه السلام بالذكر في هذا الحديث؛ لأنه لما دعا قومَه للدخول في دينه، فأبطؤوا عليه ضجر، واستعجل بالدعاء عليهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، وفرَّ منهم، فرأى قومهُ دخاناً، ومقدمات العذاب الذي وعدهم به، فآمنوا به، وصدَّقوه، وتابوا إلى الله تعالى، فردُّوا المظالمَ حتى ردُّوا حجارة مغصوبة كانوا بنوها، ثم إنهم فرقوا بين الأمهات وأولادهم، ودعوالله تعالى، وضجّوا بالبكاء والعويل، وخرجوا طالبين يونس فلم يجدوه، فلم يزالوا كذلك حتى كشف اللهُ عنهم العذاب، ومتَّعهم إلى حين، وهم أهل نينوى من بلاد الموصل على شاطىء دجلة، ثم ان يونس ركب في سفينة فسكنت ولم تَجْرِ، فقال أهلها: فيكم آبق، فقال: أنا هو. فأبوا أن يكون هو الآبق فقارعهم، فخرجت القرعةُ عليه، فرمي في البحر، فالتقمه حوتٌ كبيرٌ، فأقام في بطنه ما شاء الله، وقد اختلف في عدد ذلك من يوم إلى أربعين، وهو في تلك المدة يدعو اللهَ تعالى، ويُسبِّحه إلى أن عفا اللهُ عنه، فلفظه الحوتُ في ساحلٍ لا نبات فيه، وهو كالفرخ، فأنبت اللهُ تعالى عليه من حينه شجرة اليقطين، فسترته بورقها. وحكى أهلُ التفسير: أن الله تعالى: قيَّض له أُرْوِيَّة ترضعه إلى أن قوي، فيبست الشجرة، فاغتم لها وتألَّم، فقيل له: أتغتم وتحزن لهلاك شجرة، ولم تغتمّ على هلاك مئة ألف أو يزيدون؟ وقد دلَّ على صحَّة ما ذكر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ...﴾ الآيات إلى آخرها[2]، وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن للنبوة أثقالاً، وإن يونس تفسَّخ تحتها تفسُّخَ الرُّبَع» أو كما قال.

---

(1) سورة البقرة الآية 253

(2) سورة الصافات الآية 136-148

رواه أحمد والبخاريّ ومسلم.

وعن أبي هريرة، قال: قيل: يا رسول الله! من أكرمُ الناس؟ قال: «أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: «فيوسف نبيُّ الله بنُ نبيِّ الله بنِ نبيِّ الله بنِ خليلِ الله». قالوا: ليس عن هذا تسألك! قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهمُ في الجاهلية خيارهُم في الإسلام إذا فَقُهوا».

رواه أحمد والبخاريُّ ومسلم.

قال الشيخ رحمه الله: ولَمَّا جرى هذا ليونس عليه السلام، وأطلق الله تعالى عليه: أنه (مليم) أي: أتى بما يُلام عليه: قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: «لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس»، لأنَّ ذلك يُوهم نقصاً في نبوته، وقدحاً في درجته، وقد بيَّنا أن (لعبد) هنا بمعنى لنبيٍّ، وقد قيل: إنه محمولٌ على غير الأنبياء، ويكون معناه: لا يظنُّ أحدٌ ممن ليس بنبيٍّ - وإن بلغ من العلم والفضل والمنازل الرفيعة، والمقامات الشريفة الغاية القصوى - أنه يبلغ مرتبة يونس - عليه السلام -؛ لأن أقل مراتب النبوة لا يلحقها من ليس من الأنبياء، وهذا المعنى صحيح، والذي صدَّرنا به الكلام أحسن منه، والله تعالى أعلم.

و(قول السائل: من أكرم الناس؟) معناه: من أولى بهذا الاسم؟ ولذلك أجابه النبيُّ ﷺ بجواب كُلِّيٍّ، فقال: «أتقاهم» وهذا منتزعٌ من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (1). فلما قالوا: ليس عن هذا نسألك، نزل عن ذلك إلى ما يقابله، وهو الخصوصُ بشخصٍ معيَّن، فقال: يوسف بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم؛ لأنه نبيٌّ بن نبيٍّ [بن نبيٍّ]، فإن هذا لم يجتمع لغَيره من ولد آدم، فهو أحقُّ الناس المعنيين بهذا الاسم. فلما قالوا: ليس عن هذا نسألك تبين له: أنهم سألوه عمن هو أحقُّ بهذا الاسم من العرب، فأجابهم بقوله: «فعن معادن العرب تسألوني؟» أي: عن أكرم أصولها، وقبائلها؟ وقد تقدَّم أن المعدنَ هو مأخوذٌ من عَدَنَ، أي: أقام، والعَدْنَ: الإقامة، ولما كانت أصولُ قبائل العرب ثابتةً سميت معادن. ثم قال: «خيارهم في الجاهلية خيارهم

---

(1) سورة الحجرات الآية 13

وعنه : أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ : «كان زكرياءُ نجَّاراً».

رواه أحمد ومسلم وابن ماجه

* * *

في الإسلام إذا فَقُهوا» فمعنى هذا: أن مَن أجتمع له خصالُ شرفٍ زمنَ الجاهلية من: شرف الأباء، ومكارم الأخلاق، وصنائع المعروف، مع شرف دين الإسلام، والتفقه فيه، فهو الأحقُّ بهذا الاسم، وقد تقدَّم أن الكرمَ: كثرةُ الخير والنفع. ولما كان تقوى الله تعالى هو الذي حصل به خيرُ الدنيا والآخرة مُطلقاً كان المتَّصفُ به أحقُّ؛ فإنه أكرم الناس، لكن هذه قضيةٌ عامة. فلما نظر النبيُّ ﷺ فيمن تعيَّن في الوجود بهذه الصفة، ظهر له أن الأنبياءَ أحقُ بهذا المعنى؛ إذ لا يبلغُ أحدٌ درجتهم، وإن أحقَّهم بذلك مَن كان مُعْرِقاً في النبوة، وليس ذلك إلا ليوسف، كما ذكر. ويخرج منه الردُّ على من قال: إن إخوة يوسف كانوا أنبياء، إذ لو كانوا كذلك لشاركوا يوسف في ذلك المعنى. ثم إنه لما نظر النبيُّ ﷺ بين الأعم والأخص ظهر له أن الأحقَّ بذلك المعني: نوعٌ من الأنواع المتوسطة بين الجنس الأعمِّ، والنوع الأخصِّ، وظهر له أنهم أشرافُ العرب، ورؤساءهم إذا تفقهوا في الدين، وعلموا وعملوا، فحازوا كلَّ الرتب الفاخرة؛ إذ اجتمع لهم شرفُ الدنيا والاخرة. وفيه ما يدلُّ على شرف الفقه في الدين، وأن العالم يجوزُ له أن يجيبَ بحسب ما يظهر له، ولا يلزمه أن يستفصلَ السائلَ عن تعيين الاحتمالات، إلا إن خاف هلى السائل غلطاً، أو سوء فهمٍ، فيستفصله، كما قررناه في الأصول.

و(قوله: «كان زكريا نجاراً») يدل: على شرف النجارة، وعلى أن التحرُّف بالصناعات لا يغضّ من مناصب أهل الفضائل، بل نقول: إن الحرف والصناعات غير الركيكة زيادة في فضيلة أهل الفضل، يحصل لهم بذلك التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخليّ عن الامتنان الذي هو خيرُ المكاسب، كما قد نصَّ عليه النبيُّ ﷺ حيث قال: «إن خير ما أكل المرأ من عمل يده، وإن نبيَّ الله داود كان يأكلُ من عمل يده» وقد نقل عن كثير من الأنبياء أنهم كانوا يحاولون الأعمال. فأولهم آدم ـ عليه السلام ـ علَّمه الله صناعة الحراثة، ونوح عليه السلام علمه الله صناعة النجارة، وداود ـ عليه السلام ـ علّمه الله صناعة الجدادة؛ وقيل: إن موسى ـ عليه السلام ـ كان كاتباً يكتب التوراة بيده، وكلهم قد رعى الغنم كما قال ﷺ وعليهم أجمعين.

في قول النبي ﷺ: «لا تُخَيِّرُوا بين الأنبياء»

عن أبي هريرة، قال: بينما يهوديّ يَعْرِضُ سِلعَةً له أُعْطِي بها شيئاً كرهه ـ أو لم يرضَهُ ـ قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البَشَر! قال: فسمعه رجل من الأنصار فلَطَمَ وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى

ومن باب: قول النبيِّ ﷺ: «لا تُخيِّرُوا بين الأنبياء»

أي: لا تقولوا فلانٌ خيرٌ من فلان، وفي الرواية الأخرى: «لا تفضلوا» أي: لا تقولوا فلانٌ أفضل من فلان. يُقال: خَيَّر فلان بين فلان وفلان. وفضَّل ـ مشدَّداً ـ: إذا قال ذلك. واختلف العلماء في تأويل هذا الحديث على أقوال، فمنهم من قال: إن هذا كان قبل أن يُوحى إليه بالتفضيل، ويتضمَّن هذا الكلام: أن الحديث معارض لقوله تعالي: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [1]. ولما في معنى ذلك من الأحاديث، وأن القرآن ناسخٌ للمنع من التفضيل، وهذا لا يصحُّ حتى تتحقَّق المعارضة حيث لا يُمكن الجمع بوجه، وحتى يُعْرَف التاريخ، وكلُّ ذلك غير صحيح على ما يأتي، فليس هذا القول بصحيح. ومنهم من قال: إنما قال ذلك النبيُّ ﷺ على جهة التواضع، والأدب مع الأنبياء، وهذا فيه بُعدٌ؛ لأن السبب الذي خرجَ عليه هذا النهي يقتضي خلافَ ذلك، فرنه إنما قال ذلك ردعاً وأجراً للذي فضَّل. ألا ترى أنه قد غضبَ عليه حتى احمرَّ وجهه، ونهى عن ذلك، فدلَّ على أن التفضيلَ يحرمُ. ولو كانَ من باب الأدب والتواضع لَما صدرَ منه ذلك. ومنهم من قال: إنما نهى عن الخوض في ذلك؛ لأن ذلك ذريعةٌ إلى الجدال في ذلك. ومنهم من قال: إنما نهى عن الخوض في ذلك؛ لأن ذلك ذريعةٌ إلى الجدال في ذلك، فَيؤَدي إلى أن يذكرَ منهم ما لا ينبغي أن يذكرَ، ويقلَّ احترامهم عند المماراة، وهذا كما نُهي عنه من الجدال في القرآن والمماراة. ومنهم من قال: مقتضى هذا النهي: رنما هو المنع من تفضيل معيَّنٍ من الأنبياء على مُعيَّن، أو على ما يُقصد به معيَّن، وإن كان اللفظ عامّاً؛ لأن ذلك قد يُفهم منه نقص في المفضول كما بيَّناه، فيما تقدَّم.

---

(1) سورة البقرة الآية 253

موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إنَّ لي ذِمَّةً وعهداً، وقال: فلان لَطَمَ وجهي. فقال رسول الله ﷺ: سلم لَطَمْتَ وَجهَهُ؟».

قال: قال: يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا! قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرف الغضبُ في

قال الشيخ رحمه الله: ويدلُّ على ذلك: أنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث في الأم: «لا تفضلوني على موسى»، وبدليل قوله: «لا وأقول إن أحداً أفضل من يونس من متى». فإن قيل: فالحديث يدلُّ على خلاف هذا، فإن اليهودي فضَّل موسى البشر، والمسلم قال: والذي اصطفى محمداً على البشر. وعند ذلك قال النبيُّ ﷺ: «لا تفضلوا بين الأنبياء، ولا تُخيروا بين الأنبياء» فاقتضى ذلك المنع من التفضيل مطلقاً معيناً وغير معين، فالجواب: أن مراد اليهوديِّ كان اذ ذاك أن يصرِّحَ بأن موسى أفضل من محمَّد، لكنَّه لم يقدر على ذلك خوفاً على نفسه، ألا ترى أن المسلم فهم ذلك عنه، فأجابه بما يقتضي أن محمداً أفضلُ من موسى، غير أنَّه قابل لفظَ اليهودي بمثله، وقد بيَّن ذلك غاية البيان قوله ﷺ: «لا تفضلوني على موسى» فنهاهم عن ذلك، ثم إنا قد وجدنا نبيَّنا ﷺ قال: «أنا أكرمُ ولد آدم على ربِّي»، و«أنا سيد ولد آدم» ولم يذهب أحدٌ من العلماد إلى أن هذا منسوخ، ولا مرجوح.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا الوجه وإن كان حَسَناً، فأولى منه أن يُحملَ الحديث على ظاهره من منع إطلاق لفظ التفضيل بين الأنبياء، فلا يجوز في المعين فيهم، ولا غيرهم، ولا يُقال: فلان النبي أفضل من الأنبياء كلهم، ولا من فلان، ولا خير، كما هو ظاهر هذا النهي، لما ذُكر من توهُّم النقص في المفضول، وإن كان غير معين؛ ولأنَّ النبوة خصلة واحدةٌ لا تفاضلَ فيها، وإنما تفاضلوا بأمور غيرها كما بيَّناه قَبلَ هذا الباب. ثم إن هذا النهي يقتضي منع إطلاق ذلك اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله تعالى قد أخبرنا بأن الرسل مُتفاضلون كما قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[1].

---

(1) سورة البقرة الآية 253

وجهه، قم قال: «لا تُفَضِّلُوا بين أنبياء الله؛ فإنه يُنفَخ في الصُّور فيَصْعَقُ من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه. قال: ثم ينفَخُ فيه أُخرى فأكونُ أولَ من يُبعث ـ أو: في أول من يبعث ـ» .....

وكما قد علمنا أن نبينا ﷺ قد خصَّ بخصائص من الكرامات والفضائل بما لم يُخصَّ به أحدٌ منهم، ومع ذلك فلا نقول: نبيُّنا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبيِّ اجتناباً لما نهى عنه، وتأدُّباً بأدبه، وعملاً باعتقاد ما تضمنه القران من التفصيل، ورفعاً لما يُتوهم من المعارضة بين السنَّة والتنزيل.

و(قوله «إنه يُنفخ في الصور فَيَصْعَقُ مَنْ في السموات ومن في الأرض إلا من شَاء الله») أصل الصعق والصَّعْقة: الصوت الشديد المنكر، كصوت الرعد، وصوت الحمار، وقد يكون معه موت لشدَّته. وهو المراد بقوله: ﴿**فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ**﴾ [1]، وقد تكون معه فشية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ [2]، فإن كان معه نار فهو الصاعقة. والعرب كلُّها تقدم العين على القاف إلا بني تميم؛ فإنهم يُقدِّمون القاف على العين، فيقولون: الصاعقة، حكاها القاضي عياض. وقد اختُلف في المستثنى: مَنْ هو؟ فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: الشهداء. والصحيح: أنه لم يرد في تعيينهم خبرٌ صحيح، والكل محتملٌ، والله أعلم.

و(الصُّور) قيل: إنه جمع صورة، والصحيح ما قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الصُّور قرن يُنفخ فيه» وسيأتي له مزيد بيان. واختُلف في عدد النفخات، فقيل: ثلاثة: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث. وقيل: هما نفختان: نفخة الفزع هي نفخة الصعق؛ لأن الأمرين لازمان لها. والله تعالى أعلم.

و(قوله: «ثم يُنفخ فيه أخرى، فأكون أوَّل من يُبعث، أو: من أول من يُبعث») هذا شكٌّ من الزاوي تُزيله الزَّاوية الأخرى التي قال فيها: «فأكونُ أوَّلَ من يفيق»، وكذلك الحديث المتقدِّم الذي قال فيه: «أنا أوَّلُ من ينشقُّ عنه القبرُ ويُبعث». يعني به:

---

(1) سورة الزمر الآية 68
(2) سورة الأعراف الآية 143

وفي روايةٍ: «أول من يُفيقُ - من غير شك - فإذا موسى آخذٌ بالعرش، فلا أدري أحُوسب بصعقته يومَ الطّفورِ أو بُعثَ قبلي! ولا أقولُ: إن أحداً أفضلُ من يونُس بنِ متَّى عليه السلام».

يحيا بعد موته، وهو الذي عبَّر عنه في الرواية الأخرى بـ(أفيق)، وإن كان المعروف: أن الإفاقة إنما هي من الغشية، والبعث من الموت، لكنهما لتقارب معناهما أطلقَ أحدهما مكان الآخر، ويحتمل أن يُراد بالبعث الإفاقة على ما يأتي بعد هذا إن ساد الله تعالى.

و(قوله: «فإذا موسى متعلِّق بساق العرش») هذا من موسى تعلُّق فزع لهول المطلع، وكأنه متحرِّمٌ بذلك المحل الشريف، ومتمسك بالفضل المنيف.

و(قوله: «فلا أدري أحوسب بصعقة الطور، أو بُعث قبلي») هذا مشكل بالمعلوم من الأحاديث الدَّالة على أن موسى - عليه السلام -، قد توفِّي وأن النبيَّ ﷺ قد رآه في قبره، وبأن المعلومَ المتواتر: أنه توفي بعد أن ظهرَ دينُه، وكثرت أمته، ودُفن بالأرض. ووجه الإشكال: أن نفخة الصَّعْق إنما يموتُ بها من كان حيًّا في هذه الدار، فأما من مات فيستحيلُ أن يموتَ مرة أخرى؛ لأن الحاصلَ لا يُستحصل، ولا يُبتغى؛ وإنما ينفخ في الموتى نفخة البعث، وموسى قد ماتَ، فلا يصحُّ أن يموتَ مرَّة أخرى، ولا يصحُّ أن يكون مستثنىً ممن صُعق؛ لأن المُسْتَثْنَيين أحياء لم يموتوا، ولا يموتون، فلا يصحُّ استثناؤهم من الموتى. وقد رامَ بعضهم الانفصال عن هذا الرشكال، فقال: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمتْ من الأنبياء، وهذا قول باطلٌ بما ذكرناه. قال القاضي عياض: يحتمل أن المراد بهذه الصعقة: صعقة فزعٍ بعد النشر حين تنشق السموات والأرضون، قال: فتستقل الأحاديث والآيات.

قال الشيخ رحمه الله: وهذه عفلةٌ عن مساق الحديث؛ فإنه يدلُّ على بطلان ما ذُكر دلالةً واضحةً، فإن النبيَّ ﷺ قال: إنه حين يخرجُ من القبر فيلقى موسى، وهو متُعلِّق بالعرش، وهذا كان عند نفخة البعث. ثم إن النبيَّ ﷺ عندما يرى موسى يقع له تردُّد في موسى على ظاهر هذا الحديث، هل مات عند نفخة الصَّعْق المتقدمة على نفخة البعث، فيكون قد بُعث قبلَه، أو لم يمت عند نفخة الصَّعْق لأجل الصعقة التي صُعقها على الطور، جعلت له تلك عوضا من هذه، وعلى هذا فكانَ حياً حالةَ نفخة الصَّعق، ولم يُصعق، ولم يمت، وحينئذ يبقى الإشكال إذ لم يحصل عنه انفصال.

وفي رواية: يفلا أردي أكان فيمن صُعِقَ فأفاقَ قبلي أم كان ممن استثنى اللهُ عزَّ وجلَّ».

رواه البخاريّ ومسلم وأبو داود والترمذيُّ.

* * *

قال الشيخ رحمه الله: والذي يُزيحه ـ إن شاد الله تعالى ـ أن يُقال: إن الموت ليس بعدم، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدَّم، ويدلُّ على ذلك أن الشهداءَ بعد قتلهم وموتهم أحياءٌ عند ربهم يُرزقون فرحين مستبشرين، فهذه صفات الأحياء في الدُّنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحقَّ وأولى، مع أنه قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ: «أن الأرض لا تأكلُ أجسادَ الأنبياء»[1]، وأن النبيَّ ﷺ قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء، وخصوصاً بموسى ـ عليه السلام ـ. وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ بما يقتضي أن الله تعالى يردّ عليه روحَه حتى يردَّ السلام على كلِّ مَن يُسلِّم عليه[2] إلى غير ذلك ممَّا ورد في هذا المعنى، وهو كثيرٌ بحيث يحصلُ من جملته القطعُ بأنَّ صوت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غُيِّبوا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم موجودون أحياء، ولا يراهم أحدٌ من نوعنا إلا من خصَّه الله بكرامة من أوليائه. وإذا تقرَّر أنهم أحياء فهم فيما بين السماء والأرض ـ فإذا نُفخ في الصور نفخةُ الصعق صعق كلُّ مَن في السموات والأرض ـ إلا من شاء الله، فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء، فالأظهر أنه غشيةٌ، فإذا فإذا نفخ في الصور نفخة البعث ممن مات حيي ومن غشي عليه أفاق. ولذاك قال ﷺ: «فأكون أول من يفيق» وهي روايةٌ صحيحة وحسنة. فهذا الذي ظهر لي، والحمد لله. وقد تحصَّل من هذا الحديث: أنَّ نبينا محمداً ﷺ مُحَقَّقٌ أنه أول من يفيق، وأول من يخرج من قبره قبل الناس كلِّهم، الأنبياء وغيرهم؛ إلا موسى ـ عليه السلام ـ فإنه حصل له فيه تردُّد: هل بُعث قبله، أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخ الصعق؟ وعلى أيِّ الحالين كان فهي فصيلةٌ عظيمةٌ لموسى ـ عليه السلام ـ ليست لغيره، والله تعالى أعلم.

* * *

---

(1) رواه أبو داود (1047)، والنسائي (3/91)، وابن ماجه (1636)

(2) رواه أحمد (2/527)، وأبو داود (2041) بلفظ: «ما من أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتي أردَّ عليه السلام».

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما

باب فضائل أبي بكر الصديق واستخلافه – رضي الله عنه –

عن أبي بكر الصِّديق؛ قال: نَظَرتُ إلى أقْدام المشركين على رؤوسنا ونحنُ في الغار؛ يا رسول الله ! لو أنَّ أحَدَهم نظر إلى قدميه أبْصَرنا تحت قدميه ! فقال رسول الله ﷺ: "يا أبا بكر ! ما ظنُّك باثنين الله ثالثُهما".

ومن باب[1]: فضائل أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –

واسمه عبد الله بن عثمانَ بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة بن كعب بن لؤي. يجتمعُ نسبُه مع نسب رسولِ الله ﷺ في مرَّة بن كعب، وسمَّاه رسولُ الله ﷺ بالصِّدِّيق، رواه عنه عليُّ بن أبي طالب – رضي الله عنه –، وسمَّاه لذلك لكثرة تصديقه، ويُسمَّى بعتيق، وفي تسميته بذلك ثلاثةُ أقوال:

أحدهما: أن النبيَّ ﷺ قال: "من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظرْ إلى أبي بكر" روته عائشة.

والثاني: أنه اسمٌ به أمُّه، قاله موسى بن طلحة.

والثالث: أنه سمّي به لجمال وجهه.

وهو أول من أسلم من الرجال، وقد أسلم على يديه من العشرة المشهود لهم بالجنة خمسةٌ: عثمان، وطلحة، والزُّبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص – رضي الله عنهم –.

---

(1) – يلاحظ أن النسخة العثمانية وهي المجهولة الاسم التي اعتمد عليها العلماء الأربعة والتي يرجع تاريخ نسخها إلى سنة 724. هذه المجهولة يسمى الفصل بالكتاب وليس بالباب...

.....

قال الإمامُ الحافظ أبو الفرج الجوزي: جملةُ ما حُفظ له من الحديث عن رسول الله ﷺ مئة واثنان وأربعون حديثاً، أخرج له منها في الصَّحيحين ثمانية عشر حديثاً.

قال الشيخ رحمه الله: ومن المعلوم القطعيّ، واليقين الضروريّ أنه حفظ من حديث رسول الله ﷺ ما لم يحفظْ أحدٌ من الصحابة، وحصل له مه العلم ما لم يحصلْ لأحد منهم؛ لأنه كان الخليلَ المباطن، والصَّفيَّ الملازم، لم يفارقْه سفراً ولا حضَراً، ولا ليلاً ولا نهاراً، ولا شدَّة ولا رخاءً، وإنما لم يتفرّغ للحديث، ولا للرواية؛ لأنه اشتغل بالأهمِّ فالأهمّ، ولأنَّ غيره قد قام عنه من الرواية بالمهمُ، وإذا تقرَّرَ ذلك فاعلمْ: أنَّ الفضائلَ جَمْعُ فضيلة، كرغائب جمع رغيبة، وكبائر جمع كبيرة، وهو كثيرٌ، وأصلُها الخَصْلةُ الجميلةُ التي بها يحصل للإنسان شرفٌ، وعلوٌّ منزلة وقدر ــ ثم ذلك الشَّرف، وذلك الفضل إما عند الخَلْق، وإما عند الخالق، فأمَّا الأول: فلا يُلتفتُ إليه إن لم يوصلْ إلى الشرف المعتبر عند الخالق. فإذاً: الشَّرف المعتبر، والفضْلُ المطلوبُ على التحقيق، وإنما هو الذي هو شرفٌ عند الله تعالى. وإذا تقرر هذا فإذا قلنا إنَّ أحداً من الصَّحابة — رضي الله عنهم — فاضل، فمعناه أن له منزلةٌ شريفةٌ عند الله تعالى، وهذا لا يتوصَّلُ إليه بالعقل قطعاً، فلابدَّ أن يرجعَ ذلك إلى النقل، والنقلُ إنما يُتلقَّى من الرسول ﷺ فإذا أخبرنا الرَّسولُ ﷺ بشيء من ذلك تلقَّيناه بالقبول، فإن كان قطعياً حصل لنا المعلمُ بذلك، وإن لم يكن قطعياً كان ذلك كسبيل المجتَهَدات على ما تقدَّم، وعلى ما ذكرناه في الأصول، وإذا لم يكن لنا طريقٌ إلى معرفة ذلك إلاّ بالخبر، فلا يقطع أحدٌ بأن من صدرتْ منه أفعالٌ دينيَّةٌ وخصالٌ محمودةٌ، بأنَّ ذلك قد بلَّغه عند الله

.....

مترلةَ الفضل والشَّرف؛ فإن ذلك أمرٌ غيب، والأعمال بالخواتيم،والخاتمة مجهولة، والوقوفُ على المجهول مجهول، لكنَّا إذا رأينا مَن أعانه الله على الخير، ويسَّر له أسبابَ الخير رَجَونا له حصولَ تلك المترلة عند الله تمسُّكاً بقوله ﷺ: "إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في الخير، ووفَّقه لعملٍ صالح". وبما جاء في الشريعة من ذلك، ومَن كان كذلك: فالظَّنُّ أنه لا يُخيب، - ولا يقطع على المغيب، وإذا تقرَّر هذا فالمقطوعُ بفضله، وأفضليته بعد رسول الله ﷺ عند أهل السُّنَّة – وهو الذي يقطعُ به من الكتاب والسُّنَّة– أبو بكر الصّديق ثم عمر الفاروق، ولم يختلفْ في ذلك أحدٌ من أئمة السَّلف، ولا الخلف، ولا مبالاةً بأقوال أهل الشيع، ولا أهل البِدَاء، فإنَّهم نبين مُكفَّر تُضْربُ رقبته، وبين مبتدع مُفسَّق لا تُقبل كلمتُه، وتدحض حُجَّتُه.

وقد اختلف أئمة أهل السنَّة في عليّ وعثمان – رضي الله عنهما – فالجمهور منهم على تقديم عثمان، وقد رُوي عن مالك أنه توقَّف في ذلك، ورُوي عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور، وهو الأصحُّ إن شاء الله، والمسألةُ اجتهاديّة لا قطعية، ومستندُها الكلّيُّ أنَّ هؤلاء الأربعة: هم الذين اختارهم الله تعالى لخلافة نبيِّه، ولإقامة دينه، فمراتبُهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة، إلى ما ينضافُ إلى ذلك بما يشهدُ لكلٍّ واحد منهم من شهادات النبيّ ﷺ له بذلك تأصيلاً وتفصيلاً، على ما يأتي إنْ شاء الله تعالى. وهذا البابُ بحرٌ لا يُدرك قَعْره، ولا يُترف غمره، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفّق للهداية.

و(قول أبي بكر – رضي الله عنه -: نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار) كان من قصته: أنَّ المشركين اجتمعوا لقَتْل رسول

رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذيّ.

الله ﷺ فبيَّتوه في داره، فأمر عليّاً فرقد على فراشه، وقال له: "إنَّهم لن يضرُّوك"، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ وهم على بابه، فأخذ الله أبصارَهُم عنه، ولم يَرَوْهُ، ووضع على رأس كلِّ واحد منهم تُراباً، وانصرف عنهم خارجاً إلى غار ثور، فاختفى فيه، فأقاموا كذلك حتى أخبرهم مُخْبِرٌ؛ أنه قد خرج عليهم، وأنه وضَع على رؤوسهم التراب، فمدُّوا أيديَهم إلى رؤوسهم فوجدوا التراب، فدخلوا الدَّار، فوجدوا عليّاً على الفراش، فلم يتعرَّضوا له، ثم خرجوا في كلِّ وجه يطلبون النبيَّ ﷺ ويقتصُّون أثره بقائف[1] كان معروفاً عندهم، إلى أن وصلوا إلى الغار، فوجدوه قد نسجتْ عليه العنكبوتُ من حينه، وفرَّخت فيه الحمامُ بقدرة الله تعالى، فلما رأوا ذلك قالوا: إنَّ هذا الغار ما دخله أحدٌ، ثم إنَّهم صَعِدوا إلى أعلى الغار، فحينئذ رأى أبو بكر — رضي الله عنه — أقدامَهم، فقال بلسان مقاله مُفْصحاً عن ضَعْف حاله: لو نظر أحدُهم إلى قَدَمَيه أبصرنا، فأجابه مَن تدلَّى فَدنا بما يُذْهبُ عنه الخوف والضَّنى بقوله: ﴿لاَ تَحزَنْ إنَّ الله مَعَنَا﴾[2] أي: بالحفْظ والسَّلامة، والصَّوْن والكرامة. ثم إن النبيَّ ﷺ أقام في الغار ثلاثة أيام حتى تجهَّز. ومنه هاجر إلى المدينة، وكلٌّ ذلك من النبيّ ﷺ ثقةٌ بوعد الله تعالى، وتوكُّلٌ، ودليلٌ على خصوصيَّة أبي بكر من الخلَّة، وملازمة الصُّحبة في أوقات الشدَّة بما لم يُسْبَقْ إليه.

و(قوله ﷺ: "عَبْدٌ خيَّره الله تعالى بين أن يؤتيه زهرةَ الدُّنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده") هذا قولٌ فيه إبهام، قصدَ به النبيّ ﷺ اختبارَ أفهام أصحابه، وكيفية تعلُّق قلوبهم به، فظهر أن أبا بكر كان عنده من ذلك ما

---

[1]— "القائف": من يعرف الآثار ويتتبعها. ومَن يعرف النَّسَب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود.

[2]— سورة التوبة، الآية 40.

وعن أبي سعيد: أنَّ رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: "عَبْدٌ خيَّرهُ الله بين أن يؤتيه زهرة الدُّنيا وبين ما عندَه، فاختار ما عنده". فبكى أبو بكر، وبكى! فقال: فديناك بآبائنا وأمَّهاتنا ! قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلَمَنا به. وقال رسول الله ﷺ: "إنَّ أمَنَّ النَّاس عليَّ في ماله وصحبته أبو بكر، ولم كنتُ متخذاً خليلاً لاتَّخذْتُ أبا بكر خليلاً، ولكنْ أخُوَّةُ الإسلام، لا تُبْقَيَنَّ في المسجد خوخةٌ إلا خوخةَ أبي بكر !".

لم يكنْ عند أحد منهم، ولَّما فهم من ذلك ما لم يفهموا بادر بقوله: فَدَيْناك بآبائنا وأمَّهاتنا، ولذلك قالوا: فكان أبو بكر أعْلَمَنا. وهذا يدلُّ من أبي بكر — رضي الله عنه — على أنَّ قَلْبَه ممتلئٌ محبة رسول الله ﷺ ومستغرقٌ عنه، وشديدٌ الاعتناء بأموره كلِّها من أقواله وأحواله بحيث لا يشاركه أحدٌ منهم في ذلك. ولما علم النبيّ ﷺ ذلك منه، صدر منه في ذلك الوقت ذلك الفهمُ عنه اختصَّه بالخصوصيَّة العُظمى التي لم يظفر بمثلها بشريٌّ في الأولى ولا في الآخرة. فقال: "إن أمنَّ النَّاس عليَّ في صُحَبته ومال أبو بكر، ولم كنتُ مُتَّخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، فقد تضمّن هذا الكلام: أنَّ لأبي بكَرٍ من الفضائل، والحقوق ما لا يشاركه فيها مخلوق. ووَزْنُ أمنّ: أفعل، من المَنَّة بمعنى الامتنان، أي: أكثر منَّةً، ومعناه أنَّ أبا بكر — رضي الله عنه — له من الحقوق ما لو كانتْ لغيره لا متنَّ بها، وذلك: أنه — رضي الله عنه — بادر النبيَّ ﷺ بالتَّصديق، والناسُ كلُّهم مُكذِّبون، وبنفقة الأموال العظيمة، والناسُ يبخلون، وبالملازمة والمصاحبة، والناسُ ينفرون، وهو مع ذلك بانشراح صدره، ورسوخ علمه يعلمُ: أنَّ لله ولرسوله الفضل والإحسان، والمنَّة والامتنان، لكن النبيّ ﷺ بكرم خُلُقه, وجميل معاشرته اعترف بالفَضْل لمن صَدَر عنه،

رواه أحمد، والبخاريّ، ومسلم.

وعن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: "لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكن أخي وصاحبي، وقد اتخذَ الله عزَّ وجلَّ صاحِبَكُم خليلاً".

وشكر الصَّنيعة لمن وُجِدَتْ منه، عملاً بشكر المنعم، ليَسُنَّ، وليعلِّم، وهذا مثل ما جرى له يوم حُنين مع الأنصار، حيث جَمَعَهُم فذكَّرهم بما لَهُ عليهم من المَنَن، ثم اعترف لهم بما لهم من الفَضْل الجميل الحسن، وقد تقدم في الزَّكاة. وقد ذكر الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: "ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه عليها ما خلا أبا بكر؛ فإنَّ له عندنا يداً يكافئه الله تعالى بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ كما نفعني مالُ أبي بكر..." وذكر الحديث، وقال: هو حسن غريب.

وقوله: "ولو كنتُ متَّخذاً خليلاً، لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً") متَّخذاً: اسم فاعل من اتَّخذ، وهو فعلٌ يتعدَّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف الجر، فيكون بمعنى: اختار واصْطفى، كما قال: ﴿واتَخَذَ قوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِه مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ﴾[1] وقد سكت هنا عن أحد مفعوليها، وهو الذي دخل عليه حرفُ الجرِّ؛ فكأنه قال: لو كنتُ متَّخذاً من النَّاس خليلاً لاتخذتُ منهم أبا بكر. ولِبَسْط الكلام في ذلك علم النحو، وحاصلُه: أنَّ (اتَّخذ) استعملت على ثلاثة أنحاء، أحدهما: تتعدَّى لمفعولين بنفسها. وثانيها: تتعدَّى لأحدهما بحرف الجرِّ. وثالثها: تتعدَّى لمفعول واحد، وكلُّ ذلك موجودٌ في القرآن، ومعنى هذا الحديث: أنَّ أبا بكر — رضي الله عنه — كان قد تأهَّل لأن يتَّخذه النبيُّ ﷺ خليلاً، لولا المانعُ

---

[1]— سورة الأعراف، الآية 138.

وفي رواية: "ألا إنّي أبرأُ إلى كُلِّ خليل من خِلّه، ولو كنت... وذكر نحوه".

الذي منع النبيَّ ﷺ وهو أنه لما امتلأ قلبُه بما تخلَّله من معرفة الله تعالى، ومحبَّته، ومُراقبته، حتى كأنه مُزجتْ أجزاءُ قلبه بذلك، لم يتَّسعْ قلبُه لخليلٍ آخر يكون كذلك فيه، وعلى هذا فلا يكون الخليلُ إلا واحداً، ومَن لم ينته إلى ذلك ممن تعلَّق القلبُ به فهو حبيبٌ؛ ولذلك أثبت لأبي بكر وعائشة – رضي الله عنهما – أنَّهما أحبُّ الناس إليه، ونفى عنهما الخلَّة، وعلى هذا فالخلَّة أعلى، تمسُّكاً بما ذكرناه، وهو مُتمسَّكٌ قويٌّ ظاهر، وذهب أبو بكر بن فُورَك[1]: إلى أنَّ المحبة أعلى، واستدلَّ على ذلك: بأن الاسمَ الخاصَّ بمحمد ﷺ: الحبيب، وبإبراهيم: الخليل. ودرجةُ نبيِّنا ﷺ أرفع، بالمحبةُ أرفع. وقد ذكر القاضي عِياض هذه المسألة في كتاب "الشفا" واستوفى فيها البحث، فلْتُنْظَر هناك، وقد ذكرنا اختلافَ الناس في الخلة في كتاب الإيمان.

و(قول: "إلا إني أبرأ إلى كُلِّ خليلٍ من خلَّته") الرواية المعروفة: بكسر الخاء من خلَّة. قال القاضي: والصَّواب – إن شاء الله – فتحها، والخَلَّة، والخلُّ، والمخالفة، والمخالَّة، والخلالة، والخلولة: الإخاء والصَّداقة.

قال الشيخ رحمه الله: يعني: أن خلَّة في الأصل: هي مصدر، ومصادر هذا الباب: هي التي ذكروها، وليس فيها ما يقال: بكسر الخاء، فتعين الفتح فيها، ومعنى هذا الكلام: قد جاء بلفظ آخر يفسره فقال: "إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل". وهذا واضح.

---

[1]– هو محمد بن الحسن بن فُورَك، أبو بكر: واعظ، عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. من كتبه: "مشكل الحديث وغريبه". توفي سنة (406 هـ).

رواه أحمد، ومسلم، والترمذيّ، وابن ماجه.

وعن عمرو بن العاص: أنَّ رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: "عائشة". قلت: منَ الرِّجال؟ قال: "أبوها". قلت: ثمَّ مَنْ؟ قال: "عمر". فعدَّ رجالاً.

رواه أحمد، والبخاريّ، ومسلم، والترمذيّ.

و(قوله: "وقد اتَّخذ الله صاحبكم خليلاً" في غير كتاب مسلم: "كما اتخذ إبراهيم خليلاً") وهذا يدلُّ على أنَّ الله تعالى بلَّغ درجة نبيِّنا ﷺ في الخلة بإبراهيم – عليه السلام – غير أنَّه مكَّنه فيها ما لم يمكّن إبراهيم فيها، بدليل قول إبراهيم: "إنما كنت خليلاً من وراءَ وراءَ" كما تقدَّم في الإيمان.

و(قوله: "لا تُبقَيَنَّ في المسجد خوخةٌ إلا خوخة أبي بكر") الخَوْخَةُ – بفتح الخاء المعجمة –: بابٌ صغير بين مسكنَيْن، وكان أصحابُ النبيّ ﷺ قد فتحوا بين مساكنهم وبين المسجد خوخات اغتناماً لملازمة المسجد، وللكون فيه مع النبيِّ ﷺ إذ كان في غالباً؛ إلاَّ أنه لما كان ذلك يؤدِّي إلى اتخاذ المسجد طريقاً، أمَرَ النبيُّ بسدِّ كلّ خوخة كانتْ هنالك، واستثنى خوخةَ أبي بكر – رضي الله عنه – إكراماً له، وخصوصيَّة به؛ لأنَّهما كانا لا يفترقان غالباً، وقد استدلَّ بهذا الحديث على صحَّة إمامته، واستخلافه للصلاة، وعلى خلافته بَعْدَه.

و(قوله: مَن أحبَّ الناس إليك؟) هذا السُّؤالُ: أخرجه الحرصُ على معرفة الأحبّ إليه؛ ليقتديَ به في ذلك، فيحبّ ما أحب؛ فإن المرء مع من أحب.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ أصبحَ منكُم اليومَ صائماً؟" قال أبو بكر: أنا. قال: "فَمَنْ تَبِعَ منكمُ اليومَ جنازةً؟" قال أبو بكر: أنا. قال: "فَمَن أطعم منكُم اليومَ مسكيناً؟" قال أبو بكر: أنا. قال: "فَمَنْ عادَ منكم اليوم مريضا؟" قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: "ما اجْتَمَعْنَ في امرئٍ إلا دخل الجنَّة".

و(قوله في الجواب: "عائشة") يدلُّ على جواز ذِكْر مثل ذلك، وأنه لا يُعابُ على مَن ذكره إذا كان المقولُ له من أهل الخير والدّين، ويقصدُ بذلك مقاصدَ الصَّالحين، وإنما بدأ النبيُّ ﷺ بذكر محبة عائشة أولا؛ لأنها محبَّةٌ جبليَّة ودينية، وغيرها دينيَّة لا جبلِّية، فسبق الأصليُّ على الطَّارئ.

و(قوله: "ثم أبو بكر، ثم عمر") يدلُّ على: تفاوت ما بينهما في الرُّتبة والفضيلة، وهو يدلُّ على صحَّة ما ذهب إليه أهل السُّنَّة.

و(قوله: "من أصبح منكم اليوم صائما؟" قال أبو بكر: أنا... الحديث) يدلُّ على: ما كان النبيُّ ﷺ عليه من التفقُّد لأحوال أصحابه، وإرشادهم إلى فِعْل الخير على اختلاف أنواعه، وعلى ما كان عليه أبو بكر من الحرْص على فِعْل جميع أنواع الطَّاعات، وتتبُّعه أبوابها، واغتنام أوقاتها، وكأنه ما كان له هَمٌّ إلا في طَلَب ذلك، والسَّعي في تحصيل ثوابه.

و(قوله: "ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة") ظاهرُه: أنَّ من اجتمع له فِعْلُ هذه الأبواب في يوم واحد دخل الجنَّة؛ فإنه قال فيها كلِّها: اليوم، اليوم، ولما أخبره أبو بكر — رضيَ الله عنه — أنه فَعَل تلك الأمورَ كلِّها في ذلك اليوم بشَّره بأنه من أهل الجنة لأجل تلك الأمور، والمرجوّ من كَرَم الله تعالى أن مَن اجتمعت له تلك الأعمالُ في عمره، وإن لم تجتمعْ في يوم واحدٍ أن يُدْخِلَه الله الجنَّة بفضْله، ووعده الصَّادق.

رواه مسلم.

وعنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "بينما رجلٌ يسوق بقرةً له قد حَمَل عليها؛ التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخْلَقْ لهذَا، ولكنِّي إنَّما خُلقتُ للحَرْث". فقال الناس: سبحان الله – تعجُّباً وفَزَعاً – أبقرةٌ تكلَّمُ؟! فقال رسول الله ﷺ: "فإنِّي أُومنُ به، وأبو بكر، وعمر". فقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: "بينا راعٍ في غنمه، عدا عليه الذئبُ فأخذ منها شاةً، فطلبهُ الراعي حتى استنقذها منه، فالتفتَ إليه الذئب، فقال: من لها يوم السَّبُع؛ يوم ليس لها راعٍ غيري؟" فقال الناس: سبحان الله ! فقال رسول الله ﷺ: "فإني، أومن بذلك أنا، وأبو بكر، وعمرُ".

و(قوله البقرة للَّذي حَمَل عليها: إنِّي لم أُخْلقْ لهذا، إنَّما خُلقْتً للحَرْث) دليلٌ: على أنَّ البقرةَ لا يُحمَلُ عليها ولَا تُرْكَب، وإنما هي للحرث، وللأكل، والنسل، والرِّسْلِ[1]. وفيه ما يدلُّ على وقوع خَرْق العوائد، على جهة الكرامة، أو على جهة التَّنبيه لمن أراد الله به الاستقامة، وفي ما يدلُّ على علْم النبيّ ﷺ بصحَّة إيمان أبي بكر، وعُمر، ويقينهما، وأنه كان يُترلهما مترلةَ نفسه، ويقطعُ على يقينهما، وهذه خصوصيَّة عظيمة، ودرجة رفيعة.

و(قول الذئب: مَن لها يوم السَّبُع) الرّواية الصَّحيحةُ التي قرأناها وقيَّدناها على مشايخنا بضم الباء لا غير، ومعناه مُفَسَّرٌ بباقي الحديث؛ إذ قال فيه: يوم ليس لها راع غيري، فإنه أبدل (يوم ليس لها راعٍ) من (يوم السَّبُع)، وكأنه قال: مَن يستنقذُ هذه الشاةَ يوم ينفرد السَّبُع بها، ولا يكون متعها راعٍ، ولا يمنعها منه؟ ! وكأنه – والله أعلم – يشير إلى نحو مما تقدَّم في الحجِّ من حديث أبي هريرة مرفوعاً قال: "يتركون المدينة على

---

(1)– أي: اللَّبن.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعن عائشة، وسئلت: من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف؟ قالت: أبو بكر فقيل لها: ثم مَن بَعدَ أبي بكر؟ قالت: عمر. ثم قيل لها: من بعدَ عُمَر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح.

رواه مسلم.

خير ما كانت، لا يغشاها إلا العوافي – يريدُ السِّباع والطير –، ثم يخرجُ راعيان من مُزينة يريدان المدينة، فينعقان بغنمهما، فيجدانها وَحْساً، حتى إذا بلغا ثنيَّةَ الوداع خرَّا على وجوههما". فحاصلُ هذا: أنَّ أهلَ المدينة ينجلون عنها، فلا يبقى فيها إلاّ السِّباع، ويهلك مَن حولها من الرُّعاة فتبقى الغنمُ متوحشّة منفردة، فتأكلُ الذئابُ ما شاءت، وتتركُ ما شاءت، وهذا لم يُسْمَعْ أنَّه وَقَعَ، ولابدَّ من وقوعه. وقد قيَّده بعضُ اللُّغويين بسكون الباء، وليست برواية صحيحة، ولكن اختلف في معنى ذلك على أقوال يطول ذكْرُها، ولا معنى لأكثرها، وأشبهُ ما قيل في ذلك، ما حكاه الحربيُّ، أنَّ سكَون الباء لغةٌ فيه، وقرأ الحسن: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ بسكونها.

و(قول السائل لعائشة – رضي الله عنها –: من كان رسولُ الله ﷺ مُستخلفاً لو استخلف؟) يدلُّ على: أنَّ من المعلوم عندهم أنَّ النبيَّ ﷺ لم يستخلفْ أحداً، وكذلك قال عُمر – رضَي الله عنه – لما طُعن، وقيل له: ألاَ تستخلف؟ فقال: إن أتركهم؛ فقد تركهم رسولُ الله ﷺ، وإن أستخلف فقد استخلفَ أبو بكر – رضي الله عنه – وهذا بمحضر من الصحابة، وعليّ والعباس – رضي الله عنهم – ولم ينكرْ أحدٌ منهم على عمر، ولا ذَكَر أحَدٌ من النَّاس نصّاً باستخلاف على أحد، فكان ذلك دليلاً على كذب من ادَّعى شيئاً من ذلك، إذ العاداتُ تحيلُ أن يكون عندهم نصٌّ على أحدٍ في ذلك الأمر العظيم المهمّ، فيكتموه، مع تصلُّبهم

وعن جبير بن مُطْعِم: أنَّ امرأة سألت رسول الله ﷺ شيئاً، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله ! أرأيت إن جئتُ فلم أجدْكَ؟ - قال أبي: كأنَّها تعني: الموت ! - قال: "فإن لم تجدني فائتي أبا بكرَ".

في الدِّين، وعدم تقيَّتهم، فإنَّهم كانوا لا تأخذهم في الله لومةُ لائم، وكذلك اتّفق لهم عند موت النبيّ ﷺ فإنهم اجتمعوا لذلك، وتفاوضوا فيه مفاوضةَ مَن لا يتَّقي شيئا، ولا يخافُ أحداً، حتى قالت الأنصارُ: منا أميرٌ، ومنكم أمير، ولم يذكر أحدٌ منهم نصّا، ولا ادَّعى أحدٌ منهم أنه نصَّ عليه، ولو كان عندهم من ذلك شيءٌ لكانوا هم أحقَّ بمعرفته، ونقْله، ولما اختلفوا في شيء من ذلك؟ ومن العجب ألاّ يكون عند أحد من هؤلاء نصٌّ على ذلك، ولا يذكره مع قُرْب العهد، وتوفُّر الدِّين والجدّ، ودُعاء الحاجة الشَّديدة إلى ذلك، ويأتي بعدهم بأزمان متطاولة، وأوقات مختلفة، وقلَّة علم، وعَدَم فهم مَن يدَّعي: أن عنده من العلم بالنصّ علىً واحدٍ معين ما لم يكن عند أولئك الملأ الكرام، ولا سُمِعَ منهم. هذا محضُ الكذب الذي لا يقبلُه سليمُ العقل؛ لكن غَلَبةُ التعصُّب والأهواء تُورِّطُ صاحبَها في الظَّلماء، وقد ذهبت الشيعةُ على اختلاف فرقها إلى: أنه نصَّ على خلافة عليٍّ - رضي الله عنه - وذهبت الرَّاوندية إلى أنه نصَّ على خلافة العباس - رضي الله عنه - واختلق كلُّ واحد منهما من الكذب، والزُّور، والبهتان ما لا يرضى به مَن في قلبه حبَّةُ خَرْدَل من الإيمان، وما ذكرناه من عَدَم النّصّ على واحد بعينه هو مذهبُ جمهور أهل السُّنّة من السَّلف والخلَف، لا على أبي بكر، ولا غيره، غير أنَّهم استندوا في استحقاق أبي بكر - رضي الله عنه - للخلافة إلى أصول كليَّة، وقرائن حالية، ومجموع ظواهر جليَّة حصَّلَتْ لهم العلم؛ بأنه أحقُّ بالخلافة، وأوْلى بالإمامة، يعْلم ذلك من استقرأ أخباره، وخصائصه، وسيقعُ التَّنبيهُ على بعضها إن شاء الله تعالى.

رواه أحمد، والبخاريّ، ومسلم.

وعن عائشة، قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ في مرمضه: "ادعي لي أبا بكر أباك، وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإنّي أخاف أن يتمنى مُتمنّ ويقول قائل: أنا أولى به ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر".

و(قوله عائشة – رضي الله عنها – في جواب السَّائل: أبو بكر ثم عمر ثم أبو عبيدة) هذا قالته عن نظرها، وظنّها، لا أنَّ ذلك كان بنصّ عندها عن النبيِّ ﷺ، ولعلها استندتْ في عمر وأبي عبيدة لقول أبي بكر يوم السَّقيفة: رضيتُ لكم أحدَ هذين الرَّجُلَيْن عمر وأبي عُبيدة. وفي حقِّ أبي عبيدة شهادةُ النبيّ ﷺ بأنه أمينُ هذه الأمَّة، ولذلك قال عمر – رضي الله عنه – حين جعل الأمرَ شُورى: لو أنَّ أبا عبيدة حيٌّ لما تخالجني فيه شكٌّ، فلو سألني ربِّي عنه قلتُ: سمعتُ نبيَّكَ يقول: "لكل أمّة أمين، وأمينُنا – أيتها الأمَّة – أبو عبيدة بن الجراح"، ويُفهم من قول عمر وعائشة: جوازُ انعقاد الخلافة للفاضل مع وُجُود الأفضل؛ فإنَّ عثمان وعليّا – رضي الله عنهما – أفضلُ من أبي عُبيدة – رضي الله عنه – بالاتفاق، ومع ذلك فقد حَكَما بصحَّة إمامته عليهما – أن لو كان حيّاً –. وقد اختلفَ العلماءُ في هذه المسألة؛ ومذهبُ الجمهور: إنها تنعقدُ له – أعني للمفضول – وخالف في ذلك: عباد بن سلمان، والجاحظ، فقالا: لا ينعقدُ للمفضول على الفاضل، ولا يعتدُّ بخلافهما لما ذكرنا في الأصول، والصَّحيح: ما ذَهَبَ إليه الجمهور.

و(قوله ﷺ للمرأة: "إن لم تجدني فائتي أبا بكر") زعم مَن لا تحقيقَ عنده منَ المتأخرين: أن هذا نصٌّ على خلافة أبي بكر – رضي الله عنه – وليس كذلك، وإنما يتضمَّن الخبرَ عن أنَّه يكون هو الخليفةُ بعده؛ لكن

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

بأيِّ طريق تنعقدُ له؟ هل بالنصّ عليه، أو بالاجتهاد؟ هذا هو المطلوب، ولم ينصَّ عليه في الحديث وكذلك قولُه ﷺ: "ادعي لي أبا بكر أباك، وأخاك حتى أكتبَ كتاباً..." الحديث إلى قوله: "يأبى الله والمؤمنون: إلا أبا بكر" ليس نصّاً في استخلافه، وإنما يدلُّ على إرادة استخلافه، ولم ينصَّ عليه، ألاَ ترى أنه لم يكتبْ، ولم ينصَّ، والحاصلُ: أنَّ هذه الأحاديثَ ليستْ نصوصاً في ذلك، لكنها ظواهرُ قويَّةٌ إذا انضاف إليها استقراءُ ما في الشَّريعة إليها استقراءُ ما في الشَّريعة ممَّا يدلُّ على ذلك المعنى علم استحقاقه للخلافة، وانعقادها له ضرورةٌ شرعيةٌ، والقادحُ في خلافته مقطوعٌ بخطئه، وتفسيقه. وهل يُكفَّرُ أم لا؟ مُخْتَلَفٌ فيه، والأظهرُ: تكفيرُه لمن استقرأ ما في الشَّريعة، مما يدلُّ على استحقاقه لها، وأنه: أحقُّ وأولى بها، سيما وقد انعقدَ إجماعُ الصَّحابة على ذلك،ولم يَبْقَ منهم مُخالفٌ في شيءٍ ممَّا جرى هنالك. وكانت وفاةُ أبي بكر – رضي الله عنه – على ما قاله ابنُ اسحاق: يوم الجمعة لسبع ليالٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة. وقال غيره: إنه مات عشيَّة يوم الإثنين. وقيل: عشية يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة. هذا قولُ أكثرهم. قال ابن إسحاق: وتوفير على رأس سنتين وثلاثة أشهر واثنتي عشرة ليلة من متوفى رسول الله ﷺوقال غيره: وعشرة أيام. وقيل: وعشرين يوماً. ومكث في خلافته سنتين وثلاثة أشهر إلا خمس ليالٍ. وقيل: وثلاثة أشهر وسبع ليالٍ. واختلف في سبب موته؛ فقال الواقديّ: أنه اغتسلَ في يوم بارد فَحُمَّ، ومرضَ خمسةَ عشر يوماً. وقال الزُّبير بن بكار: كان به طرفٌ من السِّمِّ. ورُوي عن سلام ابن أبي مطيع: أنه سُمَّ. والله أعلم. وقد تقدَّم: أنه مات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

باب فضائل عمرَ بنِ الخطاب

عن ابن عباس، قال: وُضِع عمر بنُ الخطاب على سريره، فتكنَّفَهُ النَّاسُ يَدعُون ويُثْنُون ويُصلُّون عليه قبل أن يُرفعَ، وأنا فيهم. قال: فلم

ومن باب: فضائل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –

ويكنَّى: أبا حفص، وهو ابنُ الخطاب بن نفيل بن عبد العزَّى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، يجتمع نسَبُه مع نسب رسول الله ﷺ في كعب. أسلم سنَة ستّ من النبوَّة. وقيل: سنة خمس بعد أربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة. وقيل: بعد ثلاث وثلاثين رجلاً. وقيل: إنه تمام الأربعين. وسُمِّي الفاروقُ؛ لأنه فرَّق بإظهار إسلامه بين الحقِّ والباطل. وقتال الكفار عليه يوم أسلم، ونزل جبريلُ – عليه السلام – على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ! استَبْشَرَ أهلِ السماء بإسلام عمر. حُفِظ له من الحديث خمسمئة وتسعة وثلاثون حديثاً، أخرج له منها الصحيحين أحدٌ وثمانون حديثاً، توفي – رضي الله عنه – مقتولاً. قتله أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شُعبة، لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، طعنه العلجُ بسكين في يده ذات طرفين، وطَعَن فيه اثني عشر رجلاً، مات منهم تسعة، ثم رمى على العلج رجلٌ من أهل العراق برنساً، فحبسه، فوجأ نفسه، وكانت خلافة عمر – رضي الله عنه – عشر سنين وستة أشهر، وتوفي وهو ابنُ ثلاثٍ وستين سنةٌ كما تقدَّم.

و(قوله: ووُضِع عمر – رضي الله عنه – على سريره، فتكنَّفه النَّاس) يعني: بعد موته وتجهيزه للدَّفن. والسَّرير هنا: هو النَّعش، وتكنَّفه النَّاس:

يَرُعْني إلا برجل قد أخذ بمَنْكِبيْ منْ مرائي، فالتفتُّ؛ فإذا هو عليٌّ، فترحَّم على عمر. وقال: ما خَلَّفْتَ أحداً أحبَّ إليَّ أن ألْقَى الله بمثل عَمَله منكَ، وايمُ الله ! إن كنتُ لأظنُّ أنْ يجعَلَ: الله مع صاحبَيك، وذلك أنِّي كُنْتُ أُكثِّر أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقول: "جئْتُ أنا وأبو بكر وعمرُ، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكرٍ وعُمر" فإنْ كنتُ لأَرْجُو – أو: لأظُنُّ – أن يجعلك الله مَعَهُما.

رواه أحمد، البخاريُّ، ومسلم.

وعن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: "بينا أنا نائمٌ رأيتُ الناسَ يُعرضُون وعليهم قُمُصٌ؛ منها ما يبلغُ الثُّديَّ، ومنها ما يبلغُ دُون

أي صاروا بكنفَيْه. أي: جانبيه. والكنف والكنيف: الجانب. و(يصلُّون عليه) أي: يترحَّمون عليه. و(لم يَرُعْني) أي: يفزعني فينبهني. وأصلُ الرَّوع: الفَزَع.

وهذا الحديثُ ردٌّ من عليٍّ – رضي الله عنه – على الشِّيعة فيما يتقوّلونه عليه من بُغْضه للشيخين، ونسبته إياهما إلى الجَوْر في الإمامة، وأنَّهما غصباه. وهذا كلُّه كذبٌ وافتراءٌ؛ عليٌّ – رضي الله عنه – منه براء. بل المعلومُ من حاله معهما تعظيمه ومحبَّته لهما، واعترافه بالفضل لهما عليه وعلى غيره. وحديثه هذا ينصُّ على هذا المعنى، وقد تقدَّم ثناءُ عليٍّ على أبي بكر – رضي الله عنهما – واعتذاره عن تخلُّفه عن بيعته، وصحَّة مبايعته له، وانقياده له مختاراً طائعاً سرّاً وجهراً، وكذلك فَعَل مع عُمر – رضي الله عنهم أجمعين – وكلُّ ذلك يُكذِّبُ الشيعة والروافضَ في دعواهم، لكن الأهواء والتعصُّب أعماهم.

ذلك، ومرَّ عُمر بنُ الخطاب وعليه قَميصٌ يَجُرُّه". قالوا: ماذا أوَّلتَ ذلك يا رسول الله؟ ! قال: "الدّينَ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيّ.

وعن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: "بينا أنا نائمٌ، إذ رأيتُ قَدحاً أُتيتُ به، فيه لَبَنٌ، فشربتُ منه حتى إنِّي لأرى الرِّيَّ يجري في أظْفَاري، ثمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلي عُمرَ بنَ الخطاب" قالوا: فما أوَّلتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: "العلمَ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

و(قوله: "بينا أنا نائم والنَّاس يعرضون عليَّ... الحديث) هؤلاء النَّاس المعروضون على رسول الله ﷺ في النَّوم هم مَن دون عمر في الفضيلة، فلم يدخل فيهم أبو بكر، ولو عُرِض أبو بكر — رضي الله عنه - عليه في هذه الرواية لكان قميصُه أطوَال، فإنَّ فَضْلَه أعظم، ومقامه أكبر على ما تقدَّم. وتأويل القميص بالدّين مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَلباسُ التَّقْوَى ذَلكَ خَيْرٌ﴾[1] والعربُ تكني عن الفضل والعفاف بالثياب، كما قال شَاعرهم[2]:

ثِيابُ بَني عَوْفٍ طَهارَى نقيَّةٌ .....[3]

وقد قال النبيُّ ﷺ لعثمان — رضي الله عنه -: "إنَّ الله سيلبيك قميصاً، فإن أرادوك أن تخلعَه فلا تخلَعْه". فعبَّر عن الخلافة بالقميص. وهي استعارةٌ حسَنةٌ معروفةٌ. وتأويله ﷺ اللبنَ بالعلم تأويلٌ حسنٌ ظاهر المناسبة؛

---

(1)— سورة الأعراف، الآية 26.

(2)— هو امرؤ القيس.

(3)- عجز البيت: وأوجُهُهُم بيضُ المسافرِ غُرَّانُ. كذا في اللسان. وفي الديوان: وأوجههم عند المشاهد غران.

وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: "أُريتُ كأنِّي أنزعُ بدَلْوِ بَكْرة على قَليب، فجاء أبو بكر فنزعَ ذنوباً أو ذنوبين، فنزع نَزْعاً ضعيفاً، والله — تباركَ وتعالى — يغفر له، ثم جاء عمرُ فاستقى، فاستحالت غَرْباً، فلم أرَ عبقرياً من الناس يَفْري فَرْيَهُ، حتى رويَ الناسُ، وضربوا العطنَ".

وذلك: أنَّ اللبنَ غذاءٌ مُستطابٌ، به صالحُ الأبدان، ونموُّها من أول فطرتها ونشوئها، خلا عن الأضرار والمفاسد. والعلم كذلك يحصلُ به صلاحُ الأديان والأبدان، ومنافع الدُّنيا والآخرة مع استطابته في نفسه. وقد يدلُّ في التعبير على دوام الحياة؛ إذ به كانت. وقد يدلُّ على الثَّواب؛ لأنَّه مذكورٌ في أنهار الجنَّة.

و(قوله ﷺ: "أُريتُ أنِّي أنزعُ في دلوِ بكرة على قليب") أنزع: أستقي. وأصلُ النَّزع: الجذب. والقليب: البئر غير المطويَّة، وهي التي عبَّر عنها في الرِّواية الأخرى بالحوض. والحوض: مجتمعُ الماء. والبكرة: الخشبة المستديرة التي تدورُ بالحبل.

و(قوله: "فجاء أبو بكر فنزعَ ذَنُوباً أو ذَنُوبين فنزعَ وفي نزعه ضَعْفٌ، والله يغفرُ له") الذَّنوب: الدَّلو، والغربُ أكبرُ منها. وقوله: "جنوباً أو ذنوبين" هو شكٌّ من بعض الرُّواة، وقد جاء بغير شكّ: "ذنوبين" في الرواية الأخرى. وهي أحسن. وهذه الرُّؤيا هي مثالٌ لما فتح الله تعالى على يدي النبيّ ﷺ ويدي الخليفتين بعده م الإسلام والبلاد والفيء، فالنبيُّ ﷺ هو مبدأُ الأمر ومُمَكَّنٌ منه، وأبو بكر — رضي الله عنه — بعده، غير أنَّ مقدارَ ما فتح الله على يديه من بلاد الكفر قليل؛ لأنَّ مُدَّةَ خلافته كانت سنتين وثلاثة أشهر؛ اشتغل في معظمها بقتال أهل الرِّدَّة، ثمَّ لما فرغ منها أخَذَ في قتال أهل الكُفْر، ففتح في تلك المدَّة بعض العراق وبضع الشَّام، ثمَّ مات — رضي الله عنه — ففتح الله على يدي عمر — رضي الله عنه —

.....

سائر البلاد، واتَّسعت خطَّةُ الإسلام شرقا وغرباً وشاما، وعظمت الفتوحاتُ، وكثرت الخيراتُ والبركاتُ التي نحن فيها حتَّى اليوم. فعبَّر عن سنتي خلافة أبي بكر – رضي الله عنه – بالذَّنُوبين، وعن قلَّة الفتوحات فيها الضَّعفَ، وليس ذلك وهناً في عزيمته، ولا نقْصاً في فَضْله على ما هو المعروف من همَّته، والموصوف من حالته. وقوله: "والله يغفر له" لا يظنُّ جاهلٌ بحال أبي بكر – رضي الله عنه-: أنَّ هذا الاستغفارَ لأبي بكرٍ كان لذنب صَدَر عنه، أو لتقصير حَصَلَ منه؛ إذ ليس في المنام ما يدلُّ على شيء من ذلك، وإنَّما هذا دعامٌ للكلام، وسنادٌ، وصلةٌ، وقد تقدَّم في الحديث: أنَّها كانت كلمة يقولها المسلمون: افعل كذا والله يغفر لك. وهذا نحو قولهم: تربت يمينُك، وألَّت! وقاتله الله! ونحو ذلك ممَّا تستعمله العربُ في أضعاف كلامها على ما تقدَّم.

و(قوله: "فاستحالتْ في يده غرباً") أي: الدَّلوُ الصَّغيرة عادتْ في يده دلواً كبيرةً.

و(قوله: "فلم أرَ عبقرياً من النَّاس يفري فريه") قال الأصمعيُّ: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن العبقريِّ فقال: يقال: هذا عبقريُّ قومه، كقولهم: سيِّد قومه وكبيرهم وقويُّهم. قال أبو عبيد: وأصله: أنَّه نسبةٌ إلى أرضٍ تسكنها الجن، فصارت مثلاً لكلِّ منسوب لشيءٍ رفيع. ويقال: بل هي أرضٌ يُعمل فيها الوشي والبرود، يُنسب إليها الوشي العبقريُّ ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حسَان﴾ وقال أبو عبيد العبقريّ: الرجل الذي ليس فوقه شيءٌ. ويفري فَرْيَه: الرواية المشهورةُ بكسر الراء وتشديد الباء، وتُروى بتسكين الراء وتخفيف الياء، وأنكر الخليلُ التثقيل، وغلَّط قائله، ومعناه: يعمل عمله، ويقوى قوته، وأصل الفري: القطع.

رواه البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

وفي رواية: "حتى ضرب الناس بعطن".

هذه الرواية من حديث أبي هريرة عند أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: "بينا أنا نائم أُريتُ أنِّي أنزعُ على حوضٍ أسقي النَّأسَ، فجاءني أبو بكرٍ فأخذ الدَّلو من يدي ليُروِّحَني، فنزع دَلْوَين؛ وفي نزعه ضعفٌ، والله يغفر لهُ. فجاء ابنُ الخطَّاب فأخذ منهُ، فلم أرَ نزع رجلٍ قطُّ أقوى منه حتى تولَّى الناسُ؛ والحوضُ ملآن يتَفَجَّرُ".

رواه البخاريُّ، ومسلم.

يقال: فلانٌ يفري الفري، أي: يعمل العمل البالغ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيّاً﴾[1] أي: عظيماً بالغاً في فنّه. يقال: فريت الأديم إذا قطعته على جهة الإصلاح، وأفريته: إذا قطعته على جهة الإفساد.

و(قوله: "حتى روي الناس، وضربوا العطن") رُوي – بكسر الواو وفتح الياء-: فعل ماضٍ، ومضارعه يروَى – بفتح الواو – من الرِّيِّ: وهو الامتلاءُ من الشراب، ومعناه: أنهم رووا في أنفسهم. وضربوا العطن؛ أي: رووا إبلهم، وأصله انهم يسقون الإبل، ثم يعطنونها، أي: يتركونها حول الحياض لتستريح، ثم يعيدون شُرْبَها، يقال منه: عطنت الإبل، فهي عاطنة، وعواطن، وأعطنتها أنا. حكاه ابن الأنباري. وفي الصحاح: عطنت الجلد، أعطنه عطناً، فهو معطون: إذا ألقيته في الماء والملح والعَلْقى[2]

---

[1]– سورة مريم، الآية 27.

[2]– "العلقى": نبت.

وعن جابر، عن النبيّ ﷺ قال: "دخلتُ الجنّة فرأيتُ فيها داراً – أو قصراً- فقلتُ: لمن هذا؟ قالوا: لعمرَ بن الخطاب، فأردتُ أن أدخُلَ، فذكرتُ غَيرتَكَ"، فبكَى عمرُ وقال: أيْ رسول الله ! أو عليكَ يُغارُ؟.

رواه احمد، والبخاري، ومسلم.

ليتفسخ صوفه ويسترخي، وعَطنَ الإهابُ – بالكسر – يَعْطَنُ عَطَناً فهو عَطِنٌ: إذا أنتن وسقط في العطن وقد انعطن. والعَطن والمَعْطِنُ واحدُ الأعطان والمعاطن، وهي مَبَارِكُ الإبل عند الماء لتشربَ عَلَلاً بعد نَهَل، عَطَنَت الإبلُ – بالفتح – تَعْطُن، وتَعْطِن عُطُوناً: إذا رَوِيَتْ ثم بَرَكَتْ، فهي: إبل عاطنة، وعَوَاطِنُ، وقد ضَرَبَ بعطن، أي: بركتْ إبله. قال ابنُ السِّكّيت: وكذلك تقول: هذا عطن الغنم ومعطنها: لمربضها حول الماء.

قال الشيخ: وقد جاء معنى هذه الرواية مفسراً في الرواية الأخرى التي قال فيها: فجاء عمر فأخذه منِّي، يعني: الدلو، فلم أر نزع رجل قط أقوى منه حتى تولى الناس والحوض ملآنُ يتفجر. وفي هذه من الزيادة ما يدلُّ على أن عمر – رضي الله عنه – يُتَوَفّى ويبقى النصر والفتح بعده متصلاً، وكذلك كان – رضي الله عنه -.

و(قوله في الأصل: "دخلت الجنة فإذا امرأةٌ تتوضَّأ إلى جانب قصرها" كذا الرواية الصَّحيحة المعروفة، وقد ذكره ابنُ قتيبة، وقال: امرأة (شوهاء) مكان (تتوضأ)، وفسَّرها بالحسنة. وذكر ثعلب عن ابن الأعرابي: أن الشوهاء: الحسنة والقبيحة، فهو من الأضداد. ووضوء هذه المرأة في الجنة إنما هو لتزداد حُسْناً ونوراً، لا لتزيل وسخاً، ولا قَذراً؛ إذ الجنة مُترَّهةٌ عن ذلك، وهذا كما قال في الحديث الآخر: "أمشاطُهم الذهب، ومجامرهم: الألوَّة" على ما يأتي.

وفي حديث أبي هريرة: أعليك أغار؟.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وابن ماجه.

وعن سعد بن أبي وقَّاص، قال: استأذنَ عُمرُ على رسول الله ﷺ وعنده نساءٌ من قريش يُكلِّمنَهُ ويَسْتكْثرنَه، عاليةٌ أصْواتُهُنَّ, فلما استأذنَ عمرُ قُمْن يَبْتَدرْنَ الحجابَ، فإذنَ له رسولُ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ يَضحكُ. فقالَ عُمر: أَضْحكَ الله سنَّكَ يا رسول الله ! قال رسول الله: "عَجبتُ من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي، فلمَّا سَمعْنَ صَوتَكَ ابْتَدَرْنَ الحجابَ". قال عُمر: فأنْتَ، يا رسول الله ! أحقُّ أنَ يَهَبْنَ. ثم قال عُمر: أيْ عَدوَّات أنفُسهنَّ أتَهَبْنني ولا تَهَبْنَ رسولَ الله ﷺ؟ ! فقُلْن: نعم؛ أنت أغلظُ وأفظُّ من رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده ! ما لَقيَكَ الشيطانُ قطُّ سَالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غيرَ فجّكَ".

و(قوله: استأذن عمر – رضي الله عنه – على رسول الله ﷺ ونسوة من قريش يكلّمنه، ويستكثرنه) أي: من مكالمته، ويُحتمل: أنهن يسألنه حوائجَ كثيرة.

و(قوله: "عالية أصواتهن") قيل: يحتملُ أن يكونَ هذا قبل نزول قوله تعالى: ﴿لا تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبيِّ﴾.

وقيل: يحتملُ أنَّ ارتفاع أصواتهن لكثرتهن، واجتماع كلامهن، لا أنهن رفعن أصواتهن.

قلتُ: ويحتملُ أن يكونَ فيهن مَن كنَّ جهوريات الأصوات، لا يقدرن على خفضها، كما كان ثابتُ بن قيس بن شماس، والله أعلم.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعن عائشة، عن النبيِّ ﷺ أنّه كان يقول: "قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون، فإنْ يكنْ في أمتي منهمْ أحدٌ؛ فإنَّ عمر بن الخطاب مِنْهُم".

و(قوله: "ما لقيك الشيطانُ قطُّ سالكاً فجّاً غير فجِّك") الفجُّ: الطريق الواسع، وهو أيضاً: الطريقُ بين جبلين، والظَّاهر: بقاءُ هذا اللفظ على ظاهره، ويكون معناه: أنَّ الشيطان يهابه ويُجانبه، لما يعلم من هيبته، وقوَّته في الحقِّ، فيفرُّ منه إذا لقيه، ويكونُ هذا مثل قوله ﷺ في الحديث الآخر: "إنَّ الشيطانَ لَيَفْرَقُ منك يا عمر". ويعني الشيطان: جنس الشَّياطين، ويحتملُ أن يكون ذلك مثلاً لبُعده عنه، وأنه لا سبيلَ له عليه، والأوَّل أولى.

و(قوله: "قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحدَّثون") "كان" الأولى: بمعنى الأمرُ والشَّأن، أي: كان الأمرُ والشأن، وهي نحو ليس في قولهم: ليس خَلَق الله مثْلَه. وتكون الثانيةُ ناقصة، واسمها محدَّثون، وخبرها في المجرور، ويصحُّ أن تكون تامَّةٌ، وما بعدها أحوال. ومُحدَّثُون — بفتح الدال — هي الرواية اسم مفعول، وقد فسَّر ابنُ وهب المحدَّثين بالملهمين، أي: يُحدَّثون في ضمائرهم بأحاديث صحيحة، هي من نوع الغيب، فيظهر على نحو ما وقع لهم، وهذه كرامةٌ يكرم الله تعالى بها من يشاء من صالحي عباده، ومن هذا النوع ما يقال عليه: فراسةٌ وتوسُّمٌ، كما قد رواه الترمذيُّ من حديث أبي سعيد الخدريِّ — رضي الله عنه — قال: قال رسولُ الله ﷺ: "اتَّقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظرُ بنور الله" ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1]، وقد تقدَّم القولُ في نحو هذا، وقد قال بعضُهم: إنَّ معنى محدَّثين: مُكلَّمون، أي: تكلِّمهم الملائكة.

---

[1]— سورة الحجر، الآية 75.

قال ابن وهب: تفسيرُ محدَّثون: مُلْهَمُونَ.

رواه أحمد، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ في الكبرى.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا راجعٌ لما ذكرته، غير أنَّ ما ذكرته أعمّ، فقد يخلق الله تعالى الأحاديثَ بالغيب في القلب ابتداءً من غير واسطة مَلَك، وقال بعضُهم: إنَّ معناه أنهم مصيبون فيما يظنُّونه، وإليه ذهب البخاريُّ، وهذا نحو من الأوَّل، غير أنَّ الأوَّلَ أعمُّ، والله أعلم.

و(قوله: "فإن يكن في أمتي أحدٌ منهم فعمر" دليلٌ على قلَّة ونقوع هذا وندوره، وعلى أنه ليس المرادُ بالمحدَّثين المصيبين فيما يظنُّون؛ لأنَّ هذا كثيرٌ في العلماء والأئمة الفضلاء، بل: وفي عوام الخلق كثير ممن يقوى حدسُه فتصح إصابتُه فترتفع خصوصيةُ الخبر، وخصوصية عمر — رضي الله عنه — بذلك، ومعنى هذا الخبر قد تحقَّق، ووُجد في عمر قطعاً؛ وإن كان النبيُّ ﷺ لم يجزمْ فيه بالوقوع، ولا صرَّح فيه بالأخبار؛ لأنه إنما ذكره بصيغة الاشتراط، وقد دلَّ على وقوع ذلك لعمر حكاياتٌ كثيرةٌ عنه، كقصَّة: الجبل يا سارية، وغيره، وأصحُّ ما يدلُّ على ذلك: شهادة النبيّ ﷺ له بذلك، كما رواه الترمذي عن ابن عمر مرفوعاً: "إنَّ الله جَعَل الحقَّ على لسان عمر وقلبه" وقال ابنُ عمر — رضي الله عنهما -: ما نزل بالناس أمرٌ قطُّ قالوا فيه، وقال فيه عمر إلا نزل القرآن على نحو ما قال فيه عمر. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ومن ذلك قول عمر — رضي الله عنه -: وافقتُ ربِّي في ثلاث... الحديث. وقد ادَّعى هذا الحالَ كثيرٌ من أهل المِحال[1]، لكن تشهدُ بالفضيحة شواهدُ صحيحة.

---

[1]- "المِحال": الكيد والمكر.

وعن ابن عمر، قال: قال عمرُ: وافقت ربي في ثلاث: في مَقَام إبراهيم، وفي الحِجَاب، وفي أُسارى بَدرٍ.

رواه ومسلم.

و(قوله: وافقعُ ربِّي في ثلاث) يعني: أنَّه وقع له في قلبه حديثٌ عن تلك الأمور، فأنزل اللهُ تعالى القرآن على نحو ما وقع له، وذلك: أنَّه وقع له: أنَّ مقامَ إبراهيم – عليه السلام – محلٌّ شرَّفه الله تعالى وكرَّمه؛ بأن قام فيه إبراهيمُ – عليه السلام – للدُّعاءِ والصَّلوات، وجَعَل فيه آيات بيِّنات، وغفر لمن قام فيه الخطيئات، وأجاب فيه الدَّعوات، وقد تقدَّم في الحجِّ ذِكْرُ الخلاف فيه، وكذلك وقع له شرفُ أزواج النبيّ ﷺ وعلوُّ مناصبهن، وعظيمُ حُرْمتن، وأنَّ الذي يناسبُ حالهن: أن يحتجبن عن الأجانب؛ فإن اطلاعهم عليهن ابتذالٌ لهن، ونقصٌ من حرمة النبي ﷺ وحرمتهن، فقال للنبيّ ﷺ: احجبْ نساءك، فإنّهنَّ يراهنَّ البَرُّ والفاجر. وقد استوفينا الكلامَ على هذا في النكاح. ووقع له أيضاً قَتْلُ أسارى بدر، وأشار على النبيِّ ﷺ به، وأشار عليه أبو بكر بالإبقاء والفداء، فمال النبيُّ ﷺ إلى ما قال أبو بكر – رضي الله عنه – فأنزل الله تعالى القرآن على نحو ما وقع لعمر – رضي الله عنه – في الأمور الثلاثة، فكان ذلك دليلاً قاطعاً على: أنه مُحدَّثٌ بالحقِّ، مُلْهَم لوجه الصَّواب، وقد تقدَّم القولُ في الصلاة على عبد الله بن أبي، وفي قضية بدرٍ في الجهاد.

* * *

باب فضائل عثمان – رضي الله عنه –

عن عائشة، قالت: كان رسولُ الله ﷺ مضطجعاً في بَيْتي كاشفاً عن فَخذَيه – أو سَاقَيْه – في رواية: وهو مُضطجِعٌ على فراشه لابسٌ مِرْطَ عائشة – فاستأذنَ أبو بكر، فأذنَ له وهو على تلك الحال، فتحدَّث، ثم استأذن عمرُ، فأذنَ له، وهو كذلك، فتحدَّث، ثم استأذن عثمانُ، فجلس رسولُ الله ﷺ، وسَمَّى ثيابَهُ، فتحدَّث، فلمَّا خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر

ومن باب: فضائل عثمان – رضي الله عنه –

وهو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ، يُكْنى أبا عمرو، وأبا عبد الله، وأبا ليلى بأولاد وُلِدُوا له، وأشهر كناه: أبو عمرو، ولُقِّب بذي النُّورين؛ لأنَّ النبيّ ﷺ زوَّجه لنتيه: رُقين، وأم كلثوم واحدة بعد أخرى، وقال ﷺ: "لو كانت عندي أخرى لزوَّجتها له". أسلم قديماً قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى أرض الحبشة، وإلى المدينة، ولما خرج رسولُ الله ﷺ إلى بدر خلَّفه على ابنته رُقَيَّة يُمرِّضها، وضَرَبَ له رسولُ الله ﷺ بسهمه، وأَجْره، فكان كمن شهدها، وقيل: كان هو في نفسه مريضاً بالجدري، وبايع عنه رسولُ الله ﷺ بيده في يده في بيعة الرضوان، وقال: "هذه لعثمان"، وكان النبيّ ﷺ قد وجَّهه إلى أهل مكة ليكلِّمهم في أن يُخلُّوا بين النبيّ ﷺ وبين العُمرة، فأرجف بأنَّ قريشاً قتلته فبايع النبيّ أصحابه بسبب ذلك. وفي بقاء النبيّ ﷺ منكشف الفخذ حتى اطَّلع عليه أبو بكر وعمر دليلٌ على أنَّ الفخذَ ليس بعورة، وقد تقدَّم الكلام فيه، وفيه دليلٌ على جواز معاشرة كلِّ واحدٍ من الأصحاب بحسب حاله. ألاَ ترى انبساطه، واسترساله مع العمرين على

فلم تهتشَّ له و لم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتشَّ له و لم تُباله، ثم دخل عثمان فجَلسْتَ وسوَّيت ثيابك ! فقال: "ألا أسْتَحْيِيْ منْ رجلٍ تَسْتَحْيِيْ منه الملائكةُ".

وفي رواية: فقالت عائشة: ما لي لم أرَك فَزِعْتَ لأبي بكرٍ وعمرَ كما فَزِعْتَ لعثمان؟ ! قال رسول الله ﷺ: "إنَّ عثمانَ رجلٌ حَيِيٌّ، وإنِّي خشيتُ إنْ أذنتُ له على تلك الحال ألا يَبْلُغ إليَّ حاجته".

رواه أحمد، ومسلم.

الحالة التي كان عليها مع أهله، لم يُغيِّر منها شيئاً، ثم إنَّه لما دخل عثمانُ — رضي الله عنه — غيَّر تلك التي كان عليها، فغطّى فخذيه، وتهيَّأ له، ثم لَمَّا سُئِلَ عن ذلك، قال: "إن عثمان رجلٌ حَيِيٌّ، وإنّي خشيتُ إن أذنتُ له على تلك الحال ألاّ يبلغ إليّ في حاجته". وفي الرواية الأخرى: "ألاَ أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟ ! أي: حياء التوقير والإجلال، وتلك منقبةٌ عظيمة، وخصوصيَّةٌ شريفة ليستْ لغيره، أعرض قتلةُ عثمان عنها، و لم يعرّجوا عليها.

و(قولها: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ له، و لم تُباله) يُروى: تهتشّ بالتاء باثنتين من فوقها، ويروى بحذفها، وفتح الهاء، وهو من الهشاشة، وهي الخفَّة والاهتزازُ والنشاط عند لقاء مَن يفرح بلقائه. يقال: هشَّ وبشَّ، وتبشبش: كلُّها بمعنىً. و لم تباله: أي: لم تعتنِ بأمره، وأصله من البال، وهو الاحتفالُ بالشيء، والاعتناءُ به، والفكر فيه. يقول: جعلته من بالي وفكري، وهو المعبَّر عنه في الرواية الأخرى بقولها: لم أرك فزعتَ له، أي: لم تُقْبِلْ عليه، و لم تتفرغْ له.

عن أبي موسى الأشعريِّ: أنَّه توضَّأ في بيته ثُمَّ خرج

فقال: لألزمنَّ رسولَ الله ﷺ، ولأكونَنَّ معه يومي هذا. قال: فجاء المسْجدَ، فسأل عن النبيّ ﷺ فقالوا: خرج وجَّه ها هنا. قال: فخرجتُ على إِثْره أسأل عنه؛ حتى دخل بئر أريس. قال: فجلستُ عند الباب — وبابُها من جَريد — حتَّى قضى رسولُ الله ﷺ حاجَتَهُ وتوضَّأ، فقمتُ إليه؛ فإذا هو قد جلسَ على بئر أريس. وتوسَّط قُفَّها، وكَشَفَ عن ساقَيْه، ودلاَّهُما في البئر، قال: فسلَّمتُ عليه، ثمَّ انصرفْتُ فجَلسْتُ عند الباب؛ فقلت: لأكونَنَّ بوّابَ رسول الله ﷺ اليومَ، فجاء أبو بكر، فدفع البا؛ فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رِسْلكَ. قال: ثُمَّ دهبتُ، فقلت: يا رسولَ الله ! هذا أبو بكر يستأذنُ. فقالَ: "ائذَنْ له، وبشِّره بالجنة". قال: فأقبلتُ حتَّى قلتُ لأبي بكر: ادْخُلْ؛ ورسولُ الله ﷺ يُبَشِّرُكَ

و(قوله: خرج وجَّه ها هنا) الراية المشهورة: وجَّه بفتح الجيم مشدَّدة على انه فعل ماضٍ، وضبطه أبو بحر: وجْه — بسكون الجيم — على أن يكون ظرفاً، والعاملُ فيه خرج، أي: خرج في هذه الجهة..

و(قوله: فإذا قد جلس على بئر أريس، وتوسَّط قُفَّها، وكَشَفَ عن ساقيه، ودلاَّهما في البئر) والقُفُّ بضم القاف -: أصله: الغليظ من الأرض، قاله ابنُ دريد وغيره، وعلى هذا: القفّ: الذي يتمكن الجماعة أن يجلسوا عليه، ويدلوا أرجلهم في البئر، وهو جانبُها المرتفعُ عن الأرض، وكلُّ ما قيل فيه خلاف هذا فيه بُعْدٌ، ولا مساقَ الحديث.

و(قوله: على رِسلك) هو بكسر الراء، وهو المعروف، ويقال بفتحها، أي: اسكنْ وارفق، كما يقال: على هينتك.

بالجنَّة ! قال: فدخل أبو بكر، فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفِّ، ودلَّى رجليه في البئر؛ كما صَنَعَ النبي ﷺ، وكشف عن ساقيه. ثمَّ رجعتُ فجلستُ، وقد تركت أخي يتوضأُ ويَلْحَقُني، فقلت: إنْ يرد الله بفلان — يُريد أخاهُ — خيراً يأت به؛ فإذا إنسانٌ يُحرِّك البابَ. فقلتُ: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب. فقلت: على رِسْلكَ، ثم جئتُ إلى رسول الله ﷺ فسلَّمتُ عليه، وقلت: هذا عُمر يستأذنُ. فقال: "ائذنْ له وبشِّره بالجنة". فجئتُ عتمر، فقلت: إذنَ، ويبشِّرُكَ رسولُ الله ﷺ بالجنَّة ! قال: فدخل، فجلس مع رسول الله ﷺ في القُفِّ عن يَساره، ودلَّى رِجْلَيه في البئر. ثم رجعتُ، فجلستُ، فقلتُ: إذ يُرِد الله بفلان خيراً — يعني أخاه — يأت به، فجاء إنسانٌ، فحرَّك البابَ. فقلتَ: من هذا؟ ! فقال: عثمان ابنُ عفَّانَ. فقلت: على رِسْلك. قال: وجئتُ النبيَّ ﷺ فأخبرته فقال: "ائذن له وبشِّره بالجنَّة؛ مع بلوى تُصيبه". قال: فجئتُ، فقلت: ادخُل؛ ويُبشرك

و(قوله: فجلس وِجاهه) هو بكسر الواو، ويقال بضمها، أي: مقابله وقبالته، وهذا الحديثُ نصٌّ في أنَّ أبا بكر وعمر وعثمان — رضي الله عنهم — في الجنة، وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ وحسنة يفيدُ مجموعُها القطعُ بأنَّ الخلفاءَ الأربعةَ مقطوعٌ لهم بأنهم من أهل الجنة.

و(قوله: على بلوى تُصيبه) هذا من النبيّ ﷺ إعلامٌ لعثمان — رضي الله عنه — بما يُصيبه من البلاء والمحنة في حال خلافته، وقد جاء من الأخبار ما يدلُّ على تفصيل ما يجري عليه من القتل وغيره، فمن ذلك ما خرَّجه الترمذي عن عائشة — رضي الله عنها — عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: "يا عثمانُ ! لعلَّ الله يقمِّصك قميصاً؛ فإن أرادوك على خَلعه فلا تخلعْه لهم". وقال: حديثٌ حسنٌ غريب. وفيه عن ابن عمر — رضي الله عنهما — قال: ذكر رسولُ الله ﷺ فتنةً، فقال: "يُقتل فيها مظلوماً" لعثمان — رضي

رسولُ الله ﷺ بالجنة، مع بلوى تُصيبُكَ ! – وفي رواية: فقال: اللَّهمَّ صبراً

الله عنه – وقال: حديث حسن غريب. وروى أبو عمر ابن عبد البرّ عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسولُ الله ﷺ: "ادعوا لي بعضَ أصحابي" فقلت: أبو بكر؟ فقال: "لا"، فقلت: فعمر؟ فقال: "لا"، قالت: قلت: ابن عمك عليًّا؟ فقال: "لا"، فقلتُ له: عثمان؟ فقال: "نعم"، فلما جاءه، فقال لي بيده، فتنحَّيت، فجعل رسولُ الله ﷺ يُسَارُّه، ولونُ عثمانَ يتغيَّر، فلما كان يومُ الدار وحُصر قيل له: ألاَ نقاتل عنك؟ قال: لا، إنَّ رسولَ الله ﷺ عهد إليَّ عهداً وأنا صابرٌ عليه. فهذه الأحاديثُ وغيرها مما يطولُ تتبُّعه: تدلُّ على أنَّ النبيّ ﷺ أخبره بتفصيل ما جرى عليه، وأنه سلَّم نفسَه لما علم من أنَّ ذلك قَدَرٌ سَبَق وقضاءٌ وَجب، ولذلك مَنَع كلَّ مَن أراد القتالَ دُ,نه، والدفع عنه – ممَّن كان معه في الدار، وفي المدينة – من نصرته. وتفصيل كيفية قتله، وما جرى لهم معه مذكورٌ في التواريخ. وجملة الأمر أن قوماً من أهل مصر وغيرهم غَلَبَ عليهم الجهلُ، والهوى، والتعصُّب، فنقموا عليه أمراً أكثرها كذب، وسائرها له فيها أوجهٌ من المعاذير، وليس فيها شيءٌ يُوجب خَلْعَه، ولا قَتْلَه، فتحزَّبوا، واجتمعوا بالمدينة، وحاصروه في داره، فقيل: شهران، وقيل: تسعة وأربعون يوماً، وهو في كلِّ ذلك يعظهم، ويذكِّرهم بحقوقه، وينتصَّل ممَّا نسبوه إليه، ويعتذرُ منه، ويصرِّح بالتوبة، ويحتجُّ عليهم بحجج صحيحة لا مخلص لهم عنها، ولا جوابَ عليها، لكن أعمتهم الأهواءُ ليغلبَ القضاءُ، فدخلوا عليه وقتلوه مظلوماً كما شهد له النبيُّ ﷺ وجماعةُ أهل السنَّة، وألقي على مزبلة، فأقام فيها ثلاثة أيام لم يقدرْ أحدٌ على دفنه حتى جاء جماعةٌ خفية، وحملوه على لوحٍ، وصلَّوا عليه، ودُفن في موضع من البقيع يُسمَّى: (حوش كوكب)، وكان مما حبَّسه هو، وزاده في البقيع، وكان إذا مرَّ فيه

والله المستعان ! – قال: فدخل فوَجَد القفَّ قَد مُلئَ، فجلس وُجاهَهُم من الشقِّ الآخر.

يقول: يُدفن فيك رجلٌ صالحٌ، فكان هو المدفونُ فيه، وعُمِّي قبرُه لئلا يُعْرف، وقد نَسَب أهلُ الشام قتله إلى عليّ – رضي الله عنها – وهي نسبةُ كذبٍ وباطلٍ، فقد صحَّ عنه: أنه كان في المسجد، وقت دُخل عليه في الدار، ولما بلغه ذلك قال قولته: تبأ لكم آخر الدهر، ثم إنَّه قد تبرأ من ذلك، وأقسم عليه، وقال: من تبرأ من دين عثمان، فقد تبرأ من الإيمان، والله ما أعنتُ على قتله، ولا أمرت، ولا رضيتُ. لكنَّه لم يقدرْ على المدافعة بنفسه. وقد كان عثمانُ مَنَعَهُم من ذلك. وكان مقتلُ عثمان في أوسط أيام التشريق على ما قاله أبو عثمان النهدي. قال ابنُ إسحاق: على رأس إحدى عشرة سنة، وأحد عشر شهراً، واثنين وعشرين يوماً من مقتل عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – وعلى رأس خمس وعشرين سنة من متوفى رسول الله ﷺ. وقال الواقديُّ: قُتل يوم الجمعة لثمان ليال خلت من ذي الحجة؛ يوم التروية سنة خمس وثلاثين، وقيل: لليلتين بقيتا من ذي الحجة. قال ابنُ إسحاق: وبُويع له بالخلافة يوم السبت غرَّة محرم سنة أربع وعشرين؛ بعد دَفْن عمر بثلاثة أيام، فكانت خلافتُ إحدى عشرةَ سنة إلا أياماً اختلف فيها على ما بيَّنَّاه. وقد كان انتهى من الفَضْل، والعلم، والعبادة إلى الغاية القصوى، كان يصومُ الدهر، ويقومُ الليلَ يقرأُ القرآن كلَّه في ركعة الوتر ! وروى الترمذيُّ عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال: كنَّا نقولُ ورسولُ الله ﷺ حيٌّ: أبو بكر وعمر وعثمان، وقال فيه: حديث صحيح حسن، وقد شهد له رسولُ الله ﷺ بأنه شهيد، ومِن أهل الجنة، وقَتَلَتُه مُخْطِئون قطْعاً، وقد قَدِمُوا على ما قدموا عليه.

قال شَريكٌ: فقال سعيد بن المسيب: فأولتها قُبُورَهُم.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

باب فضائل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –

عن سعد بن أبي وقَّاص، قال: قال رسولُ الله ﷺ لعَليٍّ: "أنت منِّي بمنزلةِ هارونَ من موسى؛ إلا أنَّه: لا نبيَّ بَعْدي".

و(قول عثمان: اللهم صبراً والله المستعان) أي: اللهم صبِّرني صبراً، وأعنّي على ما قدَّرتَ عليَّ، فيه: استسلامٌ لأمر الله تعالى، ورضا بما قدَّره الله تعالى.

و(قوله: فجلس وجاههم من الشقِّ الآخر) الشق: الجانب. يعني: أنه جلس في مقابلة النبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمر.

و(قوله سعيد: فأوَّلت ذلك قُبُورَهُم) هذا من سعيد من باب الفراسة، ومن باب ما يقعُ في قلوب المحدَّثين الذين قدَّمنا ذِكْرَهُم لا من با تأويل الرؤيا إذ كان ذلك في اليقظة،وذلك أنه لما حدَّث بكيفية جلوس الثلاثة في جهة واحدة من القُفِّ،و عثمان في مُقابلتهم وقع في قلبه: أن ذلك كان إشعاراً بكيفيَّة دفنهم، كما كان. والله تعالى أعلم.

ومن باب: فضائل عليِّ بن أبي طالب – رضي الله عنه –

هو عليُّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عمِّ رسول الله ﷺ ويكنى: أبا لحسن، واسم أبي طالب: عبد مناف، وقيل: اسمه كنيته، واسم هاشم عمرو، وسمِّي هاشماً؛ لأنه أوَّل من هشم الثريد، وأمُّ عليٍّ فاطمةُ

رواه أحمد، والبخاري، ومسلم،و الترمذيُّ.

بنت أسد ابن هاشم، وهي أوَّل هاشمية ولدت لهاشمي، توفيت مُسْلمةٌ قبل الهجرة، وقيل: إنها هاجرت، وكان علي أصغر ولد أبي طالب، كانَ أصغر من جعفر بعشر سنين. وكان جعفر أصغر من عقيل بعشر سنين. وكان عقيل أصغر من طالب بعشر سنين. وروي عن سلمان وأبي ذر والمقداد وخباب وجابر وأبي سعيد الخدري وزيد بن أرقم أن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أول من أسلم – يعنون من الرجال – وإلا فقد اتفق الجمهور على أن أول من أسلم وأطاع النبيَّ ﷺ خديجة بنت خويلد، وقد تقدَّم مَن قال: إنَّ أولَ من أسلم أبو بكر – رضي الله عنهم –.

وقد روى أبو عمر بن عبد البرِّ عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: "أوَّلُكم وارداً على الحوض أولكم إسلاماً: علي بن أبي طالب". قيل: أسلم وهو ابنُ سبع سنين، وقيل: ابن ثمان. وقيل: ابن عشر، وقيل: ابن ثلاث عشرة. وقيل: ابن خمس عشرة. وقيل: ابن ثمان عشرةً. وروى سلمة بن كهيل عن حبة بن جوين العرني قال: سمعتُ علياً – رضي الله عنه – يقول: أنا أوَّل مَن صلَّى مع رسول الله ﷺ، ولقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين. وروي عن عليٍّ – رضي الله عنه – أنه قال: مكثتُ مع رسول الله كذا وكذا، لا يصلي معه أحدٌ غيري إلا خديجة، وأجمعوا: على أنه – رضي الله عنه – صلى إلى القبلتين، وأنه شهد بدراً وأُحُداً، ومشاهدَ رسول الله ﷺ كلها، إلا غزوة تبوك، فإن النبيَّ ﷺ أمَره أن يتخلَّفَ في أهله، وقال له: "أمَا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى"؟ وزوَّجه رسولُ الله ﷺ سيِّدَةَ نساء أهل الجنة فاطمة، وآخى بينه وبينه، وقال ﷺ: "لا يحبُّه إلا مؤمنٌ، ولا يبغضُه إلا منافقٌ". وقال فيه النبيُّ ﷺ: "إنه يحبُّه الله ورسوله، وإنَّه يحبُّ الله ورسوله".

.....

وكان – رضي الله عنه – قد خُصَّ من العلم، والشَّجاعة، والحلم، والزُّهد، والورع، ومكارم الأخلاق ما لا يسعه كتابٌ، ولا يحويه حصر حساب. بويع له بالخلافة يوم مقتل عثمان، واجتمع على بيعته أهلُ الحلِّ والعق مِن المهاجرين والأنصار؛ إلا نفراً مهم، فلم يكرههم، وسُئِل عنهم فقال: أولئك قومٌ خذلوا الحقَّ، ولم يعضدوا الباطل. وتخلَّف عن بيعته معاوية ومَن معه من أهل الشام، وجرتْ عند ذلك خُطُوبٌ لا يمكن حَصْرُها، والتحمت حروبٌ لم يُسْمَعْ في المسلمين بمثلها، ولم تزلْ ألويته منصورةٌ عاليةٌ على الفئة الباغية إلى أن جرتْ قضيةُ التحكيم، وخدع فيها ذو القلب السَّليم، وحينئذ خرجت الخوارج، فكفَّروه وكُلَّ مَنْ معه، وقالوا: حكَّمتَ الرجالَ في دِيْنِ الله، والله تعالى يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله﴾ [1]، ثم اجتمعوا وشقُّوا عصا المسلمين، ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدِّماء، وقطعوا السبيل، فخرج إليهم عليٌّ بمن معه، ورام رجوعَهم فأبوا إلا القتال، فقاتلهم بالنَّهروان، فقتلهم واستأصل جميعهم، ولم ينجُ منهم إلا اليسير، وقد تقدَّم قولُه ﷺ: "يقتلهم أولى الطائفتين بالحقِّ". ثم انتدب إليه رجلٌ من بقايا الخوارج يقال له: عبد الرحمن بن ملجم. قال الزُّبيري: كان م حمير فأصاب دماءً فيهم؛ فلجأ إلى مُراد؛ فنسب إليهم، فدخل (على عليٍّ) في مسجده بالكوفة. فقتله ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلةً خلتْ في رمضان. وقيل: لثلاث عشرة. وقيل: لثمان عشرة. وقيل: في أوَّل ليلة من العشر الآخر من رمضان سنة أربعين. واختلف في سنِّه يوم قُتل. فقيل: ابن سبع وخمسين إلى خمس وستين سنة. وكانت مُدَّةُ خلافته أربع سنين وستَّة أشهر، وستَّةُ أيام. وقيل: ثلاثة. وقيل: أربعة عشر يوماً.

---

[1]– سورة الأنعام.

.....

فأخذ عبدُ الرحمن بن ملجم، فقُتِل أشقى هذه الأمة. وكان عليٌّ – رضي الله عنه – إذا رآه يقول:

أريـــدُ حَيَاتَـــهُ ويُريـــدُ قَتْلِي عَذيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مـــُرادِ[1]

وكان يقولُ: ما يمنع أشقاها، أو: ما ينتظر أشقاها أن يخضبَ هذه من هذا، والله ليخضبنَّ هذه من دم هذا – ويشيرُ إلى لحيته ورأسه – خضاب دم، لا خضاب حنَّاء ولا عبير.

وقد روى النَّسائيُّ وغيره من حديث عمَّار بن ياسر – رضي الله عنهما – عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال لعليٍّ – رضي الله عنه –: "أشقى الناس الذي عَقَر النَّاقة، والذي يضربك على هذا ووضع يده على رأسه – حتى يخضِّب هذه–". يعني: لحيته.

وتأخر موته – رضي الله عنه، ولا رضي عن قاتله – عن ضَرْبه نحو الثَّلاثة الأيام. جملةُ ما حفظ له عن رسول الله ﷺ خمسمئة حديث وسبعةٌ وثلاثون حديثاً، مثل أحاديث عمر – رضي الله عنهما – أخرج له منها في الصحيحين أربعة وأربعون حديثاً.

و(قول معاوية لسعد بن أبي وقاص: ما منعك أن تسبَّ أبا تراب) يدل: على أنَّ مقدم بني أميَّة كانوا يسبُّون عليّاً وينتقصونه، وذلك كانَ منهم لما وقر في أنفسهم من أنَّه أعان على قَتْل عثمان، وأنَّه أسلمه لمن قتله، بناءْ منهم على أنَّه كان بالمدينة، وأنَّه كان متمكناً من نُصرته. وكلٌ ذلك ظنٌّ كذبٌ، وتأويلٌ باطلٌ غطَّى التعصُّبُ منه وَجْهَ الصَّواب. وقد

---

[1]– البيت لعمرو بن معدي كرب. ورُوي أيضاً: أريد حِباءه. أورده الطبري.

وعنه، قال: أمر معاويةُ بنُ أبي سفيانَ سَعْداً فقال: ما منعك أن تسبَّ أبا التُّراب؟ ! فقال: أمَّا ما ذَكَرْتُ ثلاثاً قالهنَّ له رسول الله ﷺ فلن أَسُبَّهُ، لأن تكون لي واحدةٌ منهنَّ أحَبُّ إليَّ من حُمْرِ النَّعَم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لَهُ، - وخلَّفه في بعض مَغَازيه، فقال له عليٌّ: يا رسول الله ! خلَّفتني مع النساء والصبيان؟ - فقال له رسول الله ﷺ: "أمَا ترضَى أنْ

قدمنا: أنَّ عليّاً — رضي الله عنه — أقسم بالله: أنَّه ما قتله، ولا مالأ على قتله، ولا رَضِيَهُ. ولم يقلْ أحجٌ من النَّقلة قطُّ، ولا سُمع من أحد: أنَّ عليًّا كان مع القتلة، ولا أنَّه دَخَلَ معهم الدَّار عليه. وأما تَرْكُ نصرته؛ فعثمان — رضي الله عنه — أسلم نفسه، ومَنَع من نُصرته، كما ذكرناه في بابه. وممَّا تشبَّثوا به: أنَّهم نسبوا عليّاً إلى ترك أخذ القصاص من قتلة عثمان، وإلى أنَّه منعهم منهم، وأنَّه قام دونهم. وكلُّ ذلك أقوالٌ كاذبةٌ أنتجتْ ظنوناً غيرَ صائبةٍ، ترتَّب عليها ذلك البلاء كما سبق به القضاء.

و(قوله: في بعض مغازيه) قد قلنا: إنَّها كانت غزوة تبوك خلَّفه النبيُّ ﷺ في أهله، واستخلفه على المدينة، فيما قيل. ولمَّا صعب على عليٍّ — رضي الله عنه — تخلُّفه عن رسول الله ﷺ وشقَّ عليه، سكَّنه النبيُّ ﷺ وآنسه بقوله: "أمَا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟" وذلك: أنَّ موسى — عليه السلام — لما عزم على الذهاب لما وعده الله به من المناجاة قال لهارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ الأعراف[1].

وقد استدلَّ بهذا الحديث الرَّوافض، والإمامية، وسائر فرق الشّيعة: على أنَّ النبيَّ ﷺ استخلف عليّاً — رضي الله عنه — على جميع الأمَّة. فأمَّا الرَّوافضُ فقد كفَّروا الصَّحابة كلَّهم؛ لأنَّهم عندهم تركوا العملَ بالحقّ الذي هو النَّصُّ على استخلاف عليٍّ — رضي الله عنه — واستخلفوا غيره

---

[1]— سورة الأعراف، الآية 142.

.....

بالاجتهاد. ومنهم مَن كفَّر عليّاً – رضي الله عنه – لأنه لم يطلب حقَّه. وهؤلاء لا يشكُّ في كفرهم؛ لأنَّ من كفَّر الأمَّةَ كلَّها والصَّدْرَ الأول؛ فقد أبطل نَقْلَ الشريعة، وهَدَم الإسلام. وأمَّا غيرهم من الفرق فلم يرتكبْ أحدٌ منهم هذه المقالةَ الشَّنعاء القبيحة القصعاء، ومن ارتكبها منهم ألحقناه بمن تقدّم في التكفير ومأواه جهنَّم وبئس المصير، وعلى الجملة فلا حُجَّة لأحد منهم في هذا الحديث، فإنَّ النبي ﷺ إنما استنابه في أمر خاصٍّ وفي وقتٍ خاصٍّ، كما استناب موسى هارون – عليهما السلام – في وقت خاصٍّ، فلما رجع موسى – عليه السلام – من مناجاته، عاد هارون إلى أول حالاته، على أنه قد كان هارون شُرك مع موسى في أصل الرِّسالة، فلا تكون لهم فيما راموه دلالةٌ. وغايةُ هذا الحديث أن يدلَّ على انَّ النبيَّ ﷺ إنَّما استخلف عليّا – رضي الله عنه – على المدينة فقط، فلمَّا رجع النبيُّ ﷺ من تبوك قعد مقعده، وعاد عليٌّ – رضي الله عنه – إلى ما كان عليه قبل. وهذا كما استخلف رسولُ الله ﷺ على المدينة ابنَ أمِّ مكتومٍ وغيرَه، ولا يلزمُ من ذلك استخلافه دائما بالاتفاق.

و(قوله: "غير أنَّه لا نبيَّ بعدي") إنَّما قاله النبيُّ ﷺ تحذيراً ممَّا وقعتْ فيه طائفةٌ من غلاة الرَّافضة؛ فإنهم قالوا: إنَّ عليّا نبيٌّ يوحَى إليه. وقد تناهى بعضُهم في الغلوِّ إلى أن صار في عليٍّ إلى ما صارت إليه النصارى في المسيح، فقالوا: إنَّه الإله. وقد حرق عليٌّ – رضي الله عنه – مَن قال ذلك، فافتتن بذلك جماعةٌ منهم، وزادهم ضلالاً، وقالوا: الآن تحقَّقنا: أنَّه الله؛ لأنَّه لا يُعذّب بالنَّار إلا الله. وهذه كلُّها أقوال عوامَّ، جُهَّال، سُخفاء العقول، لا يُبالي أحدُهم بما يقول، فلا ينفعُ معهم البرهان، لكنَّ السَّيف والسِّنان.

تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنَّه لا نُبُوَّة بعدي". وسمعتُهُ يقول يوم خيبر:"لأُعطينَّ الرايةَ رجُلاً يُحبُّ الله ورسولَهُ، ويحبُّه الله ورسولُهُ". قال: فتطاولنا لها فقال: "ادعوا لي عليّا" فأُتيَ به أرمَدَ، فبصَقَ في عينيه، ودَفَعَ الراية إليه، ففتح الله عليه. ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ...﴾ دعا رسول الله ﷺ عليّاً، وفاطمة، وحَسَناً، وحُسَيناً فقال: "اللهمَّ ! هؤلاء أهلي".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعن سهل بن سعد: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال يوم خيبرَ: "لأُعطيَنَّ هذه الرايةَ رجلاً يفتحُ الله على يديه يُحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورَسُولُه". قال: فبات النَّاس يدوكون ليلتهم أَيُّهم يُعْطاها. فلما أصبح الناس غَدَوْا على رسول الله ﷺ كُلُّهُمْ يرجون أن يُعْطاها. فقال: "أين عليُّ بنُ أبي طالب؟" فقالوا: هو، يا رسول الله ! يشتكي عينيه ! قال: "فأرسلوا إليه".

و(قوله: "لأُعْطيَنَّ الرَّايةَ رجلاً يفتحُ الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله") الكلامُ إلى آخره فيه دليلان على صحة نبوَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ وهي: إخبارُه ع فتح حيبر، ووقوعه على نحو ما أخبر. وبرء رمد عين عليٍّ – رضي الله عنه – على فور دعاء النبيِّ ﷺ. وفي غير كتاب مسلم: أنَّه ﷺ مسح على عيني عليٍّ – رضي الله عنه – ورقاه. وفيه من الفقْه: جواز المدح بالحقِّ إذا لم تخش على الممدوح فتنةٌ. وقد تقدَّم القولُ في محبَّة الله. وفيه ما يدلُّ: على أنَّ الأولى بدفع الرَّاية إليه من اجتمع له الرئاسة، والشجاعة، وكمال العقل.

و(قوله: فبات النَّاس يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعْطاها) أي: يتفاوضون بحيث اختلطت أحوالهم فيمن يعطاها. يقال: بات القوم يدوكون دوكا.

فأُتِيَ به، فبَصَقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكُن به وَجَعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله ! أُقاتِلُهُم حتى يكونوا مِثْلَنا؟ ! قال: "انْفُذْ على رِسْلِكَ، حتى تنزلَ بسَاحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله ! لأن يَهْدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود.

أي: في اختلاط ودوران، ووقعوا في دوكة – بفتح الدَّال وضمها – وإنما فعلوا ذلك حرصاً على نيل هذه الرُّتْبة الشَّريفة، والمنزلة الرَّفيعة؛ التي لا شيء أشرف منها.

و(قول عليٍّ – رضي الله عنه –: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟) معناه: حتى يدخلوا في ديننا فيصيروا مثلنا فيه.

و(قوله: "انفذ على رسلك حتى تنزلَ بساحتهم") أي: امض لوجهك مُترفِّقاً مُتثبِّتاً. وقد جاء مفسَّراً في روايةٍ أخرى قال فيه: "امش ولا تلتفت" وقد تقدَّم القولُ في "رِسْلك". والسَّاحة: الناحية.

و(قوله: "ثمَّ ادْعُهم إلى الإسلام، وأعلمهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه") هذه الدَّعوة قبل القتال؛ التي تقدَّم القولُ فيها في الجهاد، وقد فسَّرها في الرواية الأخرى في الأمِّ قال: فصرخ عليٌّ: يا رسول الله ! على ماذا أقاتلُ النَّاس؟ قال: "قاتِلْهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله، فإذا فعلوا فقد منعوا منا دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله" فهذا هو حقُّ الله المذكور في الرواية المتقدَّمة.

وعنه، قال: استُعملَ على المدينة رجُلٌ من آل مرْوانَ. قال: فَدَعا سهلَ بنَ سعد، فأمَره أَن يَشْتم عليّا، قال: فأبى سهلٌ، فقال له: أما إذْ أَبَيْت فقل: لعنَ الله أبا التُّراب! فقال سهلٌ: ما كان لعليٍّ اسمٌ أحبُّ إليه من أبي التُّراب، وإنْ كان ليفرَحُ إذا دُعي بها. فقال له: أخبرنا عن قصَّته،

و(قوله: "فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعم") حضٌّ عظيمٌ على تعليم العلم وبثِّه في الناس، وعلى الوعظ والتذكير والتذكير بالدار الآخرة والخير، وهذا كما قال ﷺ في الحديث الآخر: "إن الله وملائكته يصلُّون على معلِّمي الناس الخير". والهداية: الدَّلالة والإرشاد. والنَّعم: هي الإبلُ، وحُمْرُها هي خيارها حُسْناً وقوة ونفاسةً؛ لأنها أفضلُ عند العرب، ويعني به — والله أعلم — أن ثوابَ تعليم رجل واحد، وإرشاده للخير أعظمُ من ثواب هذه الإبل النَّفيسة لو كانت لك فتصدَّقت بها؛ لأن ثوابَ تلك الصَّدقة ينقطعُ بموتها، وثواب العلم والهدى لا ينقطعُ إلى يوم القيامة، كما قال ﷺ: "إذا مات الإنسانُ انقطع عمله إلا من ثلاثة"، فذكر منها: "علم ينتفع به". وفي نوم عليٍّ — رضي الله عنه — في المسجد، وإقرار النبيّ ﷺ له على ذلك: دليلٌ على جواز ذلك للمتأهِّل الذي له منزل، وبه قال بعضُ أهل العلم، وكرهه مالك من غير ضرورة، وأجازه للغرباء؛ لأنهم في حاجة وضرورة، وقد تقدَّم ذلك في كتاب الصلاة. ومَسْحُ النبيِّ ﷺ جَنْبَ عليٍّ من التراب، وهو يقول: "قم أبا التراب، ق أبا التراب" دليلُ على محبته له، وشفقته عليه، ولُطْفه به،ولذلك كان ذلك الاسم أحبَّ إلى عليٍّ — رضي الله عنه — من كلِّ ما يُدْعى به، فيا عجباً من بين أمية كيف صيَّروا الفضائل رذائل، والمناقب معايب، لكن غلبة الأهواء تعوّض الظَّلمة من الضِّياء، وقد ذكر أبو عمر بن عبد البرّ

لِمَ سُمِّي أبا تُراب؟ ! قال: جاء رسولُ الله ﷺ بيت فاطمة، فلم يجد عليّا في البيت، فقال: "أين ابن عمِّك؟" فقالت: كان بيني وبينه شيءٌ، فغاضَبَني، فخرج، فلم يَقِلْ عِنْدي ! فقال رسول الله ﷺ لإنسان: "انظر أين هو؟" فجاء، فقال: يا رسول الله ! هو في المسجد راقدٌ. فجاءه رسول الله ﷺ وهو مُضطجعٌ. قد سقَط رداءُه عن شقِّه. فأصَابهُ تُرابٌ. فجعل رسولُ الله ﷺ يَمْسَحُهُ عنه ويقول: "قُمِ أبا التُّرابَ ! قم أبا التُّراب".

بإسناده إلى ضرار الصُّدَائي: وقال له معاوية: صِفْ لي علياً، فقال: اعفني يا أمير المؤمنين ! قال: صفه. قال: أما إذ ولابُدَّ من وصفه،فكان – والله – بعيدَ المدى، شديد القُوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجَّر العلمُ من جوانبه، وتنطقُ الحكمة من نواحيه، يستوحشُ من الدنيا وزهرتها، ويأنس من الليل ووحشته، وكان غزير الدَّمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطَّعام ما خشن، كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويفتينا إذا استفتيناه، ونحن – والله – مع تقريبه إيانا، وقُرْبه منا لا نكاد نكلمه هيبةٌ له، يعظّمُ أهل الدّين، ويُقرِّب المساكين، لا يطمعُ القويُّ في باطله، ولا يَيْأَسُ الضَّعيف من عدله، وأشهدُ لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدولَهُ، وغارتْ نجومُه، قابضاً على لحيته يتململ تململ السَّليم[1]، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غرِّي غيري، إليَّ تعرَّضت؟ أو إليَّ تشوَّفْت، هيهات هيهات ! قد بتُّك ثلاثاً لا رجعةَ فيها، فعمرُك قصير، وخَطَرُك قليل، آه من قلَّة الزاد، وبُعْد السفر، ووحشة الطريق ! فبكى معاوية، وقال: رحم الله أبا حسن ! كان والله كذلك، كيف حُزْنُك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذُبح واحدُها في حجرها.

---

[1]– "السليم": اللديغ، والجريح الذي أشرف على الهلاك، كأنهم يتفاءلون له بالسلامة.

رواه البخاريُّ، ومسلم.

باب فضائل سعد بن أبي وقَّاص

عن عائشةَ، قالت: سَهِرَ رسولُ الله ﷺ مَقْدَمَهُ المدينةَ ليلةً؛ فقال: "لَيْتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يحرُسني الليلة !". قالت فَبَيْنا نحن كذلك

قال الشيخ رحمه الله: وهذا الحديثُ: يدلُّ على معرفة معاوية بفضل عليٍّ – رضي الله عنه – ومنزلته، وعظيم حقِّه، ومكانته، وعند ذلك يبعد على معاوية أن يُصرِّح بلعنه وسبِّه؛ لما كان معاوية موصوفاً به من الفضل والدّين، والحلم، وكرم الأخلاق، وما يُروى عنه من ذلك فأكثره كذبٌ لا يصحّ. وأصحُّ ما فيها قوله لسعد بن أبي وقاص: ما يمنعك أن تسبَّ أبا التراب؟ وهذا ليس بتصريح بالسَّبِّ، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج من عنده من ذلك، أو من نقيضه، كما قد ظهر من جوابه، ولما سمع ذلك معاوية سكت، وأذعن، وعرف الحقَّ لمستحقه، ولو سلَّمنا: أنَّ ذلك في اجتهاد، في إسلام عثمان لقاتليه، أو في إقدامه على الحرب والقتال للمسلمين، وما أشبه ذلك مما يمكن أن يقصر بمثله من أهل الفضل، وأما التصريحُ باللَّعن، وركيك القول، كما قد اقتحمه جهَّالُ بني أمية وسفلتهم، فحاش معاوية منه، ومن كان على مثل حاله من الصحبة، والدِّين، والفضل، والحلم، والعلم، والله تعالى أعلم.

ومن باب فضائل سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه –

واسمه: مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرَّة، يكنى: أبا إسحاق، أسلم قديماً، وهو ابنُ سبع عشرة سنة، وقال: مكثتُ ثلاثة أيام، وأنا ثلثُ الإسلام، وقال: أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله، شهد المشاهدَ كلها مع رسول الله ﷺ وولِّي الولايات العظيمة من قبل عمر

سمعنا خشخشَة سلاح، فقال: "من هذا؟ !" سعدُ بن أبي وقاص. فقال له رسول الله ﷺ: "ما جاء بك؟ !" قال: وقعَ في نفسي خوفٌ على رسول الله ﷺ فجئتُ أحرُسُهُ. فَدعَا له رسولُ الله ﷺ، ثمَّ نام.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ في الكبرى.

عمر وعثمان – رضي الله عنهم -. وهو أحدُ أصحاب الشُّورى، وأحدُ المشهود لهم بالجنة. توفي في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة، وصلَّى عليه مروان بن الحكم، ومروان إذ ذاك والي المدينة، ثم صلى عليه أزواجُ النبي ﷺ ودُخل بجنازته في المسجد، فصلَّين عليه في حجرهنَّ، وكُفِّن في جبة صوفٍ، لقي المشركين فيها يوم بدرٍ، فوصَّى أن يُكفَّن فيها، ودُفن بالبقيع سنة خمس وخمسين، ويقال سنةً خمسين، وهو ابنُ بضع وسبعين سنة، ويقال: ابن اثنين وثمانين، ورُوي عنه من الحديث مئتان وسبعون، أُخرج له منها في الصَّحيحين ثمانية وثلاثون.

و(قوله: أرقَ رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلةً) أي: سهر عند أول قدومه على المدينة في ليلة من الليالي، فقال: "ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة". قيل: كان هذا من النبيِّ ﷺ في أول الأمر، قبل أن يترلَ عليه: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1].

قال الشيخ رحمه الله: ويحتملُ أن يُقالَ: إنَّ قوله: ﴿والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ليس فيه ما يناقض احتراسه من الناس، ولا ما يمنعه، كما أن إخبارَ الله تعالى عن نصره، وإظهاره لدينه ليس فيه ما يمنعُ الأمر بالقتال، وإعداد العَدَد والعُدَد، والأخذ بالجدِّ والحزم، والحذر، وسرُّ ذلك: أنَّ هذه أخبارٌ عن عاقب الحال، ومآله، لكن هل تحصل تلك العاقبةُ عن سبب معتاد،

---

[1]– سورة المائدة، الآية 67.

وعن سعد، قال: كان رجلٌ من المشركين قد احْرقَ المسلمين؛ فقال له النبيُّ ﷺ: "ارْمِ فِدَاكَ أبي وأمي !" قال: فنزعتُ له بسَهْمٍ فيه نصْلٌ، فأصَبْتُ جَنْبَهُ، فسقَط، فانكشفَتْ عورتُه، فضحِكَ رسولُ اللّٰه ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذه.

رواه البخاريُّ، ومسلم.

أو غير سبب؟ لم يتعرض ذلك الأخبار له، فليبحثْ عنه في موضع آخر، ولما بحثتُ عن ذلك وجدتُ الشريعةَ طافحةً بالأمر له ولغيره بالتحصُّن، وأخْذ الحذر ومدافعتهم بالقتل والقتال، وإعداد الأسلحة والآلات، وقد عمل النبيُّ ﷺ بذلك، وأخذ به، فلا تعارَضُ في ذلك، واللّٰه الموفق لفهم ما هنالك. وخشخشة السِّلاح وقعقعته: صوتُ ضرب بعضه في بعض.

و(قول سعد: وقع في نفسي خوفٌ على رسول اللّٰه ﷺ فجئتُ أحرسه) دليلٌ علىً مكانة نبيِّنا ﷺ وكرامته على اللّٰه، فإنه قَضَى أمنيته، وحقَّق في الحين طلبته. وفيه دليلٌ على أن سعداً — رضي اللّٰه عنه — من عباد اللّٰه الصَّالحين المحدَّثين الملهمين، وتخصيصُه بهذه الحالة كلِّها، وبدعاء رسول اللّٰه ﷺ له من أعظم الفضائل، وأشرف المناقب، وكذلك جَمْعُ رسول اللّٰه له أبويه، وفداؤه بهما خاصَّةٌ من خصائصه؛ إذ لم يُرْوَ، ولا سُمِع أنَّ النبيَّ ﷺ فدى أحداً من الناس بأبويه جميعاً غير سعد هذا، وغير ما يأتي في حديث ابن الزبير، وقد تقدَّم أن النواجذَ آخر الأضراس، وأنها تقال على الضواحك، وأنها المعنيَّة في هذا الحديث، فإنها هي التي يمكنُ أن ينظر إليها غالباً في حال الضحك، وكان ﷺ جلَّ ضحكه التبسُّم، فإذا استغرب[1]، فغايةُ ما يظهر منه ضواحكه مع ندور ذلك منه وقِلّته.

---

[1]— "استغرب الرجل في الضحك": بالغ فيه. وكأنه من الغَرب: البُعْد.

وعنه: أنَّه نزلتْ فيه آياتٌ من القرآن. قال: حَلَفتْ أمُّ سعد ألاَّ تُكَلِّمَهُ أبداً حتى يَكْفُرَ بدينه؛ ولا تأكُلَ؛ ولا تَشْرَبَ ! قالت: زَعَمْتَ أنَّ الله وصَّاكَ بوالديك؛ وأنا أمُّك؛ وأنا آمُرُكَ بهذا ! قال: مَكَثَتْ ثلاثاً حتى غُشِيَ عليها من الجَهْد. وفي رواية قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها

و(قوله: كان رجلٌ من المشركين قد أحرق في المسلمين) أي: أصاب منهم كثيراً، وآلمهم، حتى كأنه فعل فيهم ما تفعله النار من الإحراق.

و(قوله: فترعت له بسهم لي فيه نصل) أي: رميتُه بسهم لا حديدة فيه، وقد تقدَّم: أن أصلَ النَّزع: الجذب والجبذ، وكان ضحك النبيِّ ﷺ بإصابة العدو سروراً، لا بانكشاف العورة، فإنه المنزَّهُ عن ذلك.

و(قوله: فأصبتُ جنبه) بالجيم والنون، كذا لأكثر الرواة، وكذا رؤيته, وقيَّده القاضي الشهيد حبَّته – بالحاء المهملة والموحدة – يعني به: حبة قلبه، وفيه بُعْدٌ.

و(قوله: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصاً ثم أوجروها) – بالشين الجيم – أي: فتحوا فمها، وأدخلوا فيه العصا؛ لألا تغلقه حتى يوجروها الغذاء. والوَجُور: – بفتح الواو – ما يُصبُّ في وسط الفم, اللّدود – بفتح اللام–: ما يُصَبُّ من جانب الفم. ويقال: وجرته، وأوجرته – ثلاثياً ورباعياً – وقد رواه بعضُهم: شحُّوا فاها – بحاء مهملة، وواو من غير راء – وهو قريبٌ من الأوَّل، أي: وسَّعوه بالفتح، والشَّحْوُ: التوسُّع في المشي، والدابة الشحواء: الواسعة الخطو. ويقال: شحا فاه، وشحا فوه – معدى ولازماً – أي: فتحه، ووصية الله تعالى بمبرَّة الوالدين المشركين، والإحسان إليهما وإن كانا كافرين، وحريصين على حمل الولد على الكفر. ويدلُّ دلالة قاطعة على عظيم حرمة الآباء، وتأكُّد حقوقهم.

شجروا فاها بعصاً، ثم أوجروها، فقام ابنٌ لها يُقال لهُ عُمَارةُ، فَسقاها، فجعلتْ تَدْعو على سعد؛ فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿ووَصَّيْنَا الإنسَانَ بوَالدَيه إحسانا وَ إن جَهَدَاكَ على أن تشرك بِي...﴾ ، وفيها: ﴿فَلاَ تُطعْهُمَا وَصَاحبْهُمَا في الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ .

قال: وأصاب رسولُ الله ﷺ غنيمةٌ عظيمةٌ؛ فإذا فيها سيفٌ؛ فأخذْتُهُ، فأَتَيْنُ به الرسول ﷺ، فقلتُ: نَفِّلْني هذا السَّيفَ، فأنا مَنْ قَد عَلمتَ حَالَهُ ! فقال: "رُدَّهُ من حيثُ أخَذتَهُ !". فانطلقتُ؛ حتى إذا أردتُ أن ألقيَهُ في القَبض لامتني نفسي، فرجَعْتُ إليه، فقلت: أعطنيه ! قال: فشدَّ لي صَوتهُ: "رُدَّهُ من حيث أخذتَهُ". قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عنِ الأنفَالِ...﴾ .

قال: ومَرضْتُ فأرسلتُ إلى النبيّ ﷺ فأتاني؛ فقلت: دعني أَقْسمْ مالي حيث شئتُ ! قال: فأبى. قلتُ: فالنصفَ ! قال: فأبى. قلت: فالثُّلُث، قال: فسكتَ. فكانَ بعدُ الثلثُ جائزاً.

و(قوله تعالى: ﴿وإن جَهَدَاكَ عَلَى أن تُشْرِكَ بِي مَا ليسَ لَكَ به علْم فَلاَ تُطعْهُما﴾ أي: إن جاهداك على الشرك والكفر، فلا تطعهما؛ وإن بالغا في ذلك، واتعبا أنفسهما فيه؛ فإن الشرك بالله تعالى ليس له حقيقةٌ فتعلم، كما قال تعالى: ﴿أَتُنَبئُونَ الله بمَا لا يَعْلَمُ في السَّماوات ولاَ في الأَرْض سُبْحَنَهُ وتَعَلى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]. والقَبضُ – بفتح الباء-: اسم لما يُقبض، وكذلك هو هنا، والقَبْض بسكونها: مصدر قبضت. وقد تقدَّم في الجهاد الكلامُ على قوله تعالى: ﴿يَسْئَلونَكَ عنِ الأنفَال﴾[2]، وفي الوصايا على وصيَّة سعدٍ، وما يتعلَّق بها. والحُشُّ: بستان النخل، ويقال:

---

(1)– سورة يونس، الآية 18.

(2)– سورة الأنفال، الآية 1.

قال: وأتيْتُ على نفرٍ من الأنصار والمهاجرين، فقالوا: تعَال نُطْعِمْك ونسقيك خَمْراً – وذلك قبْلَ أن تُحرَّمَ الخمر – قال: فأتيتُهُم في حَشٍّ – والحشُّ: البستانُ – فإذا رأسُ جَزُورٍ مَشْوِيٌّ عندَهم، وزِقٌّ من خمر. قال: فأكلتُ، وشربتُ معهم. قال: فَذُكِرَت الأنصارُ والمهاجرون عندَهُم، فقلتُ: المُهاجرونَ خيرٌ من الأنصار، قالَ: فَأخذَ رجلٌ أحَد لَحْيَيِ الرَّأْس، فضربني فجرحَ بأنفي". – وفي رواية: ففزره – وكان أنفُ سعد مَفْزُوراً – فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُهُ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيَّ – يعني: نفسَه – شأنَ الخمْر: ﴿إنَّما الخمْرُ والمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزْلامُ رِجْسٌ من عَمَل الشَّيْطَنِ﴾ .

في الفضائل، والترمذيُّ.

بضم الحاء وفتحها، ويُجمع على حشَّان، وقد يكنى بالحش عن موضع الخلاء، لأنهم كانوا يقضون حاجتهم في البساتين، وحائش النخل: جماعة النخل.

و(قوله: فعزره، وكان أنفُه مغزوراً) هو بتقديم الزاي مخفَّفةٌ، أي: شقَّه، والمفزور: المشقوق، ولَحْيُ الجمل – بفتح اللام –: هو احدُ فكَّي فمه، وهما: لحيان، أعلى وأسفل، والذي يمكن أن يؤخذ ويضرب به: هو الأسفل، وقد تقدَّم القولُ في قوله تعالى: ﴿يَأيُّها الَّذينَ ءَامَنُوا إنَّمَا الخمرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلَمُ رِجْسٌ﴾[1] الآية في الأشربة.

و(قول المشركين للنبيّ ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا) كان هؤلاء المشركون أشرافَ قومهم، وقيل: كان منهم: عُيينة بن حصن، والأقرع بن جابس، أنِفُوا من مجالسة ضعفاء أصحاب النبيِّ ﷺ كصهيب،

---

[1]– سورة المائدة، الآية 90.

وعنه؛ قال: كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ ستةَ نفر؛ فقال المشركون للنبيّ ﷺ: اطرُدْ هؤلاء لا يجْتَرؤون عَلَيْنا. قال: وكنتُ أنا، وابنُ مسعود، ورجلٌ من هُذَيْل، وبلالٌ، ورجُلان لَسْتُ أسمِّيهما، فوَقَع في نفسِ رسولِ الله ﷺ ما شاء الله أن يَقَعَ، فحدَّث نفسَهُ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَوْةِ والعَشِيِّ يُريدُونَ وَجْهَهُ﴾ .

وسلمان، وعمار، وبلال، وسالم، ومِهْجَع، وسعد هذا، وابن مسعود، وغيرهم ممن كان على مثل حالهم استصغاراً لهم، وكِبْراً عليهم، واستقذاراً لهم؛ فإنهم قالوا: يُؤذوننا بريحهم، وفي بعض كتب التفسير أنهم لما عرضوا ذلك على النبي ﷺ أبى، فقالوا له: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، وطلبوا أن يكتبَ لهم بذلك، فهمَّ النبيّ ﷺ بذلك، ودعا عليّاً ليكتب، فقام الفقراءُ، وجلسوا ناحية، فأنزل الله تعالى الآية.

قال الشيخ: ولهذا أشار سعد بقوله: فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع. وكان النبيُّ ﷺ إنما مال إلى ذلك طمعاً في إسلامهم، وإسلام قومهم، ورأى أنَّ ذلك لا يفوتُ أصحابه شيئاً، ولا ينقصُ لهم قدراً، فمال إليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بالغَدَوةِ والعَشيِّ يُرينُونَ وَجْهَهُ﴾[1]، فنهاه عما هَمَّ به من الطرد، لا انه أوقع الطرد، ووصَفَ أولئك بأحسن أوصافهم، وأمره أن يصبرَ نفسه معهم بقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَوةِ والعَشِيِّ﴾ ، فكان رسولُ الله ﷺ إذا رآهم بعد ذلك يقول: "مرحباً بقوم عاتبني الله فيهم وإذا جالسهم لم يقمْ حتى يكونوا هم الذين يبدؤون بالقيام.

رواه مسلم، والنسائيُّ في الكبرى، وابن ماجه.

---

[1]– سورة الأنفال، الآية 52.

و(قوله: ﴿يدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَوةِ والعَشيِّ﴾ قيل معناه: يدعون ربَّهم بالغداة بطلب التوفيق والتيسير، وبالعشي: قيل معناه: بطلب العفو عن التقصير، وقيل معناه: يذكرون الله بعد صلاة الصبح، وصلاة العصر. وقيل: يصلُّون الصُّبح والعصر، وقال ابنُ عباس — رضي الله عنهما -: يصلون الصلوات الخمس، وقال يحيى بن أبي كثير: هو مجالسُ الفقه بالغداة والعشي، وقيل يعني به: دوام أعمالهم وتعباداتهم، وإنما خصَّ طرفي النهار بالذّكر؛ لأن من عمل في وقت الشغل كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل.

و(قوله: ﴿يريدون وجهه﴾ أي: يخلصون في عباداتهم وأعمالهم لله تعالى. ويتوجهون إليه بذلك لا لغيره، ويصحُّ أن يقال: يقصدون بأعمالهم رؤية وجهه الكريم، أي: وجوده المنزّه المقدَّس عن صفات المخلوقين.

و(قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم من شيْءٍ﴾ أي: من جزائهم، ولا كفاية رزقهم، أي: جزاؤهم ورزقهم، وجزاؤك ورزقك على الله تعالى، لا على غيره، فكأنَّه يقول: وإذا كان الأمرُ كذلك: فأقبلْ عليهم وجالسْهم، ولا تطردهم مراعاةً لحقِّ مَن ليس على مثل حالهم في الدِّين، والفضل. فإن فعلتَ كنت ظالماً، وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيانٌ للأحكام، ولئلا يقعَ مثلُ ذلك من غيره من أهل الإسلام. وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾وقد علم الله منه: أنه لا يشرك، ولا يحبط عمله.

و(قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّلِمِينَ﴾) نصب بالفاء في جواب النفي، وقد تقدَّم: أن الظلمَ أصلُه وَضْعُ الشَيء في غير موضعه، يحصل من فوائد الآية والحديث: النهي عن أن يُعظَّم أحدٌ لجاهه، وأثوابه، وعن أن يُحتقر أحدٌ لخموله، ورثاثة أثوابه.

باب فضائل طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوّام

عن أبي عثمان، قال: لم يَبْقَ مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيّام التي قاتل فيهنَّ رسولُ الله ﷺ، غيرُ طلحةَ وسعدٍ، عن حديثهما.

رواه البخاريُّ، ومسلم.

ومن باب: فضائل طلحة بن عبيد الله...

طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي. شهد مع رسول الله ﷺ المشاهدَ كلَّها إلا بدراً؛ فإن رسولَ الله ﷺ كان بعثه وسعيد بن زيد يتجسَّسان خبرَ غير قريش، فلقيا رسولَ الله ﷺ منصرفه من بدر، فضرب لهما رسولُ الله ﷺ بسهمهما وأجرهما، فكانا كمن شهداها، وسمَّاه رسولُ الله ﷺ يومئذ: طلحة الخير، ويوم ذات العشيرة: طلحة الفياض، ويوم حُنين: طلحة الجود. وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ووقى النبيَّ ﷺ بيده فشلَّت أصبعاه، وجرد يومئذ أربعاً وعشرين جراحة، وهو أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنَّة. وجملة ما روي عنه من الحديث: ثمانية وثلاثون حديثاً، أخرج له منها في الصحيحين سبعة، وقُتل يوم الجمل، وكان يوم الخميس لعشر خلون من جُمادى الآخرة سنة ستٍّ وثلاثين، ويقال: إن سهماً غَرباً[1] أتاه فوقع في حلقه فقال: بسم الله ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾[2] ويقال: إن مروان ابن الحكم قتله. ودُفن بالبصرة،وهو ابنُ ستين سنة، وقيل: ابن اثنتين وستين سنة، وقيل: ابن أربع.

---

(1)– هوا لسهم الذي لا يُعرف راميه.

(2)– سورة الأحزاب، الآية 33.

.....

وأما الزُّبير – رضي الله عنه – فيكنى أبا عبد الله بولده عبد الله؛ لأنه كان أكبر أولاده، وهو الزُّبيرُ بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أمَّه: صفية بنت عبد المطلب عمةً رسول الله ﷺ أسلمتْ وأسلم الزُّبير، وهو ابنُ ثمان سنين، وقيل: ابن ست عشرة سنة، فعذّبه عمُّه بالدّخان لكي يرجعَ عن الإسلام فلم يفعل. جاهر إلى أرض الحبشة الهجرتين، ولم يتخلَّفْ عن غزوة غزاها رسولُ الله ﷺ، وهو أوَّلُ مَن سلَّ سيفاً في سبيل الله، وكان عليه يومَ بدرٍ رَبْطةٌ[1] صفراء قد اعتجر بها، وكان على الميمنة فنزلت الملائكةُ على سيماه، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، وبايعه على الموت، فقُتِل يوم الجمل، وهو ابنُ خمس وسبعين سنة. وقيل: خمس وستين. وقيل: بضع وخمسون. قتله ابن جرموز، وكان أصحاب عليٍّ، فأخبر عليّ بذلك فقال: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار. وهو أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنة، وروي عنه من الحديث مثل ما روي عن طلحة، وله الصَّحيحين مثل ما له سواء.

وأما أبو عبيدة – رضي الله عنه – فاسمه" عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال ابن أهيب بن ضبَّة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، أسلم قديماً مع عثمان بن عفان – رضي الله عنهما – وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وشهد بدراً، والمشاهد كلّها، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ونزع يومئذ بثنيَّتيه الحَلَقتين اللتين دخلتا في وجنتي رسول الله ﷺ فوقعت ثنيتاه، فكان أهتم، وكان من أحسن الناس هتماً، يزينه هتمه، وهو أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنة، وولي فتح الشام وحروبها، ومات في طاعون عمواس بالأردن، وقبر ببيسان وهو ابنُ ثمان وخمسين سنة.

---

[1]– "ربطة": هي الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة.

وعن جابر بن عبد الله، قال: نَدَبَ رسولُ الله ﷺ النَّاس يومَ الخندق؛ فانتدبَ الزُّبيرُ، ثم نَدَبَهُم، فانْتَدَبَ الزُّبير. ثم ندبهم، فانتدب الزُّبير. فقال النبيُّ ﷺ: "لكلِّ نبيٍّ حواريٌّ، وحواريَّ الزُّبَيْرُ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والنسائيُّ في الكبرى، وابن ماجه.

وعن عبد الله بن الزُّبير، قال: كنتُ أنا وعمرُ بنُ أبي سلمة يوم الخندق، مع النِّسوة في أُطُمِ حسَّانَ؛ فكان يطأطئ لي مرةً فأنظرُ، وأطأطئ له مرةً فينظُر، فكنت أعرف أبي إذا مرَّ على فرسِه في السِّلاح إلى بني قُريظة.

و(قول أبي عثمان النهدي: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسولُ الله ﷺ غير طلحة وسعد) يعني بذلك: يوم أُحُد، وقد قدَّمنا: أن طلحة ثبت يومئذ، ووقى النبيَّ ﷺ بيده فشُلَّت أصبعاه، وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جراحة.

و(قوله: عن حديثهما) هذا من قول الراوي عن ابي عثمان، وهو: المعتمر ابن سليمان، ويعني به: أن أبا عثمان إنما حدَّث بثبوت طلحة وسعد عنهما، لا أنه شاهَدَ هو ثبوتهما، فإنه تابعي لا صحابيٌّ، ولا أنه حدَّثَ بذلك عن غيرهما، بل عنهما. هما حدَّثاه بذلك. واتفق لطلحة في ذلك اليوم أنَّ النبيَّ ﷺ أثقل بالجراح، وكان عليه درعان، فنهض ليصعدَ على صخرة كانتْ هنالك، فلم يستطعْ، فحنى طلحةُ ظهرَه لاصقاً بالأرض حتى صعد النبيُّ ﷺ على ظهره حتى رقي على الصخرة، فقال النبيُّ ﷺ: "أوجبَ طلحة"، أي: أوجب له ذلك الفعلُ الثوابَ الجزيل عند الله، والمنزلةَ الشريفة. وروى جابرٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: "من سرَّه أن ينظرَ إلى شهيد يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحة بني عبيد الله". وقال النبيُّ ﷺ: "طلحة بن عبيد الله ممن قضى نحبه" أي: ممن وفَّى بنذره، وقام بواجباته.

قال: فذكرتُ ذلك لأبي؛ فقال: ورأيتَني يا بُنَيَّ؟ ! قلتُ: نعم ! قال: أما والله ! لقد جَمَعَ لي رسولُ الله ﷺ يومئذ، أبويه فقال: "فِدَاكَ أبي وأمِّي".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجه.

وعن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ كان على حِرَاء؛ هو وأبو بكر، وعُمر،و عثمانُ، وعليٌّ، وطَلحةُ، والزبير؛ فتحرَّكت الصَّخرةُ، فقال رسول الله ﷺ: "أهدأ؛ فما عليك لا نبيٌّ، أو صِدِّيقٌ، أو شهيدٌ".

و(قوله: نَدب رسولُ الله ﷺ الناسَ فانتدب الزُّبير) أي: رغَّبهم في الجهاد، وحضَّهم عليه، فأجاب الزبيرُ ثلاثَ مرات، وعند ذلك قال له النبيُّ ﷺ: "لكل نبيٍّ حواريٌّ، وحواريَّ الزُّبير". أي: خاصَّتي، والمفضَّل عندي، وناصري، وقد تقدَّم إيعابُ القول فيه في الإيمان. والأُطُم: بضم الهمزة، والطاء المهملة: هو الحِصْن، ويُجمع: آطام، بمدِّ الهمزة، وبكسرها. مثل: آكام وإكام.

و(قوله: لقد جمع لي رسولُ الله ﷺ أبويه يومئذ فقال: "فداكَ أبي وأمي") هو بفتح الفاء والقصر، فعل ماضٍ، فإن كَسَرتَ مَدَدْتَ، وهذا الحديث يدلُّ على: أنَّ النبيَّ ﷺ جَمَع أبويه لغير سعد بن أبي وقاص، وحينئذ يشكلُ بما رواه الترمذي من قول عليٍّ: إن رسول الله ﷺ ما جمع أبويه لأحد إلا لسعد، وقال له يوم أحد: "فداك أبي وأمي". ويرتفعُ الإشكالُ بأن يقال: إنَّ علياً أخبر بما في علمه، ويُحتمل أن يريدَ به أنه لم يقلْ ذلك في يوم أُحُد غيره، والله تعالى أعلم. وحِراء: جبل بمكة،وهو بكسر الحاء ممدود، وذُكِّر فيصرف، ويُؤنَّث فلا يصرف، وقد أخطأ مَن فتح جاءه، ومن قصره.

و(قوله: فتحركت الصخرة، فقال: "اهدأ فما عليك") كذا صحَّ هذا اللفظ هنا بسكون الهمزة على أنه أمرٌ من "هدأ" المذكر، وعليك: بفتح

وفي رواية: فتحرَّك الجبل؛ فقال رسول الله ﷺ: "اسكُنْ حِراءُ؛ فما عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ، أو شهيدٌ". وعليه النبيُّ ﷺ، وأبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ، وطَلحةُ، والزبيرُ، وسعد ابن أبي وقاص.

رواه أحمد، ومسلم، الترمذيُّ:

وعن عروةَ بن الزبير، قال: قالت لي عائشةُ: كان أبوك من الذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهُم القرحُ.

رواه البخاريُّ، ومسلم.

كاف خطاب المذكر، مع أنه افتتح الكلام بذكر الصخرة، فكان حقُّ خطابها أن يقال: اهدئي، فما عليك، فتُخاطبُ خطابَ المؤنَّث، لكنهَّه لما كانت تلك الصخرة جبلاً خاطبَها خطابَ المذكر، وقد تقدَّم مثل هذا كثيراً.

و(قوله: "فما عليكَ إلا نبيٌّ، أو صدِّيقٌ، أو شهيد") بأو التي هي للتقسيم والتنويع، فالنبيُّ: رسول الله ﷺ،والصِّدّيق: أبو بكر، والشهيد: من بقي – رضي الله عنهم –، وهذا من دلائل صحة نبوّة رسول الله ﷺ فإن هؤلاء كلَّهم قُتلوا شهداء. فأما عمر: فقتلَه العلْج، وأما عثمان فقُتل مظلوماً، وعليٌّ: غيلةً، وأما طلحةُ والزُّبير: فقُتلا يومَ الجمل منصرفيْن عنه تاركين له،و أما أبو عبيدة فمات بالطَّاعون، والموتُ فيه شهادة.

و(قول عائشة لعروةَ: كان أبوكَ من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابَهم القَرْحُ) استجابوا: أجابوا، والسين التاء: زائدتان. كما قال الشاعر:

وَدَاعٍ دَعا يا مَنْ يُجِيبُ إلَى النِّدَا فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

أي: لم يجبْه. القَرْح: الجراح. وإشارة عائشة إلى ما جرى في غزوة حمراء الأسد، وهو موضعٌ على نحو ثمانية أميال من المدينة، وكان من حديثها:

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسولُ الله: "إنَّ لكل أمةٍ أميناً. وإنَّ أميننا — أيَّتُها الأُمَّةُ — أبو عبيدَة بنُ الجراح".

أن النبيَّ ﷺ لما رجع إلى المدينة من أُحد بمَن بقي من أصحابه، وأكثرُهم جريح، وقد بلغَ منهم الجَهْد، والمشقَّة نهايته، أمرهم بالخروج في إثر العدوِّ مُرهباً لهم، وقال: "لا يخرجنَّ إلا مَ، كان شهدَ أُحدًا" فخرجوا على ما بهم من الضعف والجراح، وربما كان فيهم المثقل بالجراح لا يستطيعُ المشيَ، ولا يجدُ مركوباً، فربَّما يُحمل على الأعناق، كلُّ ذلك امتثالٌ لأمر رسول الله ﷺ ورغبةٌ في الجهاد والشهادة حتى وصلوا إلى حمراءِ الأسد، فلقيهم نُعَيم بن مسعود، فأخبرَهم: أن أبا سفيان بنَ حرب، ومن معه من قريش قد جمعوا جموعَهم، وأجمعوا رأيتهم على أن يرجعوا إلى المدينة، فيستأصلوا أهلَها، فقالوا ما أخبرنا الله به عنهم: ﴿حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوَكيلُ﴾[1] وبينا قريشٌ قد أجمعوا على ذلك، إذ جاءَهم معبدُ الخزاعيّ، وكانت خُزَاعةُ حلفاءَ النبيّ وعَيْبة نُصْحه، وكان قد رأى حالَ أصحاب النبيّ ﷺ وما هم عليه، ولما رأى عزمَ قريش على الرجوع، واستئصال أهل المدينة حملَه خوفُ ذلك، وخالصُ نُصْحه للنبيِّ ﷺ وأصحابه على أن خوَّف قريشاً بأن قال لهم: إني قد تركتُ محمداً وأصحابَه بحمراء الأسد في جيش عظيم، وقد اجتمع له كلُّ من تخلَّف عنه، وهم قد تحرَّقوا عليكم، وكأنهم قد أدركوكم، فالنَّجاء النَّجاء، وأنشدَهم شعراً يُعظِّم فيه جيش محمد ﷺ ويكثِّرهم، وهو مذكورٌ في كتب السير، فقذفَ الله في قلوبهم الرُّعب، ورجعوا إلى مكَّة مُسرعين خائفين، ورجعَ النبيَّ ﷺ في أصحابه إلى المدينة مأجوراً منصوراً، كما قال تعالى: ﴿فَانْقَلبوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسهُمْ

---

[1]— سورة آل عمران، الآية 173.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

سُوءٌ واتَّبعُوا رِضْوانَ الله والله ذُو فضْلٍ عَظيمٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿الَّذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُم فاخْشَوْهُمْ﴾[2] يعني به نُعيم مسعود الذي خوَّف أصحاب النبي ﷺ، وقوله: ﴿إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ..﴾ يعني به: قريشاً.

و(قوله ﷺ: "إن لكلِّ أمَّة أميناً وأمينُنا – أيتها الأمة – أبو عُبيدة بن الجراح") الأمانة: ضد الخيانة، وهي عبارة عن: قُوّة الرجل على القيام بحفظ ما يُوكل إلى حفظه، ويُخلَّى بينَه وبينَه. وهي مأخوذة من قولهم: ناقةٌ أمونٌ، أي: قويّة على الحمل والسير، فكأنَّ الأمينَ هو الذي يُوثق في حفظ ما يُوكل إلى أمانته حتى يُؤدِّيه لقوته على ذلك. وكان أبو عبيدة قد خصَّه الله تعالى من هذا الحظ الأكبر، والنصيب الأكثر، بحيث شهد له بذلك المعصومُ، وصارَ له ذلك الاسمَ، والعلمَ المعلوم، وقد ظهر ذلك من حاله للعيان حتى استوى في معرفته كلُّ إنسان، وذلك أنَّ عمر – رضي الله عنه – لما قدمَ الشام مُتفقِّداً أحوالَ الناس والأمراء، وخل منازلَهم، وبحث عنهم أرادَ أن يدخلَ مترلَ أبي عبيدة، وهو أميرٌ على الشام، قد فُتحت عليه بلادُه وترادفت عليه فتوحاته، وخيراتُه، واجتمعت له كنوزه، وأموالُه، فلما كلَّمه عمر – رضي الله عنه – في ذلك، قال له: يا أمير المؤمنين ! والله لئن دخلت مترلي لتعصرنَّ عينيْك، فلما دخل مترلَه لم يجد فيه شيئاً يردُّ البصرَ أكثر من سلاحه وأداة رحل بعيره، فبكى عمر – رضي الله عنه – وقال: صدقَ رسول الله ﷺ: "أنت أمينُ هذه الأمة"، أو كما قال، وكان النبي ﷺ قد أخبر عن كلِّ واحدٍ من أعيان أصحابه

---

[1]– سورة آل عمران، الآية 173.

[2]– سورة آل عمران، الآية 173.

وعنه: أنَّ أهل اليمن قَدمُوا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابْعثْ معنا رجلاً يُعلِّمنا السُّنَّة والإسلامَ. قال: فأخذ بيد أبي عُبَيْدة، فقال: "هذا أمين هذه الأمَّةِ".

رواه مسلم.

وعن حذيفة، قال: جاء أهلُ نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ! ابعث إلينا رجلاً أميناً: فقال: "لأبْعَثَنَّ إليكُم رجلاً أميناً حقَّ أمينé. قال: فاستشرف لها الناس. قال: فبعث أبا عبيدة بنَ الجرَّاح.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجه.

– رضي الله عنهم – بما غلبَ عليه من أوصافه، وإن كانوا كلُّهم فضلاء، علماء، حكماء، مختارين لمختار، فقال ﷺ فيما رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك: "أرحمُ أمتي بأمتي: أبو بكر، وأشدُّهم في أمر الله: عمر، وأصدقُهم حياءً: عثمان، وأعلمُهم بالحلال والحرام: معاذ، وأفرضُهم: زيد، وأقرأُهم: أبيّ، ولكلِّ أمَّة أمين. وأمينُ هذه الأمَّة: أبو عُبيدة". ومن حديث عبد الله بن عمرو: "مَا أظلَّتِ الخضراءُ، ولا أقلَّتِ الغبراءُ أصدقَ لهجةٌ من أبي ذرٍّ".

و(قوله: "أيتها الأمَّة") هو منادى محذوف حرف النداء. والأمَّة: نعته مرفوعاً، والأفصحُ: نصبُها على الاختصاص، حكى سيبويه: اللهم اغفر لنا أيتها العِصَابة بالنصب.

و(قوله: "لأبعثنَّ إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمين") هو بنصب (حقَّ أمين) على أنه مصدر مضاف، وهو في موضع الصِّفة تقديرُه أميناً مُحَقِّقاً في أمانته.

و(قوله: فاستشرفَ لها الناس) أي: تشوَّفوا، وتعرَّضوا لمن هو الموجَّه معهم، وكلُّهم يحرصُ على أن يكونَ هو المَعنيُّ؛ إذ كلُّ واحد منهم أمين.

باب فضائل الحسن والحسين

عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال لحسن: "اللهُمَّ إنِّي أُحِبُّه: فأَحِبَّهُ، وأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّهُ".

رواه أحمد، ومسلم، وابن ماجه.

ومن باب: فضائل الحسن والحسين
ابْنَيْ علي بن أبي طالب – رضي الله عنهم –

وأمهما: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، يُكنى الحسن: أبا محمد، والحسين: أبا عبد الله. وُلد الحسنُ في النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة. هذا أصحُّ ما قيل في ذلك، وولد الحسين لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة. وقيل: سنة ثلاث، هذا قولُ الواقدي. وقال: علقتْ به فاطمةُ – رضي الله عنها – بعد مولد الحسن بخمسين ليلة، ومات الحسن مسموماً في ربيع الأول من سنة خمسين بعدما مضى من خلافة معاوية عشر سنين. وقيل: بل مات سنة إحدى وخمسين، ودُفن ببقيع الغرقد إلى جانب قبر أمه، وصلَّى عليه سعيد بن العاص، وكانَ أميرَ المدينة، قدَّمه الحسينُ، وقال: لولا أنَّها سُنَّة لما قدَّمتك، وقد كان وصَّى أن يدفن مع رسول الله ﷺ، إن أذنتْ في ذلك عائشة فأذنتْ في ذلك، ومنع من ذلك مروان، وبنو أمية، وروى أبو عمر بإسناده إلى عليٍّ – رضي الله عنه – قال: لما ولد الحسن جاءه رسولُ الله ﷺ فقال: "أروني ابني، ما سَمَّيتموه؟" قلت: حرباً. قال: "بل هو: حسن". فلما وُلد الحسين، قال: "أروني ابني، ما سميتموه؟" قلت: حرباً. فال: "بل هو: حسين". فلما ولد الثالث، قال: "أروني ابني، ما سمّيتموه؟" قلت: حرباً. "بل هو: مُحسِّن". وعقَّ

وعنه، قال: خرجتُ مع رسول الله ﷺ في طائفة من النَّهار؛ لا يُكلِّمني

النبيُّ ﷺ عن كلِّ واحد من الحسن والحسين يوم سابعه بكبش كبش، وأمر أن يحلق كل واحدٍ منهما، وأن يتصدَّق بوزن شعرهما فضة. وقال عليٌّ — رضي الله عنه-: كان الحسينُ — رضي الله عنه — أشبه الناس برسوله الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحسن أشبه الناس للنبيِّ ﷺ ما كان أسفل من ذلك. وتواردت الآثارُ الصِّحاح عن النبيِّ ﷺ أنه قال في الحسن: "إنَّ ابني هذا سيِّد، وعسى الله أن يبقيَه حتى يصلحَ به بين فئتين عظمتين من المسلمين". ولا أسود ممن سوَّدَه رسولُ الله ﷺ، وشهد له بذلك، وكان حليماً، ورعاً، فاضلاً، دعاه ورعُه وفَضْلُه إلى أن ترَك المُلْكَ والدُّنيا رغبةٌ فيما عند الله. ومما يدلُّ على صحة ذلك وعلى صدق النبيّ ﷺ، وصحة نبوته ما قد اشتهر من حال الحسن، وتواتر من قضيَّ خلافته، وإصلاحه بين المسلمين، وذلك: أنه لما قُتل عليٌّ — رضي الله عنه — بايعه أكثرُ من أربعين ألفاً، وكثيرٌ ممن تخلَّف عن أبيه، وممن نكث بيعتَه، فبقي نحو سبعة أشهر خليفةٌ بالعراق، وما وراءها من خراسان، ثم سار إلى معاوية في أهل الحجاز والعراق، وما وراءها من خراسان، ثم سار إليه معاوية في أهل الشام، فلما تراءى الجمعان بموضع يقالُ له: مَسْكَن، من أرض السواد بناحية الآبار، كره الحسنُ القتالَ لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تَغْلبُ حتى يهلكَ أكثر الأخرى، فيهلك المسلمون، فسلَّم الأمرَ لمعاوية على شروط شرطها عليه، منها: أن يكون الأمرُ له من بعد معاوية، فالتزم كل ذلك معاوية، واجتمع الناسُ على بيعته في النصف من جمادى الأولى من سنة إحدى وأربعين. هذا أصحُّ ما قيل في ذلك، ولَّما فعل ذلك الحسنُ عتب عليه أصحابُه، ولاموه على ذلك؛ حتى قال له بعضُ أصحابه: يا عار المؤمنين ! فقال: العارُ خيرٌ من النار. وقال له شيخٌ من أهل الكوفة يكنى أبا عامر لما قدمها: السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين، فقال له: لا تقلْ ذلك

.....

يا أبا عامر ! فإني لم أذلَّ المؤمنين، ولكنِّي كرهت أن أقتلهم في طلب المُلْك، فقد ظهر ما قاله سيِّد المرسلين من أن الحسنَ سيِّدٌ، وأن الله أصلحَ به بين فئتين من المسلمين، لكن خُشي من طول عمره فسُمَّ فمات من فوره، ونقل الثقات: أنه لما سُمَّ لفظَ قطعاً من كبده، وحينئذ قال: لقد سُقيتُ السمَّ ثلاث مرات لم أسق مثل هذه المرة، فقال له الحسين: يا أخي من سقاك؟ قال: وما تريدُ إليه؟ أتريدُ أن تقتله؟ قال: نعم. قال: لئن كان الذي أظنُّ؛ فالله أشد نقمة، ولئن كان غيره فما أحب أن يُقْتَلَ بي بريء. ولما ورد البريدُ بموته على معاوية قال: يا عجباً من الحسن شرب شربةً من عسل بماء رومة فقضى نحبه.

وأما الحسينُ – رضي الله عنه –، فكان فاضلاً، ديِّناً، كثير الصَّوم، والصَّلاة، والحج، قال مصعب الزبيري: حجَّ الحسينُ خمساً وعشرين حجَّةً ماشياً، وقد قال النبيُّ ﷺ فيه وفي الحسن: "إنَّهما سيِّدا شباب أهل الجنة". وقال: "هما ريحانتاي من الدنيا". وكان النبيُّ ﷺ إذا رآهما هشَّ لهما، وربما أخذهما، كما روى أبو داود: أنهما دخلا المسجدَ وهو يخطبُ فقطع خُطبته ونزل فأخذهما، وصَعد بهما، وقال: "رأيتُ هذين، فلم أصبرْ"؛ وكان يقولُ فيهما: "اللهم إني أحبهما فأحبَّهما، وأَحبَّ من يحبُّهما". وقُتل – رحمه الله، ولا رحم قاتله – يوم الجمعة لعشر خلون من محرَّم سنة إحدى وستين بموضع يقال له: كربلاء، بقرب موضع يقال له: الطفُّ بقرب من الكوفة. قال أهلُ التواريخ: لما مات معاوية، وأفضت الخلافةُ إلى يزيد، وذلك في سنة ستين، وردتْ بيعتُه على الوليد بن عتبةَ بالمدينة ليأخذ البيعة على أهلها، أرسل إلى الحسين بن عليٍّ، وإلى عبد الله بن الزبير ليلاً فأُتي بهما فقال: بايعا. فقالا: مثلُنا لا يبايعُ سرًّا، ولكنَّا نبايعُ على رؤوس الناس إذا أصبحنا، فرجعا إلى بيوتهما، وخرجا من ليلتهما إلى مكَّة،

ولا أُكَلِّمُهُ؛ حتَّى جاءَ سُوقَ بني قَيْقَاع، ثم انصرف حتى أتى خِبَاءَ فاطمةَ

وذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب، فأقام الحسينُ بمكة شعبان ورمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم خرج يوم التروية يريد الكوفة، فبحث عبيدُ الله بن زياد خيلاً لقتلِ الحسين، وأمَّر عليهم عمر بن سعد، فأدركه بكربلاء فقتل الحسين، وقتل معه من ولده واخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلا، وسُبي نساؤه، وذلك في يوم عاشوراء من السنة المذكورة. وكان من قضاء الله تعالى وتعجيل عقوبته لعبيد الله ابن زياد: أن قُتل يوم عاشوراء سنة سبع وستين. قتله إبراهيمُ بن الأشتر في الحرب، وبعث برأسه إلى المختار، وبعث به المختارُ إلى ابن الزبير، فبعث به إلى عليِّ بن حسين. واختلف في سنِّ الحسين يوم قتل. فقيل: سبع وخمسون. وقيل: ثمان. وقيل: أربع. وقال جعفر بن محمد: توفي عليُّ بن أبي طالب وهو ابنُ ثمان وخمسين. وقتل الحسن وهو ابن ثمان وخمسين، وتوفي علي بن الحسين، وهو ابنُ ثمان وخمسين، وتوفي محمد بن عليٍّ، وهو ابن ثمان وخمسين. قال سفيان: قال لي جعفر بن محمد، وأنا بهذه السنة في ثمان وخمسين، وتوفي فيها — رحمة الله عليهم أجمعين -. وروي عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أنه قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ فيما يرى النائم نصف النهار، وهو قائمٌ أشعثَ، أغبرَ، بيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله ! ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين، لم أزل ألقطه منذ اليوم، فوُجد قد قُتل في ذلك اليوم. وأما الحسن فكان سنه يوم مات ستاً وأربعين سنة، وقيلَ: سبعاً وأربعين سنة. وروى الحسن عن النبيِّ حديث الدعاء في القنوت. وقوله: "إنَّا آل محمد لا تحلُّ لنا الصدقة". وروى الحسين عن النبيّ ﷺ: "من حُسْن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه". وقوله في ابن صائد: "اختلفتم وأناَ بين أظهركم؟ فأنتم بعدي أشدُّ اختلافاً".

و(قوله: حتى أتى خباء فاطمة) أي: بيتها، وأصلُ الخباء: ما يُخبأ فيه، وقد صار بحكم العُرْفَ العربيِّ عبارةً عن بيوت الأعراب.

فقال: "أَثَمَّ لُكَعُ؟ أَثَمَّ لُكَعُ؟" حتى جاء - يعني: حسناً - فظَنَنَّا أنّه إنما تحبسه أمُّه لأنْ تُغَسِّلهُ، وتُلْبسهُ سخَاباً، فلم يلبثْ أن جاء يسعى، حتى اعتنق اعتنق كلٌّ واحد منهما صاحبَه، فقال رسول الله ﷺ: "اللهمَّ إنِّي أحبُّه؛ فأحبَّه، وأحبَّ مَنْ يحبُّه".

و(قوله ﷺ للحسن: "أَثَمَّ لُكَع؟") يعني به: الصغير، وهي لغة بني تميم، وسئل ابن جرير عن اللكع، فقال: هو الصغير لغتنا، وأصل هذه الكلمة: أنها تُستعملْ للتحقير، والتجهيل، واللكع: العبد الوغد، والقليل العقل، ويقال للأنثى: لكعاء، ويُعدل به في النداء إلى لَكاع، وقد تقدم القول فيه. ويُحتمل أن يكون النبيُّ ﷺ مُمازحاً بذلك اللفظ، ومُؤْنساً كما يقول الرجلُ لابنه الصَّغير: تعالَ يا كُليب، وكما قالت العربية لابنها وهي تُرَقّصه: حُزُقَّة عيْن بقّة[1]. والسَّخاب: خيطٌ فيه خرز يُنظم، ويُجعل في عنق الصِّبيان، والسِّخاب مأخوذ من السخب، وهو اختلاط الأصوات، وارتفاعها، وكأنَّ هذه الخرزات لها أصواتٌ مختلفة عند احتكاك بعضها مع البعض، وقيل: السِّخاب من القائد: ما اتُّخذ من القرنفل، والمسك، والعود وشبهه، دون الجوهر. وفيه من الفقه: المحافظة على النظافة، وعلى تحسين الصِّغار، وتزيينهم، وخصوصاً عند لقاء من يُعظَّم ويُحترم.

و(قوله: حتى اعتنق كلٌّ واحد منهما صاحبه) فيه ما يدلُّ علة تواضع النبيّ ﷺ ورحمته بالصِّغار، وإكرامَه ومحبَّته للحسن، ولا خلافَ - فيما أحسب - في جواز عناق الصِّغار كما فَعَل النبي ﷺ، وإنما اختلف في عناق الكبير في حالة السلام، وكرهه مالك، وأجازه سفيان بن عُيينة، وغيره، واحتجَّ سفيان على مالك في ذلك بعناق النبيِّ ﷺ جعفراً لما قدم عليه، فقال مالك: ذلك مخصوصٌ بجعفر. وقال سفيان: ما يخصُّ جعفراً يعمّنا،

---

[1]- في اللسان مادة (حزق). وفي كلامهم: (حُزُقَّة، تَرَقَّ عين بَقّه). الحزقة: الضعيف يقارب خطوة. تَرَقّ: بمعنى اصعد. عَيْنُ بَقّة: كناية عن صغر العين.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وابن ماجه.

وعن البراء، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ واضعاً الحسنَ بنَ عليّ على عاتقه وهو يقول: "اللهم إنِّي أحبَّه فأحبَّهُ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

وعن إياس عن ابيه، قال: لقد قدْتُ بنبيِّ الله ﷺ والحسنِ والحُسَيْنِ، بَغْلَتهُ الشَّهْباء. حتى أدخلْتُمُ حُجْرَةَ النبِّيِّ، هذا قُدَّامَهُ، وهذا خلفه.

رواه مسلم، والترمذيُّ.

فسكت مالك، ويدلُّ سكوتُ مالك على أنه ظهر له ما قاله سُفيان من جواز ذلك. قال القاضي عياض: وهُو الحقُّ حتى يدلَّ دليلٌ على تخصيص جعفر بذلك. والعاتق: ما بين المنكب إلى العنق، وقيل: هو موضعُ الرِّداء من المنكب. وفيه من الفقه ما يدلُّ على: جواز حَمْل الصِّبيان، وتَرْك التعمُّق في التحفظ مما يكونُ منهم من المخاط والبول، وغير ذلك، فلا يُجتنبُ من ذلك إلا ما ظهرتْ عينه، أو تحقق، أو تفاحش، وكان النبيُّ ﷺ وأصحابُه يعملون على مقتضى الحنيفيَّة السَّمحة، فيمشون حفاةً في الطين، ويجلسون بالأرض، وتكون عليهم الثيابُ الوسخة التي ليستْ لنجسة، ويلعقون أصابعَهم، والقصعةَ عند الأكل، ولا يعيبون شيئاً من ذلك، ولا يتوسمون فيه، وكلُّ ذلك ردٌّ على غلاة متوسوسة الصوفية اليوم؛ فإنَّهم يُبالغون في نظافة الظَّواهر والثياب، وبواطنُهم وسخةٌ خَراب.

و(قوله: لقد قدتُ برسول الله ﷺ والحسن والحسين بغلته) هذا يدلُّ على جواز ركوب ثلاثة على دابَّة؛ لكن إذا لم يثقلوها، وقد روي عن عليٍّ وغيره: كراهة ذلكً، ورُوي فِي ذلك نهيٌ عن النبيّ ﷺ لكن محله — والله تعالى أعلم — على ما إذا أثقلها وفَدَحها[1].

---

[1]— "قدحها": أي أثقلها.

باب فضائل أهل البيت – رضي الله عنهم –

عن عائشة، قالت: خرج النبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ من شعر أسودَ، فجاء الحسنُ بنُ عليٍّ فأدخله، ثم جاء الحسينُ فدخل معه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إنَّما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً﴾ [الأحزاب: 33].

رواه مسلم.

ومن باب: فضائل أهل البيت

(قوله: مرط مُرَحَّل) المرط: الكساء، وجمعه: مُروط. والمرحَّل: يُروى بالحاء يعني: فيه صور الرِّحال، ويُروى بالجيم، أي: فيه صور الرجال، أو صور المراجل، وهي : القدور، يقال: ثوب مراجل، أو ثوب مرجَّل: هذا قولُ الشارحين.

قلتُ: ويظهرُ لي أنَّ المرجَّل هنا: يُراد به الممشوط خَمَلُه وزُبْرُه[1].

قال امرؤ القيس:

خَرجْتُ بِهَا نمشي تَجُرُّ وَرَاءَنـــا عَلى أثَرَيْنـــا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

وهذا أولى؛ لأن النبيّ ﷺ كيف يلبسُ الثوبَ الذي فيه صورُ الرِّجال؟ مع أنه قد نهى عن الصور، وهَتَك السِّترَ الذي كانتْ فيه، وغضب عند رؤيته، كما تقدَّم في اللباس. وقراءةُ النبيّ ﷺ هذه الآية: ﴿إنَّما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهيراً﴾[2] دليلٌ على: أنَّ أَهلَ البيت المعنيون في الآية: هم المَغطَّوْن بذلك المرط في ذلك الوقت.

---

(1)– "الزُّبر": الشَّعر المجتمع للفحل وغيره.

(2)– سورة لأحزاب، الآية 33.

وعن يزيدَ بن حيَّانَ، قال: انطلقتُ أنا وحصينُ بن سَبْرَةَ وعُمر بنُ مُسلمٍ إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً؛ رأيتَ رسولَ الله ﷺ، وسمعتَ حديثه، وغزوت معه، وصلَّيتَ خلفه، لقد لقيت يا زيدُ خيراً كثيراً ! حدِّثْنا يا زيدُ ما سمعتَ من رسول الله ﷺ !.

قال: يا بن أخي ! والله لقد كبرتْ سنِّي، وقَدُم عهْدي، ونسيتُ بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدَّثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تُكلِّفُونيه ! ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يُدْعى خُمًّاً بين مكة والمدينة، فحمدَ الله وأثنى عليه، ووعَظَ، وذكَّر، ثم قال: "أما بعدُ ألاَ أيُّها النَّاس ! إنَّما أنا بشرٌ يُوشك أن يأتيني رسولُ ربي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْن، أوَّلهما كتاب الله فيه الهُدى والنور، فخذوا بكتاب الله،

والرجس: اسم لكلِّ ما يُستقذر. قاله الأزهريُّ. والمرادُ بالرِّجس الذي أُذهب عن أهل البيت: هو مستخبثُ الخُلُق المذمومة، والأحوال الرَّكيكة، وطهارتهم: عبارةٌ عن تجنُّبهم ذلك، واتِّصافهم بالأخلاق الكريمة، والأحوال الشريفة.

و(قوله: قام فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً بماء يدعى خُمّاً) هو بضم الخاء المعجمة، وهو موضعٌ معروفٌ، وهو الذي أكثرت الشيعةُ وأهلُ الأهواء فيه من الكذب على رسول الله ﷺ في استخلافه علياً، ووصيَّته إياه، ولم يصحَّ من ذلك كلِّه شيءٌ إلاَّ هذا الحديث.

و(قوله: "وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلين") يعني: كتاب الله وأهل بيته. وقال ثعلب سمَّاهما ثقلين؛ لأن الأخذَ بهما، والعملَ بهما ثقيل، والعرب تقول لكلِّ شيءٍ خطيرٍ نفيس: ثقيل.

قال الشيخ رحمه الله: وذلك لحرمة الشَّيء النَّفيس، وصعوبة روم الوصول إليه، فكأنه ﷺ إنما سمَّى كتابَ الله، وأهل بيته: ثقلين لنفاستهما، وعظم حرمتهما، وصعوبة القيام بحقِّهما.

واستمسكوا به" فحث على كتاب الله ورغَّب فيه. ثم قال: "وأهلُ بيتي، أُذكِّركُمُ الله في أهل بيتي ! أذكّركم الله في أهل بيتي ! أذكِّركم الله في أهل بيتي !"؟ فقال له حصين: ومن أهلُ بيته يا زيد؟ ! أليس نساؤُهُ من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته. ولكن: أهلُ بيته من حُرِمَ الصدقة بعده؟ قال: وهم هُم؟ قال: هُمْ آلُ عليٍّ، وآل عقيل، وآلُ جعفر، وآلُ عبَّاس. قال: كل هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نَعَم.

و(قوله في كتاب الله: "هو حبلُ الله") أي: عهد الله الذي عهده لعباده، وسَبَبه القويّ الذي مَن تمسَّك به وَصَلَ إلى مقصوده، وقد ذكر المعنى بأشبع من هذا فيما تقدَّم.

و(قوله: "وأهل بيت، أُذكِّركم الله في أهل بيتي — ثلاثاً-" هذه الوصية، وهذا التأكيد العظيم يقتضي: وجوبَ احترام النبيِّ ﷺ وأهل بيته، وإبرارهم، وتوقيرهم، ومحبتهم وجوب الفروض المؤكدة التي لا عُذْرَ لأحد في التخلُّف عنها. هذا مع ما عُلِم من خصوصيَّتهم بالنبيِّ ﷺ وبأنَّهم جزءٌ منه، فإنَّهم أصولُه التي نشأ منها، وفروعه التي تنشأ عنه، كما قال ﷺ: "فاطمةُ بَضْعةٌ مني يُريبني ما يُريبها"، ومع ذلك فقابل بنو أمية عظيمَ هذه الحقوق بالمخالفة والعقوق، فسفكوا من أهل البيت دماءهم، وسَبَوْا نساءهم وأسروا صغارهم، وخربوا ديارهم، وجحدوا شرفهم، وفضلهم، واستباحوا سبَّهم، ولعنهم، فخالفوا رسولَ الله ﷺ في وصيته، وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته، فواخجلهم إذا وقفوا بين يديه ! ويا فضيحتهم يوم يعرضوه عليه !.

وفي رواية: "كتاب الله: هو حبل الله، من اتَّبعَهُ كان على الهدى، ومن تركه كان على ضَلالة"، وفيها: فقلنا: ومن أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا، وايم الله ! إنّ المرأة تكون مع الرجل العصْرَ من الدهر، ثم يُطَلِّقُها فتَرجعُ إلى أبيها وقومها. أهلُ بيته أصلُه وعَصَبتهُ الذين حُرِمُوا الصدقَةَ بعدَهُ.

رواه أحمد، ومسلم.

و(قوله: مَنْ أهلُ بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟) هذا سؤالُ من تمسَّك بظاهر لفظ البيت، فإنَّ الزوجةَ: هي أصلُ بيت الرجل، إذ هي: التي تعمره، وتُلازمه، وتقومُ بمصالحه، وكذلك إجابة زيد بأن قال: نساؤه من أهل بيته. أي: بيته المحسوس، وليس هو المرادُ هنا، ولذلك قال في الرواية الأخرى في جواب السائل: لا ! أي: ليس نساؤه من أهل بيته، المعنى هنا: لكن هم أصلُه وعصبته، ثم عيَّنهم بأنهم: هم الذين حُرِمُوا الصدقة. أي الذين تحرمُ عليهم الصدقات الشرعية على الخلاف الذي ذكرناه في كتاب: الزكاة، وقد عيَّنهم زيدٌ تعييناً يرتفعُ معه الإشكال، فقال: هم آل عليٍّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس — رضي الله عنهم — فقيل له: أكلُّ هؤلاء حرم الصَّدَقة؟ قال: نعم. وقد ذهب بعض المتأولين في هذا اللفظ إلى أنَّ مرادَ زيد به: اللذين منعهم خلفاء بني أمية صدقة النبيّ ﷺ بما كان خصَّه الله تعالى به التي كانت تقسم عليهم أيام الخلفاء الأربعة. وهذا فيه بُعْدٌ، فالأول أظهر.

باب فضائل زيد بن حارثةَ وأسامةَ بن زيد

عن ابن عمر، أنَّه كان يقول: ما كنا ندعو زيدَ بن حارثةَ إلا زيداً بن محمد. حتى نزل في القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عندَ اللهِ﴾.

ومن باب: فضائل زيد بن حارثة بن شرحبيل ابن كعب الكلبي مولى رسول الله ﷺ

ويُكنى: أبا أسامة بابنه أسامة بن زيد، وكان أصابه سباءٌ في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لخديجةَ بنت خُويلد – رضي الله عنها – فوهبته للنبيّ ﷺ وذلك قبل النبوَّة بمكة، وزيدٌ ابنُ ثماني سنين، فأعتقه، وتبنَّاه النبيُّ ﷺ فكان يطوفُ به على حلَق قريشٍ ويقول: "هذا ابني وارثاً، وموروثاً" – يشهدهم على ذلك –. وذكر عن الزُّهريِّ: أنَّه قال: ما علمتُ أحداً أسلم قبل زيد. ورُوي عن الزُّهريِّ من وجوه: أنَّ أوَّلَ من اسلم خديجة.وقُتل زيدٌ بمؤتة من ارض الشام سنة ثمانٍ من وجوه: أنَّ أوَّلَ من أسلَم خديجة.وقُتل زيدٌ بمؤتة من أرض الشام سنة ثمانٍ من الهجرة، وكان النبيُّ ﷺ أمَّره في تلك الغزاة، وقال: "إن قُتل زيدٌ فجعفَر، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة" فقتل الثلاثة في تلك الغزاة، ولمَّا أتى رسولَ الله ﷺ نعيُ زيدٍ، وجعفر بكى، وقال: "أخواي، ومؤنساي، ومحدِّثاي".

(قوله: ما كنَّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيدَ محمّد) كان التبنّي معمولاً به في الجاهلية والإسلام، يُتوارث به، ويُتناصر؛ إلى أن نسخَ الله ذلك كلَّه بقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عندَ اللهِ﴾[1] أي: أعدلُ. فرفعَ الله تعالى حكم التبنّي، ومنعَ من إطلاق لفظه، وأرشدَ بقوله إلى الأولى والأعدل أن

---

[1]– سورة الأحزاب، الآية 59.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

يُنسب الرَّجلُ إلى أبيه نسباً، ولو نُسب إلى أبيه من التبنِّي؛ فإن كان على جهة الخطأ – وهو أن يسبقَ اللسان إلى ذلك من غير قصد – فلا إثمَ، ولا مؤاخذةَ، لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فيمَا أَخْطَأْتُم به﴾[1] أي: لا إثمَ فيه، ولا يجري هذا المجرى إطلاق ما غلبَ عليه اسم التبنِّي، كالحال في المقداد بن عمرو؛ الأسودَ بن عبد يغوث كان قد تبنَّاه في الجاهلية، وعُرف به، فلمَّا نزلت الآية قال المقداد: أنا ابنُ عمرو، ومع ذلك فبقي ذلك الإطلاق عليه، ولم يُسمع فيمن مضى من عصى[2] مُطلَقَ ذلك عليه؛ وإن كان متعمداً. وليس كذلك الحال في زيد بن حارثة؛ فإنَّه لا يجوزُ أن يُقالَ فيه: زيدَ بن محمَّد، فإن قاله أحدٌ متعمِّداً عصَى، لقوله تعالى: ﴿ولَكن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[3] أي: فعليكم فيه الجناحُ. والله تعالى أعلم. ولذلكَ قال بعده: ﴿وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحيماً﴾[4] أي: غفوراً للعمد ورحيماً برفع إثم الخطأ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لأَبَآئهمْ﴾[5] أي: انسبوهم إليهم، ولذلك عدّاه باللام، ولم كان الدُّعاء بمعنى: النداء لعدَّاه بالباء.

و(قوله: فإن لَّم تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُم فإخْوَانُكُمْ في الدِّين ومَوَاليكُم﴾[6] فانتسبوهم إليكم نسبة الأخوة الدينيّة التي قالَ لله فيها: ﴿إنَّما المُؤْمنُونَ إخْوَةٌ﴾[7] والمولويَّة التي قال فيها: ﴿وَالمُؤْمنُونَ وَالمُؤْمنَتُ بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْض﴾[8]. وقد تقدَّم: إنَّه يُقال:مولى على المُعْتِق، والمُعْتَق، وابن العمِّ، والنَّاصر.

---

(1)– سورة الأحزاب، الآية 8.
(2)– "عصّى": اعتبره عاصياً لله.
(3)– سورة الأحزاب، الآية 8.
(4)– سورة الأحزاب، الآية 8.
(5)– سورة الأحزاب، الآية 8.
(6)– سورة الأحزاب، الآية 8.
(7)– سورة الحجرات.
(8)– سورة التوبة، الآية 7.

وعنه؛ قال: بعث رسولُ الله ﷺ بعثاً. وأمَّر عليهم أسامةَ ابن زيد، فطعن النّاس في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: "إنْ تطعنوا في إمْرَتِه؛ فقد

و(قوله: بعثَ رسول الله ﷺ بَعْثاً، وأمَّر عليهم أسامةَ بن زيد – رضي الله عنهما –) هذا البعثُ – والله تعالى أعلم – هو الذي جهَّزه رسولُ الله ﷺ مع أسامة، وأمَّره عليهم، وأمرَه أن يغزوَ أُبنى، وهي القرية التي هي عند مؤتة – الموضع الذي قُتل فيه زيدٌ أبو أسامة – فأمرَه أن يأخذَ بثأر أبيه. وطعن من في قلبه ريبٌ في إمارّته؛ من حيث: أنَّه من الموالي، ومن حيث: إنَّه كان صغيرَ السِّنِّ؛ لأنَّه كان إذ ذاك ابنَ ثماني عشرة سنةً، فماتَ النبيُّ ﷺ وقد برزَ هذا البعثُ عن المدينة، ولم ينفصل بعدُ عنها، فنفَّذَه أبو بكر – رضي الله عنه – بعد موت رسول الله ﷺ.

و(قوله: "إن تطعنوا في إمرته؛ فقد كنتم طعنتم في إمرة أبيه قبل") هذا خطابٌ منه ﷺ لمن وقع له ذلك الطعن، لكنه على كريم خُلُقه لم يُعيِّنهم سترا لهم؛ إذ مَعْتبتُه كانت كذلك، كما تقدَّم، وكان الطَّعن في إمارة زيد من حيث أنَّه كان مولى، فشهد النبيّ ﷺ لأسامة وأبيه – رضي الله عنهما – بأنَّهما صالحان للإمارة، لما يعلم من أهليَّتهما لها، وأنَّ كونهما مولييْن لا يغضُّ من مناصبهما، ولا يقدحُ في أهليَّتهما للإمارة. ولا خلاف أعلمُ في جواز إمارة المولى والمفضول، وقد تقدَّم القولُ في استخلاف المفضول. و(الإمرة) رويناها بالكسر بمعنى: الولاية، وقال أبو عُبيد: يُقال: لك عليَّ أمرةٌ مطاعةٌ – بفتح الهمزة – وكذلك حكاه القتبي، وهي واحدة الأمر.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا على قياس: جَلسة، وجِلسة – بالفتح للمصدر والكسر للهيئة –.

والخليقُ، والحريُّ، والقَمِنُ، والحقيقُ: كُلُّها بمعنى واحدٍ.

كنتم تطعنون في إمْرة أبيه من قبل، وايْمُ الله ! إنْ كان لخليقاً للإمْرَة، وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحبّ النَّاس إليَّ بَعدَه".

و(قوله: "وإن كان لمن أحبّ النَّاس إليَّ") إنْ) عند البصريين مخففةُ من الثقيلة، واللاَّم الداخلة بعدها هي المفرقة بين (إنْ) المخففة وبين (إنْ) الشرطية. وعند الكوفيين: (إن) نافية، واللام بمعنى: إلا. وهذا نحو قوله[1]:

شَلَّتْ[2] يَمينُكَ إنْ قَتَلتَ لَمُسْلِماً حَلَّتْ عَلَيْكَ عقوبةُ المُتَعَمِّدِ

تقديرها عند البصريين: إنَّك قتلت مسلماً. وعند الكوفيين: ما قتلت إلا مسلماً. وهذا من رسول الله ﷺ خبرٌ عن محبَّته لزيد – رضي الله عنه– ثمَّ أخبرَ عن محبَّته لأسامة فقال: "وإنَّ هذا من احبِّ الناس إليَّ بعده". فكان أسامةُ الحبَّ ابن الحبَّ. وبذلك كان يُدعى. ورضي الله عن عمر بن الخطّاب؛ لقد قامَ بالحَقِّ، وعرفَه لأهله، وذلك: أنَّه فرضَ لأسامةَ في العَطَاء خمسة آلاف، ولابنه عبد الله ألفين. فقال له عبدُ الله: فضَّلت عليَّ أسامةَ، وقد شهدتُ ما لم يشهدْ؟ ! فقال – رضي الله عنه -: إنَّ أسامةَ كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك وأبوه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيكَ. ففضَّلَ محبوبَ رسول الله ﷺ على محبوبه، وهكذا يجبُ أن يُحَبَّ ما أحبَّ رسولُ الله ﷺ ويُبغضَ ما أبغضَ، وقد قابل مروانُ هذا الحبَّ الواجبَ بنقيضه، وذلك: أنَّه مرَّ بأسامةَ بن زيد وهو يُصلِّي عند باب بيت رسول الله ﷺ فقال له مروان: إنَّما أردتَ أن يُرى مكانُك فقد رأينا مكانَك، فعل الله بك وفعل – قولا قبيحاً – فقال له أسامة: إنَّك آذيتني، وإنّك فاحشٌ متفحِّشٌ، وإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ الله يُبغضُ

---

[1]– البيت لعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية العدوية، ترثي زوجها الزبير بن العَوَّام رضي الله عنه، وتدعو على عمرو بن جرموز قاتله.

[2]– شلَّت: بفتح الشين، وأصل الفعل شلِلَت، ومن يقوله بضم الشين فقد أخطأ.

الفاحشَ المتفحِّش". فانظر ما بين الفعلين، وقس ما بين الرَّجلين، فلقد آذى بنو أمية رسولَ الله ﷺ في أحبابه، وناقضُوه في مَحابِّه.

زاد في أخرى: "فأوصيكم به فإنَّه من صالحيكم".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ بإثر حديث.

تنبيه: روى موسى بن عقبة عن سالم، عن ابن عمر — رضي الله عنهما — أنَّ رسول الله ﷺ قال: "أحبُّ الناس إليَّ أسامة" فما حاشا فاطمة ولا غيرَها. وهذا يُعارضُه ما تقدَّم من قوله ﷺ: "إنَّ أحبَّ الناس إليَّ عائشة، ومن الرِّجال أبوها" ويرتفع التَّعارض من وجهين؛ أحدُهما: أن الأحاديث الصحيحة المشهورة إنما جاءت في حُبّه لأسامة بـــ (من) التي للتبعيض، كما قد نصَّ عليه بقوله ﷺ: "إنه لمن أحبّ النَّاس إليَّ". وقد رواه هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ: قال: "إن أسامة بن زيد أحبُّ النَّاس إليَّ" أو "من أحبّ الناس إليَّ" فعلى هذا يُحتمل أن يكونَ النبيُّ ﷺ قال: "إنَّ من أحبّ الناس إليَّ أسامة" فأسقطها بعض الرواة. والوجه الثاني: على تسليم أن صحيحَ الرواية بغير من فيرتفع التعارضُ بأنّ كلَّ واحد من هؤلاء أحبُّ بالنسبة إلى عالمه، بيان ذلك: أنَّه ﷺ ما كان يُحبُّ هؤلاء من حيث الصورة الظاهرة؛ فإن أسامة كان أسودَ أفطسَ، وإنما كان يُحبُّهم من حيث المعاني، والخصائص التي كانا موصوفين بها، فكان أبو بكر — رضي الله عنه — أحبَّ إليه من حيث إنه كان له من أهلية النيابة عنه، والخلافة في أمته ما لم يكن لغيره، وكانت عائشة — رضي الله عنها — أحبَّ النساء إليه من حيث أنَّ لها من العلم والفضيلة ما استحقَّت به أن تفضلَ على سائر النساء، كما فضَّل الثريدَ على سائر الطعام. وكان أسامةُ — رضي الله عنه — أيضاً أحبَّ من حيث إنه كان قد خُصَّ بفضائلَ ومناقبَ استحقَّ بها أن يكونَ أحبَّ الموالي إليه، فإنه أفضلُهم وأجلُّهم، ولذلك قال ﷺ: "أوصيكم به خيراً فإنه من صالحيكم"، فأكّد الوصية به، ونبَّه على الموجب لذلك، وهو ما يعلمُه من صَلاحه وفضله، وقد ظهرَ ذلك عليه؛ فإنه لم يدخلْ في شيءٍ من الفتن فسلَّمه الله

تعالى من تلك المِحن، إلى أن تُوفيّ في خلافة معاوية سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة أربع وَخمسين – رضي الله عنه –.

باب فضائل عبد الله بن جعفر

عن مُوَرَّق العجْليِّ، عن عبد الله بن جعفر؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَدم من سفر تُلُقِّي بصبيان أهل بيته. قال: وإنَّه قَدمَ من سفر فسُبق إليه، فحملني بين يديه، ثمَّ جيءَ بأحدِ ابنيْ فاطمة، فأَرْدَفَه خلفه. قال: فأدخلنا المدينة، ثلاثةٌ على دابَّةٍ.

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه.

ومن باب: فضائل عبد الله بن جعفر

ابن أبي طالب – رضي الله عنهما –

يُكنى: أب جعفر، وأمَّه: أسماء بنت عميس، ولدته بأرض الحبشة، وهو أولُ مولود من المسليمن وُلد بها، وتفي بالمدينة سنة ثمانين، وهو ابنُ تسعين سنة، وكان عبدُ الله كريماً جواداً، طريفا، حليماً، عفيفاً، سخياً، يُسمَّى: بحر الجود. يُقال: إنه لم يكن في الإسلام أسخى منه، وعُوتب في ذلك فقال: إن الله عوَّدني عادة، وعوَّدت الناسَ عادةً، وأنا أخاف إن قطعتُها قُطعت عني. وأخباره في الجود شهيرة، وفضائله كثيرة، وجُملة ما روى عن رسول الله ﷺ خمسةٌ وعشرون حديثاً. أخرج به منها في الصحيحين حديثان.

و(قوله: كان رسولُ الله ﷺ إذا قدِم من سفر تُلُقِّيَ بصبيان أهل بيته) إنما كانوا يتلقونه بصبيان بيته لما يعلمونه من محبَّته لهم، ومن تعلق قلبه بهم، ولفرط فرح الصغار برؤيته، ولتنالهم بوادرُ بركته.

وعنه؛ قال": أردفني رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ خلفه. فأسرَّ إليَّ حديثاً. لا أُحدِّثُ به أحداً من النَّاس.

رواه مسلم، وأبو داود.

و(قوله: فَسُبِق بي إليه، فحملني بين يديه) يدلُّ على: أن عبد الله بن جعفر من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، ويدلُّ على: محبة النبيِّ ﷺ لعبد الله بن جعفر وعلى شدة تَمُّمه به، وإكرامه له، وكان ﷺ يخصُّ ولد جعفر بزيادة احترام وإكرام جَبْراً لهم، وشفقةٌ عليهم؛ إذ كان أبوهم جعفر قُتِل بمؤتة شهيداً — رضي الله عنه —، وقد تقدَّم القولُ على ركوب ثلاثة على دابَّة.

و(قوله: أردفني رسولُ الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أُحدِّث به أحداً) دليلٌ على: عُلوِّ مكانته عند النبيِّ ﷺ وكمال فضله، وأهليته لأن يتَّخذه النبيُّ ﷺ موضعَ سرِّه، وهذه أهليَّةٌ شريفة، وفضيلةٌ منيفة.

باب فضائل خديجة بنت خويلد

عن عليٍّ، قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنتُ خوَيْلد".

رواه البخاريُّ، ومسلم، والترمذيّ.

ومن باب: فضائل خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزَّى بن قصي القرشية الأسدية – رضي الله عنها –

كانت تُدعى في الجاهلية: الطاهرة، تزوَّجها رسولُ الله ﷺ قبل النبوة ثيِّباً بعد زوجين: أبي هالة؛ عند بن النباش التميمي، فولدت له هنداً، وعتيق بن عائد المخزومي، ثم تزوَّجها رسول ﷺ وهي بنت أربعين سنة، وأقامتْ معه أربعاً وعشرين سنة، وتوفيت وهي ينت أربع وستين سنة وستة أشهر، وكان رسولُ الله ﷺ إذ تزوج خديجة ابن إحدى وعشرين سنة. وقيل: ابن خمس وعشرين سنة وهو الأكثر. وقيل: ابن ثلاثين. وأجمع أهلُ النقل: أنها ولدت له أربع بنات كلّهن أدركن الإسلام، وأسلمن، وهاجرن: زينب، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم. وأجمعوا أنها ولدت له ابناً يُسمَّى: القاسم، وبه كان يكنى، واختلفوا هل ولدت له ذكراً غير القاسم؟ فقيل: لم تلد له ذكراً غيره. وقيل: ولدتْ له ثلاثةْ ذكور: عبد الله، والطيب، والطاهر. وقيل: بل ولدت له: عبد الله؛ والطيب والطاهر: اسمان له. وبالخلاف في ذلك كثير، والله تعالى أعلم. ومات القاسمُ بمكة صغيراً. قيل: إنه بلغ إلى أن مشى، وقيل: لم يعشْ إلا أياماً يسيرةً، ولم يكن للنبيِّ ﷺ ولد من غير خديجة إلا إبراهيم، ولدته ماريةُ القبطية بالمدينة، وبها توفي وهو رضيع، ومات بناتُ النبيِّ ﷺ كلهن قبل موته إلا فاطمة؛ فإنها توفيت بعده بستة أشهر، وكانت خديجة

.....

- رضي الله عنها - امرأةٌ شريفةٌ عاقلة فاضلة حازمة ذات مال، وقد تقدَّم أنها أول مَن آمن بالنبيِّ وأنه ﷺ يوم الاثنين فصلّت آخر ذلك اليوم، وكانت عوناً للنبيّ ﷺ على حاله كله، وردءاً له تثبِّته على أمره، وتصدِّقه فيما يقوله، وتصبِّره على ما يلقى من قومه من الأذى والتكذيب، وسلَّم علها جبريلُ - عليه السلام - وبشَّرها بالجنة، وروي من طرق صحيحة أنه ﷺ قال فيما رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه -: "خير نساء العالمين أربعٌ: مريم بنت عمران، وأسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة - رضي الله عنهن-". ومن حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبيِّ ﷺ يحبها ويقول: "رُزِقْتُ حبها"[1]؛ ولم يتزوج عليها إلى أن ماتت. قيل: كانت وفاتها قبل مهاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة بسبع سنين. وقيل: بخمس سنين. وقيل: بأربع. وقيل: بثلاث، وهو أصحُّها، وأشهرها - إن شاء الله تعالى - وتوفيت هي وأبو طالب - عم رسول الله ﷺ - في سنة واحدة. قيل: كان بينهما ثلاثة أيام، وتوفيت في رمضان، ودُفنت بالحجون.

و(قوله: "خيرُ نساءها: مريم ابنة عمران") هذا الضميرُ عائد على غير مذكور؛ لكنه تفسِّره الحالُ والمشاهدةُ، يعني به: الدنيا، وفي رواية: وأشار وكيعٌ إلى السماء والأرض - يريدُ الدُّنيا - كأنه يفسر ذلك الضمير؛ فكأنه قال: خير نساء الدنيا: مريم بنت عمران. وهذا نحو حديث ابن عباس المتقدِّم، الذي قال فيه: "خيرُ نساء العالمين: مريم". ويشهد لهذه الأحاديث

---

[1]- كذا ورد في الأصول: (سيدة) بالإفراد، وذكر بعد مريم: فاطمة وخديجة. وفي سير أعلام النبلاء للذهبي، والاستيعاب لابن البر على هامش الإصابة وَرَد ذكر ثالثة هي: امرأة فرعون.

وعن أبي هريرة، قال: أتى جبريلُ النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتَتْك؛ معها إناء فيه إدامٌ، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عزَّ وجل، ومنِّي، وبشِّرها ببيتٍ في الجنة من قصبٍ لا صخبَ فيه ولا نصب.

في تفضيل مريم: قولُ الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة لها: ﴿إنَّ الله اصْطَفَكِ وطَهَّرَكِ علىَ نِسَاءِ العَلَمِينَ﴾.

فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي: أنَّ مريم أفضلُ من جميع نساء العالم، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليه الساعة، ويعتضد هذا الظاهر: بأنه صدّيقة ونبيَّة بلَّغتها الملائكةُ الوحيَ عن الله تعالى بالتكليف، والإخبار، والبشارة، وغير ذلك؛ كما بلَّغته سائر الأنباء، فهي إذاً نبيَّة، وهذا أولى من قول مَ، قال: إنها غير نبيَّة، وإذا ثبت ذلك، ولم يُسمع في الصحيح أن في النساء نبيَّةٌ غيرها فهي أفضلُ من كل النساء الأولين والآخرين؛ إذ النبيُّ أفضلُ من الولي بالإجماع، وعلى هذا فهي أفضلُ مطلقاً، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية، وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال: قال رسولُ الله ﷺ: "سيدة نساء العالمين: مريم، وفاطمة، ثم خديجة، ثم آسية" وهذا حديث حسن، رافعٌ لإشكال هذه الأحاديث، فأما من يرى: أن مريم صدِّيقة وليست بنبيَّة فلهم تأويل هذه الأحاديث طريقان:

أحدهما: أن معناها أن كلَّ واحدةٍ من أولئك النساء الأربع خيرُ عالم زمانها، وسيِّدة وقتها.

وثانيهما: أن هؤلاء النساء الأربع من أفضل نساء العالم؛ وإن كنَّ في أنفسهن على مزايا متفاوتة، ورُتَبٍ متفاضلة، وما ذكرناه: أوضح وأسلم.

رواه البخاري، ومسلم.

وعن عبد الله بن أبي أوفى، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه بشَّر خديجة ببيتٍ في الجنَّة من قصبٍ لا صخبَ فيه ولا نصبَ.

رواه البخاريُّ، ومسلم.

و(قوله: "بشِّر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب") قال الهروي وغيرُه: القَصبُ – هنا – اللؤلؤ المجوَّف المستطيل، والبيت: هوالقصر.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا نحو قوله ﷺ في الحديث الآخر: "إن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوَّفة عرضُها ستون ميلاً"، سيأتي – إن شاء الله تعالى – والصخب: اختلاطُ الأصوات، ويقال: بالسين والصاد، والنصب: التعب والمشقة. ويقال: نُصْبٌ، ونَصَبٌ، كحُزنٌ وحَزَنٌ. أي: لا يصيبها ذلك؛ لأن الجنة مُنزَّهةٌ عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم منْها بمُخْرجين﴾[1] وقيل: معناه أنَّ هذا البيت خالصٌ لها، لا تنازُعَ فيه فيصخب عليها فيه، وذلك من فَضْل الله تعالى عليها لا بنصبها في العبادة، ولا اجتهادها في ذلك. وإبلاغ المَلَك لها: أنَّ الله يقرأُ عليها السَّلام؛ فضيلةٌ عظيمة، وخصوصيَّةٌ شريفة لم يُسْمَعْ بمثلها لمن ليس بنبيٍّ إلا لعائشة – رضي الله عنها – على ما يأتي.

و(قول عائشة – رضي الله عنها –: ما غِرْتُ على امرأة ما غِرْتُ على خديجة، لما كنت أسمعُه يَذْكُرُها) أي: يمدَحُها ويُثني عليها، ويَذْكُر فضائلها، وذلك لفرط محبَّته إيَّاها، ولما اتصل له من الخير بسببها، وفي

---

[1]– سورة الحجر، الآية 48.

وعن عائشة، قالت: ما غِرْتُ على امرأة ما غِرْتُ على خديجة — ولقد هلكتْ قبل أن يتزوَّجني بثلاث سنين — لما كُنْتُ اسمعُه يَذْكُرها، ولقد أمَرهُ ربُّه عزَّ وجلَّ أن يبشرها ببيتٍ من قصبٍ في الجنة، وإنْ كان لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثم يُهديها إلى خَلائلها.

زاد في أخرى: قالت عائشة: فأَغْضبْتُه يوماً، فقلت: خديجة؟ قال رسول الله ﷺ: "إنِّي رزقت حُبَّها".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجه.

وعنها، قالت: استأذنَتْ هالةُ بنت خويلد؛ أختُ خديجة على رسول الله ﷺ، فعرفَ استئذانَ خديجة، فارتاح لذلك، فقال: "اللهمَّ هالةُ بنت خويلد" فَغِرْتُ، فقلتُ: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشَّدْقَيْن، هَلكت في الدهر، فأبدلك الله خيراً منها !.

بيتها، ومن أحبَّ شيئا أكثر من ذِكره؛ ولذلك قال النبيُّ ﷺ: "إني رُزقتُ حبها"، وكونه ﷺ يُهدي لخلائل خديجة: دليلٌ على كرم خُلُقه، وحُسْنِ عهده، ولذلك كان يرتاحُ لهالة بنت خويلد إذا رآها، وينهض إكراماً لها، وسروراً بها.

و(قولها: فعرف استئذان خديجة) أي تذكر — عند استئذان هالة — خديجة، وكأن نَغْمة هالة كانت تشبه نَغْمة خديجة، وأصلُ هذا كلّه: أنَّ من أحبَّ محبوباً أحبَّ محبوباته، وما يتعلّق به وما يشبهه.

و(قوله: "اللهم ! هالة") يجوزُ في هالة الرفع على خبر الابتداء، أي: هذه هالة فأكرمها وأحسن إليها. والنَّصبُ على إضمار فعل، أي: أكْرِمْ هالة واحفظها، وما أشبه ذلك من التقدير الذي يليق بالمعنى.

رواه مسلم.

و(قول عائشة – رضي الله عنها -: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش... الحديث) قولٌ أخرجه من عائشة فرط الغَيرة، وخفَّة الشباب، والدَّلال، ولذلك لم ينكرْ عليها النبيُّ ﷺ شيئا مما قالت، وقد أخذ بعضُ العلماء من هذا الحديث أن الغَيرة لا تُؤاخذ بما يصدرُ عنها في حال غَيْرتها، وليس ذلك أخْذاً صحيحاً؛ لأن الغَيْرَةَ هنا جزءُ السبب، لا كلّ السَّبب، وذلك أن عائشة – رضي الله عنها – اجتمع فيها تلك الأمورُ الثلاثة: الغيرةُ والشبابُ – ولعل ذلك كان قبل بلوغها -، والدَّلال، وذلك أنها: كانت أحبَّ نسائه إليه بعد خديجة، فإحالةُ الصَّفح عنها على بعض هذه الأمور تحكُّم، لا يقال: إنما يصحُّ إسنادُ الصَّفح إلى الغَيرة؛ لأنها هي التي نصَّتْ عليها عائشةُ فقالت: فغرتُ؛ لأنا نقولُ: لو سلمنا أن غيرتَها وحدها أخرجتْ منها ذلك القولَ لما لزم أن تكون غيرتُها وحدها هي الموجبةُ للصَّفح عنها، بل: يحتملُ: أن تعتبرَ باقي الأوصاف، لا سيما ولم ينص النبيُّ ﷺ على المسقط ما هو، فبقي الأمرُ مُحتمِلاً للأمرين، فلا تكون فيه حُجَّةٌ على ذلك، والله تعالى أعلم.

وقولها: حمراء الشِّدقين) قيل معناه: أنها بيضاء الشدقين، والعرب تُسمِّي الأبيض: أحمر، كراهة في اسم البياض؛ لأنه يشبه البرص، وهذا كما قاله النبيُّ ﷺ لعائشة: "يا حميراء لا تأكلي الطين؛ فإنه يذهب بهاء الوجه" يعني: يا بيضاء.

وعنها، قالت: لم يتزوج النبيُّ ﷺ على خديجة حتى ماتت.

رواه مسلم.

قال الشيخ: وهذا فيه بُعْدٌ في هذا الموضع، فلو كان الأمرُ كذلك لقالت عائشة بدل: حمراء الشدقين: بيضاء الشدقين؛ فإنه كان يكون أبلغَ في التقبيح، وعائشة إنما ذكرتْ هذا الكلامَ تقبيحاً لمحاسن خديجة وتزهيداً فيها، وإنما معنى هذا عندي – والله أعلم – أنها نَسَبَتْها إلى حمراء الشَّدقين من الكبر، وذلك: أنَّ من جاوز سنَّ الكهولة، ولحقَ سنَّ الشَّيخوخة، وكان قويّاً في بَدَنه صحيحاً غَلَبَ على لونه الحمرةُ المائلة إلى السُّمرة، والله تعالى أعلم.

و(قولها: قد أبدلكَ الله خيراً منها) تعني بخير: أجمل وأشبَّ – وتعني نفسها –، لا أنها خيرٌ منها عند الله، وعند رسوله؛ لما تقدَّم منَ الأحاديث التي ذكرناها في صَدْر الكلام، وكَوْنُه ﷺ لم يتزوَّجْ على خديجة إلى أن ماتتْ: يدلُّ على عظيم قَدْرِها عنده، ومحبَّته لها، وعلى فَضْل خديجة أيضاً؛ لأنَّها اختصَّت برسول الله ﷺ ولم يشاركْها فيه أحدٌ صيانةٌ لقلبها من التَّغيير والغَيْرة، ومن مكابدة الضرة.

باب فضائل عائشة زوج النبي ﷺ
ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون

عن عائشة، أنَّها قالت: قال رسول الله ﷺ: "أُريتُكِ في المنام ثلاثَ

ومن باب: فضائل عائشة ابنة
أبي بكر الصدّيق – رضي الله عنهما –

تكنى: بأم عبد الله – ابن الزبير، وهو ابن أختها: أسماء – أباح لها النبيُّ أن تكتنيَ به. تزوَّجها النبيُّ ﷺ بمكة بعد موت خديجة وقبل الهجرة بثلاث سنين، وهو أولى ما قيل في ذلك، وهي بنت ست سنين. وابتنى بها بالمدينة، وهي بنتُ تسع سنين. وقال ابنُ شهاب: إن رسولَ الله ﷺ تزوَّج بها في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، وأعرس بها في المدينة في شوال على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجره إلى المدينة، وقد روي عنها أنها قالت: تزوَّجني رسولُ الله ﷺ، وأنا بنتُ ستّ, وبنى بي وأنا بنت تسع، وقُبض عني، وأنا بنتُ ثماني عشرة. وتوفيت سنة ثمان خمسين ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان، وأمرت أن تُدفن ليلاً، فدُفنت بعد الوتر بالبقيع، وصلَّى عليها أبو هريرة – رضي الله عنه -. ونزل في قبرها خمسة: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم ومحمد ابنا محمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وكانت فاضلة، عالمة، كاملة. قال مسروق: رأيتُ مشيخةَ أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء: كانت عائشةُ أفقهَ الناس، وأحسن الناس رأياً في العامَّة، وقال عروة: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بفقه، ولا طِبٍّ، ولا شعرٍ من عائشة، وقال أبو الزناد: ما رأيتُ أحداً أروى لشعرٍ من عروة، فقيل له: ما أرواك يا أبا

ليالٍ جاءني بك المَلَكُ في سَرَقَة من حرير فيقولُ: هذه امرأتك، فأكشفُ عنْ وجهِك، فإذا أنتِ هيَ، فأقولُ: إنْ يكُ من عند الله يُمْضِه".

رواه البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

عبد الله ! قال: وما روايتي في رواية عائشة؟ ! ما كان ينزل بها شيءٌ إلا أنشدتْ فيه شعراً. قال الزهري: لو جُمع علمُ عائشة إلى علم أزواج النبيِّ ﷺ وعلم جميع النساء لكان علمُ عائشة أفضل. وجملةُ ما روتْ عن النبيِّ ﷺ ألفا حديث، ومئتا حديث، وعشرة أحاديث. أُخرج منها في الصحيحين ثلاثمئة إلا ثلاثة أحاديث.

و(قوله: "جائني بكِ الملكُ في سَرَقَة من حرير، فيقول: هذه امرأتك": السَّرقة – بفتح الراء –: واحدة السَّرق، وهي شققُ الحرير البيض. وقيل: الجيد من الحرير. وقال أبو عُبيد: وأحسنها فارسيُّه، وأصلها سَرَهْ، وهو: الجيِّد وأنشد غير أبي عبيد للعجاج:

وَدَاوَنَسَجَتْ لَوَامِعُ الحَرُور سَبَائِباً كَسَرَقْ الحَرِيرِ

والسبائب – بالهمز والباء–: هي ما رقَّ من الثياب والخُمُر، ونحوها. قال المهلَّب: السَّرَقَة: كالكلَّة والبرقع، والأول: هو المعروف، وفيه دليلٌ على أنَّ للرؤيا مَلَكاً يمثل الصُّور في النوم، كما قد حكيناه عن بعض العلماء.

و(قوله: "إن يك من عند الله يُمْضه") ظاهرُه: الشكُّ في صحة هذه الرُّؤيا، فإن كان هذا منه ﷺ قبل النبوَة، فلا إشكالَ فيه؛ لأن حكمَهُ حُكْمُ البشر، وأما إن كان بعد النبوة فهو مشكل؛ إذ رؤيا الأنبياء وحيٌ كما تقدَّم، والوعيُ لا يُشَكُّ فيه، وقد انفصل عن هذا: بأن قيل: إن شكَّه لم يكن في صحة أصل الرُّؤيا، وإنَّ ذلك من الله، ولكن في كون هذه الرؤيا على ظاهرها، فلا تحتاجُ إلى تعبير، أو في كونها امرأته في الدُّنيا، أو

وعنها، قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: "إنِّ لأعلمُ إذا كنت عنِّي راضيةٌ، وإذا كنت عليَّ غَضْبي". قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: "أمَّا إذا كنتِ عنِّي راضيةٌ، فإنَّك تقولين: لا وربِّ محمَّد؛ وإذا كنت غضبى، قلت: لا وربِّ إبراهيم"، قالت: قلت: أجل ! واللَّه يا رسول الله ! ما أهجرُ إلا اسمُك.

في الآخرة. وقيل: لم يكن عنده شكٌّ في ذلك، بل : محققاً له، لكنه أتى به على صورة الشك، وهو غير مراد، كما قال الشاعر:

أيا ظَبْيَةَ الوعْساءِ بَيْنَ حَلاحِلٍ وبَيْنَ النَّقا آنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ؟

وهذا نوعٌ من أنواع البلاغة معروفٌ عند أهلها يسمى: تجاهل العارف، وقد سمِّي مزج الشك باليقين، ونحو منه قولُه تعالى: ﴿فإنْ كُنتَ في شكٍّ ممَّا أنزلْنَا إلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذين يَقْرءُونَ الكتَبَ من قَبْلكَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإنْ أَدْري لَعَلَّهُ فتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إلَى حين﴾[2] فإنه ﷺ لم يشكَّ في شيء من ذلك، لكن أتى به على التقدير لا التحقيق.

و(قوله: "فإذا هي أنت") أي: إنه رآها في النوم كما رآها في اليقظة، فكان المرادُ بالرُّؤيا ظاهرها.

و(قوله: "إني لأعلم إذا كنت علَّي راضية، وإذا كنت عليَّ غضبى") غَضبُ عائشةَ على النبيِّ ﷺ للأسباب التي ذكرناها في حديث خديجة، أو لبعضها، والغالب: أنها كانت للغَيْرة التي لا تتمالكُ المرأةُ فيها. قال القاضي عياض: يُعْفى عن النساء في كثير من الأحكام لأجل الغَيْرة، حتى قد ذهب مالكٌ وغيرُه من علماء المدينة إلى إسقاط الحدِّ عن المرأة إذا رَمَتْ زَوجها بالزِّنى.

---

(1)- سورة يونس، الآية 94.

(2)- سورة الأنبياء، الآية 111.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعنها، قالت: كنتُ ألعبُ بالبنات — وهنَّ اللُّعَبُ — في بيت رسول الله ﷺ. قالت: وكانت تأتيني صَوَاحبي فكنَّ يَنْقَمِعْنَ من رسول الله ﷺ. قالت: فكان رسولُ الله ﷺ يُسَرِّبُهُنَّ إليَّ.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

و(قولها: أجل والله ما أهجر إلا اسمك). أجل: يعني: نعم. وتعني بذلك أنها، وإن أعرضت عن ذكر اسمه في حالة غضبها، فقلبُها مغمورٌ بمحبته ﷺ لم يتغيَّر منها شيء. وفي هذا ما يدلُّ على ما كنا عليه من صفاء المحبة وحُسْن العشرة، وفيه ما يدلُّ على: أنَّ الاسمَ غير المسمّى، وهي مسألةٌ اختلفَ فيها أهلُ اللسان والمتكلمون، وللكلام فيها مواضعُ أُخَر.

و(قولها: كنت ألعبُ بالبنات — وهنَّ اللُّعَب — في بيت رسول الله ﷺ) اللُّعَبُ: جمع لُعْبة، وهو ما يُلْعَبُ به. والبنات: جمع بنت، وهنَّ الجواري، وأضيفت اللُّعَب للبنات لأنهنَّ هُنَّ اللواتي يصنعنها، ويلعبن بها، وقد تقدَّم القولُ في جواز ذلك، وفي فائدته، وأنه مُستثنى من الصُّور الممنوعة؛ لأن ذلك من باب تدريب النساء من صغَرهن على النَّظر لأنفسهن وبُيُوتهن، وقد أجاز العلماءُ بيعهنَّ وشراءهن غير مالك فإنه كره ذلك، وحَمَلَه بعضُ أصحابه على كراهية الاكتساب بذلك.

و(قولها: فكنَّ ينقمعن من رسول الله ﷺ) تعني: صواحبها كنَّ ينقبضن ويستترن بالبيت حياءً من رسول الله ﷺ وهيبة له.

و(قولها: وكان يُسرِّبهنَّ إليَّ) أي: يُرسلهن إليها، ويسكِّنهنَّ، ويؤنسهنَّ حتى يزولَ عنهن ما كان أصابهنَّ منه، فيرجعن يلعبن معها كما

وعن عروة، عن عائشة: أنَّ النَّاس كانوا يتحرَّونَ بهَدايَاهُم يوم عائشة؛ يبتغون بذلك مرضاةَ رسولِ الله ﷺ.

رواه البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ.

وعنها، قالت: أرسلَ أزواجُ النبيِّ ﷺ فاطمةَ بنتَ رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنتْ عليه وهو مُضْطَجِعٌ معي في مِرْطِي، فأَذن لها، فقالت: يا رسول الله ! إنَّ أزواجك أرسلنني إليك يَسْأَلْنَكَ العدلَ في ابنة أبي قحافة – وأنا ساكتة – قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: "أيْ بُنَيَّةُ ! ألستِ تُحبِّين ما أحبُّ؟" فقالت: بلى. قال: "أحبي هذه" قالت: فقامت فاطمةُ حين سمعتْ ذلك من رسول الله ﷺ، فرَجَعَتْ إلى أزواج رسول الله ﷺ؛ فأخبَرَتْهُنَّ بالذي قالت؛ وبالذي قال لها رسول الله ﷺ. فقلنَ لها: ما نُراك أَغْنَيْت عنَّا من شيء، فأرجعي إلى رسول الله ﷺ فقُولي له: إنَّ أزواجَكَ يَنْشُدْنَكَ العدلَ في ابنة أبي قُحافة ! فقالت فاطمة: والله لا أكلِّمه فيها أبداً ! قالت عائشة: فأرسل أزواجُ النبيِّ ﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ –

كنَّ. ودخول فاطمة وزينب على رسول الله ﷺ وهو مع عائشة في مِرْطها: دليلٌ على جواز مثل ذلك؛ إذ ليس فيه كشفُ عورة، ولا يُستقبح عَلى مَن فعل ذلك مع خاصَّته وأهله. وطَلَبُ أزواج النبيِّ ﷺ منه العدل بينهن وبين عائشة – رضي الله عنها – ليس على معنى أنه جارَ عليهن، فمنعهن حقًّا هُوَ لَهُنَّ؛ لأنه مُنزَّهٌ عن ذلك؛ ولأنه لم يكن العدلُ بينهن واجباً عليه كما قدَّمناه في كتاب: النكاح. لكن صَدَر ذلك منهن بمقتضى الغَيْرة والحِرْص على أن يكونَ لهن مثلُ ما كان لعائشة – رضي الله عنها – من إهداء الناس له إذا كانت في بيوتهن، فكأنَّهُنَّ أردْنَ أن يأمرَ مَن أراد أن يهديَ له شيئاً ألاَّ يتحرى يومَ عائشة – رضي الله عنها –، ولذلك قال: وكان الناسُ يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة، ويحتمل أن يقال: إنهن

زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهنَّ في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأةً قطُّ خيراً في الدين منْ زينبَ؛ وأتقى لله؛ وأصدقَ حديثاً، وأوصلَ للرَّحم، وأعظمَ صدقةً، وأشدَّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدَّقُ به، وتقرَّبُ به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرةً من حدَّة كانت فيها، تسرعُ منها الفَيْئَةَ – قالت: فاستأذنتْ على رسول الله ﷺ – ورسولُ الله ﷺ

طلبن منه أن يسوِّي بينهن في الحبِّ؛ ولذلك قال ﷺ لفاطمة – رضي الله عنها-: ألست تُحبِّين من أُحبُّ؟" قالت: بلى. قال: "فأحبِّي هذه" وكلا الأمرين لا يجب العدل فيه بين النساء. أما الهدية فلا تطلب من المهدي، فلا يتعيَّن لها وقت، وأما الحبُّ: فغيرُ داخلٍ تحت قدرة الإنسان ولا كسبه.

و(قولها: وهي التي تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ) تعني: زينب. وتساميني،أي: تطاولني وترافعني، وهو مأخوذٌ من السُّموِّ، وهو العلو والرفعة. تعني: أنها كانت تتعاطى أن يكون لها من الحُظوة والمنزلة عند رسول الله ﷺ مثل ما كان لعائشة عنده، وقيل: إنه مأخوذٌ من قولهم: سامه حظّه خسف، أي: كلفه ما يشق عليه ويذله، وفيه بعد من جهة اللسان والمعنى.

و(قولها: ولم أر أمرأة خيراً في الدين من زينب... الكلام إلى قولها... ولا أشدَّ ابتذالاً لنفسها في العمل) الابتذال: مصدر ابتذل من البِذْلة، وهي الامتهان بالعمل والخِدْمة، فكانت تعمل زينب – رضي الله عنها – بيذْها عملَ النساء من الغزل والنسيج، وغير ذلك مما جرت عادة النساء بعمله، والكسب به، وكانت تتصدق بذلك، وتصل به ذوي رحمها، وهي التي كانت أطولَهن يداً بالعمل والصَّدقة، وهي التي قال النبيُّ ﷺ: "أسرعُكُنَّ لحاقاً بي أطولُكُنَّ يداً" وسيأتي. وفيه يدلُّ على جواز صدقة المرأة مما تكسبُه في بيت زوجها من غير أمره.

مع عائشة في مرْطها، على الحال التي دخلت فاطمة عليها وهُو بها — فإذنَ لها رسولُ اللهَ ﷺ، فقالت: يا رسول الله ! إنَّ أزواجك أرسلنني إليكَ يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة. قالت: ثم رقعت بي، فاستطالت عليَّ، وأنا أرْقُبُ رسول الله ﷺ، وأرقُبُ طَرْفَهُ؛ هل يأذنُ لي فيها. قالت: فلم تبرح زينبُ حتى عَرَفتُ أنَّ رسول الله ﷺ لا يَكْرَه أنْ انتصر. قالت: فلمَّا وقعتُ بها لم أنْشَبْها حين أَنْحَيْتُ عليها قالت: فقال رسول الله ﷺ — وتبسَّم -: "إنَّها ابنةُ أبي بكرٍ !".

و(قولها: ما عدا سَوْرَةٌ من حدَّة كانت فيها، تُسرع منها الفيئة) ما عدا وما خلا: من صيغ الاستثناء، وهما مع "ما" فعلان ينصبان ما بعدَهما في المشهور والأفصح. ومع عدم "ما" يخفضان ما بعدَ-ما؛ لأنهما حرفان من حروف الخفض على الأعراف الأشهر، والسَّورة — بفتح السين -: الشِّدَّة،و الثورَان، ومنه: سَوْرَةُ الشراب، أي: قوته وحدَّته. أي: يعتريها ما يعتري الشارب من الشراب، ويروى هذا الحرف: مَا عدا سَوْرَةَ حَدٍّ — بفتح الحاء من غير تاء تأنيث — أي: سرعة غضب. والفيئة: الرجوع، ولأجل هذه الحدَّة، وقعت بعائشة، واستطالت عليها، أي: أكثرت عليها من القول والعتَب، وعائشة — رضي الله عنها — ساكتة تنظرُ الإذن من رسول الله ﷺ في الانتصار، فلما علمت أنه لا يكره ذلك من قرائن أحواله انتصرتْ لنفسها فجاوبتها، وردَّت عليها قولَها حتى أفحمتَها، وكانت زينبُ لما بدأتها بالعتب واللَّوم، كانت كأنها ظالمةٌ، فجاز لعائشة أن تنتصرَ، لقوله تعالى: ﴿ولِمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فأُوْلَئِكَ مَا علَيْهِم مِن سَبِيلٍ﴾.

و(قولها: وقعت فيَّ) هو مأخوذ من الوقيعة التي هي: معركة الحرب، وقيل: هو مأخوذ من الوقع، وهو ألم الرِّجل من المعشي، ومنه قولهم: كل الحذا يحتذي الحافي الوَقِع — بكسر القاف -.

وفي رواية: فلم أنشبها أن أَثْخَنْتُهَا غَلَبةٌ.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والنسائي.

وعنها؛ قالت: إنْ كان رسول الله ﷺ ليتفقَّد؛ يقول: "أين أنا اليوم؟ أين أنا غداً؟" استبطاءَ ليوم عائشة. قالت: فلما كان يومي قَبَضَهُ الله بين سَحْري ونَحْري.

و(قولها: فلم أَنْشَب أن أَنحيتُ عليها) كذا الرواية الثابتة هنا بالنون والحاء المهملة، والياء باثنتين من تحتها، ومعناه: أني أصبت منها بالذمِّ ما يُؤلمها، فكأنها أصابت منها مقتلاً. وفي الصحاح: أنحيت على حلقه بالسكين؛ أي: عَرَضْتُ، وحينئذ يرجع معنى هذه الرواية لمعنى الرواية الأخرى التي هي: أثخنتها، أي: أثقلتُها بجراح الكَلم. وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿حتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُم فشُدُّوا الوَثَاقَ﴾[1]، أي: أثقلتموهم بالجراح، أو أكثرتم فيهم القتل، ولم أَنشَبْها، أي: لم أُمهلها، ولم أتلبَّث حتى أوقعتُ بها، وأصله: من نشبَ بالشيء، أو في الشيء إذا نَشِبَ به، واحتبس فيه أو بسببه.

و(قوله: "إنها ابنةُ أبي بكر") تنبيه على أصلها الكريم الذي نشأت عنه، واكتسبت الجزالة والبلاغة، والفضيلة منه، وطيبُ الفروع بطيب عروقها، وغذاؤُها من عروقها. كما قال:

طِيبُ الفُرُوعِ منَ الأُصُولِ وَلَمْ يُرَ فَـرعٌ يَطيـبُ وأَصْلُـهُ الزَّقُـومُ

ففيه مدح عائشة وأبيها – رضي الله عنهما –.

---

[1]– سورة محمد، الآية 4.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم.

وعنها؛ أنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت، وهو مُستندٌ إلى صدرها، وأصْغَتْ إليه وهو يقول: "اللهم اغفر لي وارحمني ! وألحقني بالرفيق".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

وعنها؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: "إنَّه لم يُقبضْ نبيٌّ قطُّ حتى يرى مَقْعَدَه من الجنَّة، ثم يُخَيَّر". قالت عائشة: فلما نزل برسول الله ﷺ ورأسهُ على فخذي؛ غُشيَ عليه ساعةً، ثم أفاقَ. فأشخص

و(قولها: فلما كان يومَ تُوفي؛ قبضَه الله بين سَحْري ونحري) الرواية الصحيحة: سَحْري بسين مفتوحة غير معجمة، والسَّحْر: الرئة، والنَّحر: أعلى الصدر. وأرادت أنه ﷺ توفي وهو مستندٌ إلى موضع سَحْرها، وهو الصدر، كما جاء في الرواية الأخرى: وهو مستند إلى صدرها. وحُكي عن عمارة بن عقيل بن بلال أنه قال: إنما هو شَجْري – بالشين المعجمة والجيم – وشبَّك بين أصابعه. وأومأ إلى أنها ضمَّته إلى صدرها مشبَّكة يديها عليه. وقد تقدَّم القول في الرفيق، وأن الأولى فيه: أنه الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فأُولَئكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهم منَ النَّبيئينَ والصِّديقينَ والشُّهدَاءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولَئكَ رفيقاً[1]﴾، وتخيير الله للأنبياء عند الموت مبالغةٌ في إكرامهم، وفي ترفيع مراتبهم عند الله تعالى، وليستخرج منهم شدَّة شوقهم، ومحبَّتهم له تعالى، ولما عنده. وقد تقدَّم من هذا شيء في باب ذكر موسى – عليه السلام –.

---

[1]– سورة النساء، الآية 69.

بصره إلى السَّقف. ثم قال: "اللهمَّ الرفيقَ الأعلى". قالت عائشة: قلت إذاً لا يختارنا. قالت عائشة: وعَرَفتُ الحديث الذي كان يُحدثُنا به وهو صحيح في قوله: "إنه لم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتى يرى مَقْعَدَه من الجنة ثم يُخيَّر". قالت عائشة: فكانت تلك آخرُ كَلِمةٍ تكلَّم بها رسول الله ﷺ قوله: "اللهمَّ ! الرفيقَ الأعلى".

رواه أحمد، ومسلم.

وعنها؛ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارَت القرعةُ على عائشة وحفصةَ، فخرجنا معه جميعاً. وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة؛ يتحدث معها. فقالت حفصةُ لعائشةَ: ألا تركبين

و(قولها: فأشخصَ بصرَه) أي: حدَّد نظرَه إلى سقف البيت كما تفعلُ الموتى.

و(قولها: كان رسول الله ﷺ إذا خرجَ أقرعَ بين نسائه) تعني: إذا خرجَ إلى سفر، وإنما كان النبيُّ ﷺ يفعلُ ذلك مبالغة في تطييب قلوبهن إذ لم يكن القَسْم عليه واجباً على الخلاف المتقدِّم، وليست القرعة في هذا واجبةٌ عند مالك؛ لأنه قد يكونُ لبعض النِّساء من الغَنَاء في السفر والمنفعة، والصلاحيَّة ما لا يكون لغيرها. فيتعين الصَّالحةُ لذلك، ولأن من وقعت القرعةُ عليها لا تُجبر عل السفر مع الزوج إلى الغزو والتجارة، وما أشبه ذلك، وإنما القرعة بينهنَّ من باب تحسين العشرة إذا أردن ذلك، وكنَّ صالحات له، وقال أبو حنيفة بإيجاب القرعة في هذا، وهو أحد قولي الشافعي ومالكٌ أخذاً بظاهر هذا الحديث.

و(قولها: وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة — رضي الله عنها —) ظاهره: أنه لم يكن يقسم بين عائشة وحفصة في المسير والحديث، وأنّ ذلك كان مع عائشة دائما دون حفصة، ولذلك تحيَّلت

الليلة بعيري وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظرُ؟ قالت: بلى. فركبتْ عائشة على بعير حفصة، وركبتْ حفصةُ على بعير عائشةَ، فجاء رسولُ الله ﷺ

حفصةُ حتى سارَ وتحدَّث معها، فيحتمل أن هذا القدر لا يجبُ القَسْم فيه ذ الطريق ليس محلَّ خَلْوة، ولا يحصل لها به اختصاص، ويحتمل أني يقال: إن القدر الذي يقع به التسامح من السير وينظر في مصلحة بيت التي لا يكون في يومها، ولكنْ لا يُكثر من ذلك، ولا يُطيله، وعلى هذا فيكون النبيُّ ﷺ إنما أدام ذلك؛ لأن أصل القسْم لم يكن عليه واجباً، والله أعلم.

و لم يختلف الفقهاء في أن الحاضرة لا تُحاسب المسافرة فيما مضى لها مع زوجها في السفر، وكذلك لا يختلفون في: أنه يقسم بين الزوجات في السفر كما يقسم بينهن في الحضر. وقد ذكرنا الاحتمال الذي في السير والحديث، وقول حفصة لعائشة — رضي الله عنهم -. ألا تركبين بعيري، وأركبُ بعيرك فتنظرين وأنظر. حيلة منها تمت لها على عائشة لصغر سنِّ عائشة، وسلامة صدرها عن المكر والحيل، إذ لم تجرَّب الأمورَ بعدُ، ولا دَرْك على حفصه فيما فعلت من جهة أنها أخذتْ حقاً هو لعائشة؛ لأن السير والحديث؛ إن لم يدخل في القسم فهي وعائشة فيه سواء، فأرادت حفصةُ أن يكونَ لها: حظٌّ من الحديث والسير معه، وإن كان ذلك واجبا فقد توصَّلت إلى ما كان لها، وإنما يكون عليها الدَّرك من حيث إنها خالفت مراد النبيِّ ﷺ في حديثه، فقد يُريد أن يُحدِّث عائشة حديثاً يُسرُّ به إليها، أو يختصّ بها فتسمعه حفصة، وهذا لا يجوز بالاتفاق، لكن حملَها على اقتحام ذلك الغَيْرة التي تروث صاحبها الدَّهَشَ والحَيْرة.

و(قوله عائشة: يا رب سلِّط عليَّ عقرباً يلدغني) دعاءٌ منها على نفسها لعقوبة لما لحقها بالنَّدم على ما فعلت ولما تمَّ عليها من الحيلة، ولما حصل لها من الغَيْرة، وهو دعاءٌ باللسان غيرُ مراد بالقلب.

إلى جمل عائشة، وعليه حفصة، فسلَّم ثم سار معها، حتى نزلوا، فافتقدته عائشة فَغارتْ، فلمَّا نزلوا؛ جعلت تجعلُ رجلها بين الإذْخر وتقول: يا ربِّ ! سلِّط عليَّ عقربا أو حيَّة تَلْدَغُني ! رسُولُك؛ ولا أستطيع أنَ أقولَ له شيئاً.

رواه أحمد ، والبخاريُّ، ومسلم، وابن ماجه مختصرا.

وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: "كَمُل من الرِّجال كثيرٌ، ولم يكمُل من النساء غيرُ مريمَ بنتِ عمرانَ وآسية امرأةِ فرعون، وإنَّ فضل عائشة على النِّساء كفضل الثَّريدِ على سائر الطعام".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والنسائيُّ.

و(قولها: رسولكَ، ولا أستطيع أن أقول له شيئاً) ظاهره: أنَّ النبيَّ ﷺ لم يعرف القصة، وإنما تمَّت لحفصة حيلتُها عليها، والله أعلم، مع أنه يحتملُ أن يكون النبيُّ ﷺ عُلم ذلك بالوحي أو بالقرائن، وتغافلٍ عمَّا جرى من ذلك إذ لم يجر منهما شيءٌ يترتَّبُ عليه حُكْم، ولا يتعلَّق به إثْم، والله تعالى أعلم. ورسولكَ: منصوب بإضمار فعل تقديره: انظر رسولك، ويجوز الرفعُ على الابتداء، وإضمار الخبر.

و(قوله: "كَمَل من الرجال كثير، ولم يكملْ من النساء غير مريم وآسية") الكمال: هو التَّناهي والتَّمام، ويُقال في ماضيه كمل بفتح الميم وضمها، ويكمُل في مضارعه بالضم، وكمالُ كلِّ شيء بحسبه، والكمالُ المطلق: إنما هو لله تعالى خاصة، ولا شكَّ أنَّ اكملَ نوع الإنسان: الأنبياء، ثم تليهم الأولياء ويعني بهم: الصدِّيقين والشهداء الصالحين. وإذا تقرَّر هذا، فقد قيل: إنَّ الكمالَ المذكورَ في الحديث، يعني به: النبوة، فيلزم أن تكون مريم وآسية نبيَّتَيْن، وقد قيل بذلك، والصحيح: أن مريم نبيَّة؛ لأنَّ الله تعالى أوحى إليها بواسطة المَلَك، كما أوحى إلى سائر النَّبيين، وأما آسية، فلم يردْ ما يدلُّ على نبوتها دلالة واضحة. بل: على صدِّيقيَّتها وفضيلتها. فلو صحَّتْ لها نبوَّتها لما كان في الحديث إشكال. فإنه يكونُ

عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: "يا عائشُ ! هذا جبريلُ يقرأُ عليكِ السَّلام" فقالت: وعليه السلام ورحمة الله. قالت: وهو يرى ما لا أرَى.

رواه البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ.

معناه: أنَّ الأنبياءَ في الرجال كثير، وليس في النساء نبيٌّ إلا هاتين المرأتين.ومَن عداهما من فُضلاء النساء صدّيقات لا نبيَّات، وحينئذ يصحُّ أن تكونا أفضلَ نساءَ العالمين، والأولى أن يقال: إنَّ الكمالَ المذكور في الحديث ليس مقصوراً على كمال الأنبياء، بل يندرجُ معه كمالُ الأولياء، فيكون معنى الحديث: إنَّ نوعي الكمال وُجد في الرجال كثيراً، ولم يوجدْ منه في النساء المتقدّمات على زمانه ﷺ أكمل من هاتين المرأتين، ولم يتعرَّض النبي ﷺ في هذا الحديث لأحد من نساء زمانه، إلا لعائشة خاصَّة؛ فإنه فضَّلها على سائر النساء، ويُستثنى منهن الأربع المذكورات في الأحاديث المتقدمة، وهُنَّ: مريم بنت عمران، وخديجة، وفاطمة، وآسية؛ فإنهنَّ أفضلُ من عائشة، بدليل الأحاديث المتقدمة في باب خديجة، وبهذا يصحُّ الجمعُ، ويرتفع التعارضُ إن شاء الله تعالى. وإنما كان الثريدُ أفضلَ الأطعمة ليسارة مؤنته، وسُهولة إساغته، وعظيم بركته؛ ولأنه كان جلَّ أطعمتهم، وألذَّها بالنسبة إليهم ولعوائدهم، وإما غيرهم فقد يكون غير الثريد عنده أطيب وأفضل، وذلك بحسب العوائد في الأطعمة، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "إن جبريلَ يقرأ عليكِ السلام") يقال: أقرأته السلام، وهو يقرئك السلام — رباعياً- فبضم ياءَ المضارعة منه، فإذا قلت: يقْرأ عليكِ السلام- كان مفتوح عين مضارعه-؛ لأنه ثلاثي، وهذه فضيلةٌ عظيمةٌ لعائشة، غير ما ذُكر من تسليم الله عز وجل على خديجة أعظم؛ لأنَّ ذلك سلامٌ منَ الله، وهذا سلامٌ من جبريل.

و(قولها: وعليه السلام ورحمة الله) حُجَّة لمن اختار أن يكون ردُّ السَّلام هكذا، وإليه ذهب ابنُ عمر — رضي الله عنهما -.

باب ذكر حديثِ أمِّ زَرْعٍ

عن عائشة، أنَّها قالت: جلس إحدى عشرةَ امرأةً. فتعاهدْن، وتعاقدْن أن لا يكتُمْنَ مِنْ أخْبارِ أزواجهنَّ شيئاً. قالت الأولى: زوجي لحمُ جملٍ غثٍّ، على رأس جبلٍ وَعْرٍ، لا سهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ فينقلُ. قالت

ومن باب: حديث أم زرع

الصَّحيح في هذا الحديث: أنَّه كلُّه من قول عائشة — رضي الله عنها — إلا قول النبيِّ ﷺ لها: "كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع". هذا هو المتَّفقُ عليه عند أهل التَّصحيح. وقد رواه سعيد بن مسلم المديني، عن هشام بن عروة، عن أخيه عبد الله، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأم زرع. ثم أنشأ يُحدِّث بحديث أم زرع وصواحبها، قال: اجتمع إحدى عشرة أمرأة... وذكر الحديث. فتوهَّم بعضُ الناس: أنَّ هذا الحديث كلُّه مرفوعٌ إلى النبيِّ ﷺ، فنسَبَهُ إليه، وجَعَلَهُ من قوله. هو وَهْم محضٌ؛ فإن القائل: ثم أنشأ يُحدِّث؛ هو هشام يُخبر بذلك، عن أخيه، عن أبيه: أنه أنشأ بعد ذلك القول المتقدِّم: يُحدِّث بالحديث.

و(قولها: جلس إحدى عشرة إمرأة فتعاهَدْنَ، وتعاقَدْنَ ألاَّ يكتمن من أخبار أزواجهنَّ شيئاً) هكذا صحيحُ الرِّواية ومشهورهُها، وعند الطبريِّ: جلسن إحدى عشرة امرأة، بالنون التي هي علامةُ المؤنث على لغة مَن قال: أكلوني البارغيث، وعليها قوله ﷺ: "يتعاقبون فيكم ملائكةُ بالليل، وملائكة بالنهار".وقد حُمل عليها قولُه تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذينَ

.....

ظَلَمُوا﴾ [1]، وقوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾[2]، وعليها قول الشاعر[3]:

ولكـــنْ دِيَافِـــيٌّ أَبـــوهُ وأُمـــهُ بِحـــَوْرانَ يَعْصِرْنَ السَّليطَ أَقَارِبُـــه

وقد تكلَّف بعضُ النحويين ردَّ هذه اللغة إلى اللغة الفصيحة، وهي ألاَّ تلحق هذه العلامة في الفعل إذا تقدَّم الأسماء، وردَّ هذه اللغة، ولا معنى لهذا كله، ولا يُحتاج إليه؛ إذ قد صحَّى هذه اللغةُ نقلاً واستعمالاً، ثم إنها جاريةٌ على قياس إلحاق علامة تأنيث الفاعل بالفعل على ما تحقَّق بعلم النحو.

و(قول الأولى: زوجي لحمُ جمل غَثٌّ على رأس جبل وَعْر – في غير كتاب مسلم: وعث – لا سهل فيُرتقى، ولا سمين فيُنتَقَل – وفي غير كتاب مسلم: فيُنتقَى بدل: فيُنتقَل –) الروايةُ الصَّحيحةُ بخفض عثٍّ على الصِّفة للجمل، وقد قيَّده بعضُهم بالرَّفع على الصِّفة للَّحم، والعثُّ: الشَّديد الهزال، الذي يُستغثُّ إذا سال منه المدَّة والقيح، واستغث صاحبه. والوعث من الجبال: الصَّعب المرتقى لوعوثته، وهو أن يكون بحيث توحلُ فيه الأقدام، فلا يكادُ يتخلصُ منه. وقد فسَّرَتْهُنَّ بقولها: لا سهلٌ فيرتقى، أي: لا يصعدُ فيه لصعوبته. وينتقل: من الانتقال، أي: هذا الجمل لهزالته لا ينقله أحدٌ زهداً فيه، ولكونه بموضع لا يتخلَّص منه، ويُنتقى، أي: لا نقيّ له، النقيّ: المخ. يقال منه: نقوت العظم، ونقيته، وانتقيته، إذا استخرجتُ مخَّه. قال الخطَّابي: وصفتْ زوجَها بسوء الخُلُق، وقلَّة الخير، ومَنْع الرِّفد، وبالأذى في المعاشرة.

---

(1)– سورة الأنبياء، الآية 3.
(2)– سورة المائدة، الآية 71.
(3)– هو الفرزدق..

الثانية: زوجي لا أبُثُّ خبره، إنّي أخافُ أن لا أَذَرَهُ، إنْ أذكُرْهُ أذكُرْ

و(قول الثانية: زوجي لا أبثُّ خبره، إنّي أخافُ ألاَّ أذره؛ إن أذكره، أذكر عُجَرَه وبُجَرَه) بثُّ الخبر: نَشْرَه وإظهارُهُ. ومعنى أذره: أدعه، ولم تستعملِ العربُ من هذين الفعلين إلاَّ مضارعهما، فلا يقال منهما: فعل ولا أفعل، ولا فاعل، ولا فعلى. استغنوا عن ذلك بـــ (ترك) غير أنه قد سُمع: ودع، وودع، وهو قليل، والعُجَر: جمع عُجْرَة، والبُجَر: جمع بُجْرَة. تعني بذلك: عيوبه. قال الأصمعيُّ في تفسير قول عليٍّ – رضي الله عنه –: أشكو إلى الله عُجَرِي وبُجَري، أي: همومي وأحزاني، وأخل البُجَر: العروق المنعقدة في البطن خاصَّة، مقال ابنُ الأعرابي: العُجَرة: نفخةٌ في الظهر، فإذا كانت في السَّرَّة فهي: البُجْرة، ثم يُنْقلان إلى الهموم والأحزان، والضمير في خَبَرْه،وفي أَذَرَهُ: على الزوج، وكذلك هو ظاهر الضميرين في عجرة وبجره. وتعني: لها إن وصفتْ حالَ زوجها ذكرتْ عيوبه، وإن فعلت ذلك خافتْ من فراقه، وهي تكرهُ فراقه للعُلق التي بينهما. وعلى هذا فتكون (لا) التي في أن "لا أذره" زائدة، كما زيدتْ في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعكَ ألاَّ تَسْجُدَ﴾[1]. ويحتملُ أن يقال: "لا" ليست بزائدة، وإنها تخاف ألا تتركه معها مُمْسكاً لها في صحبتها.وقيل: إنَّ الضميرَ في عجره وبجره عائدٌ إلى الخبر، تعني: أنَّ حديثَه حديثٌ طويلٌ، فيه عقد لو تحدَّثُ به، لكنها لم تتحدَّث به لخوفها، ولم تسكتِ عن حال زوجها بالجملة للعَقْد الذي جعلتْ على نفسها، لكنها أومأت إلى شيءٍ من ذلك، وعلى القولَ الأوَّل: صرّحتْ بأنَّ له أموراً تُعاب.

---

[1]– سورة الأعراف، الآية 12.

عُجَرَهُ وبُجَرَهُ قالت الثالثة: زوجي العَشَنَّقُ، إن أَنْطقْ أُطلَّقْ، وإن أسكُتْ أُعلَّق. قالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تهامَةَ، لا حرٌّ ولَا قُرٌّ، ولا مَخافَةَ، ولا سآمةَ قالت الخامسة: زوجي إن دَخَل فَهِدَ، وإنْ خرج أسِدَ، ولا يَسْأَلُ

و(قوله الثالثة: زوجي العشنَّق؛ إن أنطقْ أُطلَّق، وإن أسكتْ أُعَلَّق) العشنُّ: الطويل الخارجُ بطوله إلى الحدِّ المستكره، ويُقال أيضاً عليه: العشنَّط – بالطاء – تقولُ: ليس عنده أكثر من طول بلا نفع، فهو منظرٌ بلا مخبر، إن ذكرتُ عيوبه طلَّقني، وإن سكتُ عن ذلك؛ تركني مُعلَّقةً، لا أيِّماً، ولا ذات زوج، كما قال تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كالمُعَلَّقَةِ﴾[1].

و(قول الرابعة: زوجي كليْلِ تهامة؛ لا حرٌّ، ولا قرٌّ) هو مَدَحٌ منها لزوجها؛ لأنها ضربتْ له مثلاً بلَيلِ تهامة؛ لأنه معتدلٌ؛ إذ ليس فيه حرٌّ يؤذي، ولا بردٌ يُرْدي. وكذلك كان زوجُها. والقرُّ: البرد.

و(قولها: ولا مخافة، ولا سآمة) أي: لا أخافُ منه أذىً، وليس فيه سآمة أي: قلال. والرواية المشهورة: فتح ما بعد (لا) وبناء ما بعدها معها، وقد رواه أبو عبيد برفع ما بعدها وتنوينه في الموضع كلِّها على الابتداء وإضمار الخبر، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لاَّ بَيْعٌ فيه ولاَ خُلَّةٌ ولاَ شَفَعَةٌ﴾، وكنحو قوله: (لا حول ولا قوة إلا بالله)؛ فإنه يجوزُ فتحها ورفعها، وفتح الأول، ورفع الثاني، وعكس ذلك، وبسطُ ذلك في كتب النحو.

و(قول الخامسة: زوجي إن دخل فَهِدَ، وإن خرج أسِدَ، ولا يسألُ عمَّا عهد) الرواية فَهِد وأَسِدَ – بكسر العين وفتح اللام – على أنهما فعلان ماضيان مأخوذان من اسم الفهد والأسد، تريد أن حاله إذا دخل بيته نام نومَ الفهد، تصفه بكثرة النَّوم. يُقال في المثل: هذا أنوم من فهد،

---

[1]– سورة النساء، الآية 129.

عمَّا عَهِدَ. قالت السادسة: زوجي إنْ أكل لفَّ، وإن شرب اشتفَّ، وإن

وأما إذا خرج للحرب، فيفعل فعل الأسد تصفه ب الشجاعة. يقال: أَسِدَ الرجلُ واستأسد إذا تشجَّع، وقال إسماعيلُ بن أبي أويس: إن دخل فَهِد، أي وثب عليَّ كما يثبُ الفهد، فيحتملُ أن تريدَ بذلك ضَرْبها، أو المبادرة لجماعها.

قال الشيخ: والأول أظهر.

و(قولها: ولا يسأل عمَّا عهد) أي: لا يبحثُ له من مال ولا طعام في بيته، فيحتملُ أن يكونَ ذلك عن كرم نفس، وحُسْن خُلُق فيكون مدحاً، ويُحتملُ أن يكون ذلك عن غفلة وقلَّة مبالاةٍ فيكون ذمّاً.

و(قوله السادسة: زوجي إن أكل لفَّ، وإن شرب اشتفَّ) تصفُه بكثرة الأكل مع التَّخليط في المأكول، فهو يلفُّ كلَّ ما يجدُه من الأطعمة، ويشربُ كلَّ ما يجدُه من الأشربة. يقال: اشتفَّ ما في الإناء إذا شرب ما فيه، من الشفافة وهي: البقية، وهذا وصف ذمٍّ.

و(قولها: وإذا اضطجع التفَّ) تعني: أنه ينام وحده مُلتفًّا في ثوبه، فيحتل أن يكونَ ذلك منه إعراضاً عنها، إذ لا أرَبَ له فيها، فهي لذلك كئيبةٌ حزينة، ويناسبه قولُها بعده: ولا يُولج الكفَّ ليعلمَ البثَّ، أي: لا يمدَّ يده إليَّ ليعلم ما أنا عليه من الحزن لإعراضه عنها فيزيله. ويحتمل أنه: إنما يفعلُ ذلك فشلاً وعجزاً؛ فإن هذه نومةُ العجزان الكسلان، وعلى هذا فيجتمع فيه: أنَّه أكولٌ، شروبٌ، نؤومٌ، لا رغبةَ له في شيء غير ذلك. واختلف في معنى قولها: ولا يُولج الكفَّ ليعلمَ البثَّ، فأشار ابنُ الأعرابي إلى الأول، فإنه قال: إنَّما أرادت أنه إذا رقد التفّ في ناحية من البيت، ولم يضاجعني ليعلَم ما عندي من محبَّتي لقربه. ولا بثَّ لها إلا محبَّتُها الدنو منه،

اضطجع التفّ، ولا يولج الكفَّ ليَعْلَمَ البثَّ قالت السابعة: زوجي غَيَاياءُ-

---

فسمَّته ذلك بثّا، لأنَّ البثَّ من جهته يكون. قال أبو عبيد: أحسبُ أنها كان بجسدها عيب، فكان لا يدْخلُ يَدَه في ثوبها كرهاً، وقال غيرُه: لا يمسُّ عورتها، لأن ذلك قد يشقُّ عليها في بعض الأوقات، ولذلك قال ﷺ في الحديث: "حتى تستحدَّ المُغيبَة"، وقال أحمد بن عبيد: معناه: لا يتفقَّد أموري فيعلم ما أكرهه فيزيلَه، يقال: ما أدخل يده في هذا الأمر، أي: لم يتفقَّدْه.

قال الشيخ رحمه الله: وقولُ ابن الأعرابي: أشبهها، وما ذكرته أنسبها، وعلى هذه الأقوال كلهّا فحديثها كلُّه ذمٌّ، وأما على قول أبي عبيد، فإنها تكون قد مدحته بالإعراض والتَّغافل عن الاطلاع على ما يُحْزِنها من عيب جسدها، وقد استبعد ابن قتيبة أن تكون تذمُّه بالوصفين المتقدمين وتمدحه بثالث.

قال الشيخ: وهذا لا بُعْد فيه، فإنهنَّ تعاقدن ألاّ يكتمن من أحوال أزواجهن شيئاً، فمنهن مَن كان زوجُها مذمومَ الأحال كلّها، ومنهن مَن كان زوجُها ممدوحَ الأوصاف كلّها، ومنهم من جَمَع الأمرين، فأخبرتْ كلُّ واحدةٍ بما علمتْ.

و(قول السابعة: زوجي غَيَاياء – أو عَيَاياء – طباقاء) الروايةُ التي لا يُعَرَفُ غيرها بالعين المهملة، وغياياء: بالغين المعجمة، و"أو" للشك، وهو شكٌّ وقع من بعض الرُّواة، وقد أنكر أبو عبيد وغيره الغينَ المعجمة، وقالوا: صوابُه: عياياء. وقالوا: هو العنِّين: وهو الذي تغلبُه مباضعةُ النساء، وكذلك هو في الإبل التي لا تضربُ ولا تلقح.

أو عياياءُ – طبَاقَاءُ، كلُّ داءٍ له داء، شجَّكِ أو فَلَّكِ، أو جمع كلاّ لك.

قال الشيخ: ويظهر من كلام هؤلاء الأئمة: أنهم قَصروا عياياء على الذي يعجزُ عن الجماع والضّراب، والصّحيح من اللسان: أنه يُقال على ذلك، وعلى مَن لم يقمْ بأموره. ففي الصِّحاح: يقال جمل عياياه؛ أي: لم يهتد إلى الضّراب، ورجل عياياء: إذا أعيا بالأمر والمنطق، وعل هذا فتكون هذه المرأةُ قد وصفته بكلّ ذلك، وأما إنكارُ غياياء فليس بصحيح. قال القاضي أبو الفضل: وقد يظهر له وَجْهٌ حَسَن، ولا سيما أكثر الرُّواة أثبتوه، و لم يشكّوا فيه، وهو أن يكونَ مأخوذاً من الغياية، وه كلُّ ما أظلَّ الإنسانَ فوق رأسه، فكأنه غُطّي عليه وسُترت أمورُه، ويكون من الغي: وهو الاهماك في الشر، أو الغي: وهي الخيبة. قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: خيبة. والمعروف في الطّباقاء: أنه بمعنى: العياياء؛ وهو الذي تنطبقُ عليه الأمور.

وأنشد الجوهري قول جميل بن مَعْمَرٍ:

طَبَقاءُ لَمْ يَشْهَدْ خُصُواً ولَمْ يَقُدْ رِكَاباً إلىَ أَكْوَارِهـــا حينَ تُعْكَـــف

قال: ويُروى عياياء، وهو بمعنى واحد. قال القاضي: وحكى أبو عليّ – وأظن البغدادي – عن بعضهم أنه قال: الثقيل الصَّدر؛ الذي ينطبق صدره على صدر المرأة عند الحاجة إليها، وهو من مذامِّ الرجال. وقال الجاحظ: عياياء، طبقاء: أخبرت عن جهله بإتيان النساء، وعيِّه، وعجزه، وأنه إذ سقط عليها انطبقَ عليها، والنساء يكرهنَ صدور الرجال على صدورهنَّ.

و(قولها: كلُّ داء له داء) أي: هو موصوف بجميع الأدواء مع عيّه وعجزه.

قالت الثامنة: زوجي: الريح ريح زَرْنَب، والمسُّ مسُّ أرنب، قالت التاسعة: زوجي رفيعُ العِمادِ، طويل النِّجاد، عظيم الرَّماد، قريب البيت من

و(قولها: شجَّك، أو فلَّك، أو جمع كلاً لك) الشجاج: الجراح في الرأس، وتعني بفلَّك: أي أثَّر في جسدك بالضرب، مأخوذ من فلَّ السيف فلولاً إذا تثلَّم، وقيل معناه: كسر أسنانها، و(أو) هنا للتقسيم، تعني: أنه في وقت يضربُها فيشجُّ رأسها، وفي وقت يؤثر في جسدها، وفي آخر يجمعُ كلّ ذلك عليها.

و(قوله الثامنة: الرّيح ريح زرنب، المسّ مَسّ أرنب) الأرنب: واحد الأرانب. تعني به: أنه ليّن الجسد عند المَسِّ، ناعمُه كمسِّ جلد الأرنب، ويُحتمل: أن يُكنى بذلك عن طيب خلقه، وحسن معاشرته. والزَّرْنب: بتقديم الزاي على الراء: ضرب من النبات طيِّب الرائحة، ووزنه: فعلل. وأنشدوا:

يا بأبي أنت وفـــوك الأشنـــب كـــأنَّمـــا ذرَّ عليـــه الزَّرنـــــب
أَو زنجبيـــل عاتقٌ مُطيَّـــب

وظاهره: أنها أرادت: أن تستعملَ الطيب كثيراً تظرُّفاً ونظافة، ويُحتمل أن تكني بذلك عن طيب الثناء له، أو عن طيب حديثه، وحسن معاشرته.

و(قول التاسعة: زوجي رفيعُ العماد، طويل النِّجاد) وظاهره: أنها وصفه بطول البيت وعلوِّه؛ فإنَّ بيوت الأشراف والكرماء كذلك، فإنهم يُعْلونها، ويَضربونها في الموضع المرتفعة ليقصدَهم الطارقون والمعتفون[1]، وبيوت غيرهم: قصار، وربما هُجي بذلك فقيل:

---

[1]– المُعتفون: جمع عاف ومُعتف، الأضياف وطلاب المعروف. (اللسان) مادة: عفى.

النادي. قالت العاشرة: زوجي مالكٌ؛ فما مالكٌ؟ مالكٌ خيرٌ من ذلك،

قِصارُ البيوت لا تُرى صهواتُها من اللُّؤْمِ حَشَّامُون عندَ الشدائـــد

وقيل: كَنَّتَ بذلك عن شرفه ورفعة قدره. والنّجاد: حَمالة السيف، تُريد: أنه طويلُ القامة، كما قال شاعرهم:

قَصُرَت حَمائلُهُ علَيْه فقَلَصَـــتْ ولَقَـــدْ تَـــمَطَّطَ بَيْنَهـــا فأَطَالَهـــا

وكانت العرَب تتمادح بالطول وتذمُّ بالقِصَر، وذلك موجود في أشعارهم.

و(قولها: عظيم الرَّماد) تعني: أن نار قِراه للأضياف لا تُطفأ، فرمادُ ناره كثير عظيم، كما قال:

مَتَى تأته تَعْشُو إلَى ضَوْء نـــارِهِ تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونـــاراً تأَجَّجـــا

وقال آخر:

لَـــهُ نارٌ تُشَـــبُّ علَى يَفَـــاعٍ إذا النِّيـــرانُ أُلْبِسَـــتِ القِنَـــاعـــا

و(قولها: قريب البيت من النادي) النادي، والنديُّ، والمنتدى: مجلس القوم، ومنه قول تعالى: ﴿فلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾[1]. أي: أهل مجلسه. تصفه بالشرف والسؤدد في قومه، فهم إذا تَشاوروا، أو تفاوضوا في أمر أتوه فجلسوا قريباً من بيته، فاعتمدوا على رأيه، وامتثلوا أمره. ويُحتمَل أن تريد: أن النادي إذا أتوْه لم يصعب عليهم لقاؤه أي: لا يحتجبُ عنهم، ولا يتباعد منهم، بل: يقرب منهم، ويتلقّاهم مُرحِّبا بهم، ومُبادراً لإكرامهم. ومقتضى حديثها: أنها وصفته بالسيادة والكرم، وحسن الخلق، وطيب المعاشرة.

و(قوله العاشرة: زوجي مالك، وما مالك؟) هذا تعظيم لزوجها، وهذا على نحو قوله تعالى: ﴿وأَصْحَبُ اليَمِينِ مَا أَصْحَبُ اليَمينِ [2]﴾ و﴿ الحَاقَّةُ * ما الحَاقَّةُ﴾ [3].

---

[1]– سورة العلق، الآية 17.
[2]– سورة الواقعة، الآية 27.
[3]– سورة الحاقة، الآية 21.

له إبلٌ كثيراتُ المَبارك، قليلاتُ المَسَارح، إذا سَمِعْنَ صوت المِزْهرِ أيْقَنَّ أنهنَّ هَوَالكُ. قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زَرْع؛ فما أبو زرع؟ أناسَ من حُليَّ أُذُنَيَّ، وملأَ من شَحمٍ عضُدَيَّ، وبجَّحني فبَجَحَتْ إليَّ نفْسي،

و(قولها: مالكٌ خيرٌ من ذلك) أي: هو أجلُّ من أن أصفَه لشهرة فضله، وكثرة خيره.

و(قولها: له إبلٌ كثيرات المَبارك، قليلاتُ المَسَارح) مَبارك الإبل: مواضع بروكها. واحدُها مَبْرك، ومَسَارحُها: مواضع رعيها، واحدها مَسْرح، واختلف في معناه على ثلاثة أقوال: أحدُها: أنه أكثر بروكَها وأقلّ تسريحَها مخافة أن يترلَ به ضيف هي غائبةٌ، ذكره أبو عُبيد، والثاني: أنها إذا بركت كانت كثيرة لتوفُّر عددها، وإذا سرحت كانت قليلة لكثرة ما يجزرُ منها للضيفان. قاله ابن أبي أويس. وثالثها: أنها إذا بركت كانت كثيرة لكثرة من ينضمُّ إليها من يلتمسُ لحمها ولبنها، وإذا سرحت كانت قليلة لقلة من ينضم إليها منهم.

و(قولها: إذا سمعنَ صوت المِزْهر أيقنَّ انهنَّ هوالك) المِهر – بكسر الميم –: هو عود الغناء، وهو معروف عند العرب ومذكور في أشعارها, وقد اخطأ من قال: إنه مُزْهر بضم الميم وكسر الهاء، وفسَّره: بموقد النار في الرواية والمعنى. أما الروايَة: فلا يصحُّ منها إلا ما ذكرناه، وهو كسر الميم، وفتح الهاء، وأما المعنى؛ فقيل فيه قولان؛ أحدهما: أنه يأتي ضيفانَه بالشراب والغناء، فإذا سمعت الإبلُ صوتَ المِزْهر والغِناء أيقنَّ بنحرهنَّ للأضياف، وكلا القولين: أمدَح، ومعناهما أوضَح.

و(قوله الحادية عشرة: أناس من حُليّ أذنيّ) تريد: حلاّني قؤرَطَةً وشُنُوفاً تنوسُ بأدنيّ، أي: تتحرك، والنَّوْسُ: حركة كل شيء متدلّ، يقال فيه: ناسَ ينوسُ نوْساً، وأناسَه غيرَه إناسةً، وسمّي ملكُ اليمن ذا نُواس؛ لضفيرتين كانتا له تنوسان على عاتقه.

وَجَدِني في أهل غُنيمةٍ بشقٍّ، فجعلني في أهلِ صهيلٍ وأطيطٍ، ودائس ومُنقٍّ،

و(قولها: ملأَ من شحم عَضُدَيَّ) أي: سمَّنني بالإحسان، وكثرة المأكل، وخصَّت العضدين؛ لأنهما إذا سَمِن جميع الجسد.

و(ولها: فبجَّحني فبجحت إليَّ نفسي) الرواية المعروفة: فبجَحت؛ بفتح الجيم والحاء وسكون تاء الفرق، وإليَّ مشدد الياء، وتتكون "نفسي" فاعلة بجحت وقد رواه أبو عُبيد فبَجُحْتُ، بضم الجيم، وسكون الحاء وتاء مضمومة، هي ضمير المتكلم الفاعل، وإلى ساكنة: حرف جر، نفسي: مجرورة، ومعنى: يجحني: فرَّحني ورفعني، ففرحتُ، وترفَّعتُ. يُقال: فلان يتبجَّح بكذا، أي: يترفَّع ويفتخر، قال الشاعر وهو الراعي:

وَما الفَقْرُ مِنْ أَرْضِ العَشِيرَة ساقَنا إليكِ وَلكِنَّا بِقُرْبِكِ نَبْجَحُ

أي: نترفَّع، ونفتخر.

و(قولها: وجدني في أهل غنيمة بشقّ) الأكثر الأعرف في الرواية بكسر الشين، وقد ذكره أبو عبيد بفتح الشين. قال: والمحدّثون يقولونه بالكسر، والفتح الصواب، وهو موضع. وقال ابنُ الأنباري: هو بالفتح والكسر، واختلف الذين كسروه، فمنهم من قال: هو شقّ جبل، أي: غنمهم قليلة، ومهم من قال: هو الجهدُ والمشقّة. كما قال تعالى: ﴿إلاَّ بِشِقّ الأنْفُسِ﴾.

و(قولها: فجعلني في أهل صهيل وأطيط) الصهيل: حمحمة الخيل، والأطيط: صوت الرَّحْل والإبل من ثقل أحمالها. يقال: لا آتيك ما أطَّت الإبل، وكذلك صوت الجوف من الجَوَى[1].

---

[1]ـ "الجوى": الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حُزن. وكل داءٍ في الجوف.

فعنده أقول فلا أُقبَّحُ، وأرقُد فأتصبَّحُ، وأشرَبُ فأتَقَنَّحُ. أمُّ أبي زرع، فما

و(قولها: ودائسٍ ومُنقٍّ) دائس: اسم فاعل من داس الطعام يدوسه دياسة فانداس هو، والموضع: مداسة. والمدوس: ما يداس به، أي: يدقّ ويُدْرَس، ويقال: داس الشيء برجله يدوسه دوساً إذا وطئه. ومُنَقٍّ: صحيح الرواية فيه بضم الميم وفتح النون: اسم فاعل من نقى الطعام والشيء ينقيه تنقية، فهو مُنق. يعني: أن لهم زرعاً يُداس وينقى، وقاله ابنُ أبي أويس بكسر النون، قال: وهو نقيق أصوات المواشي والأنعام.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنه لا يقال لشيءٍ من ذلك: نق، وإنما يقال: نق العقرب والضفدع والدجاجة، وقد يقال: نق الهر، وهو قليل، ولذلك قال النيسابوري: تريدُ الدجاج، وهو بعيد؛ لأنَّ الدجاج لا تمتدحُ بها العرب، ولا تذكرها في الأموال، ومقصودُ قولها هذا: أنها كانت في قوم ضعفاء فقراء، فنقلها إلى قوم أغنياء أقوياء.

و(قولها: فعنده أقول فلا أقبَّح) أي: لا يُعاب لها قول، ولا يرد بل يستحسن ويمتثل.

و(قولها: وأرقد فأتصبَّح) أي: أديم النومَ إلى الصَّباح، لا يوقظها أحدٌ؛ لأنها مُكرَّمة، مكفيَّة الخدمة والعمل.

و(قولها: فأتقَنَّح) يروى بالميم والنون مكانها. والروايتان معروفتان، غير أن أبا عبيد لم يعرفْ رواية النون، فأما أتقمح — بالميم — فمعناه: أتروّى حتى أمجَّ الشراب من الرّيّ. يقال: ناقةٌ قامح، وإبل قماح: إذا رفعتْ رؤوسها عند الشَّراب، ونحو قوله تعالى: ﴿ فَهُم مُقمَحُونَ ﴾[1]. وأما بالنون فمعناه: الزيادة على الشرب بعد الريِّ. يقال: قنحت من الشراب،

---

[1]— سورة يس، الآية 8.

أمُّ أبي زرعٍ؟ عكومُها رَدَاحٌ، وبيتُها فَسَاحٌ. ابنُ أبي زرع، فما ابنُ أبي زرعٍ؟ مضْجَعُهُ كمَسلِّ شَطبة، وتُشْبعه ذراعُ الجفرة. بنتُ أبي زرع، فما بنتُ أبي زرع، طوعُ أبيها، وطوعُ أمِّها، وملءُ كسائها، وصُفْر ردائِها،

أقنح قنحاً إذا شربتُ بعد الرّيِّ، وقال ابنُ السِّكّيت: معناه أقطع الشربَ وأشربُ قليلاً قليلاً.

و(قولها: عكومُها رداح) العكوم: جمع عكم، وهو العِدلُ. ورداد: مملوءة من الأمتعة، تعني: أنها كثيرةُ القماش والأثاث. ويقال: امرأة رداح؛ إذا كانت عظيمةَ الكفل.

و(قولها: وبيتها فساح) أي: واسع. يقال: بيت فسيح، وفساح، وظاهره: أنه فسيحُ الفِناء، ويحتملُ أن يكون كنايةً عمّا يُفعل فيه من الخير، والمعروف.

و(قولها: مضجعه كَمَسلّ شطبة) الشَّطبة: هي بفتح الشين، وأصلها ما شطب من جريد النخل، وذلك: أنه يُشَقُّ منه قضبان دقاق تُنسج منها الحصر. وقال ابنُ الأعرابي وغيرُه: الشطبة هنا: السيف يُسَلُّ من غمده.

و(قولها: وتشبعه ذراع الجفرة) وهي: الأنثى من ولد المعز، والذكر: جفرٌ، وإذا أتى على ولد المعز أربعة أشهر، وفُصل عن أمه، وأخذ في الرعي قيل عليه: جفر. مَدَحَتْهُ بقلّة أكله، وقلّة لحمه، وهما وصفان ممدوحان. قال الشاعر:

تَكْفيــه حُزَّةُ فلَذ إنْ أَلَــمَّ بهَــا ... مــنَ الشِّواءِ ويُرْوِي شُرْبَهُ الغُمــرُ

و(قولها: ملءُ كسائها) أي: ممتلئة الجسن.

و(قولها: صفر ردائها) أي: خاليته، والصفر: الشيء الفارغ. قال الهروي: أي ضامرة البطن، والرداء ينتهي إلى البطن.وقال غيره: يريد أنها

وغيظ جارتها. جاريةُ أبي زرع، فما جاريةُ أبي زرع؟ لا تَبُثُّ حديثَنا تبثيثاً،

خفيفةُ أعلى البدن، وهو موضعُ الرداء ممتلئة أسفله، وهو موضعُ الكساء والأزرة، ويؤيده قولُها في بعض روايات الحديث: ملْءُ إزارها. قال القاضي: والأولى: أنه أراد: أن امتلاء منكبيها، وقيام نهديها يرفضان الرداء عن أعلى جسدها، فهو لا يمسُّه كالفارغُ منها بخلاف أسفلها، كما قال الشاعر:

أبَتِ الرَّوادفُ وَالثُّـدِيُّ لقُمْصها مَسَّ البُطُـونِ وَأنْ تَمَسَّ ظُهُـورا

و(قولها: وغيظ جارتها) تريد أن ضرتها يغيظها ما تراه من حسنها، وجمالها، وعفافها.

وقولها: وعقر جارتها الرواية الصحيحة: بعين مهملة مفتوحة، وقاف من العقر، وهو الجرح، أو الهلاك. تعني: أنَّ جارتها تموتُ من أجلها حسداً وغيظاً، أو ينعقر قلبها، وفي قولها: ملء كسائها، وصفر ردائها، وغيظ جارتها دليلٌ لسيبويه: على صحة ما أجازه من قول: مررتُ برجلٍ حَسَنٍ وجهه، وهو ردٌّ على المبرّد والوجّاج؛ فإنهما مَنَعا ذلك، وعلَّل الزجاجي المنع بإضافة الشيء إلى نفسه، وخطَّأ سيبويه في إجازة ذلك، وقال: إنما أجازه سيبويه وحده، وقد أخطأ الزجاجيُّ في هذا النقل في مواضع، أخطأ في المنع، وأخطأ في التعليل، وفي تخطئته سيبويه، وفي قوله: إنه لم يقلْ به غيرُ سيبويه. وقد قال أبو الحسن بن خروف: أنَّه قال به طائفةٌ لا يحصون، وفي قوله: إنَّ جميع النَّاس خطَّوا سيبويه؛ وليس بصحيح. وكيف يخطأ باللسان من تمسَّك بالسَّماع بالصحيح، كما جاء في هذا الحديث المتَّفق على صحته. وقد جاء عن بعض الصَّحابة — رضي الله عنهم — في وصف النبيِّ ﷺ فقال: شَثَنٌ أصابعه[1]، وقد اتفق أهل اللسان على صحة قول الشاعر:

---

[1]ـ "الشَّثن": الغليظ الأصابع من الكفّين والقدمين.

ولا تُنَقِّثُ ميرتَنا تَنْقيثاً، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً. قالت: خرج أبو زرع والأوطابُ تُمخَضُ، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلْعبان من تحت

أمنْ دمَنتين عرَّج الركبُ فيهما بحقل الرُّخامى قد عفـــا طللاهُما
أَقامَتْ عَلَى رَبْعَيهِما جرتَا صَفاً كُميتا الأعالي جونتـــا مُصطلاهما

وقد تعسَّف المانعُ في تأويل هذا السَّماع بما تمجُّه الأسماع، ولتفصيل ذلك مبسوطات النحو، ومن تمسَّك بالسماع فردُّ حُجَّته لا يُستطاع.

و(قولها: لا تبثُّ حديثَنا تبثيثاً) يُروى بالباء بواحدو، من البث:وهو الإظهارُ الإشاعةُ، فتصفها بكتمان ما تسمعُه من الحديث، وهذا يدلُّ على عقلها، وأمانتها، ويُروى بالنون، وهو بمعنى الأول. يقال: نثَّ الحديث إذا أنثاه، وفي الصحاح: بث الخبر، وأبثَّه: إذا أفشاه، ونثَّه بالنون ينثّه بالضم كذلك، وأنشد:

إذا جـــاوَزَ الاثنيـــن سرٌّ فإنـــهُ بنَـــثٌّ وتكْثير الوُشَـــاة قَميـــنُ

و(قولها: لا تنقّث ميرتنا تنقيثاً) أصل التنقيث: الإسراع. يقال: خرجتُ أنقث – بالضم – أي: أسرع السير، وكذلك أنتقث. والميرة: ما يمتارُ من موضع إلى موضع من الأطعمة، وأرادت: أنها أمينةٌ على حفظ طعامنا وحافظة له.

و(قولها: ولا تملأ بيتَنا تعشيشاً) يُروى هذا بالعين المهملة والمعجمة، فعلى المهملة فسَّره الخطابي بأنها لا تفسد الطعام المخبوز، بل تتعهده بأن تُطعمنا منه أولاً فأولاً، وتلاه على هذا التفسير المازري، وهذا إنما يتمشّى على رواية مَن رواه: ولا تفسد ميرتنا تعشيشاً. وأما على رواية ما صح هنا من قولها: ولا تملأ، فلا يستقيم، وإنما معناه: أنها تتعهَّد بيتها بالنظافة

والكَنْس، ولا تترك كناسةْ في البيت، حتى يصير كعش الطائر، وأما روايةُ الغين المعجمة فهو في الغش والخيانة. أي: لا تخوننا في شيء من ذلك، ولا خَصْرها برُمَّتَين، فطلَّقني ونكحها. فنكحتُ بعده رجلاً سَرِيًّا، رَكبَ ثَرِيّا، وأخذ خطِّيًا، وأراح عليَّ نعماً ثَرِيّاً، وأعطاني من كل رائحة زَوْجاً؛ قالَ:

تترك النصيحةَ في صَنْعة. والأوطاب: جمع وطب، وهو من المجموع النادرة، فإن (ففَعْلاً) في الصحيح قياسه أن تأتي في القلة عل أفعلٍ، وفي الكثرة على فُعُول، وفِعال، وهي: أسقيةُ اللبن، وتُمخَض: تُحَرَّك ليخرجَ زبدها.

و(قولها: يلعبان من تحت خصرها برمَّانتين) قال ابن أبي أويس: تعني بالرمانتين: ثدييها. قال أبو عبيد: ليس هذا موضعه، وإنما معناه: أنها عظيمة الكَفَل، فهي إذا استلقتْ صار بينها وبين الأرض فجوةٌ يجري فيها الرَّمان، قال القاضي: وما انكره أبو عبيد أظهر وأشبه، لاسيما وقد روي: من تحت صدرها، ومن تحت درعها، ولأن العادة لم تجر برمي الصبيان الرمان تحت أصلاب أمهاتهم، لا باستلقاء النساء كذلك، حتى يشاهد ذلك منهن الرجال، والأشبه: أنهما رمانتا الثَّديين، شبَّههما بذلك لنهودهما، ودلَّ على ذلك صِغَرُ سنِّها.

و(قولها: فنكحتُ بعده رجلاً سرياً، ركب شرياً، وأخذ خطياً، وأراح عليَّ نعَماً ثرياً) السري — بالسين المهملة -: هو السيِّدُ الشريف، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيّا﴾ على قول الحسن، وسراةُ كلّ شيءٍ: خيارُه، وسروات النَّاس: كبراؤهم، وحكى يعقوب فيها الشين المعجمة، وركب شرِيًّا، أي: فرساً سريعاً. يُقال: استشرى الفرس؛ إذا لجَّ في سيره ومضى فيه، وقال يعقوب: فرس شريٌّ: خيارٌ، وهو بالمعجمة لا غير. والخطيُّ: الرمح؛ منسوب إلى موضع بالبحرين يقال له: الخط.

والنَّعَم: الإبل. وثرياً: كثيرى كالثرى، وهو التراب. وأراحها: أتى بها إلى مراحها، وهو موضعُ مبيتها.

فكُلي أمَّ زرع، وميرِي أهْلَك، فلو جَمَعْتُ كلَّ شيء أعطاني ما بلَغَ أصْغر آنية أبي زرع. قالت عائشة: قال لي رسولُ الله ﷺ: "كنت لك كأبي زرعٍ لأمِّ زرع".

و(قولها: وأعطاني من كلِّ رائحة زوجا) رائحة — بالراء -: هو اسمُ فاعل من راح، تعني: أنه أعطاها من صنف من الإبل، والغنم، والبقر. والزَّوجُ: الضّعف[1]، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزوَجاً ثَلَثَةً﴾[2]. وقد يُراد بالزوج: اثنان. يقال فرد وزوج، وزوج المرأة: بعلها، وهي زوجٌ له. وقد جاء زوجُه، ويقال: هما زوجان للاثنين، وهما زوج، كما يقال: هما سيّان، هما سواء، قاله الجوهري. وقال غيره: ولا يوضع الزوجُ على الاثنين أبداً. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكرَ والأُنْثَى﴾[3]، وقد رويت هذه الكلمة" ذابحة بالذال المعجمة، من الذبح، وتكون فاعلة بمعنى مفعولة. كـ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[4] أي: مرضية. يعني: أنه أعطاها من كلِّ شيء يُذبح.

و(قوله: فكلي أمّ زرع، ومِيْري أهْلَك) أباح لها أن تأكل ما شاءت من طعامه، و أن تبعث منه بما شاءت لأهلها، مبالغة في إكرامها، وفي الاحتفال بها، ومع ذلك كلّه، فكانت أحوالُه كلُّها عندها محتقرةٌ بالنسبة

---

(1)— في (ز): الضعف.
(2)— سورة الواقعة، الآية 7.
(3)— سورة النجم، الآية 45.
(4)— سورة القارعة، الآية 7.

إلى أبي زرع، ولذلك قالتْ: فلو جمعتُ كلّ شيء أعطاني ما بلغ أصغر ابنة أبي زرع، وسَبَبُ ذلك: أن أبا زرع كان الحبيب الأول. كما قال الشاعر[5]:

نقِّلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأوَّلِ

وفي رواية؛ قال: عياياء طَبَاقاء – ولم يَشُكَّ – وقال: قليلاتُ المَسارحِ. وقال: وصفر ردائها، وخيرُ نسائها، وعَقْرُ جارتِها. وقال: ولا تنقُثُ ميرتَنا تنقيثاً. وقال: وأعطاني من كل ذابحةٍ زوجاً.

رواه البخاريُّ، ومسلم.

و(قوله ﷺ لعائشة: "كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع") تطيبُ لقلبها، ومبالغةٌ في حُسن عشرتها، ومعناه: أنا لك، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[1] أي: أنتم، ويمكن بقاؤها على ظاهرها، أي: كنتُ لك ي علم اللهِ السَّابق، ويمكن أن تكون ممَّا أُريدَ بها الدوامُ، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[2].

وحديثُ أمِّ زرع هذا؛ فيه أحكامٌ، منها: جوازُ محادثة الأهل، ومباسطتهن بما لا منوعَ فيه. وفيه: جوازُ إعلام الزوج زوجته بمحبته إياها بالقول إذا لم يؤدِّ ذلك إلى مفسدةٍ في حله بحيث تهجره، وتتجرَّأ عليه. وفيه: ما يدلُّ على أن ذكْرَ عُيوبٍ من ليس بمعيَّن لا يكون غيبة، وفيه جوازُ الانبساط بذكر طُرَفِ الأخبار، ومُستطابات الأحاديث، وتنشيط النفوس بذلك، وجواز ذكرِ محاسن الرجال للنِّساء، ولكن إذا كانوا مجهولين بخلاف المعيَّن، فإنَّ ذلك هو المنهيُّ عنه بقوله ﷺ: "لا تصفِ المرأةُ

---

[5]– هو أبو تمام.

[1]– سورة آل عمران، الآية 11.

[2]– سورة النساء، ألاية 134.

المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظرُ إليها" وفيه: ما يدلُّ على جواز الكلام بالألفاظ الغريبة والأسجاع، وأن ذلك لا يُكره، وإنما يُكره تكلُّ ذلك في الدُّعاء.

باب فضائل فاطمة بنْتِ النبيِّ ﷺ

عن المِسْورِ بنِ مَخْمَةَ: أنّه سمع رسولَ الله ﷺ على المنبر، وهو يقول: "إنَّ بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن يُنكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذنُ لهم، ثم لا آذنُ لهم، ثم لا آذن لهم؛ إلا أن يُحبَّ ابنُ أبي طالبٍ أن

ومن باب: فضائل فاطمة – رضي الله عنها – بنت رسول الله ﷺ

سيِّدةُ نساء العالمين – رضي الله عنها – وقد اختلف في أصغر بنات رسول الله ﷺ قال أبو عمر: والذي تسكنُ النفسُ إليه: أن زينبَ هي الأولى، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ولدت لرسول الله ﷺ سنَةَ إحدى وأربعين من مولده ﷺ وتزوَّجها عليٌّ – رضي الله عنهما – بعد وقعة أحُد. وقيل: بعد أن ابتنى النبيُّ ﷺ بعائشة – رضي الله عنها – بأبعة أشهر ونصف شهر، وبنى بها عليٌّ بعد تزويجها بستة أشهر ونصف، وكان سنُّها يوم تزوَّجها – رضي الله عنهما – خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف، وسنُّ عليٍّ يومئذ: إحدى وعشرون سنة وستة أشهر، وولدت له الحسن والحسين، وأم كلثوم، وزينب، وتوفيت بعد رسول الله ﷺ بيسير. قيل: بثمانية أشهر. وقيل: بسنة أشهر. وقيل: بثلاثة أشهر. وقيل: بسبعين يوماً. وقيل: بمئة يوم. وهي أحبُّ بنات رسول الله ﷺ إليه، وأكرههن عنده، وسيدة نساء أهل الجنة على ما تقدَّم في باب خديجة. وكان ما كان

رسولُ الله ﷺ إذا قدم من سفر يبدأ بالمسجد فيصلّي فيه، ثم يبدأُ ببيت فاطمة، فيسألُ عنها، ثم يدورُ على سائر نسائه، إكراماً لها، واعتناءً بها، وهي أوَّلُ مَن سُتِر نعشُها في الإسلام، وذلكَ أنها لما احتضرت قالت لأسماء

يُطَلِّق ابنتي ويَنكح ابنتهم، فإنَّما ابنَتي بَضْعةٌ مِنِّي، يَريبُني ما رَابَها، ويؤذيني ما آذاها !".

بنتُ عُميس: إني قد استقبحُ ما يُفْعَلُ بالنساء؛ إنه يُطْرَحُ على المرأة الثوبُ يصفها، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ألا أريك شيئا رأيتُه في الحبشة؟! فدعت بجرائد رطبة، فَحَنَتْها، ثم طرحتْ عليها ثوباً، فقالت فاطمةُ: ما أحسنَ هذا وأجمله! تُعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا متُّ، فاغسليني أنت وعليٌّ، ولا تُدْخلي أحداً. فلما تُوفِّيتْ جاءت عائشةُ لتدخل، فقالت أسماء: لا تدخلي. فشكتْ إلى أبي بكر فقالت: إنَّ هذه الحبشية تحولُ بيننا وبين بنت رسول الله ﷺ، وقد جعلتْ لها مثل هودج العروس، فجاء أبو بكر فوقف على الباب، فقال: يا أسماءُ ! ما حَمَلَكِ على أن منعتِ أزواجَ النبيِّ ﷺ يدخلن على بنت رسول الله ﷺ، وجعلت لها مثل هودج العروس؟ فقالت: أمرتني ألاَّ يدخل عليها أحد، وأريتها هَذا الذي صنعتُ، فأمرتني أن أصنعَ ذلك بها. قال أبو بكر — رضي الله عنه -: اصنعي ما أمَرَتْكِ، ثم انصرف. وغسَّلها عليٌّ، وأشارتْ أن يدفنها ليلاً، وصلَّى عليها العباسُ، ونزل في قبرها هو وعليٌّ والفضل، وتوفِّيتْ وهي بنتُ ثلاثين سنة، وقيل: بنت خمس وثلاثين.

و(قوله ﷺ: "إنَّ فاطمة بَضْعةٌ مني يَريبني ما رابها") البضْعةُ — بفتح الباء -: القطْعةُ من اللحم، وتُجمع بضاع، كقصعة وقْصاع، وهي مأخوذةٌ من البَضْع، وهو القطع، وقد سمَّاها في الرواية الأخرى: مُضْغة، وهي قَدْرُ ما يمضغُها الماضغ، ويعني بذلك: أنَّها كالجزء منه يُؤلمه ما آلمها. و"يَريبني ما رابها": أي يشقُّ عليَّ ويُؤلمني. يقال: رابني فلان: إذا رأيتَ منه

ما تكرهُه – ثلاثياً – والاسم منه: الرِّيبة. وهُذيل تقولُ فيه: أرابني رباعياً– والمشهور: أن أراب: إنما هو بمعنى صار ذا ريبةٍ، فهو مريب، وارتابَ بمعنى شكَّ، والرَّيب: الشك.

وفي رواية: أن عليّ بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل؛ وعنده فاطمةُ بنتُ النبي ﷺ فلمَّا سمعتْ بذلك فاطمةُ أتت النبيَّ ﷺ فقالتْ له: إنَّ قَوْمَكَ يتحدثُّون أنَّك لا تَغْضَبُ لبناتِكَ، وهذا عليٌّ ناكحاً ابنةَ أبي جهة ! قال المِسْوَرُ: فقام النبيُّ ﷺ.

وفي رواية: يخطب الناس في ذلك على منبره هذا، وأنا يومئذ محتلمٌ فسمعته حين تَشَهَّدَ، قال: "أما بعدُ. فإنِّ أنْكَحْتُ أبا العاص بن الرّبيع، فحدَّثني، فصدَقني".

وفي رواية: "ووعدني، وإنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ مُضغةٌ منِّي، وإنَّما أكره أن يفتنوها".

وفي رواية: "في دينها، وإنِّي لست أحرِّم حلالاً، ولا أحلُّ حراماً.

و(قولها: هذا عليٌّ ناكحاً ابنة أبي جهل) كذا الرواية: ناكحاً بالنَّصب على الحال؛ لأنَّ الكلامَ قبله مُستقلٌّ بنفسه؛ لأنَّ قولها: هذا عليٌّ، كقولك: هذا زيد، لكن رفعه أحسن لو روي؛ لأنه هو المقصودُ بالإفادة، وعليٌّ توطئةٌ له.

و(قوله ﷺ: "لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن") تأكيدٌ لمنع الجمع بين فاطمة، وبين ابنة أبي جهل، لما خاف النبيُّ ﷺ على فاطمة من الفتنة من أجل الغَيْرة، ولما توقَّع من مُناكدة هذه الضَّرَّة؛ لأنَّ عداوة الآباء قد تؤثِّر في الأبناء.

و(قوله: "وإني لستُ أحرِّم حلالاً، ولا أُحلُّ حراماً") صريحٌ في أن الحكمَ بالتحليل والتحريم من الله تعالى، وإنما الرسول مُبلِّغ، ويُستدلُّ به في منع اجتهاد النبيِّ ﷺ في الأحكام، ومن منْع جواز تفويض الأحكام إلى

وإنَّها والله ! لا تجتمعُ بنتُ رسول الله وبنتُ عدوِّ الله عند رجل واحدٍ أبداً". قال: فترك عليٌّ الخِطْبَةَ.

النبي ﷺ ولا حُجَّة فيه؛ لأنَّ اجتهادَ المجتهد لا يُوجب الأحكام، ولا يُنشئها، وإنما هو مُظهر لها، كما أوضحناه في الأصول. ويُفيد هذا: أن حُكْم الله على عليّ، وعلى غيره التَّخيير في نكاح ما طاب له من النساء إلى الأربع، ولكن النبيَّ ﷺ إنَّما مَنَعَ علياً من ذلك لما خاف على ابنته من المفسدة في دِيْنها من ضَرر عداوة تسري إليها، فتتأذّى في نفسها، فيتأذّى النبيُّ ﷺ بسببها، وأذى النبي ﷺ حرام، فيحرمُ ما يُؤدي إليه. ففيه القولُ بسد الذَّرائع، وإعمال المصالح، وأنَّ حُرْمَةَ النبيِّ ﷺ أعظمُ من حُرمة غَيره، وتظهر فائدةُ ذلك: بأن مَن فَعَل منَّا فعلاً يجوزُ له فعله لا يُمَنَعُ منه، وإن تأذَّى بذلك الفعل غيره، وليس ذلكَ حالُنا مع النبيِّ ﷺ بل يحرمُ علينا مطلقاً فعْلُ كلِّ شيء يتأذّآ به النبيُّ ﷺ؛ وإن كان في أصله مُباحاً، لكنّه إن أدَّى إلَى أذى النبيّ ﷺ ارتفعت الإباحةُ، ولزم التَّحريم. وفيه: ما يدلُّ على جواز غضب الرَّجل لابنته وولده وحرمه، وعلى الحرص في دفع ما يُؤدّي لضررهم؛ إذا كان ذلك بوجه جائز، وفيه ما يدلُّ على جواز خُطبة الإمام الناس وجَمْعهم لأمر يَحْدُثُ.

و(قوله: "والله ! لا تجتمع ابنةُ نبيِّ الله وابنة عدوِّ الله عند رجلٍ واحد أبداً") دليلٌ على: أنَّ الأصلَ أنَّ وَلَدَ الحبيب حبيب، وولد العدو عدوٌّ، إلىً أن يتيقن خلافُ ذلك: وقد استنبط بعضُ الفقهاء من هذا مَنْعَ نكاح الأمَة على الحرَّة، وليس بصحيح؛ لأنه يلزمُ منه مَنْعُ نكاح الحُرَّة الكتابية على

المسلمة، ومنع نكاح ابنة المرتدّ على من ليس أبوها كذلك، ولا قائلَ به فيما أعلم. فدلَّ ذلك على أنَّ ذلك الحُكْمَ مخصوصٌ بابنة أبي جهل وفاطمة — رضي الله عنها -.

وعن عائشة، قالت: كنَّ أزواجُ النبيِّ ﷺ عنده، لم يُغادرْ منهنَّ واحدةٌ، فأقْبَلتْ فاطمةُ تَمْشي — ما تخطيءُ مِشْيَتُها مشيةَ رسول الله ﷺ

و(قوله: فترك عليٌّ الخِطبة) يعني: لابنة أبي جهل وغيرها، ولم يتزوَّج عليها، ولا تسرَّى حتى ماتت — رضي الله عنها -.

و(قوله ﷺ: "إنَّ أبا العاص بن الربيع حدَّثني فَصَدقني، ووعدني فوفى لي") أبو العاص هذا: هو زوجُ ابنة رسول الله ﷺ زينب — رضي الله عنهما — واسمه: لقيط — على الأكثر -. وقيل: هيثم بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمُّه هالة بنت خويلد أخت خديجة لأبيها، وكان النبيُّ ﷺ قد أنكحه زينب، وهي أكبرُ بناته وذلك لمكة فأحسن عُشْرتها، وكان محبّاً لها، وأرادتْ منه قريش أن يطلّقها فأبى، شكر له النبيُّ ﷺ ذلك، ثم إنَّه حَضَر مع المشركين ببدر فأُسر، وحُمل إلى المدينة، فبعثتْ فيه زينبُ قلادتها، فرُدّت عليها، وأطلق لها، وكان وَعَدَ النبيَّ ﷺ أن يرسلها إليه ففعل، وهاجرتْ زينب، وبقي هو بمكَّة على شِرْكِه إلى أن خرج في عِيْرٍ لقريش تاجراً، وذلك قُبيل الفتح بيسير، فعرض لتلك العير زيدُ بن حارثة في سرية من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ فأخذها، وأفلت أبو العاص هارباً إلى أن جاء إلى المدينة، فاستجار بزينب فأجارته، وكلمَّم النبيُّ ﷺ الناسَ في ردِّ جميع ما أُخذَ من تلك السَّرية، ففعلوا، وقال: إنه يردُّ أموالَ قريش، ويسلم، ففعل ذلك، فلذلك شكره النبيُّ ﷺ وقال: "حدَّثني فصدقني، ووعدني فوفى لي".

و(قوله عائشة: كُنَّ أزواجُ النبيِّ ﷺ عنده لم يغادرْ منهن واحدةٌ) أي: لم يترك، ولم يغفلْ عن واحدة منهن، وهذا كان لما اشتدَّ مرضُه، ومُرِّض في بيت عائشة. والسِّرار: السرُّ. يقال: ساررته يسارره سرّا، وسراراً، شيئا – فلمَّا رآها رحَّب بها، فقال: "مرحباً بابنتي !" ثم أجلسَها عن يمينه – أو عن شماله – ثم سارَّها، فبكت بكاءً شديداً، فلمّا رأى جَزَعَها سارَّها الثانية فضَحكتْ. فقلتُ لها: خصَّك رسولُ الله ﷺ منْ بين نسائه بالسِّرار، ثمَّ أنت تَبْكينَ ! فلمَّا قام رسولَ الله ﷺ سألتُها: ما قَالَ لكَ رسولُ الله ﷺ؟ قَالتْ: ما كنتُ أفشي على رسول الله ﷺ سرَّهُ. قالت: فلمَّا تُوفِّيَ رسول الله ﷺ قُلْتُ: عزَمَتُ عليك بما لي عليك من الحقِّ لَمَا حدَّثْتني ما قال لك رسولُ الله ﷺ ! فقالت: أمَّا الآن فنَعَمْ ! أمَّا حين سارَّني في المرة الأولى؛ فأخبرني: أنَّ جبريل كان يُعارضُهُ القرآنَ في كل سنة مرَّة، وإنَّه عارضه الآن مرتين: "وإني لا أُرى الأجلَ إلاَّ قد اقترب، فاتقِّي الله واصْبري، فإنِّه نعم السلفُ أنا لك !" قالتْ: فبَكَيْتُ بُكائي الذي رأيت، فَلمَّا رأى جَزَعي سَارَّني الثانية، فقال: "يا فاطمة ! أما تَرْضَيْ أن تَكوني سيَّدَة نساء المؤمنين – أو سيدةَ نساء هذه الأمةِ –؟" قالت: فضَحِكْتُ ضَحكي الذي رأيت.

وزاد في رواية: "وإنَّكِ أولُ أهلِ بيتي لُحُوقاً بي".

ومُسارَّة. وبكاءُ فاطمة في أول مرَّة كان حزناً على النبيِّ ﷺ لما أعلمها بقرب أجَله، وضحكُها ثانية فرحا بما بشّرها به من السلامة من هذه الدار، ولقُرب الاجتماع به، وبالفوز بما لها عند الله من الكرامة، وكفى بذلك: أن قال لها: إنها سيدة نساء أهل الجنة، وقد تقدَّم الكلامُ علي هذا في باب: خديجة. وكونه ﷺ كان جبريل يعارضُه كل سنة مرَّة؛ يدل على حباب عرض القرآن على الشيوخ ولو مرَّة في السَّنة، ولما عارضه جبرل القرآن في أخر سنة مرتين استدلَّ النبيُّ ﷺ بذلك على قُرْب أجَله من حيث مخالفةُ العادةُ المتقدِّمة، والله تعالى أعلم. وكان النبيُّ ﷺ كثر عليه الوحيُ في السنة التي توفي فيها حتى كمَّل الله من أمره ووحيه ما شاء أن يكمله.

* * *

فضائل أمِّ سلمة وزينب زوجَيْ النَّبي ﷺ

عن أبي عثمان، عن سلمانَ، قال: لا تكُونَنَّ – إن استطعت – أوّل

ومن باب: فضائل أم سلمة – رضي الله عنها – زوج النبي ﷺ

واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسم أبيها: حذيفة، يُعرف بزاد الراكب، وكان أحدَ أجواد العرب المشهورين بالكرم، وكانت قبل النبيِّ ﷺ تحت أبي سلمة بن عبد الأسد، وأسلمت هي وزوجها، وكان أوَّلَ من هاجر إلى أرض الحبشة، ويُقال: إن أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مُهاجرة.قال أبو عمر: تزوَّج بها رسولُ الله ﷺ بعد سنتين من الهجرة، بعد وقعة بدرٍ، وعقدَ عليها في شوال، وابتنى بها في شوال. قال أبو محمد – عبد الله بن عليّ الرَّشاطي–: وذلك: أن زوجَها أبا سلمة شهدَ أُحداً، وكانت أُحدٌ في شوال سنة ثلاث، فجرح فيهاجُرْحاً اندملَ، ثم انتقض به فتوفي منه لثلاث خلونَ من جمادىً الآخرة سنة أربع، وانتقضت عدَّة أم سلمة منه في شوالٍ سنة أربع، وبنى بها عند انقضائها. قال: وقد ذكرَ أبو عمر هذا في صدر الكتاب، وجاء به على الصَّواب. وتوفيت في شهر رمضان، أو شوال سنة تسع وخمسين، وصلَّى عليها أبو هريرة، وقيل: سعيد بن زيد، ودُفنت بالبقيع.

وأما زينب فهي ابنة جحش بن رِئاب بن يعمر بن صَبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دُودان بن أسد بن خزيمة، وهي التي كانت تُسامي عائشة في المترلة عند رسول الله ﷺ وقد أثنت عليها عائشة بأوصافها الحسنة

من يدخُلُ السوقَ، ولا آخرَ من يخرُجُ منها؛ فإنَّها معركةُ الشيطان، وبها

المذكورة في باب عائشة، وكانت تفخر على أزواج النبيّ ﷺ فتقول لهنَّ: أنكحكنَّ أولياؤكنَّ، وإن الله أنكحني بنبيِّه ﷺ من فوق سبع سموات، تعني بذل قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَكَهَا﴾[1] توفيت سنة عشرين في خلافة عمر – رضي الله عنه–، وفي هذا العام استفتحت مصر. وقيل: توفيت سنة إحدى وعشرين، وفيها فُتحت الإسكندرية، وكانت زينب هذه أوَّلَ أزواجه اللاَّتي توفي عنهن لحاقاً به، وكان للنبيِّ ﷺ زوجة أخرى تُسمَّى زينب بنت خزيمة الهلالية، وتُدعى أمَّ المساكين لحنوِّها عليهم، وهي من بني عامر، تزوجها النبيُّ ﷺ سنة ثلاث، ولم تلبث عنده إلا يسيراً شهرين أو ثلاثة، وتوفيت في حياة النبيّ ﷺ وكانت قبلَه تحت عبد الله بن جحش، قُتل عنها يوم أحد.

و(قوله سلمان: لا تكونن إن استطعت أول من تدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان). كذا روى مسلم هذا الحديث موقوفاً على سلمان من قوله. وقد رواه أبو بكر البزار مرفوعاً للنبيّ ﷺ من طريق صحيح، وهو الذي يليق بمَساق الخير؛ لأن معناه ليس مما يُدركُ بالرأي والقياس، وإنما يُدرك بالوحي، وأخرجه الإمام أبو بكر البرقاني في كتابه مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم بن أبي عثمان النَّهدي عن سلمان. قال: رسول الله ﷺ: "لا تكنْ أوَّلَ مَنْ يدخلُ السُّوقَ، ولا آخرَ من يخرجُ منها؛ فإنها معركة الشيطان، فيها باضَ الشيطان وفرَّخ". والمعركة: موضع القتال، سمِّي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً، فشبَّه السوقَ، وفعل الشيطان بأهلها ونيله منهم بما يحملهم عليه من المكر، والخديعة، والتساهُل في البيوع الفاسدة

---

[1]– سورة الأحزاب، الآية 37.

يَنْصِبُ رايته. قال: وأُنبئتُ أنَّ جبريل – عليه السلامُ – أتى نبيَّ الله ﷺ وعنده أمُّ سلَمَة. قال: فَجَعل يتحدثُ، ثم قام، فقال نبيُّ الله ﷺ لأمِّ سلمة: "من هذا؟" أو كما قال. قالت: هذا دحْيَةُ. قال: فقالتْ أمُّ سلمة: ايمُ الله ! ما حَسِبتُهُ إلا إيَّاهُ؛ حتى سمعتُ خطبة النَّبيِّ ﷺ يخبرُ خبرنا. أو كما قال. قال: فقلتُ لأبي عثمان: مِمَّنْ سمِعتَ هذا؟ قال: مِن أسامة بن زيدٍ.

والكذب، والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات، وغير ذلك بمعركة الحرب، وبمن يُصرع فيها.

و(قوله: وبها ينصب رايته) إعلام بإقامته في الأسواق، وجمع أعوانه إليه فيها.

ويُفيد هذا الحديث: أن الأسواق إذا كانت موطنَ الشياطين ومواضعَ لهلاك الناس، فينبغي للإنسان ألا يدخلها إلا بحكم الضرورة، ولذلك قال: لا تكوننَّ إن استطعت أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها؛ ولأن من كان أول داخلٍ فيها أو آخر خارج مها كان ممن استحوذَ عليها الشيطان، وصرفه من أمور دينه، وجعل همَّه السوقَ، وما يُعمل فيها فأهلكَه. فحقٌّ من ابتلاه الله بالسوق أن يخطرَ بباله: أنه قد دخل محلَّ الشيطان، ومحلَّ جنوده، وأنه إن أقام هنالك هلكَ، ومن كانت هذه حالُه اقتصرَ منه على قدر ضرورته، وتحرَّز من سُوءِ عاقبته، وبليَّته. وقد تقدَّم القول في تمثل الملائكة والجنِّ في الصور المختلفة، وأن لهم في أنفسهم صوراً خلقهم الله تعالى عليها، وأن الإيمان بذلك كله واجبٌ لما دلَّ عليه من السمع الصادق، وكان دحيةُ بن خليفة رجلاً حسنَ الصورة، فلذلك تمثّل بسورته جبريلُ – عليه السلام – وهو دحية بن خليفة بن فروةَ الكلبيُّ، وكان من كبار الصحابة، لم يشهد بدراً، شهد أُحداً وما بعدها،

/ وعن عائشة أمِّ المؤمنين، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: "أسرعُكُنَّ لَحَاقاً بي، أطْوَلُكُنَّ يداً". قالت فكُن يتطاولن أيَّتُهُنَّ أطولُ يداً. قالت: فكانت أطولَنا يداً زَيْنَبُ؛ لأنها كانت تعمل بيديها وتصدَّقُ.

وبقي إلى خلافة معاوية، وأرسلَه رسول الله ﷺ إلى قيصرَ في سنة ستٍّ من الهجرة فآمن قيصرُ، وأبت بطارقتُه أن تؤمنَ، فأخبرَ دحيةُ بذلك النبيَّ ﷺ فقال: "ثَبَنَ ملكُه".

و(قوله ﷺ: "أسرعُكُنَّ لحاقاً بي أطولُكُنَّ يداً") هذا خطاب منه لزوجاته خاصَّة، ألا ترى أنه قال لفاطمة – رضي الله عنها –: "أنت أوَّلُ أهل بيتي لحوقاً بي"، وكانت زينب أوَّلَ أزواجه وفاةً بعده، وفاطمةُ أوَّل أهل بيته وفاةً، ولم يُرد باللَّحاق به الموت فقط، بل: الموت والكون معه في الجنة واكرامة.و(تطاول أزواجه بأيديهنَّ) مقايسة أيديهن بعضهنَّ ببعض؛ لأنهنَّ حملن الطول على أصله وحقيقته، ولم يكن مقصود النبيِّ ﷺ ذل، وإنما كان مقصوده: طول اليد بإعطاء الصدقات، وفعل المعروف، وبيَّن ذلك أنه" لما كانت زينبُ أكثر أزواجه فعلاً للمعروف والصِّدقات كان أوَّلهنَّ موتاً، فظهرَ صدقُه، وصحَّ قوله ﷺ .

باب فضائل أمِّ أيمن مولاة النبيِّ ﷺ وأمِّ سُلَيْم؛ أم أنس بن مالك

عن أنس؛ قال:انطلق رسولُ الله ﷺ إلى أمِّ أيمن، وانطلقتُ معه، فناوَلَتْهُ إناءً فيه شرابٌ. قال: فلا أدْري أصَادَفَتْهُ صائماً أو لَمْ يُرِدْهُ، فَجَعلَتْ تَصْخَبُ عليه وتذمَّرُ عليه.

وعنه؛ قال: قال أبو بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لعُمَر: انطلق بنا إلى أُمِّ أيمن نزورُها؛ كما كان رسول الله ﷺ يزورُها، فلمَّا انتهينا إليها بَكَتْ، فقالا لها: ما يُبْكيكِ؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ، فقالت: ما أبكي أن لا

ومن باب: فضائل أم أيمن – رضي الله عنها –

واسمها: بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصين بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان، كُنِّيت بابنها أيمن بن عبيد الحبشي، تزوجت بعد عبيد زيدَ بن حارثة، فولدت له أسامةَ بنَ زيد، كانت لأمِّ رسول الله ﷺ ثم صارتْ له بالميراث، وكان ﷺ يقول: "أمُّ أيمن أمِّي بعد أمي"، وكان ﷺ يُكْرِمُها ويبرُّها مَبرَّة الأم، ويُكثر زيارتها، وكان ﷺ عندها كالولد، ولذلك كانت تصخبُ عليه، أي: ترفعُ صوتها عليه. وتذمر؛ أي: تغضبُ وتضجر فعْل الوالدة بولدها، وقال الأصمعي: تدمَّر الرجلُ: إذا تغضَّب، وتكلَّم أثناء ذلك، وقال غيره: تذمّر الرجلُ: إذا لام نفسه. وزيارةُ النبيِّ ﷺ وأبي بكر، وعمر – رضي الله عنهما – لها دليلٌ على فضلها، ومعرفتهم بحقها، وفيه دليل على زيارة النساء في جماعة.

و(قول أم أيمن – رضي الله عنها –: أبكي أن الوحيَ قد انقطع من السَّماء) "أن" مفتوحة؛ لأنها معمولةٌ لأبيك بإسقاط حرف الجر،، تقديره: أبكي لأن، أو: من أجل أن، تعني: أنَّ الوحيَ لما انقطعَ بعد رسول الله ﷺ

أكونَ أعلمُ أنَّ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ ولكنْ أبكي أنَّ الوحْي قد انقطع من السَّماء ! فَهَيَّجَتْهُما على البُكاء، فجعلا يبكيان معها.

وعنه؛ قال: كان النَّبيّ ﷺ لا يدخلُ عل أحد من النِّساء إلا على أزواجه، إلا أمِّ سُليم؛ فإنَّه كان يدخل عليها؛ فقيلَ له في ذلكَ ! فقال: "إني أرْحَمُها. قُتِلَ أخوها معي".

عمل الناسُ بآرائهم فاختلفتْ مذاهبُهم، فوقع التنازعُ والفتَنُ، وعظمت المصائبُ والمحن، ولذلك نجم بعده ﷺ النِّفاق، وفشا الارتدادُ والشّقاق، ولولا أنَّ الله تعالى تدارك الدّينَ بثاني اثنين لما بقي منه أثرٌ ولا عين.

و(قوله أنس – رضي الله عنه –: كان رسولُ الله ﷺ لا يدخلُ على النساء إلا على أزواجه إلا أمِّ سليم) إنما كان النبيُّ ﷺ لا يدخل على النساء عملاً بما شرع من المنع من الخلوة بهن، وليقتدى به في ذلك، ومخالفة أن يقذفَ الشيطانُ في قلب أحد من المسلمين شرّاً فيهلك، كما قال في حديث صفيَّة المتقدّم، ولئلا يجدَ المنافقون، وأهلُ الزَّيغ مقالاً، وإنما خصَّ سليم بالدُّخول عندها لأنها كانت منه ذات محرم بالرَّضاع كما تقدَّم، وليجبر قلبَها من فجعتها بأخيها، إذ كان قد قُتل معه في بعض حروبه، وأظنُّه يوم أُحُد[1]، ولما علم النبيُّ ﷺ من فَضْلها، كما دلَّ عليه رؤيةُ النبيّ ﷺ إيَّاها في الجنة، وأمُّ سليم هذه هي: ابنةُ ملحان بن زيد بن حرام من بني النجَّار، وهي: أمُّ أنس بن مالك بن النَّضر، كانت أسلمتْ مع قومها، فغضب مالكٌ لذلك، فخرج إلى الشام فهلك هنالك كافراً، وقيل قُتل، ثم خطبها بعده أبو طلحة، وهو على شركه، فأبتْ حتى يُسْلم، وقالت: لا أريدُ منه صَداقاً إلا الإسلام، فأسلم وتزوّجها، وحَسُنَ إسلامُه. فولدت له غلاماً كان قد أُعْجب به فمات صغيراً، ويقال: أنه أبو عُمير

---

[1]– الصحيح: أنه شهد بدراً واحداً، وقُتل يوم بئر معونة. (أسد الغابة ج 1، ص: 473).

وعنه؛ عن النبيِّ ﷺ قال: "دخلتُ الجنَّة فسمعتُ خَشْفَةً! قلتُ: من هذا؟ قالوا: هذه الغُمَيصاءُ بنتُ مِلْحَانَ؛ أمُّ أنسِ بن مَالكٍ".

وعن جابر بن عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ قال: "أُريتُ الجنَّة فرأيتُ امرأة أبي طلحةَ، ثم سمعتُ خشخشةً أمامي؛ فإذا بلالٌ".

صاحب النُّغير، وكان أبو طلحة غائباً حين مات، فغطَّته أمُّ سُليم، فجاء أبو طلحة، فسأل عنه، فكتمت موته، ثم إنها تصنَّعتْ له فأصاب منها، ثم أعلمته بموته، فشقَّ ذلك عليه، ثم إنه أتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فدعا لهما النبيُّ ﷺ وقال: "بارك الله لكما في غبر ليلتكما" كما ذكر في الأصل، فبورك لهما بسبب تلك الدّعوة، وولدت له: عبد الله بن أبي طلحك، وهو والدُ إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الفقيه، وإخوته كانوا عشرة كلّهم حَمَلَ عنه العلم، وإسحاق هو شيخُ مالك، واختلف في اسم أمِّ سليم. فقيل: سهلة. وقيل رملة. وقيل: مليكة. وهي الغميصاء المذكورة في الحديث، ويقال: الرُّميصاء، وقيل: إنْ بالراء هي: أم حرام أختها، وخالة أنس، والغميصاء: مأخوذ من الغمص، وهو ما سال م نقذيي العين عند ابلكاء والمرض، يُقال بالصاد والسين، والرمص — بالراء -: ما تجمَّد منه، قاله يعقوب وغيره. وكانت أمُّ سليم من عقلاء النساء وفضلائهن، شهدتْ مع رسول الله ﷺ أُحُداً وحُنيناً، ردت عن النبيِّ ﷺ أحاديث، خرج لهافي الصحيحين أربعة أحاديث.

و(قوله: "دخلتُ الجنة فسمعتُ خَشْفة") هي بفتح الخاء وسكون الشين المعجمتين، وهي صوتُ المشي، ويقال: خشخشة، كما جاء في الرواية الأخرى، وأخص الخشخشة: صوتُ الشيء اليابس يَحُكُّ بعضُه بعضاً، ويتراجع، وكان هذا الدخولُ في الجنة من النبيِّ ﷺ في النوم، كما قاله في حديث بلال المتقدِّم، ورؤياه حقٌّ، فهي — رضي الله عنها — من أهل الجنة.

باب فضائل أبي طلحة الأنصاريّ

عن أنس قال": مات ابنٌ لأبي طلحة من أم سليم. فقالت لأهلها: لا تُحدّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدِّثه. قال: فجاءَ فقرَّبتْ إليه عشاءً، وشَرِبَ. قال: ثَمَّ تصنَّعتْ له أحسنَ ما كان تصنَّعُ قبل ذلك، فوقع بها. فلمّا رأتْ أنه قد شبع وأصاب منها؛ قالتْ: يا أبا طلحة ! أَرَأَيْتَ لو أنّ قوماً أعاروا عاريتهُم أهلَ بيت، فطلبوا عاريتهم. ألهُم أن يمنعوهم؟ قال" لا. قالت: فاحتسب ابنَك ! فغضب، وقال: تركتني حتى تلطَّختُ، ثم أخبرتني بابني ! فانطَلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: "بارك الله لكما في غابر ليلتكما"، قال: فحملتْ. قال: فكان رسولُ الله ﷺ، إذا أتى المدينة من سفر، لا يطرُقُها طُرُوقا، فدنَوا من

ومن باب: فضائل أبي طلحة — رضي الله عنه —

هو زيد بن سهل من بني النجار، شهد المشاهدَ كلَّها، وكان أحد الرُّماة المذكورين من الصَّحابة — رضي الله عنهم-، وكان من الأبطال، قتَلَ يوم حُنين عشرين، وأخذ أسلابهم، وكان أبو طلحة يتطاولُ بصدره يوم أُحُد يقي رسولَ الله ﷺ من النَّبل، ويقول: صدري دون صدرك، ونفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء، وكان ﷺ يقول: "لَصَوْتُ أبي طلحة فِي الجيش خيرٌ من مئة رجل". واختلف في وقت وفاته فقيل: سنة إحدى وثلاثين. وقيل: سنة أربع وثلاثين، وصلى عليه عثمان بن عفان، وروى حماد بن سلمة عن ثابت البُناني، وعلي بن زيد عن أنس: أنَّ أبا طلحة سَرَدَ الصَّوم بعد رسول الله ﷺ أربعين سنة، وأنه ركب البحر، فمات فدفن في جزيرة، وقال المدائني: مات أبو طلحة سنة إحدى وخمسين، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك. روى عن رسول الله ﷺ ستَّةٌ وعشرين حديثاً، أخرج به منها في الصَّحيحين أربعةُ أحاديث.

المدينة. فضربها المخاضُ. فاحتُبس عليها أبو طلحة، وانطلَق رسولُ الله ﷺ. قال: يقول أبو طلحةَ: إنَّك لتَعْلَمُ، يا ربِّ ! إنّه يُعجبني أن أخرُج مع رسولك إذا خرج، وأدخُلَ معه إذا دخل، وقد احتُبستُ بما تَرَى ! قال: تقولُ أم سُلَيم": يا أبا طلحة ! ما أجدُ الذي كنتُ أجدُ، انطلقْ ! فانطلَقنا. قال: وضرَبَها المخاضُ حين قَدما، فوَلَدتْ غُلاماً، فقالَت لي أُمّي: يا أنسُ ! لا يُرضعُهُ أحدٌ حتى تغدوَ به على رسول الله ﷺ، فلما أصبح احتملتُهُ، فانطلقْتُ به إلى رسول الله ﷺ. قال: فصادفْتُهُ ومعه مِيْسَمٌ، فلمّا رآني قال: "لعلَّ أمَّ سُليم وَلَدتْ؟" فقلت: نعم. فوضع الميسمَ. قال: وجئتُ به فوضعْتُه في حَجْرِه. قال: دعا رسولُ الله ﷺ بعجوةٍ من عجوة المدينة فلاكَ÷ا في فيه حتى ذابَت، ثم قَذَفها في في الصَّبيِّ، فجعل الصبيُّ يتَلمَّظُها. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: "انظروا إلى حُبِّ الأنصار التمر !". قال: فمسَح وجهَهُ وسمّاهُ: عبدَ الله.

و(قوله: "بارك الله لكما في غابر ليلتكما") أي: في ماضيها، وقد تقدَّم: أنَّ غبر من الأضداد. يقال: غبر الشيء: إذا ذهب، وغبر: إذا بقي. وصنيع أمِّ سليم، ووعظها له يدلُّ على كمال عقْلها وفَضْلها وعلمها. وملازمة أبي طلحة للكون مع رسول الله ﷺ في سفره وحَضَره، ومدخله ومخرجه: دليلٌ على كمال محبته للنبيِّ ﷺ وصدْق رغبته في الجهاد، والخير وتحصيل العلم. ورَفْع وَجَع المخاض – وهو الولادةُ – عن أمّ سليم عند دعاء أبي طلحة دليلٌ على كرامات الأولياء، وإجابة دعواتهم، وأن أبا طلحة وأم سليم منهم. والطّروق: هو المجيء بالليل. والميسم: المكوى الذي تُوسَمُ به الإبل، أي: تُعلَّم. وفي هذا الحديث أحكامٌ واضحةٌ قد تقدَّم التنبيهُ على أكثرها.

باب فضائل بلال بن رباح

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ لبلالٍ صلاةَ الغداة: "يا

ومن باب: فضائل بلال بن رباح – رضي الله عنه –

وتُسمَّى أمُّه: حمامة، واختلف في كنيته، فقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الكريم، وقيل: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو عمرو، وكان حبشياً. قال ابن إسحاق؛ كان بلالٌ لبعض بني جُمَح مُوَلَّداً من مولّديهم، وقيل من مُولَّدي مكة، وقيل: من مولَّدي السّراة، وقال ابنُ مسعود: أول من أظهر الإسلام رسولُ الله ﷺ وأبو بكر، وعمَّار، وأمه سميَّة، وصُهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسولُ الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراعَ الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسانٌ إلا وأتاهم على ما أرادوه منهم إلا بلالاً؛ فإنه هانت عليه نفسُه في الله تعالى، وهان على قومه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكَّة، وهو يقول: أحَد، أحَد، وفي رواية: وجعلوا الحبلَ في عُنُقه، وقال سعيد بن المسيّب: كان بلال شحيحاً على دينه، وكان يُعَذَّب على دِيْنه، فإذا أراد المشركون أنيقاربَهُم قال: الله، الله. فاشتراه أبو بكر بخمس أواق، وقيل: بسبع. وقيل: بتسع، فأعتقه، فكان يؤذّن لرسول الله ﷺ، فلما مات النبيُّ ﷺ أراد أن يروحَ إلى الشام، فقال له أبو بكر – رضي الله عنه –: بل تكون عندي، فقال: إن كنتَ اعتقتني لنفسك فاحْبِسْني، وإن كنتَ أعتقتني لله فذرني أذهب إليه، فقال: اذهبْ، فذهب إلى الشام، فكان بها حتى مات – رضي الله عنه –.

قال الشيخ رحمه الله: وظاهر هذا: أنّه لم يُؤَذِّنْ لأبي بكر، وقد ذكر ابنُ أبي شيبة عن حسين بن عليٍّ عن شيخ يقال له: الحفصي، عن أبيه،

بلالُ ! حدِّثني بأرجى عمَل عملتَه عندك في الإسلام مَنفَعةٌ، فإنِّي سمعتُ الليلةَ خَشْف نَعْلَيْكَ بين يديَّ في الجنةِ". قال بلالٌ: ما عَمِلتُ عَمَلاً في

عن جده قال: أذَّن بلال حياة رسول الله ﷺ ثم أذَّن لأبي بكرٍ حياته، ولم يؤذِّنْ في زمان عُمر، فقال له عمر: ما منعك أن تُؤذِّن؟ قال: إني أدنتُ لرسول الله ﷺ حتى قُبِض، وأذَّنتُ لأبي بكر – رضي الله عنه – حتى قُبِض؛ لأنه كان وليَّ نعمتي، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "يا بلالُ ليس عملٌ أفضلَ من الجهاد في سبيل الله". فخرج فجاهد؟ ويقال: إنه أذَّن لعمَر – رضي الله عنه – إذ دخل الشام، فبكى عمر، وبكى المسلمون. وكان بلالٌ خازناً لرسول الله ﷺ وقال عمر: أبو بكر سيدنا، وأعتق بلالاً سيِّدنا. وتوفي بلال بدمشق، ودُفن عند الباب الصغير بمقبرتها سنة عشرين، وهو ابنُ ثلاث وستين سنة، وقيل: سنة إحدى وعشرين، وهو ابنُ سبعين.

و(قول النبيِّ ﷺ لبلال: "حدِّثني بأرجى عملٍ عملتَه في الإسلام منفعةٌ") هذا السُّؤالُ إنما أخرجه من النبيِّ ﷺ ما اطَّلع عليه من كرامة بلال – رضي الله عنه – بكونه أمامه في الجنة، فسأله عن العمل الذي لازمه حتى أوصله إلى ذلك. وقد جاء هذا الحديث في كتاب الترمذي بأوضح من هذا من حديث بُريدة بن الحُصَيْب، قال: أصبح رسولُ الله ﷺ فدعا بلالاً، فقال: "يا بلالُ ! بمَ سبقتني إلى الجنة؟ فما دخلتُ الجنَّة قطُ إلا سمعتُ خشْخَشتك أمامي، دخلتُ البارحةَ الجنَّة فسمعتُ خَشْخَشَتَكَ أمامي..." وذكر الحديث. فقال بلال: يا رسول الله ! ما أذَّنْتُ قطُّ إلاَّ صلَّيتُ ركعتين، لا أصابني حَدَثٌ قطُّ إلا توضَّأْتُ عنده، ورأيتُ أن لله تعالى عليَّ ركعتين، فقال رسولُ الله ﷺ: "بهما". قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، فلنبحث في هذا الحديث.

الإسلام أرجة عندي منفعةٌ من أنّي لا أتطهَّرُ طُهوراً تامّاً في ساعةٍ من ليلٍ ولا نهارٍ؛ إلا صلَّيْتُ بذلك الطُّهُورِ ما كَتَبَ الله لي أنْ أُصَلِّيَ".

و(قوله: "بم سبقتني إلى الجنة؟" لا يفهم من هذا أن بلالاً يدخل الجنة قبل النبيِّ ﷺ؛ فإن ذلك ممنوعٌ بما قد علم من أن النبي ﷺ هو السابقُ إلى الجنة، وبما قد تقدَّم أنَّه "أوَّلُ من يستفتحُ بابَ الجنة، فيقول الخازن: بكَ أُمِرْت، لا أفتحُ لأحد قبلك" وإنما هذه رؤيا منام أفادت أنَّ بلالاً من أهل الجنة، وأنه يكونُ فيها مع النبيِّ ﷺ ومن مُلازميه، وهذا كما قال في الغميضاء: "سمعتُ خشخشتك أمامي" وقد لا يبعد أن يُقالَ في أسبقية بلال أنها أسبقية الخادم بين يدي مخدومه، الله تعالى أعلم.

وفيه ما يدلُّ على أنَّ استدامةَ بعض النوافل، وملازمتها في أوقات وأحوال فيه فضلٌ عظيم، وأجرٌ كبير، وإن كان النبيُّ ﷺ لم يَدُمْ عليه، ولا لازمها، ولا اشتهر العملُ بها عند أصحابه – رضي الله عنهم –، وأن ذلك لا يُنكر على من لازمه ما لم يعتقدْ أن ذلك سُنَّة راتبة له ولغيره، وهذا هو الذي مَنَعَهُ مالكٌ حتى كره اختصاص شيءٍ من الأيام، أو الأوقات بشيءٍ من العبادات، من الصَّوم، والصلاة، والأذْكار، والدعوات، إلا أن يُعيِّنَه الشارعُ، ويدومَ عليه، فأما لو دام الإنسانُ على شيءٍ من ذلك في خاصَّة نفسه، ولم يعتقدْ شيئا من ذلك، كما فعله بلال في ملازمة الركعتين عند كلِّ أذان، وفي ملازمة الطهارة دائماً، لكان ذلك يُفضي بفاعله إلى نعيمٍ مقيم، وثواب عظيم.

و(قوله ﷺ: "بهما") أي: بسبب ثواب فِعْل ذينك الأمرين وصلتَ إلى ما رأيتُ من كونك معي في الجنة.

باب فضائل عبد الله بن مسعود

عن علقمة، عن عبد الله، قال: لَمَّا نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ

و(قوله ﷺ: "حدِّثْني بأرجى عملٍ عملته") أي: بعمل يكون رجاؤك بثوابه أكثر، ونفسك به أوثق. وفيه تنبيهٌ على: أنَّ العاملَ لشيءٍ من القُرَب ينبغي له أن يأتيَ بها على أكل وجوهها ليعظمَ رداؤه في قبولها، وفي فضل الله عليها، فيُحْسِنُ ظنَّه بالله تعالى؛ فن الله تعالى عند ظنِّ عبده به، ويتَّضح لك هذا بمَثَلٍ – ولله المثل الأعلى – أن الإنسانَ إذا أراد أن يتقرب إلى بعض ملوك الدنيا بهديَّة أو تُحْفَة، فإن أتى بها على أكمل وجوهها وأحسن حالالتها، قوي رجاؤه في قبولها، وحَسُن ظنُّه في إيصاله إلى ثوابها، ولا سيما إذا كان المُهْدَى له موصوفاً بالفضل والكرم، وإن انتقص شيءٌ من ثوابها ضعف رجاؤه للثواب، وقد يتوقّع الردَّ، لا سيما إذا علم أن المهدى له غنيٌّ عنها، فأما لو أتى بها وضاحةَ النُّقصان؛ لكان ذلك من أوضح الخسران؛ إذ قد صار المهدى له كالمستصغَر المهان.

ومن باب: فضائل عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –

هو ابن غافل بن محبيب بن شمخ بن مازن بن محزوم الهذلي، يُكنى: أبا عبد الرحمن، وأمُّه: أم عبد بنت عبد ودّ الهذلية أيضا، أسلم قديماً وكان سبب إسلامه: أنه كان يرعى غنماً لعقبة بن أبي مُعَيْك، فمرَّ به رسولُ الله ﷺ فقال: "يا غلام! هل من لبن؟" قال: نعم! ولكني مُؤْتَمَنٌ. قال: "فهل من شاة حائلٍ لم يتر عليها الفحل؟" فأتيتهُ بشاة شصوص، فمسح ضرعها، فنزل اللبن، فحلب في إناء وشرب وسقى أبا بكرٍ، ثم قال للضرع:

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ جُنَاحٌ فيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ ثُمَّ اتَّقُوا وَّءَامَنُوا...﴾ إلى لآخر الأية قال رسول الله ﷺ: "قيل لي: أَنْتَ منهم".

"اقلص" فقلص، فقلت: يا رسول الله ! علِّمني من هذا القول. فقال: "رحمك الله، إنك غُلَيِّمٌ معلَّمٌ" فأسلم وضمَّه رسول الله ﷺ إليه. فكان يلجُ عليه، ويُلبسه نعلَه، ويمشي أمامَه ومعه، ويستره إذا اغتسل، ويُوقظه إذا نام، وقال له: "إذنك عليّ أن يُرفع الحجابُ، وأن تسمعَ سِوَادي حتى أنهاكَ" وكان يُعرف في الصحابة بصاحب السِّبار، والسِّواد، والسِّواك، هاجر هجرتين إلى أرض الحبشة، ثم من مكة إلى المدينة، قاله الجوزيُّ. وصلَّى القبلتين، وشهدَ مع رسول الله ﷺ مشاهدَ÷ كلَّها، وكان يُشبَّه في هديه وسَمْته برسول الله ﷺ، وشهدَ له رسول الله ﷺ بالجنة، وشهدَ له كبراءُ أصحاب رسول الله ﷺ؛ بأنه من أعلمهم بكتاب الله قراءةً وعلماً، وفضائلُه كثيرةَ. توفِّي بالمدينة سنة ثنتين وثلاثين، ودُفن بالبقيع، وصلَّى عليه عثمان، وقيل: بلى صلَّى عليه عمَّار، وقيل: بل صلَّى عليه الزبيرُ ليلاً بوصيته، ولم يُعلمْ عثمانَ بذلك، فعاتب عثمان الزبيرَ على ذلك، والله أعلم. روى عن رسول الله ﷺ ثمانمئة حديث، وثمانيةٌ وأربعين حديثاً، أُخْرِجَ له منها في الصحيحين: مئة وعشرون حديثاً.

و(قوله: لما نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ جُنَاحٌ...﴾ اية قد ذكرنا سبب نزول الآية، وتكلَّمنا على معناها في الأشربة.

و(قوله ﷺ: "قيل لي: أنت منهم") الخطاب لابن مسعود، أي: أُوحي إليَّ أنكَ يا بنَ مسعود من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذه تزكيةٌ عظيمة، ودرجةٌ رفيعة، قلَّ من ظَفِرَ بمثلها.

وعن أبي موسى، قال: قدمت أنا وأخي من اليمن، فكنَّا حيناً وما نَرى ابنَ مسعود وأمُّه إلا منْ أهل بيت النبيّ ﷺ من كثرة دخُولهم ولُزّومهم لَهُ.

وعن أبي الأحوص، قال: كُنَّا في دار أبي موسى مع نَفَر من أصحاب عبد الله، وهم ينظرون في مُصحف، فقامَ عبدُ الله، فقال أبو مسعود: ما أعلمُ رسول الله ﷺ تركَ بعده أعلمَ بما انزلَ الله عن هذا القائم. فقال أبو موسى: أما لئن قلتَ ذاكَ؛ لقد كان يشهدُ إذا غِبْنا ويُؤذَنُ له إذا حُجِبْنا.

و(قوله أبي موسى: مكثنا حيناً وما نرى ابنَ مسعود وأمَّه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ) هذا يدلُّ على صحَّة ما ذكرنا: من أنَّ رسولَ الله ﷺ ضمَّه إليه، واختصَّه بحديثه وملازمته، وذلك لما رأى من صلاحيته لقبول العلم وتحصيله له، ولذلك قال له أول ما لقيه: "إنك غُلَيِّمٌ معلَّم"، وفي رواية أخرى: "لَقِنٌ مُفْهَم" أي: أنت صالح لأن تُعلَّم فتَعْلم، وتُلَقَّن فتفهم، ولما رأى النبيُّ ذلكَ ضمَّه لنفسه، وجعله في عداد أهل بيته فلازمَه حَضراً وسفراً، ولسلاً ونهاراً ليتعلَّمَ منه، وينقلَ عنه.

و(قوله أبي موسى: كان يشهد إذا غبنا) أي: يحضر مع رسول الله ﷺ إذا غاب الناس عنه.

وقوله: ويُئذن له إذا حُجِبْنَا) يعني: انه كان النبيُّ ﷺ يأذن له في الوقت الذي يحجبُ عنه الناس، وذلك في الوقت الذي كان فيه مشتغلاً بخاصَّته.

و(قوله عبد الله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَمَةِ﴾[1]... الحديث إلى آخره). قال القاضي أبو الفضل: هذا الحديث في الأم مختصر مبتور إنما

---

[1]- سورة آل عمران، الآية 161.

وعن عبد الله، أنَّه قال:﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَمَةِ﴾ ثم قال: على قراءة مَنْ تأمُرُوني أن أقرأ؟ فَلَقَدْ قرأتُ على رسول الله بضْعاً وسبعين سُورَةً، ولقد عَلِم أصحابُ رسول الله ﷺ أنِّي أعلمهمْ بكتاب الله، ولو أعلَمُ

ذكر منه أطرافاً لا تشرح مقصدَ الحديث، وبيانُه في سياقٍ آخر، ذكره ابنُ أبي خيثمة بسنده إلى أبي وائل، وهو شقيق راوي الحديث في الأمِّ. قال: لما أمر في المصاحف بما أمر، يعني: أمر عثمانُ بتحريقها ما عدا المصحف المجتمع عليه، الذي وجَّه منه النسخ إلى الآفاق، ورأى هو والصَّحابة — رضي الله عنهم -: أنَّ بقاءَ تلك المصاحف يُدْخل اللبسَ والاختلافَ، ذكر ابنُ مسعود الغلول، وتلا الآية، ثم قال: غلُّوا المصاحف إني غالٌّ مصحفي، فمن استطاع أن يغلَّ مصحفه فليفعل، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَمَةِ﴾، ثم قال: على قراءة من تأمرني أن أقرأ؟ على قراءة زيد بن ثابت؟ لقد أخذت القرآن من فِيْ رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، وزيد بن ثابت له ذؤابتان يلعب مع الغلمان، وفي أخرى: صبيٌّ من الصبيان، فتمام هذا الحديث يظهر كلامَ عبد الله.

قلت: (وقوله غلُّوا مصاحفكم... إلى آخره) أي: اكتموها ولا تسلموها والتزموها إلى أن تلقوا الله تعالى بها، كما يفعل من غلَّ شيئاً فإنه يأتي به يوم القيامة، ويحمله، وكان هذا رأيا منه انفرد به عن الصَّحابة — رضي الله عنهم — ولم يوافقه أحدٌ منهم عليه، فإنه كتم مصحفه، ولم يظهره، ولم يقدر عثمان، ولا غيره عليه أن يظهره، وانتشرت المصاحفُ التي كتبها عثمان، واجتمع عليها الصحابةُ في الآفاق، وقرأ المسلمون عليها، وترك مصحف عبد الله، وخفي إلى أن وُجد في خزائن بني عبيد بمصر عند انقراض دولتهم، وابتداء دولة المعز، فأمر بإحراقه قاضي القضاة بها صدر الدين على ما سمعناه من بعض مشايخنا، فأحْرق.

أنَّ أحداً أعلم منِّي لرحَلْتُ إليه. قال شقيقٌ: فجلسْتُ في حَلَقِ أصحاب محمَّد، فما سمعتُ أحداً يَرُدُّ ذلكَ عليه، ولا يعيبُهُ.

وعنه؛ قال: والذي لا إله غيره ! ما من كتاب الله سورةٌ إلا أنا أعلمُ حيث نَزَلَتْ، وما من آية إلا أنا أعلم فيما أُنزلتْ. ولو أعلمُ أحداً هو أعلمُ بكتابِ اللهِ منِّي؛ تبلُغُهُ الإبلُ، لَرَكِبْتُ إليه.

و(قوله: على قراءة من تأمرني أن أقرأ؟) إنكارٌ منه على من يأمره بترك قراءته، ورجوعه إلى قراءة زيد مع أنه سابق له إلى حفظ القرآن وإلى أخذه عن رسول الله ﷺ، فصعب عليه أن يترك قراءةَ قرأها على رسول الله ﷺ ويقرأ بما قرأن زيدٌ أو غيره، فتمسَّك بمصحفه وقراءته، وخفي عليه الوجهُ الذي طهرَ لجميع الصَّحابة – رضي الله عنهم – من المصلحة التي هي من أعظم ما حفظ الله بها القرآن عن الاختلاف المخلِّ به، والتغيير بالزّيادة والنُّقصان. وقد تقدَّم القول في الأحرف السبعة، وفي كيفية الأمر بذلك، وكان من أعظم الأمور على عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – أنَّ الصَّحابة – رضي الله عنهم – لما عزموا على كتب المصحف بلغة قريش عيَّنوا لذلك أربعةً لم يكن منهم: ابن مسعود، فكتبوه على لغة قريش، ولم يُعرِّجوا على ابن مسعود مع أنه أسبقهم لحفظ القرآن، ومن أعلمهم به، كما شهدوا له بذلك، غير أنَّه – رضي الله عنه – كان هُذَلِياً كما تقدم، وكانت قراءتُه على لغتهم، وبينها وبين لغة قريشٍ تباينٌ عظيم، فلذلك لم يُدْخِلُوه معهم، والله تعالى أعلم.

قال الشيخ رحمه الله: قد تقدَّم أنَّ أصلَ البِضْع ما بين الثلاثة إلى التسعة، وذكر اشتقاقه، والخلاف فيه. والحلَق: بفتح الحاء اللام: جمع حَلَقة بفتح الحاء واللام على ما حكاه يونس عن أبي عمرو بن العلاء،

وعن مسروق، قال: كُنَّا نأتي عبد الله بنَ عمرو فنتحدث إليه، فذكَرْنا يوماً عبد الله بن مسعود. فقال: لقد ذكرتم رجلاً لا أزال أحبُّه بعدَ شيءٍ سمِعتُهُ من رسول الله ﷺ. سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "خذوا

وقال أبو عمرو الشيباني: ليس في الكلام حلقة بالتحريك إلا في قولهم: هؤلاء قوم حَلَقة، الذين يحلقون الشعر، جمع حالق، وقال الجوهري: الحَلْقَة للدروع — بالسكون — وكذلك حَلْقَة الباب، وحَلْقَة القوم، والجمع: الحَلَق على غير قياس.

و(قوله: لقد علم أصحابُ رسول الله ﷺ أني أعلمهم بكتاب الله) يعني: أنه أعلمهم بأسباب نزوله، ومواقع أحكامه، بدليل قوله في الرواية الأخرى: ما من كتاب الله سورة إلا وأنا أعلمُ حيث نزلتْ، وما من آية إلا وأعلم فيما أُنْزلتْ. وسَبَبُ ذلك: ملازمته للنبي ﷺ ومباطنته إيَّاه سفراً وحَضراً كما قدَّمنا. وأما في القراءة فأُبيٌّ أقرأُ منه، بدليل قول النبيّ ﷺ: "أقرؤكم أُبيّ" والخطاب للصَّحابة كلِّهم.

و(قوله ﷺ: "خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد") فبدأ به، ليس فيه دليلٌ على أنه أُمِن أيٍّ، فإنه قد بيَّن ﷺ بالنص الجليِّ: أن أُبيّاً أقرأُ منه ومِن غيره، فيحتمل أن يقال: إن الموجبَ لابتدائه اختصاصه به، وملازمته إياه، وحضوره في ذهنه، لا أنه أقرأ الأربعة. والله تعالى أعلم. وهذا كلُّه بناءً على: أن المقدَّم من المعطوفات له مزيَّةٌ على المتأخر، وفي نظرٌ قد تقدَّم في الطهارة وفي الحج. وتخصيص هؤلاء الأربعة بالذكر دون غيرهم ممن حفظ القرآن من الصحابة — رضي الله عنهم — وهم عَددٌ كثير كما يأتي؛ لأنَّ هؤلاء الأربعة هم الذين تفرغوا لإقراء القرآن وتعليمه دون غيرهم ممن اشتغل بغير ذلك من العلوم، أو العبادات، أو الجهاد، وغير

القرآن من أربعة نفرٍ: من ابن أم عبدٍ — فبدَأ بهِ — ومُعاذِ بن جبلٍ، وأُبَيِّ بن كعبٍ، وسالمٍ مولى أبي حُذيفة".

ذلك؛ ويحتملُ أن يكونَ ذلك من النبيِّ ﷺ لأنه عَلم أنَّهم هم الذين ينتصبون لتعليم الناس القرآن بعده، وليؤخذَ عنهم؛ فأحال عليهم لما علم من مآل أمرهم، كما قد أظهر الموجود من حالهم؛ إذ هم أئمةُ القرَّاء، وإليهم تنتهي في الغالب أسانيدُ الفضلاء، والله أعلم.

ومعاذ المذكور في الحديث: هو معاذ بن جبل بن أوس الأنصاري الخزرجيِّ، يُكنى: أبا عبد الرحمن، قيل: بولد كان له كبر إلى أن قاتل مع أبيه في اليرموك، ومات بالطاعون قبل أبيه بأيام، على ما ذكره محمد بن عبد الله الأزدي البصري في "فتوح الشام" وغيره. وقال الواقدي: أنه لم يُولدْ لمعاذ قطُّ، وقاله المدائني. أسلم معاذ وهو ابنُ ثماني عشرة سنة، وشهد العقبةَ مع السَّبعين، وشهد بدراً، وجميع المشاهد، وولاَّه رسولُ الله ﷺ على عَمَل من أعمال اليمن، وخرج معه النبيُّ ﷺ مُودِّعا ماشياً، ومعاذ راكباً، منعه من أني نزل، وقال فيه ﷺ: "أعلمكم بالحلال والحرام معاذ". وقال: "أنه يسبق العلماء يوم القيامة رتوة بحجر"، وقال فيه ابنُ مسعود: إنه كان أمَّةً قانتاً لله، وقال: الأمة: هو الذي يُعلِّم الناسَ الخيرَ، والقانت: هو المطيعُ لله عز وجل، وكان عابداً، مجتهداً، ورعاً، مُحقِّقا، كان له امرأتان، فإذا كان يوم إحداهما: لم يشرب من بيت الأخرى، وماتتا بالطاعون في وقت واحد، فحفر لهما حفرة فأَسْهَم بينهما أيتهما يُقدِّم في القبر، وكان مُجاب الدعوة. ولما كان طاعونُ عمواس — وعمواس قرية من قرى الشام، وكأنها إنما نسب الطاعون إليها؛ لأنه لأول ما نزل فيها — فقال بعضُ الناس: هذا عذابٌ، فبلغ ذلك معاذاً فأنكر ذلك، وخطب فقال: أيها الناس ! إن هذا الوجعَ رحمةٌ بكم ودعوةُ نبيكم، وموتُ الصالحين

وفي رواية: ثَنَّى بأبيٍّ وأخر معاذاً.

قبلكم. اللهم آتِ آلَ معاذ من هذه الرحمة النَّصيبَ الأوفى. فما أمسى حت طُعِن ابنُه عبد الرحمن، وماتت زوجتاه، ثم طُعن من الغد من دَفْن ولده، فاشتدَّ وجَعُه فمات منه، وذلك في سنة سبع عشرة، وقيل: سنة ثمان عشرة، وسِنُّه يومئذ ثمان وثلاثون سنة، وقيل: ثلاث وثلاثون سنة، وروي عنه من الحديث: مئة حديث، وسبعة وخمسون حديثاً، أُخرج له منها في الصحيحين ستة أحاديث.

وسالم المذكور في الحديث، هو سالم بن معقل، مولى أبي حذيفة بن عتبة ابن ربيعة، يكنى سالم: أبا عبد الله، وكان من أهل فارس من اصطخر، وكان من فُضلاء الموالي، ومن خيار الصَّحابة وكبرائهم، وهو معدودٌ في المهاجرين؛ لأنَّه لَمَّا أعتقته مولاتُه زَوْجَ أبي حذيفة، وهي عمرةُ بنت يعار. وقيل: سلمى، وقيل: غير ذلكن تولى أبا حذيفة فتبنَّاه أبو حذيفة، وهو أيضاً معدودٌ في الأنصار؛ لعتق مولاته المذكورة له وهي أنصارية، وهو معدودٌ في القرّاء، قيل: إنه هاجر مع عمر ابن الخطاب ونفر من الصحابة من مكة — رضي الله عنهم -، فكان يؤمُّهم؛ لأنه كان أكثرَهُم قرآناً، وكان يؤمُّ المهاجرين بقُباء فيهم عمر بن الخطاب، شهد سالم بدراً وقُتِل يوم اليمامة ومولاه أبو حذيفة. فوجد رأسُ أحدهما عند رجلي الآخر، وذلك سنة اثنتي عشرة.

باب فضائل أُبَيِّ بنُ كَعبٍ

عن أنس، قال: جَمع القرآن، على عهد رسول الله ﷺ أربعةٌ – كُلُّهم منَ الأنصار -: مُعاذُ بن جبلٍ، وأُبَيُّ بن كعبٍ، وزيدُ بن ثابت، وأبو زيد.

ومن باب: فضائل أبيّ بن كعب – رضي الله عنه –

هو ابن قيس بن عبيد بن زيد النجار الخزرجي – رضي الله عنه – أسلم قديماً، وشهد العقبة الثانية، وبايع النبيَّ ﷺ فيها، ثم هد بدراً، وجميعَ المشاهد، وهو أوَّلُ مَن كتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان من فقهاء الصحابة وقُرَّائهم – رضي الله عنهم – وكفى بذلك أن الله تعالى: أمر نبيَّه ﷺ أن يقرأ عليه القرآن، وقد بيَّنا وجْهَ ذلك فيما تقدَّم، وقد تقدَّم قولُه ﷺ: "أقرؤكم أُبيّ" وقال فيه عمرُ بن الخطاب – رضي الله عنه -: إنه سيِّدُ المسلمين، وتوفي في خلافة عمر على الأكثر. قيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وقيل: سنة اثنتين وعشرين، وقد قيل: أنه مات في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين. وجملة ما روي عنه عن رسول الله ﷺ من حديث وأربعة وستون حديثا، أخرج له منها في الصحيحين ثلاثة عشر.

و(قوله أنس – رضي الله عنه-: جَمَعَ القرآنَ على هد رسول الله ﷺ أربعةٌ من الأنصار: معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قد استشكل ظاهرَ هذا لا حديث كثيرٌ من الناس حتى ظنوا أنه مما يطرق الطعنِ والقدح في تواتر القرآن، وهذا إنما نشأ ممن يظن أن لهذا الحديث دليلَ خطاب؛ فإنه لا يتمُّ له ذلك حتى يقولَ بتخصيص هؤلاء الأربعة بالذِّكر يدلُّ على أنه لم يجمعه أحدٌ غيرهم، فمن ينفي القولَ بدليل الخطاب قد سلم من ذلك، والذي يقول به فأكثرهم يقول: إن أسماء الأعداء

.....

لا دليلَ خطاب لها، فإنها تجري مجرى الألقاب، والألقابُ لا دليلَ خطاب لها باتفاق أئمة أهل الأصُول. ولا يُلتفتُ لقول الدقاق في ذلك فإنه واضح الفساد كما بيناه في الأصول، ولئن سلَّمنا أن لأسماء الأعداد دليلَ خطاب، فدليلُ الخطاب إنما يُصار إليه إذا لم يعارضهُ منطوقٌ به، وإنه أضعفُ وجوه الأدلة عند القائلين به، وهنا أمران هما أولى منه — بالاتفاق —:

أحدهما: النقل الصحيح.

والثاني: ما يعلم من ضرورة العادة.

فأما النقل فقد ذكر القاضي أبو بكر وغيره جماعةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ جَمَعُوا القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ منهم: الخلفاءُ الأربعة، وابن مسعود، سالم مولى أبي حُذيفة. وقد سمَّى أبو عبد الله المازري منهم خمسة عشر. وقد تواترتِ الأخبارُ بأنه قُتل يوم اليمامة سبعون ممن جَمَعَ القرآن، وكان ذلك في سنة وفاة النبيِّ ﷺ وأول سنيِّ خلافه أبي بكر — رضي الله عنه —، وإذا قُتِل في جيش واحد سبعون ممَّن جمع القرآن فالذين بقوا في ذلك الجيش منهم لم يقتلوا أكثر من أولئك أضعافاً. وإذا كان ذلك في جيش واحدٍ فانظر كم بقي في مُدن الإسلام — إذ ذاك — وفي عساكر أخر من الصَّحابة — رضي الله عنهم — ممن جَمَع القرآن. فيظهر من هذا: أنَّ الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لا يُحْصيهم أحد، ولا يضبطهم عدد.

وأما الثاني وهو العادة: وذلك أنها تقتضي أن يجتمعَ العدد الكثيرُ، والجمع الغفير على حِفْظه ونقْله، وذلك أن القرآن على نظم عجيب، وأسلوب

قال قتادة: قلتُ لأنس: مَنْ أبو زيد؟ قال: أحدُ عُمُومتي.

غريب، مخالف لأساليب كلامهم في نثرهم ونظمهم مع ما تضمَّنه من العلوم والأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، والقَصَص والأخبار، والتبشير والإنذار، والنبيُّ ﷺ مع ذلك يُشيعه في الناس، ويشافه به البلغاء الأكياس، وما كان هذا سبيلُه فالعادةُ تقتضي: أن تتوفَّر الدواعي على حِفْظ جميعه، الوقوف على ما تضمنه من أنواع حِكَمه وبدائعه، ومحاسن آدابه وشرائعه، ويحيلُ انفراد الآحاد بحفظه كما يحيل انفرادهم بنقله، فقد ظهر من هذه المباحث العجاب أنَّ ذلك الحديث ليس له دليلُ خطاب، فإن قيل: فإذا لم يكن له دليلُ خطاب فلأي شيء خصَّ هؤلاء الأربعة بالذكر دون غيرهم؟ فالجواب من أوجه:

أحدهما: أنه يحتملُ إن يكون ذلك لتعلُّق غَرَ المتكلم بهم دون غيرهم كالحال في ذكر الألقاب.

وثانيها: لحضور هؤلاء الأربعة في ذهنه دون غيرهم.

وثالثها: أن هؤلاء الأربعة قد اشتهروا بذلك في ذلك الوقت دون غيرهم ممن يحفظ جميعه.

ورابعها: لأن أنساً سمع من هؤلاء الأربعة إخبارهم عن أنفسهم أنهم جمعوا القرآن، ولم يَسْمَعْ مثل ذلك من غيرهم، وكلٌ ذلك محتمل، والله تعالى أعلم.

و(قول قتادة: قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عُمومتي) أبو زيد هذا هو سعيدُ بن عبيد بن النعمان الأوسي من بني عمرو بن عوف، يُعرف بسعدٍ القارئ، توفي شهيداً بالقادسية سنة خمس عشرة. قال أبو عمر:

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ لأبيٍّ بن كعب: "إنَّ الله أمَرَني أنْ أقرأ عليك: ﴿لم يكنِ الذين كفروا من أهل الكتاب﴾"، قال: وسَمَّاني !؟قال: "نعم". قال: فبَكَى.

باب فضائل سعد بن معاذ

عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ – وجنازةُ سعدِ بن معاذ بين أيديهم –: "اهتزَّ لها عرشُ الرَّحمن".

هذا قولُ أهلِ الكوفة، وخالفهم غيرُهم، فقال أبو زيد: هذا هو قيسُ بن السكن الخزرجي من بني عديِّ بن النجار بدريٌّ. قال ابنُ شهاب: قُتِل أبو زيد قيس بن السَّكن يوم جسْر أبي عبيد على رأس خمس عشرة. وقد تقدَّم القولُ على حديث قراءة النبيِّ ﷺ على أبيٍّ – رضي الله عنه – في كتاب الصَّلاة في باب: ترتيل القراءة وكيفية الأداء.

ومن باب: فضائل سعد بن معاذ – رضي الله عنه –

هو ابن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الخزرجي الأنصاري – رضي الله عنه – أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدي مصعب بن عمير، وشهد بدراً وأُحُداً، ورُمي يوم الخندق بسهم، فعاش شهراً، ثم انتقض جرحُه فمات منه. توفي سنة خمس من الهجرة، وقد تقدَّم حديثه في حكمه في بني قريظة، وقوله ﷺ للحاضرين من أصحابه: "قوموا إلى سيدكم"، وقالت عائشة – رضي الله عنها –: كانفي بني عبد الأشهل ثلاثة، لم يكن بعد النبيِّ ﷺ من المسلمين أحدٌ أفضل منهم: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعبَّاد بن بشر، تعني: من

وفي رواية: "اهتَز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ".

وعن البراء قال: أُهْدِيت لرسولِ الله ﷺ حُلَّةُ حريرٍ؛ فجَعَل أصحابُه

الأنصار، والله أعلم. وقال ابنُ عباس: قال سعد بن معاذ: ثلاثةٌ أنا فيهن رجلٌ كما ينبغي، وما سوى ذلك فأنا رجلٌ من المسلمين. ما سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً إلا علمتُ أنه حقٌّ من الله، ولا دخلت في صلاة قطُّ فشغلتُ نفسي بغيرها حتى قضيتها، ولا كنتُ في جنازة قطُّ فحدَّثت نفسي بغير ما تقول، وما يُقال لها حتى أنصرفَ عنها.

و(قوله: "اهتز عرش الرحمن لجنازة سعد بن معاذ" حَمَل بعضُ العلماء هذا الحديثَ على ظاهره من الاهتزاز والحركة، وقال: هذا ممكن؛ لأنَّ العرشَ جسْمٌ، وهو قابلٌ للحركة والسُّكون، والقدرة صالحة، وكانت حركته عَلَماً على فضله، وحمله آخرون على حملة العرش، وحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، ويكون الاهتزازُ منهم استبشاراً بقدوم رُوحه الطيِّبة، وفرحاً به، وحمله آخرون على تعظي شأن وفاته، وتفخيمه على عادة العرب في تعظيمها الأشياء، والإغياء في ذلك، فيقولون: قامت القيامةُ لموت فلان، وأظلمت الأرضُ، وما شاكل ذلك ممَّا المقصودُ به التعظيمُ والتفخيمُ لا التحقيق، وإليه صار الحربيُّ. وكلُّ هذا مُتَرَّلٌ على: أنَّ العرش هو المنسوبُ لله تعالى في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العرشِ اسْتَوَى﴾[1]، وهو ظاهرُ قوله: "اهتز عرشُ الرحمن لموت سعد". وقد روي عن ابن عمر: أن العرشَ هنا سرير الموت. قال القاضي: وكذلك جاء في حديث البراء في الصحيح: "اهتزَّ السَّرير" وتأوَّله الهرويُّ: فَرِح بحمله عليه.

و(قوله: أُهديتُ لرسول الله ﷺ حلَّةُ حرير) كذا جاء في حديث البراء: حلَّة بالحاء المهملة واللام، وفي حديث أنس: أن أُكَيْدر ذُومة

---

[1]- سورة طه، الآية 8.

يَمسُونها ويَعْجَبُون من لينها. فقال: "أتعجبونَ من الينِ هذه؟ ! لَمناديلُ سعدِ بن مُعادٍ في الجنَّة خيرٌ منها وألينُ".

الجندل أهدى لرسول الله ﷺ جُبَّة من سُندس. وهذه أوجه وأصوب؛ لأن الحلة لا تكون عندا لعرب ثوباً واحداً، وإنما هي لباس ثوبين، يحلُّ أحدُهما على الآخر، وأن الثوب الفرد لا يُسمَّى حلةٌ. وقد جاء في السَّير أنها: قباء من ديباج مُخَوَّصٌ بالذهب، وقد تقدَّم الكلامُ على لبس الحرير في اللباس. وأُكَيْدر: بضم الهمزة وفتح الكاف وياء التصغير بعدها: تصغير: أكدر، والكدرة: لونٌ بين السَّواد والبياض، وهو الأغبر، وهو: أكيدر بن عبد الملك الكندي. ودومة: بفتح الدال وضمها، وأنكر ابنُ دريد الفتح، وقال: أهل اللغة يقولونه بالضم، والمحدثُّون بالفتح، وهو خطأ، وقال: ودومة الجندل: مجتمعه ومستداره، وهو من بلاد الشام قُرب تبوك، كان أكيدر ملكها، وكان خالد بن الوليد قد أسره في غزوة تبوك وسلبه قباءٌ من ديباج مُخَوَّصاً بالذهب. فأمَّنَه النبيُّ ﷺ وردَّه إلى موضعه، وضرب عليه الجزية.

و(قوله: "لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ منها وألين" هذه إشارةٌ إلى أدنى ثياب سعد؛ لأنَّ المناديلَ إنما هي مُمتهنةٌ متخذةٌ لمسح الأيدي بها من الدَّنس والوسخ، وإذا كان هذا حالُ المنديل، فما ظنُّك بالعمامة والحلة؟! ولا يظنُّ أنَّ طعامَ الجنة وشرابها فيهما ما يدنس يدَ المتناولَ حتى يحتاجَ إلى منديل؛ فإنَّ هذا ظنٌّ مَن لا يعرف الجنَّة ولا طعامها ولا شرابها؛ إذ قد نزَّه الله الجنة عن ذلك كلِّه وإنما ذلك إخبارٌ بأنَّ الله أعدَّ في الجنة كلَّ ما يُحتاجُ إليه في الدَّنيا، لكن هي على حالة هي أعلى وأشرف، فأعدَّ فيها أمشاطاً، ومجامر، وأُلُوَّةٌ، ومناديل، وأسواقاً وغير ذلك مما تعارفناه في الدُّنيا، وإن لم نحتجْ له في الجنة إتماماً للنعمة، وإكمالاً للمنَّة.

باب فضائل أبي دُجانة؛ سِمَاك بن خَرَشة، وعبد الله بن عمرو بن حرام

عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أُحُد، فقال: "مَنْ يأخذُ منِّ هذا؟" فبَسطُوا أيديَهُم، كُلُّ إنسان منهم يقولُ: أنَا، أنا. قال: "فمن يأخُذُه بحقِّه؟" فأحْجَم القوم، فقال سماكُ بن خَرشة — أبو دجانة -: أنا آخذه بحقِّه. قال: فأخذه، ففَلقَ به هامَ المشركين.

ومن باب: فضائل أبي دجانة — رضي الله عنه —

هو سماك بن خَرَشة بني لوذان الخزرجي الأنصاريُّ، وهو مشهورٌ بكنيته، شهد بدراً وأُحُداً، ودَافَع عن رسول الله ﷺ يومئذ هو ومصعب بن عُمير، وكثرتْ فيه الجراحة، وقُتِل مصعب، وكان أبو دُجانة أحَدَ الشجعان، له المقاماتُ المحمودة مع رسول الله ﷺ في مغازيه. استشهد يوم اليمامة، وقال أنس: رمى أبو دُجانة بنفسه في الحديثة، فانكسرت رِجْلُه، فقاتَل حتى قُتِل، وقيل: إنه شارك وَحْشيّاً في قَتْل مسيلمة، وقد قيل: إنه عاش حتى شهد مع عليٍّ صفّين، والله تعالى أعلم. قال أبو عمر: إسنادُ حديثه في الحرز المنسوب إليه فيه ضعف.

و(قوله ﷺ: "من يأخذُ منِّي هذا السَّيف بحقِّه؟" يعني بالحق هنا: أنه يقاتل بذلك السيف إلى أن يفتح الله تعالى على المسلمين أو يموت، فلما سمعوا هذا أحجموا، أي: تأخَّروا، يقال: أحجم بتقديم الحاء وتأخيرها. فأخذه أبو دجانة وقام بشرطه، ووفى بحقه. و(هام المشركين) مخفَّفاً، يعني: رؤوسهم قال:

.....

نضرب بالسُّيوفِ رؤوسَ قومٍ أزَلْـنا هامَـهُنَّ عن المقيل

المقيل: أصول الأعناق.

وأما أبو جابر، فهو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن كعب بن غنم ابن كعب بن سَلمة الأنصاري السلمي، وهو أحدُ النقباء، شهد العقبة وبدراً، وقُتل يوم أُحُد، ومُثِّل به، وروى بقي بن مَخْلَد عن جابر — رضي الله عنه — قال: لقيني رسولُ الله ﷺ فقال: "يا جابرُ! مالي أراك منكساً مغتماً؟" قلت: يا رسول الله! استشهد أبي وترك عيالاً، وعليه دَيْن. قال: أفلا أبشرِّك بما لقي الله — عز وجل — به أباك"؟ قلت" بلى يا رسول الله! قال: "إنَّ الله عز وجل أحيا أباك، وكلَّمه كفاحاً، وما كلَّم أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب، فقال له: يا عبدي تمنَّ أعطك! قال: يا رب! تردَّني إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانية فأبلِّغ من ورائي" فأنزل الله تعالى: ﴿ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ الله أَمْوَتاً بَلْ أَحْياءٌ...﴾[1] الآية.

قال الشيخ: وقد تضمَّن هذا الحديثُ فضيلةً غظيمةً لعبد الله لم يُسْمَعْ بمثلها لغيره، وهي: أنَّ الله تعالى كلَّمه مُشافهةً بغير حجاب حَجَبه به. ولا واسطة قبل يوم القيامة، ولم يفعل الله تعالى ذلك مع غيره في هذه الدَّار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لبَشَرٍ أن يُكلِّمَهُ الله إلاَّ وَحْياً أَوْ من وَرَآيِ حجَاب أوْ يُرْسلَ رَسُولاً﴾[2]. وكما قال رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث: "وما كلَّ الله أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب". وظاهرُ هذه الآية، وهذا الحديث: "أنَّ الله تعالى لم يفعلْ هذا في هذه الدَّار لحيٍّ ولا لميت، إلا

---

[1]— سورة آل عمران، الآية 169.
[2]— سورة الشورى، الآية 51.

وعن جابر بن عبد الله، قال: لَمَّا كان يومُ أحد جيءَ بأبي مُسَجّى، وقد مُثِّلَ به. قال: فأرجتُ أن أرفع الثَّوب، فنهاني قومي، ثم أردت أن أرفع الثوبَ، فنهاني قومي، فرفعه رسولُ الله ﷺ — أو: أمر به فرُفِعَ — فسمع صوتَ باكية أو صائحة، فقال: مَنْ هذه؟ فقالوا: ابنة عمرو — أو أخت عمرو — فقالَ: "ولِمَ تبكِي؟ فما زالت الملائكةُ تُظِلُّهُ بأجنحتها حتى رُفِعَ !".

لعبد الله هذا خاصَّةٌ، فيلزمُ على هذا العموم: أنه قد خصَّ من ذلك بما لم يخصَّ به أحدٌ من الأنبياء. وهذا مشكلٌ بالمعلوم من ضرورة الشَّرع، ومِن إجماع المسلمين على: أنَّ درجة الأنبياء وفضيلتهم أعظمُ من درجة الشهداء والأولياء كما تقدَّم، فوَجْهُ التَّلفيق: أنَّ قوله ﷺ: "وما كلَّم الله أحداً إلا من وراء حجاب" إنما يعني به — والله أعلم -: أنه ما كلَّم أحداً من الشهداء، وممَّن، ليس بنبيٍّ بعد موته، وقيل: يوم القيامة، إلا عبد الله، ولم يردْ به الأنبياء، ولا أراد بعد يوم القيامة، لما قد علم أيضاً من الكتاب والسنة، وإجماع أهل السُّنة من: أنَّ المؤمنين يَرَوْنَ الله تعالى في الجنة، ويُكلِّمهم بغير حجاب، ولا واسطة. وأما الآية: فإنما مقصودُها حَصْرُ أنواع الوحي الواصل إلى الأنبياء من الله تعالى، فمنه: ما يقذفُه الله تعالى في قلب النبيِّ، وورعه، ومنه: ما يُسْمعه الله تعالى للنبيِّ مع كون ذلك النبيِّ محجوباً عن رؤية الله تعالى، ومنه: ما يبلِّغه له المَلَك، وحاصلها: الإعلامُ بأنَّ الله تعالى لم يَرَهُ أحدٌ من البشر في هذه الدَّار؛ نبيّاً كان أو غير نبيّ، ويشهد لهذا قولُه ﷺ في الصحيح: "اعلموا أنه لا يرى أحدٌ ربَّه حتى يموت"، وقد تقدَّم الخلاف في رؤية نبينا محمد ﷺ لربِّه، والصحيحُ أنه لم يأت قاطعٌ بذلك، والأصلُ: بقاءُ ما ذكرناه على ما أصَّلناه، والله تعالى أعلم.

باب فضائل جُلَيْبيب

عن أبي برزة: أنَّ النبيَّ ﷺ كان في مغزىً له، فأفاء الله عليه، فقال لصحابه: "هل تفقدون من أحدٍ؟" قالوا: نعم؛ فلاناً وفلاناً وفلاناً. ثمَّ قال:

و(قوله: وجيء بأبي مُسجّي، وقد مُثِّل به) أي: مُغطّى بثوب ومُثِّل به، أي جُدع أنفه ,أذناه. فعَل ذلك به المشركون.

و(قوله: "ولِمَ تبكي") كذا صحّت الروايةُ بـــ (لِمَ) التي لاستفهام، تبكي بغير نون؛ لأنَّه استفهامٌ لمخاطب عن فعل غائبه، ولو خاطبها بالاستفهام خطابَ الحاضرة، لقال: ولم تبكين؟ بإثبات النون، وكذلك جاء في رواية أخرى: "أولا تَبكيه؟ ما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتها" هو إخبارٌ عن غائبة، ولم كان خطاب الحاضرة لقال: تبكينه، أو لا تبكينه بنون فعل الواحدة المخاطبة، ويعني بهذا الكلام: أنَّ عبد الله مكرَّمٌ عند الملائكة سواءٌ بُكي عليه، أو لم يُبكَ، وكون الملائكة تظلُّه بأجنحتها إنَّما ذلك لاجتماعهم عليه، وتراحمهم على مبادرة لقائه، والصُّعود بروحه الكريمة الطيبة، ولتبشِّره بما له عند الله تعالى من الكرامة والدَّرجة الرفيعة، والله تعالى أعلم.

ومن باب: فضائل جليبيب – رضي الله عنه –

وكان رجلاً من ثعلبة، وكان حليفاً في الأنصار، قال ابنُ سعد: سمعتُ من يذكر ذلك. روى أنس بن مالك قال: كان رجلٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ يُقال له: جُليبيب، وكان في وجهه دمامة، فعرض عليه رسولُ الله ﷺ التزويج فقال: إذن تجدني كاسداً يا رسولَ الله ! فقال: "إنك عند الله لستَ بكاسد". وفي غير كتاب مسلم من حديث أبي برزة في تزويج جُليبيب: أن رَّسول الله ﷺ قال لرجل من الأنصار: "يا فلان زوِّجني ابنتك"، قتل: نعم، ونعمة عين، قال: "إني لستُ لنفسي أريدها"، قال: فلمن؟ قال:

"هل تفقدون من أحد؟" قالوا: نعم، فلاناً وفلاناً. ثم قال: "هل تفقدون من أحد؟" قالوا: لا. قال: "لكنِّي أفقدُ جُلَيْبيباً، فاطلبوه". فطُلب في القتلى، فوجدُوهُ إلى جنْب سبعة قد قتلهم. ثم قتلوه، فأتاه النبيُّ ﷺ فوقف عليه، فقال: "قَتل سبعةً، ثم قتلُوه، هذا منِّي وأنا منه، هذا منِّي وأنا منه". قال: فوضعه على ساعدَيه، ليس له إلا ساعدَا النبيّ ﷺ. قال: فحفِر له ووُضع في قبره. ولم يذكرَ غَسْلاً.

"لجُليبيب"، قال: حتى أستأمرَ أمَّها، فأتاها وأخبرها بذلك، فقالت: حلقى، أجُليبيب؟ ! لا لَعَمْرُ الله، لا أُزوِّج جُليبيباً، فلما قام أبوها. ليأتي رسول الله ﷺ قالت الفتاةُ من خدرها لأبويها: مَن خطبني إليكما؟ قالا: رسول الله ﷺ، قالت: أفتردّان علَىَ رسول الله أمره؟ ! ادفعاني إلى رسول الله ﷺ فإنه لن يُضيّعني، فذهب أبوها للنبيّ ﷺ فأخبره بذلك، وقال: شأنُكَ بها؛ فزوَّجها جُليبيباً، ودعا لهما النبيُّ ﷺ فقال: "اللهم صُبَّ عليهما الرزقَ صبّا صبّا، ولا تجعلْ عيشهما كدّا كدّا" ثم ذكر باقي الحديث على ما في كتاب مسلم.

و(قوله: كان رسول الله ﷺ في مغزى له) أي: في غزوة.

و(قوله: "هل تفقدون أحداً؟) هذا الاستفهامُ ليس مقصوده استعلام كونه فقدوا أحداً ممن يعزّ عليهم فَقْده؛ إذ ذاك كان معلوماً له بالمشاهدة؛ وإنما مقصودُه التَّنويهُ والتَّفخيم بمن لم يحفلوا به، ولا التفتوا إليه، لكونه كان غامضاً في الناس، ولكون كل واحد منهم أُصيب بقريبه أو حبيبه، فكان مشغولاً بمصابه لم يتفرَّغْ منه إلى غيرِه، ولما أطلع الله نبيَّه ﷺ على ما كان من حال جُليبيب من قتله السَّبعة الذين وُجدوا إلى جَنَبه، نوَّه باسمه، وعرَّف بقدره، فقال: "لكنِّي أفقدُ جُليبيباً" أي: فَقْدُه أعظمُ منفقد كلٍّ من فقد، المصاب به أشدّ، ثم إنه أقبلَ بإكرامه عليه، ووسَّده ساعديه مبالغةً في كرامته، ولتناله بركةُ ملامسته. وجُليبيب: تصغير جلباب، سُمِّي به الرجل.

باب فضائل أبي ذرٍّ الغفاريّ

عن عبد الله بن الصَّامت، قال: قال أبو ذرٍّ: خرجنا من قومنا غفَار، وكانوا يُحلُّون الشهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أُنيس وأُمُّنا، فنزلنا على خال لنا، فأكرَمَنا خالنا، وأحسن إلينا، فحسدَنَا قومُه، فقالوا: إنَّك إذا خرجتَ

ومن باب: فضائل أبي ذرٍّ الغفاري – رضي الله عنه –

واسمه: جندب – على الأصح والأكثر – ابن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل ابن حرام بن غفار بن كنانة بن مدركة بن إلياس بن قصي بن نزار. هو من كبار الصحابة – رضي الله عنه وعنهم –، قديم الإسلام، يقال: أسلم بعد أربعة فكان خامساً، ثم انصرف إلى بلاد قومه، فأقام بها حتى قدم على النبيِّ ﷺ عام الحديبية، بعد أن مصت بدر، وأحد، والخندق، ويدلُّ على كيفية إسلامه، وتفصيل أحوال: حديثه المذكور في الأصل، وكان قد غلب غليه التعبُّد والزُّهد، وكان يعتقدُ أن" جميع ما فضل عن الحاجة كتر وإمساكه حرام، ودخل الشام بعد موت النبيِّ ﷺ فوقع بينه وبين معاوية نزاعٌ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذينَ يَكْنزُونَ الذَّهب والفضَّةَ...﴾ [1]، فشكاه معاوية إلى عثمان، فأقدمه عثمان المدينة، فقدمها، فزهد أبو ذرٍّ في كلّ ما بأيديهم، واستأذن عثمانَ في سُكنى الرَّبذَة، فأذن له، وقد كان رسولُ الله ﷺ أذنَ له في البدو، فأقام بالرَّبذَة في موضع منقطع إلى أن مات بها سنة اثنتين وثلاثين على ما قاله ابنُ إسحاق، وصلى عليه عبد الله بن مسعود منصرفه من الكوفة في ركب، ولم يوجدْ له شيءٌ يُكفَّن فيه، فكفَّنه رجلٌ من أولئك الركب في ثوب من غَزْل أمه، وكان قد وصَّى ألاَّ يكفنه أحدٌ وَلِيَ شيئاً من الأعمال السلطانية،

---

[1]– سورة التوبة، الآية 34.

عن أهلك خَالف إليهم أُنيسٌ، فجاء خالُنا فنثا علينا الذي قيل له. فقلت: أمَّا ما مضى من معروفكَ فقَدْ كدَّرتهُ، ولا جماع لك فيما بعدُ، فقرَّبْنا صِرْمَتنا، فاحْتَمَلنا عليها، وتغطّى خالُنا ثوبَهُ فجلَ يبكي، فانطَلَقْنا حتّى نزلنا

وخبره بذلك معروف. روى عن رسول الله ﷺ مشتي حديث وواحداً وثمانين حديثا. أخرج له منها في الصَّحيحين ثلاثةٌ وثلاثون حديثاً.

غريب حديث أبي ذر – رضي الله عنه –:

الشنة: السقاء البالي، والشنان: الأسقية، واحدها شنٌّ، وكلّ جلد بالٍ: فهو شنٌّ. ويقال للقربة البالية: شنَّة، وهي أشدُّ تبريداً للماء من الجدد.

و(قوله: ما أنى للرجل) أي: ما كان، يقال: أنى وآن بمعنى واحد، و(تقفوه): تتبعه.

و(قوله: لأصرخنَّ بها) أي: بكلمة التوحيد (بين ظهرانيهم): يعني المشركين بمكة.

و(قوله: فنثا علينا خالنا الذي قيل له) أي: أظهر لنا بالقول، يقال: النثى – بتقديم النون، والقصر – في الشر والكلام القبيح، وإذا قدّمت الثاء ومَدَدت فهو الكلامُ الحسنُ الجميل.

و(قوله: لا جمَاع لك) أي: لا اجتماع يبقى بيننا. و(الصِّرمَنُ)" القطعة من الإبل، نحو الثلاثين، وقد تكون الصِّرمة في غير هذا: القطعة من النخل، الصّرم: القطع.

و(قوله: فنافر أنيسٌ عن صِرْمتنا، وعن مثلها) أي: التزم أنَّ مَن قُضي له بالغلبة أخذ ذلك، قال أبو عبيد: المنافرة: أن يفتخرَ الرجلان كلُّ واحد

بحضرة مكَّة. فنافَر أُنيسٌ عن صِرْمَتنا وعن مِثْلنا، فأتيا الكاهنَ فخيَّر أنيساً، فأتانا أُنيسٌ بصِرْمَتنا ومثلها معها. قال: وقد صلَّيتُ يا بن أخي ! قبل أن ألْقَى رسولَ الله ﷺ بثلاث سنين، قلتُ: لمن؟ قال: لله. قلتُ: فأين توجَّهُ قال: أتوجَّهُ حيث يوجِّهُني ربي، أصلِّي عشاءً حتى إذا كان من آخر الليل أُلقيتُ كأني خفاء، حتى تعلُني الشَّمسُ. فقال أُنَيْسٌ: إنَّ لي حاجةٌ بمكةَ فاكفني، فانطلقَ أُنيس حتى أتى مكة، فراث عليَّ، ثم جاء، فقلتُ: ما صنعتَ؟ قال: لقيتُ رجلا بمكة على دينك يزعم أنَّ الله أرسله ! قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن، - وكان أنس أحد

منهما على صاحبه، ثم يُحكِّما رجلاً بينهما، والنافر: الغالب، والمنفور: المغلوب. يُقال: نَفَرَه، يَنْفِره، ويَنْفُرُهُ نفْراً: إذا غلب عليه.

و(قوله: فأتيا الكاهن فخيَّ أُنيساً) أي: غلبه، وقضى له، وكانت منافرته في الشعر: أيهما أشعر؟.

و(قوله: وقد صلَّيت قبل أن ألقى رسولَ الله ﷺ) هذا إلهامٌ للقلوب الطَّاهرة، ومُقتضى العقول السامية؛ فإنها توفَّق للصواب، وتُلهم للرّشد.

و(قوله: أُلْقيت كأني خفاءٌ) الرواية في أُلقيت بضم الهمزة وكسر القاف مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله. والخِفاء: بكسر الخاء والمد: هو الغطاء؛ وكل شيء غطيته بكساء، أو ثوب، فذلك الغطاء خفاءٌ، ويُجمع أخفية، قاله أبو عبيد. وقال ابنُ دُريد: الخِفاء: كساء يُطرح على السّقاء.

و(قوله: فراث عليَّ) أي: أبطأ.

و(قوله: وضعتُ قوله على أقراء الشعر) قال ابنُ قتيبة: يريدُ أنواعه، وطُرُقه، واحدها قَرْءٌ. فيقال: هذا الشعرُ على قَرء هذا.

أحد الشعراء – قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشِّعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنَّه شعرٌ، والله ! إنَّه لصادق وإنَّهم لكاذبون. قال: قلت: فاكفني حتى أذهب فأنظرَ.

وفي رواية: قال: نعم، وكنْ على حذر من أهل مكَّة، فإنهم قد شَنفُوا له وتجهَّموا، قال: فأتيتُ مكَّة، فتضعَّفتُ رجلاً منهم، فقلتُ: أين هذَا الذي تدعونه الصابئ؟ فأشار إليَّ، فقال: الصابئَ ! فمال عليَّ أهلُ الادي بكل مَدَرة وعظم، حتى خررتُ مغشيّا عليَّ. قال: فارتفعت حين ارتفعتُ كأنِّي نُصُبٌ أحمر. قال: فأتيتُ زمزم فغسلتُ عنِّ الدماء، وشربتث من مائها، ولقد لبثت يا بن أخي ! ثلاثين، بين ليلةٍ ويوم ما كان

و(قوله: فتضعَّفتُ رجلاً) أي: رأيته ضعيفاً، فعلمتُ أنه لا ينالني بمكروه، ولا يرتابُ بمقصدي.

و(قوله: كأني نُصُب أحمر) أي: قمتُ كأني لجريان دمي من الجراحة التي أُصِبْتُ بها أَحَدَ الأنصاب، وهي الحجارةُ التي كانوا يذبحون عليها فتحمر بالدّماء. فأما زمزم، فقال ابنُ فارس: هو من قولهم: زمرت الناقةَ؛ إذا جعلت لها زماماً تحبسها به، وذلك أنَّ جبريلَ – عليه السلام – لما هَمزَ الأرضَ بمقاديم جناحيه، ففاض الماء زمَّتْها هاجرُ فسُمِّيت: زمزم.

و(قوله: ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر) كذا الرواية الصحيحة أقراء: بالراء، جمع قَرْء على ما تقدم، وقيَّده العذري: أقواء بالواو، ورواه بعضُهم بالواو وكسر الهمزة. قال القاضي: لا وَجَهَ له.

و(قوله: فما يلتئم على لسان أحد بَعْدي أنه شعر) هكذا الرواية عند جميع الشيوخ. بعدي: بالباء بواحدة، والعين المهملة: بمعنى غيري. يُقال: ما فعل هذا أحدٌ بعدك، أي: غيرك. كما يقال ذلك في (دون) وهو كثيرٌ

لي طعام إلاَّ ماءُ زمزم. فسمنتُ حتى تكسَّرت عُكَنُ بَطني. وما وجدتُ على كبدي سَخْفَةَ جُوعٍ. قال: فبينا أهل مكة في ليلة قمراءَ إضْحيانَ؛ إذ ضُرِب على أصمختهم، فما يطوفُ بالبيت أحدٌ، وامرأتان منهم تدعوان إسافاً ونائلة. قال: فأتتا عليَّ في طوافهما، فقلتُ: أنْكحا أحَدَكُما الآخر. قال: فما تناهتا عن قولهما. قال: فأتتا عليَّ، فقلتُ: هَنٌ مثلُ الخشبة — غير

فيها. ومعنى الكلام: أنه لما اعْتَبَرَ القرآن بأنواع الشعر تبيَّن له ليس من أنواعه، ثم قطع: بأنه لا يصحُّ لأحد أن يقول: إنه شعر، ووقع في بعض النُّسخ: يَقْري بفتح الياء. قال القاضي: وهو جيد، وأحسن منه: يُقري بضمها، وهو مِمَّا تقدَّم، يقال: أقرأتُ في الشعر، وهذا الشعر على قَرْءِ هذا، وقرؤه: أي قافيته، وجمعها: أقراء. وفي بعض النسخ أيضاً (على لسان أحد يُحزى إلى شعر) أي: يُنسب إليه، ويُوصف به. وللرِّوايات كلِّها وَجْهٌ.

و(قوله: فما وجدت على كبدي سَخْفَةَ جوع) قال الأصمعي: السخفة: الخفَّة، ولا أَحْسِبُ قولهم: سخيف إلا من هذا.

و(قوله: في ليلة قمراء إضْحيان) القمراء: المقمرة، وهي التي يكونُ فيها قمر، ويُسمَّى الهلالُ قمراً من أول الليلة الثالثة إلى أن يصيرَ بدراً، ثم إذا أخذ في النَّقص عاد عليه اسمُ القمر، وإضحيان — بكسر الهمزة والضاد المعجمة -: معناه كثير ضوء قمرها. قال ابن قتيبة: ويقال ليلة إضحيانٌ، وإضحيانة، وضحيانة: إذا كانت مضيئة.

و(قوله: ضُرِبَ على أصمختهم) أي: ناموا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنا عَلى ءاذانِهِمْ في الكَهْفِ سِنينَ عَدَداً﴾[1] أي: أنمناهم. الأصمخة:

---

[1]— سورة الكهف، الآية 11.

أنِّي لا أكْني – فانطلقَتَا تُولولان، وتقولان: لَو كان ها هنا أحد من أنفارنَا ! قال: فاستقبلَهُما رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطتان. قال: "ما لَكُما؟" قالتا: الصابئُ بين الكعبة وأستارها. قال: "ما قال لكما؟" قالتا: إنه قال لنا كلمة تملأُ الفم، وجاء رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر، ثم طاف بالبيت هو وصاحبُه. ثمَّ صلَّى، فلمّا قضى صلاته (قال أبو ذر): فكنتُ أوَّلَ من حيّاه بتحية الإسلام. قال: فقلت: السلام عليك يا رسول

جمع صِماخ، وهو خُرْق الأذن، وهو الصاد، وقد أخطأ من قاله: بالسين. وإساف ونائلة: صنمان, وقد تقدَّم ذكرهما في كتاب الحج، وقد روى ابن أبي نجيح: أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة حجَّا من الشام، فقبَّلَها وهما يطوفان فمُسخا حجرين، فلم يزالا في المسجد حتى جاء الإسلام، فأخرجا منه.

و(قول: فما تناها عن قولهما) أي: ما رجعتا عنه.

و(قوله: هنٌ مثْل الخشبة) يعني به الذكر، وقد تقدَّم أن: هناً كناية عن النكرات، وأراد بذكره هنا سبَّ إسافٍ ونائلة، وهو تقبيحٌ، كقوله أولاً: أنْكِحا أحدَهما الآخر.

و(قوله: تولولان) أيك تدعوان بالويل، وترفعان بذلك أصواتهما.

و(قولهما: لو كان أحدٌ من انفارنا) أي: من قومنا، وهو جمع نفر، والنَّفَر: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وجواب لو محذوف، أي: لنصرنا عليكَ ونحوه.

و(قولهما: قال كلمة تملأ الفم) أي: غظيمة، حتى كأن الفم يضيقُ عنها.

و(قوله: فكنت أوَّلَ من حيَّاه بتحيَّة الإسلام) يعني به: السلام عليك يا رسولَ الله، وظاهره: أنه أُلهمَ النُّطقَ بتلك الكلمة إذ لم يكن سمعَها قبلَ

الله ! فقال: "وعليك ورحمة الله"، ثم قال: "من أنت؟"، قال: قلت: من غفار. قال: فأهوى بيده فوضع أصابعَه على جبهته، فقلت في نفسي: كره أن انتميتُ إلى غفار، فذهبتُ آخذ بيده، فقَدَعَني صاحبُه، وكان أعلمَ ها هنا منذ ثلاثين؛ بين ليلة ويوم. قال. فمن كان يطعمك؟ قال: قلتُ: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزم، فسمنْتُ حتى تكسَّرتْ عُكَنُ بطني، وما أجد على كبدي سَخْفَة جوع. قال: "إنَّها مباركة، إنَّها طَعَام طُعْم". فقال أبو بكر: يا رسول الله ! ائذن لي في طعامه الليلة، فانطلق رسولُ الله ﷺ وأبو بكر،

ذلك، وعلمُه بكونه أوَّل من حيَّاه: يحتملُ أن يكون إلهاماً، ويحتمل أن يكون علمَه بغير ذلك بالاستقراء، ثم أخبرَ عنه، والله تعالى أعلم.

و(قوله: فقَدَعَني صاحبُه) أي: كفَّني ومنعني. يُقال: قَدَعْتُ الرَّجل، وأقدعتُه: إذا كففتُه، ومنه قول الحسن: اقدعوا هذه الأنفس، فإنَّها طُلَعَةٌ، وهو بالدال المهملة.

و(قوله: "إنها طعامُ طُعْم") أي: يُشبع منه، ويَردُّ الجوعَ. الرواية فيه: طعامُ طعم بالإضافة، والطعام: اسم لما يتطعَّم، فكأنه قال: طعامُ إشباع، أو طعام يُشبع، فأضافه إلى صفته، هذا على معنى ما قاله ابنُ شميل، فإنه قال: يُقال: إنَّ هذا لَطعامُ طُعم، أي: يُطعم من أكله، أي: يَشبعُ منه الإنسان، وما يُطعم أكلُ هذا الطعام، أي: ما يُشبع منه، غير انه قد قال الجوهري: الطُّعْمُ بالضم: الطعام، وبالفتح: ما يُشتهى منه. قال: قال أبو خراش:

أُرَدُّ شُجاعَ البَطن لَوْ تَعْلَمينَهُ ... ويُؤْثرُ غيري من عيالك بالطُّعْمِ
وأَغتَبِقُ الماءَ القَراحَ فأَنْتَهي ... إذا الزَّادُ أمْسى للْمُزَلَّج ذا طَعْمِ

قال: فأراد الأول الطَاعم وبالثاني ما يُشتهى.

وانطلقتُ معهما، ففتحَ أبو بكر باباً، فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف، فكان ذلك أوَّل طعام أكلتُه بها، ثم غَبَرْتُ ما غَبَرتُ، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فقال: "إنَّه قد وُجِّهَتْ لي أرضٌ ذاتُ نخل؛ لا أُراها إلا يثربَ؛ فهل أنت مُبلِّغٌ

قال الشيخ: وعلى هذا فلا يصحُّ الإضافلة من جهة المعنى؛ فإنه يكون كقولك: طعامُ طعام، ولا يصحُّ؛ لأنه إضافة الشيء إلى نفسه، وإنما يستقيمُ معنى الحديث على ما حكاه ابن شُميل، ويحصلُ من قولهما: أن طُعْماً تُستعمل بمعنى الاسم، كما قاله الجوهري، وبمعنى الصفة، كما قاله ابن شُميل. والله تعالى أعلم.

وقد روى أبو داود الطيالسي من حديث أبي ذرٍّ — رضي الله عنه — عن النبيِّ ﷺ في زمزم: "إنَّها مباركةٌ، وهي طعامُ طُعْمٍ، وشفاء سُقْمٍ" أي: طعام من جومع، وشفاءٌ من سُقم.

و(قوله في هذا الحديث: "إنها مباركة") أي: إنها تظهر بركتها على من صحَّ صدقه، وحسنت فيها نيته، كما قد روى العقيلي أبو جعفر من حديث أبي الزبير عن جابر: أن النبيَّ ﷺ قال: "ماءُ زمزم لما شُربَ له". فينبغي أن يتبرَّك بها، ويحسنَ النية في شربها، ويحمل من مائها، فقد روى الترمذي عن عائشة — رضي الله عنها -: أنها كانت تحملُ من ماء زمزم، وتخبرُ أنَّ رسول الله ﷺ كان يحملُه. قال: حديث حسن غريب.

و(قوله: ثم غَبَرْتُ ما غَبَرْتُ) أي: بقيت ما بقيت، وقد تقدَّم: أن غبر من الأضداد.

و(قوله: "وقد وُجِّهتُ إلى أرض ذات نخل") أي: ذُهبَ بي إلى تلك الجهة وأُريتها.

عنّي قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجُرَك فيهم؟". فأتيتُ أُنيساً فقال: ما صنعتَ؟ قلت: صنعتُ أنّي قد أسلمتُ وصدَّقْتُ. قال: ما بي رغبةٌ عن دينك، فإنّي قد أسلمتُ وصدَّقت، فأتينا أمَّنا، فقالت: ما بي رغبةٌ عن دينكما؛ فإنّي قد أسلمتُ وصدَّقتُ، فاحْتَمَلْنا حتى أتينا قومنا غفاراً، فأسلم نصفهُم، وكان يؤمُّهم إيماءُ بن رَحَضةَ الغفَاريُّ، وكان سيِّدُهم. وقال نِصْفُهم: إذا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة أسلمنا، فقدم رسولُ الله ﷺ المدينة، فأسلم نصفُهم الباقي. وجاءت أسلمُ، فقالوا: يا رسول الله! إخوتُنا نُسْلِمُ على الذي أسلَمُوا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: "غِفارُ غَفَرَ الله لها، وأسلَمُ سالمها الله".

و(قوله: "لا أُراها إلا يثرب") هذا كان اسم المدينة قديماً حتى قدمها النبيُّ ﷺ، فكره أن تُسمَّى يثربَ؛ لأنه: مأخوذ من التثريب، وهو اللَّوم والتقبيح، وسمَّاها (طابة)، وقد تقدَّم هذا في الحج، وأيماء بن رحضة يروى بفتح الهمزة وكسرها، ورحضة بفتح الحاء المهملة، والضاد المعجمة.

و(قوله: "غفار، غفرَ الله لها، وأسلم سالَمها الله") إنما دعا النبيُّ ﷺ لهاتين القبيلتين؛ لأنهما: أسلمتا طَوْعاً من غير قتال، ولا إكراه، ويُحتمل أن يكون ذلك خبراً عما فعلَ الله بهاتين القبيلتين من المغفرة، والمسالمة لهما. وكيف ما كان فقد حصلَ لهما: فخرُ السابق، وأجرُ اللاَّحق، وفيه مراعاة التجنيس في الألفاظ.

و(قوله: إنهم قد شَنِفُوا له، وتَجَهَّمُوا) أي: أبغضوه، وعبسوا في وجهه، والشَّنَفُ: البغض، ويُقال: رجل جهم الوجه: إذا كان غليظه منعقده؛ كأنه يعبس وجهَه لكلِّ أحد.

وفي رواية: قال: فتنافرا إلى رجل من الكُهَّان. قال: فلم يزل أخي أنيسٌ يمدَحُه حتى غلَبَهُ. قال:فأخذْنا صرْمتَه فضممناها إلى صرمَتنا، وفيها أيضا: قال: فجاء النبيُّ ﷺ فطاف بالبيت وصلَّى ركعتين خلفَ المَقام. وفيها بعد "بتحية الإسلام" قال: قلت: السلام عليك يا رسول الله ! قال: "وعليك السلام من أنت؟". وفيها: فقال أبو بكر: أتْحفني بضيافته الليلةَ.

وعن ابن عباس، قال: لما بلغ أبا ذرّ مبعثُ النَّبيّ ﷺ بمكة قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا لارجل؛ الذي يزعم: أنَّه يأتيه الخبرُ من السّماء، واسمع من قوله، ثم ائتني، فانطَلقَ الآخر حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيتهُ يأمرُ بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتَني فيما أردتُ، فتزوّد وحمل شنَّةٌ له، فيها ماءٌ. حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النبيَّ ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه – يعني الليل – فاضطجع فرَآه عليٌّ، فعرف أنه

و(قوله: فلم يزل أخي أنيس يمدحُه حتى غلبَه) كذا في رواية السَّجْزيّ وغيره، وهي واضحة، أي: لم يزل ينشدُ شعراً يقتضي المدحَ، حتى حكم له الكاهنُ بالغالبة على الآخر، وأنه أشعرُ منه، وكأن هذا الكاهن كان شاعراً فقضى بينهما بذلك، وفي رواية العذري: فلم يزل أخي أنيس يمدحه ويثني عليه مكان: حتى غلبه. قال: فأخذنا صرْمَتَه، فَصَمَمْناها إلى صرْمتنا، والرواية الأولى أولى؛ لأنها أفادت معنى مناسباً، به التأم الكلام بما بعده، وهو أنه إنما أخذ صرْمَته؛ لأنَّ الكاهن قضى له بالغلبة؛ ولأن قوله: ويثني عليه مكرر؛ لأنه قد فُهم ذلك من قوله: يمدحه، فحمْلُ الكلام على فائدة جديدة أولى. وإنما ذكر هذا المعنى لِيُبَيِّنَ: أن أخاه كان شاعراً مُفْلقاً مُجيداً، بحيث يُحكم له بغلبة الشعراء، ومن كان هكذا عُلمَ أنه عالم بالشعر وأنواعه. فلما كان كذلك وسمعَ القرآن علم

غريبٌ، فلما رآه تَبِعَهُ، فلم يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ثم احتمل قُرْبَتَه وزاده إلى المسجد، فظلَّ ذلك اليوم؛ ولا يرى النبيَّ ﷺ؛ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به عليٌّ. فقال: ما أنَى للرَّجل أن يعلم منزله؟ فأقامه، فذهب به معه، ولا يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء؛ حتى إذا كان يومُ الثالث فَعَل مثلَ ذلك، فأقامه عليٌّ معه، ثم قال له: ألا تُحدِّثُني؟ ما الذي أقدمَكَ هذا البلدَ؟ قال: إنْ أعطيتني عهداً وميثاقاً لتُرشدَنِّي فعلتُ، ففعل، فأخبره، فقال: فإنه حقٌّ، وإنَّه رسولُ الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتَّبعْني. فإنِّي إنْ رأيتُ شيئاً أخاف عليك قمتُ كأني أُريقُ الماء، فإنْ مضيتُ فاتَّبعني حتى تدخُل مَدْخلي، ففعل، فالنطلق يقفُوهُ، حتى دخل على النبيّ، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبيّ ﷺ: "ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري"، فقال: والذي نفسي بيده ! لأصرُخنَّ بها بين ظهرانيهم. فخرج، حتى أتى المسجد، فنادى

قطعاً: أنه ليس بشعر، ولذلك قال: لقد وضعتُه على أنواع الشعر فلم يلتئم، فكانت هذه شهادة بأنه ليس بشعر، ولا أنه ﷺ شاعرة، فكان ذلك تكذيباً لمن زعمَه من جهَّال الكفَّار، ومن المعاندين الفُجَّار.

قال الشيخ رحمه الله: وقد ظهرَ بين حديث عبد الله بن الصامت، وبين حديث عبد الله بن عباس تباعد واختلاف في موضع من حديث أبي ذرٍّ لقيَ النبيَّ ﷺ أوَّلَ ما لقيَه ليلاً، وهو يطوفُ بالكعبة، فأسلمَ إذ ذاك بعد أن أقام ثلاثين بينَ يوم وليلة، ولا زادَ له، وإنما اغتذى بماء زمزم. وفي حديث ابن عباس: إنه كان له قُربة وزاد، وأن عليّاً — رضي الله عنه — أضافَه ثلاث ليال، ثم أدخلَه على النبيّ ﷺ في بيته، فأسلمَ ، ثم خرجَ يصرخُ بكلمتيْ الإسلام. وكلُّ ذلك من السندين صحيح، فالله أعلم أيُّ

بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله. وثار القوم، فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العبَّاس فأكبَّ عليه، فقال: ويلَكُمْ ! ألستم تعلمون أنَّه من غفار، وأنَّ طريق تُجَّاركُم إلى الشام عليهم، فأنقذهم منهم، ثم عاد من الغد بمثلها، وثاروا إليه فضربوه، فأكبَّ عليه العباس فأنقذه.

باب فضائل جرير بن عبد الله – رضي الله عنه –

عن جرير قال: ما حَجَبني رسولُ الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا ضحِكَ.

المتنين الواقع، ويُحتمل أن يقال: إن أبا ذر لما لقي النبي ﷺ حول الكعبة وأسلم، لم يعلم به إذ ذاك عليٌّ؛ إذ لم يكن معه، ثم إن أبا ذر بقي مستقراً بحاله، إلى أن استتبعه عليٌّ ثم أدخله على النبي ﷺ فجدَّد إسلامَه، فظنَّ الراوي: أن ذلك أوَّلَ إسلامه، وفي هذا الاحتمال بدٌّ، والله أعلم بحقيقة ذلك. ولم أر من الشارحين لهذا الحديث من يُنبِّه لهذا التعارض، ولا لهذا التأويل.

ومن باب: فضائل جرير بن عبد الله البُجلي – رضي الله عنه –

وبجيلة من ولد أنمار بن نزار بن معدّ بن عدنان. واختلف في بجيلة؛ هل هو أب، أو أمٌّ نُسبت القبيلةُ إليها. وجرير هذا: هو سيّدُ بجيلة، ويُكنى: أبا عمرو، وقال له عمر – رضي الله عنه –: ما زلتَ سيداً في الجاهلية والإسلام، وقال فيه رسولُ الله ﷺ حين أقبل وافداً: "يطلعُ عليكم خيرُ ذي يمنٍ، كأنَّ على وجهه مسحةُ مَلَك" فطلع جرير. وكان عمر بن

وفي رواية: إلاَّ تبسَّم في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبُتُ على الخيل؛ فضرب بيده في صدري وقال: "اللهم! ثبّته، واجعله هَادياً مهديّا".

الخطاب – رضي الله عنه – يقول فيه: جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمَّة، وفيه قال رسولُ الله ﷺ: "إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه". أسلم قبل موت النبيِّ ﷺ بأربعين يوماً، نزل جرير الكوفة بعد موت النبيِّ ﷺ واتَّخذ بها داراً، ثم تحوَّل إلى قرقيسيا، ومات بها سنة أربع وخمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: مات بالسَّراة في ولاية الضحَّاك بن قيس على الكوفة لمعاوية. روى عن رسول الله ﷺ مئة حديث، أخرج له في الصحيحين خمسة عشر حديثاً.

و(قوله: ما حجبني رسولُ الله ﷺ منذ أسلمت) يعني: أنه ﷺ ما كان يحتجبُ منه، بل بنفس ما يعلم النبيُّ ﷺ باستئذانه ترك كلَّ ما يكون فيه، وأذن له، مبادراً لذلك مبالغةً في إكرامه، ولا يفهم من هذا أن جريراً كان يدخلُ على النبيِّ ﷺ بيته من غير إذن؛ فإن ذلك لا يصحُّ لحرمة بيت النبيِّ ﷺ ولما يقضي ذلك إليه من الاطلاع على ما لا يجوز، من عورات البيوت.

و(قوله: ولا رآني إلا ضحك في وجهي) هذا منه ﷺ فَرَح به، وبشاشة للقائه، وإعجابٌ برؤيته؛ فإنه كان من كملة الرجال خَلْقاً، وخُلُقاً.

و(قوله: وكنت لا أثبتُ على الخيل) يعني: أنه كان يسقط، أو يخاف السُّقوط من على ظهورها حالةَ إجرائها، فدعا له النبيُّ ﷺ بأكثر مما طلب بالثبوت مطلقاً، وبأن يجعله هادياً لغيره ومهدياً في نفسه. فكان كلُّ ذلك، وظهر عليه جميعُ ما دعا له به، وأوَّل ذلك: أنه نفر في خمسين ومئة

وعنه؛ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: "يا جريرُ ! ألا تُريحُني من ذي الخَلَصَة؟ - بيت لخثعم كان يدعى كعبة اليمانية -، وفي رواية: الكعبة الشَّاميَّة". قال: فنفرتُ في خمسين ومئة فارس، وكنتُ لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضرب يده في صدري فقال: "اللهم ثبِّتْه، واجعله هاديا مهدياً". قال: فانطلق فحرَّقَها بالنَّار، ثم بعث جريرٌ إلى رسول الله ﷺ رجلاً يُبشِّره. يُكْنَى أبا أرْطاةَ، منَّا — فأتى رسولَ الله ﷺ فقال له: ما جئتُك حتى تَركْناها كأنَّها جَمَلٌ أجْرَبُ، فبرَّك رسولُ الله ﷺ على خيل أحْمَسَ ورجالِها — خمس مرّات -.

وفي أخرى: قال: فدعا لنا ولأَحْمَسَ.

باب فضائل عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر

عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ أتى الخلاء، فوضعتُ له وضُوءاً، فلمَّا

فارس لذي الخلصة فحرقها وعمل فيها عملاً لا يعمله خمسةُ آلاف، وبعثه رسولُ الله ﷺ لذي الكلاع، وذي رُعَيْن، وله المقامات المشهورة. وذو الخَلَصة — بفتح اللام -: بيت بَنَتْه خثعم تعظمه، وتطوف به، وتنحر عنده، تشبهه ببيت مكة، وتسمّيه الكعبة اليمانية والشامية، وقد كانت العرب فعلت مثلَ هذا بيوتاً كثيرة، قد تقدَّم ذكرها، فأمر النبيُّ ﷺ بهدمها كلِّها، وتحريقها، فكان ذلك، ومحا الله الباطل، وأحقَّ الحقَّ بكلماته.

ومن باب: فضائل عبد الله بن عباس — رضي الله عنهما —

ابن عبد المطلب بن هاشم، يُكنى: أبا العباس. وُلد بالشِّعب. وبنو هاشم محصورون فيه، قبل خروجهم منه بيسير، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، واختلف في سنِّه، وقت موت النبي، فقيل: عشر سنين، وقيل: خمس عشرة، رواه سعيد بن جُبير عنه، وقيل: كان ابنَ ثلاث عشرة سنة،

خرج قال: "مَنْ وضع هذا؟" قالوا: ابن عباسٍ. قال: "اللهمَّ فقِّهْه".

وقال ابن عباس: إنه كان في حَجَّة الوداع قد ناهز الاحتلام، ومات عبدُ الله بالطائف سنة ثمان وستين في أيام ابن الزبير؛ لأنه أخرجه من مكة، وتوفي ابنُ عباس وهو ابنُ سبعين سنة، وقيل: ابن إحدى وسبعين، وقيل: ابن أربع وسبعين، وصلى عليه محمد ابن الحنفية، وقال: اليوم مات رباني هذه الأمَّة، وضَرَب على قبره فسطاطاً، ويروى عن مجاهد عنه أنه قال: رأيتُ جبريلَ عند النبيّ ﷺ مرَّتين، ودعا لي رسول الله ﷺ بالحكمة مرتين، وقال ابنُ مسعود — رضي الله عنه — فيه: نعْمَ ترجمانُ القرآن ابنُ عباس، وكان عمر — رضي الله عنه — يقول: فتى الكهول، لسانٌ سؤول، وقلبٌ عقول. وقال مسروق: كنتُ إذا رأيتُ ابنَ عباس قلت: أجمل الناس. وإذا تكلَّم قلت: أفصح الناس، وإذا تحدَّث قلت: أعلم الناس، وكان يسمى البحر: لغزارة علمه، والحبر: لاتساع حفظه، ونفوذ فهمه، وكان عمر — رضي الله عنه — يقرِّبه، ويُدنيه لجودة فهمه، وحسن تأتِّه، وجملة ما روى عن رسول الله ﷺ ألف حديث وستمئة وستين، أخرج له في الصحيحين مئتا حديث وثلاثون حديثاً.

و(قوله ﷺ: "اللهم فقهه") هنا انتهى حديثُ مسلم، وقال البخاري: "اللهم فقِّهه في الدين"، وفي رواية قال: ضمني رسولُ الله ﷺ وقال: "اللهم علمه الكتاب"، قال أبو عمر: وفي بعض الروايات: "اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل". قال: وفي حديث آخر: "اللهم بارك فيه وانشر منه، واجعله من عبادك الصالحين"، وفي حديث آخر: "اللهم زِدْه عِلْماً وفِقْهاً". قال: وكلها حديث صحيح.

قال الشيخ رحمه الله: وقد ظهرتْ عليه بركاتُ هذه الدَّعوات، فاشتهرت علومه وفضائله، وعمَّت خيراتُه وفواضله، فارتحل طلابُ العلم إليه، وازدحموا عليه، ورجعوا عند اختلافهم لقوله، وعوّلوا على نظره ورأيه. قال يزيد بن الأصم: خرج معاوية حاجاً معه ابن عباس فكان لمعاوية

.....

لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممَّن يطلبُ العلم. وقال عمرو بن دينار: ما رأيتُ مجلساً أجمعَ لكل خيرٍ من مجلس ابن عباس، الحلال، والحرام، والعربية، الأنساب، الشعر. وقال عبيد الله بن عبد الله: ما رأيت أحداً كان أعلم بالسنة ولا أجلّ رأياً، ولا أثقب نظراً من ابن عباس — رضي الله عنه -. ولقد كان عمر — رضي الله عنه — يعدّه للمعضلات مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين، وكان قد عمي في آخر عمره، فأنشد في ذلك:

إن يأخذ الله منْ عينيَّ نُورَهُمـــا ... فَفِي لِساني وقَلْبي منْهُما نُورُ
قَلْبي ذَكِيٌّ وعَقلي غيرُ ذي دَخَلٍ ... وفي فَمي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُورُ

وروي أبيض خرج من قبره، فتأوَّلوه: علمه خرج إلى الناس، ويقال: بل دخل قبرَه طائرٌ أبيض، فقيل: أنه بصره في التأويل، وقال أبو الزبير: مات ابنُ عباس بالطائف، فجاء طائرٌ أبيض فدخل في نعشه حين حُمل، فما رُؤي خارجاً منه، وفضائله أكثر من أن تحصى.

وأما عبد الله بن عمر بن الخطاب — رضي الله عنهما -، ويكنى: أبا عبد الرحمن، فإنه أسلم صغيراً لم يبلغ الحلم مع أبيه، وهاجر إلى المدينة قبل أبيه، وأول مشاهده: الخندق. لم يشهد بدرا، ولا أُحُداً لصغره؛ فإنه عُرض على رسول الله ﷺ يوم أحُد، وهو ابنُ أربع عشرة سنة فلم يجزه، وأجازه يوم الخندق، وهذا هو الصحيح إن شاء الله تعالى، وشهد الحديبية، وبايع رسولَ الله ﷺ وقيل: إنه أولُ من بايع، وكان من أهل العلم والورع، وكان كثير الاتِّباع لرسول الله ﷺ شديد التحري والاَحتياط، والتوقي في فتواه، وكان لا يتخلَّفُ عن السرايا على عهد رسول الله ﷺ. ثم كان بعد موته ﷺ مُولَعاً بالحجِّ، وكان من أعلم النَّاس بمناسكه،، وكان قد أشكلتْ عليه حروبُ عليّ لورعه، فعقدَ عنه، وندم على ذلك حين حضرته الوفاة، روي عنه من أوجهٍ أنه قال: ما أسفي على شيءٍ فاتني إلا

وعن ابن عمر، قال: رأيتُ في المنام كأنَّ في يدي قطعة إستبرق، وليس مكانٌ أريد من الجنة إلا طارت إليه. قال: فقصصتُه على حفصةَ، فقصَّتْهُ على النبيِّ ﷺ. فقال النَّبيَّ ﷺ: "أرى عبد الله رجلاً صالحاً".

تركي لقتال الفئة الباغية مع عليِّ بن أبي طالب — رضي الله عنه -. وقال جابر بن عبد الله — رضي الله عنهما -: ما منا أحد إلا مالت له الدنيا، ومال إلها ما خلا عمر وابنه عبد الله. وقال ميمون بن مهران: ما رأينا أورع من ابن عمر، ولا أعلم من ابن عباس. وروي ابن وهب عن مالك قال: بلغ عبد الله بن عمر ستاً وثمانين سنة، وأفتى في الإسلام ستين سنة، ونشر نافعٌ عنه علماً جمّاً، وروى ابنُ الماجشون: أن مروان بن الحكم دخل في نفر على عبد الله بن عمر بعدما قُتل عثمان — رضي الله عنه — فعزموا عليه أن يبايعوه. قال: كيف لي بالناس؟ قال: تقاتلهم، فقال: والله ! لو اجتمع عليَّ أهل الأرض إلا أهل فدك، ما قاتلتهم، قال: فخرجوا من عنده ومروان يقول:

إنِّي أَرَى فِتْنَةً تَغْلي مَرَاجِلُهـــا والمُلكُ بَعْدَ أبِي لَيْلى[1] لِمَنْ غَلَبا

مات ابنُ عمر بمكة سنة ثلاث وسبعين، وذلك بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر، أو نحوها، وقيل: ستة أشهر، ودُفن بذي طوى في مقبرة المهاجرين، وكان سببُ موته: أن الحجاجَ أمرَ رجلاً فسمَّ زُجَّ رمحه فزحمه، فوضع الزّجّ في ظهر قدمه، فمرض منها فمات — رحمه الله — حكاه أبو عمر، وجملة ما رو ى عن رسول الله ﷺ ألفا حديث، وستمئة وثلاثون حديثاً، أخرج له منها في الصحيحين مئة حديث وثمانون.

و(قوله: رأيت في المنام كأنَّ في يدي قطعة إستبرق) قد تقدَّم الكلامُ أن الإستبرق: ما غلظ من الدِّيباج، وكأن هذه القطعةَ مثالٌ لعمل صالحٍ يعمله يتقرَّبُ به إلى الله تعالى، ويقدِّمه بين يديه: يرشده ثوابه إلى أي موضع

---

(1)– "أبو ليلى": هو معاوية بن يزيد بن معاوية. تاريخ الطبري (جزء 5، صفحة 500).

وعنه؛ قال: كان الرَّجلُ في حياة رسول الله ﷺ، إذا رأى رؤيا، قصَّها على رسول الله ﷺ، فتمنَّيتُ أن أرى رؤيا أقصُّها على النبيّ ﷺ. قال: وكنت غلاماً شاباً عزَباً، وكنتُ أنامُ في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النَّوم كأنّ ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النّار، فإذا هي مطويَّةٌ كطيّ البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناسٌ قد عرفتُهُم، فجعلتُ أقول: أعوذ بالله من النَّار ! أعوذ بالله من النّار ! أعوذ بالله من النار ! قال: فلقيهما مَلَكٌ فقال لي: لَمْ تُرَعْ، فقصصتُها على حفصة، فقصّتها حفصة على رسول الله ﷺ. فقال النبيُّ ﷺ: "نعم الرَّجل عبدُ الله لو كان يَقُومُ من الليل". فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

شاء من الجنة، ولذلك قال له النبيُّ ﷺ: "أرى عبدَ الله رجلاً صالحاً" وهذه شهادةٌ من النبيِّ لعبد الله بالصّلاح. ووجدتُ بخطِّ شيخنا أبي الصبر أيوب مقيداً: أرى — بفتح الراءِ والهمزة — فيكون مبنياً للفاعل، ويكون من رؤية القلب، فيكون علماً. ويجوزُ أن يكون همزتُه مضمومةً، فتكون ظنّاً صادقاً؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ معصومٌ في ظنِّه كما هو في علمه.

و(قوله: وكنت شاباً عَزَباً أنامُ في المسجد) دليلٌ على جواز النوم في المسجد لمن احتاجَ إلى ذلك. والقرنان: منارتان تُبنيان على جانبي البئر، يُجعل عليها الخشبة التي تعلق عليها البكرة. والبئر: المطوية بالحجارة، وهي الرسُّ أيضاً، فإن لم تُطْو: فهي القليبُ والركي. ولم ترع: أي لم تفزع، والروع: الفزع، وإنما فهم النبيَّ من رؤية عبد الله للنار، أنه ممدوح؛ لأنّه عُرض على النار، ثم عوفي منها، وقيل له: لا روع عليك، وهذا إنما هو لصلاحه، وما هو عليه من الخير، غير أنه لم يكن يقومُ من الليل، إذ لو كان ذلك ما عُرض على النار ولا رآها، ثم: إنه حصل لعبد الله — رضي الله عنه — من تلك الرؤية يقينُ مشاهدة النار والاحتراز منها، والتنبيه على أن قيامَ الليل ممَّا يُتَّقى به النار، ولذلك لم يتركْ قيامَ الليل بعد ذلك — رضي الله عنه —.

* * *

باب فضائل أنس بن مالك

عن أمِّ سُليم: أنَّها قالت: يا رسول الله ! خادمُك أنس؛ ادعُ الله له ! فقال: "اللهم أكثر ماله وولده، وباركْ له فيما أعطيته".

ومن باب:فضائل أنس بن مالك بن النضر – رضي الله عنه –

ابن ضمضم بن زيد النّجاري، خادم رسول الله ﷺ يُكنه: أبا حمزة، يُروى عنه أنه قال: كنَّاني رسولُ الله ﷺ ببقلة كنت أجتنيها. وأمه: أم سليم بنت ملحان. كان سنُّ أنس لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة عشرَ سنين، وقيل: ثماني سنين، وتوفي رسولُ الله ﷺ وأنسٌ ابن عشرين سنة، وشهد بدراً، وتوفي في قصره بالطفّ على فرسخين من البصرة سنة إحدى وتسعين، وقيل: ثلاث وتسعين، وقيل: سنة اثنتين وتسعين، قال أبو عمر: وهو آخر من مات بالبصرة من أصحاب رسول الله ﷺ وما أعلم أحداً فمن مات بعده ممن رأى رسولَ الله ﷺ إلا أبا الطفيل. واختلف في سنِّ أنس يوم توفي، فقيل: مئة سنة إلا سنة واحدة، وقيل: أنه ولد له ثمانون ولداً؛ منهم: ثمانية وسبعون ذكراً وابنتان، وتوفي قبله من ولده لصلبه وولد ولده نحو المئة؛ وكلٌّ ذلك من تعميره وكثرة نسله ببركة دعوة النبيِّ ﷺ كما يأتي في الأم، وجملة ما روى عن رسول الله ﷺ من الحديث: ألفا حديث ومئتا حديث، وستة وثمانون حديثا، أخرج له في الصَّحيحين ثلاثمئة حديث، وثمانية عشر حديثا.

وعن أنس، قال: جاءت بي أمِّي: أمُّ أنس إلى رسول الله ﷺ، وقد أزَّرَتْني بنصف خمارها وردَّتني بنصفه، فقالت: يا رسول الله ! هذا أُنيس، ابني؛ أتيت به يخدُمك؛ فادعُ الله له، فقال: "اللهمّ أكثر ماله وولده". قال أنس: فوالله غنَّ مالي لكثيرٌ، وإنَّ ولدي وولد ولدي ليتعَادُّون على نحو المئة اليومَ.

وفي رواية: فدعا لي ثلاث دعوات. قد رأيت منها اثنتين في الدنيا، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة.

وفي الصحابة رجلٌ آخر اسمه أنس بن مالك، ويُكْنى: أبا أمية القشيري، وقيل: الكعبي، وكعب أخو قشير، ولم يسندْ عن النبيّ ﷺ سوى قوله: "إن الله وضع عن المسافر الصومَ وشطر الصلاة" وقيل" روى ثلاثة أحاديث لم يقعْ له في الصَّحيحين شيء.

و(قوله ﷺ: "اللهم أكثرْ مالَه وولده") يدلُّ على إباحة الاستكثار من المال، والولد، والعيال، لكن إذا لم يشغلْ ذلك عن الله تعالى، ولا عن القيام بحقوقه، لكن: لما كانت سلامةُ الدين مع ذلك بادرة،والفتن والآفات غالية، تعيَّن التقلُّلُ من ذلك الفرار مما هنالك، ولولا دعوةُ النبيِّ ﷺ لأنس — رضي الله عنه — بالبركة لَخيفَ عليه من الإكثار الهلكة، ألاَ ترى: أن الله تعالى قد حذَّرنا من آفاق الأموال، والأولاد، ونبَّه على المفاسد الناشئة من ذلك فقال: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1]، وصدَّر الكلامَ بإنما الحاصرة المحققة، فكأنه قال: لا تكون الأموالُ والأولادُ إلاّ فتنة، يعني: في الغالب. ثم قال بعد[2] ذلك: ﴿يَاأَيُّها الّذينَ ءَامَنُوا إنَّ منْ أَزْوَجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[3]، ووجهُ عداوتهما: أن

---

[1]— سورة الأنفال، الآية 28.

[2]— كذا في الأصول، والصحيح أن هذه الآية قبل تلك التي ذكرها أولاً.

[3]— سورة التغابن، الآية 14.

وعن أنسٍ، قال: أتى عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغِلْمان. قال: فسلَّم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أُمِّي، فلما جئتُ قالت: ما حسبك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة ! قالت: ما حاجته؟ قلتُ: إنها سرٌّ. حَدَّثتُ به أحداً لحدثتُك به يا ثابت !.

محبَّتهما موجبةٌ لانصراف القلوب إليها، والسعي في تحصيل أغراضهما، واشتغالهما بما غلب عليهما من ذلك عما يجبُ عليهما من حقوق الله تعالى، ومع غلبة ذلك تذهبُ الأديان، ويعمُّ الخسران، فأيُّ عداوةٍ أعظمُ من عداوة ممن يدمِّر دينك هذا الدمار، ويورثك عقوبة النار؟ ! ولذلك قال تعالى: وهو أصدق القائلين: ﴿يَأَيُّها الَّذين ءَامنُوا لاَ تُلْهكُمْ أَمْلَكُكُمْ وَلآ أَوْلَدُكُمْ عن ذكْر الله ومَن يَفْعَل ذَلكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الخَسرُونَ﴾[2]، وقال أربابُ القلوب والفهوم: ما يشغلك من أهلٍ ومالٍ، فهو عليك مشؤوم.

و(قول أنس – رضي الله عنه –: أتى عليَّ رسولُ الله ﷺ وأنا ألعبُ مع الغلمان) دليلٌ على: تخلية الصِّغار ودواعيهم من اللعب والانبساط، ولا نُضيِّق عليهم بالمنع ممَّا لا مفسدةً فيه.

و(قوله: فسلمَّ علينا) فيه دليلٌ: على مشروعية السَّلام على الصِّبيان، وفائدته: تعليمهم السلام، وتمرينهم على فِعْله، وإفشاؤه في الصِّغار كما يُفْشى في الكبار. وكتمانُ أنس سرَّ رسولَ الله عن أمه دليلٌ: على كمال عقله، وفضله، وعلمه مع صغر سِنِّه، وذلك فضْلُ الله يُؤتيه من يشاء.

---

[2]– سورة المنافقون، الآية 9.

باب فضائل عبد الله بن سلاَم

عن سعد بن أبي وقَّاص قال: ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لحَيٍّ يمشي: إنَّه في الجنة، إلا لعبدِ اللَّه بن سلامٍ.

عن خَرشة بن الحرَّة قال: كنتُ جالساً في حَلَقة في مسجد المدينة. قال: وفيها شيخٌ حسنُ الهيئة، وهو عبدُ الله بنُ سلام. قال: فجعل يحدِّثُهم حديثاً حسناً. قال: فلمَّا قام؛ قال القوم: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنَّة فلينظرْ إلى هذا ! قال: فقلتُ: والله ! لأَتْبَعنَّه فلأعلمنَّ مكان بيته ! قال: فتَبعْتُه، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله. قال: فاستأذنتُ عليه فإذنَ لي، فقال: ما حاجَتُك يا بن أخي؟ قال: فقلت له: سمعتُ القوم يقولون لك لَّما قمْتَ: من سرَّه أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنَّة فلينظرْ إلى هذا، فأعجبني أن أكونَ معك ! قال: الله أعلمُ بأهل الجنَّة، وسأحدثك ممَّ قالوا ذلك: إنِّي بينما أنا نائم إذ أتاني رجلٌ فقال لي: قُمْ، فأخذ بيدي، فانطلقتُ معه. قال: فإذا أنا بِجَوادَّ عن شِمَالي.

ومن باب: فضائل عبد الله بن سلام

ابن الحارث الإسرائيليِّ ثم الأنصاري، وهو من ولد يوسف بن يعقوب، وكان اسمُه في الجاهلية: الحصين، فسمّاه رسولُ الله ﷺ عبد الله: وتوفِّي في خلافة معاوية سنة ثلاث وأربعين، أسلم إذ قدم النبيُّ ﷺ المدينة، وجملة ما روى عن رسول الله ﷺ خمسة وعشرون حديثاً. أخرج له في الصَّحيحين حديثان، وقد تقدم اختلافُ اللغويين في: حَلَقة؛ هل يقال بسكون اللام، أو بفتحها.

و(قوله: فإذا جوادُّ منهجٌ) الجوادُّ: جمع جادة مشدّد الدال؛ وهي: الطريق، ومنهج مرفوع على الصفة، أي" جوادُّ ذوات منهج، أي: استقامة

قال: فأخذتُ لآخذ فها؛ فقال لي: لا تأخذْ فيها فإنَّها طُرُقُ أصحاب الشِّمال. قال: فإذا جَواد منهجٌ عن يميني. فقال لي: خذ ها هنا، قال: فأتى جبلاً، فقال لي: اصعَدْ. قال: فجعلتُ إذا أردتُ أن أصعد خررتُ على إسْتي. قال: حتى فعلتُ ذلك مراراً. قال: ثم انطلق بي حتى أتى بي عموداً؛ رأسُه في السماء وأسفلُه في الأرض، وفي أعلاه حَلْقَةٌ، فقال لي: اصعدْ فوق هذا. قال: قلتُ: كيف أصعد هذا ورأسه في السماء؟ قال: فأخذ بيدي فزجل بي، قال: فإذا أنا متعلقٌ بالحَلْقة، فضرَب العمودَ فخرَّ قال: وبقيت متعلقاً بالحَلْقة حتى أصبحتُ فأتيتُ النبيَّ ﷺ، فقصصتها عليه، فقال: "أما الطُّرق التي رأيتَ عن يسارك فهي طرقُ أصحاب الشمال"، قال:

ووضوح، والمنهج: الطريق الواضح، وكذلك: المنهاج، والنهج، وأنهج الطريق: أي استبان ووضح، ونهجته أنا: أوضحته، ويقال أيضاً: نهجت الطريقَ إذا سلكته.

و(قوله: فزجلَ بي) تُروى بالجيم، وبالحاء المهملة، فبالجيم: معناه: رمى: يقال: لعن الله أمَّا زجلت به، والوجل: إرسال الحمام، والمزجل: المزراق[1]؛ لأنه يُرمى به، فأما زحل، فمعناه تنحَّى وتباعد. يقال: زحل عن مكانه حولاً، وتزحَّل: تنحَّى وتباعد، فهو زَحِلٌ، وزحيل. ورواية الجيم أولى، وأوضح. والعروة: الشيء المتعلَّق به حبلاً كان أو غيره. ومنه: عروة القميص والدلو، وقال بعضُهم: أصلُه من عروته: إذا المممت به متعلّقاً، واعتراه الهمُّ. تعلَّق به، وقيل: من العروة: وهي شجرةٌ تبقى على الجدب، سُمِّيت بذلك؛ لأن الإبلَ تتعلَّقُ بها إلى زمان الخصب، وتجمع العروة: عُرى. والوثقى: الوثيقة، أي: القوية التي لا انقطاعَ فيها، ولا ضعف، وقد أضاف العروةَ هنا إلى صفتها فقال: عروة الوثقى، كما قالوا:

---

[1]- "المزراق": الرمح القصير.

"وأما الطُّرق التي رأيتَ عن يمنك فهي طرقُ أصحاب اليمين، وأمَّا الجبل فهو منزل الشهداء، ولن تناله، وأمَّا العمود فهو عمودُ الإسلام، وأما العُروة فهي عروةُ الإسلام، ولن تزال متمسِّكاً بها حتَّى تموت".

وذكر أيضا من حديث قيس من عبادة نحوه، وهذا أتمُّ إلا أنَّ في حديث قيس قال: رأيتني في روضة. وذكر سعتها، وعشبها، وخضرتها، ووسطَ الروضة عمودٌ من حديد أسفلُه في الأرض، وأعلاه في السَّماء، وفي أعلاه عروةٌ فقيل لي: أرْقه ! فقلت: لا أستطيع ! فجاءني مِنْصفٌ — قال ابن عون: والمنصف: الخادم — فقال بثيابي من خلفي — وصف أنَّه رفعه من خلفه بيده — فرقِيْتُ حتى كنت في أعلى العمود، فأخذتُ بالعروة، فقيل لي: استمسكْ، فقد استيقظتُ وإنَّها لفي يدي فقصصتها على النبيِّ ﷺ فقال: "تلك الروضةُ: الإسلامُ، وذلك العمودُ عمودُ الإسلام، وتلك العروةُ عروةُ الوثقى فأنت على الإسلام حتى تموت".

مسجد الجامع، وصلاة الأولى. وإخباره ﷺ عن عبد الله أنه لا ينالُ الشهادة، وأنه لا يزالُ على الإسلام حتى يموت، خبران عن غيب، وقعا على نحو ما أخبر؛ فإن عبد الله مات بالمدينة ملازماً للأحوال المستقيمة، فكان ذلك من دلائل صدْق رسول الله ﷺ. والنضرة[1] — بالضاد المعجمة —: النعمة، وقد تقدم، ووَسط: رويناه بفتح السين وسكونها، وقد تقدَّم أنَّ الفتح للاسم،، والسكون للظرف، وكلُّ موضع صلح فيه: (بين)، فهو وسْط بالسكون، وإن لم يصلح فيه، فهو بالتحريك. قال الجوهري: وربما سُكِّن. وليس بالوجه. (ورَقيت) — بكسر القاف — في الماضي، وفتحها في المضارع، بمعنى صَعدت وارتفعت. فأما رقَيت — بفتح القاف — فهو من الرُّقية. والمِنْصف — بكسر الميم —: الخادم، قاله ابنُ عون. وقال الأصمعي: والجَمع مناصف.

---

[1]- لعلها تحريف لكلمة الخضر له الواردة في الحديث (وخضرتها).

باب فضائل حسان بن ثابت

عن أبي هريرة: أنَّ عمر مرَّ بحسانَ وهو يُنْشد الشعر في المسجد، فلحَظ إليه، فقال: قد كنت أُنْشِد وفيه من هو خيرٌ منك ! ثم التفت إلى

ومن باب: فضائل حسان بن ثابت – رضي الله عنه –

ابن المنذر بن عمرو بن النجار الأنصاري، يُكنى: أبا الوليد، وقيل: أبا عبد الرحمن، وقيل: أبا الحسام. ويقال له: شاعر رسول الله ﷺ. روي عن عائشة – رضي الله عنها –: أنها وصفتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: كان والله كما قال شاعرُه حسان بن ثابت:

متى يبْدُ في الدَّاجي البَهيم جَبينُهُ يَلُحْ مثْلَ مصْباحِ الدُّجى المُتَوَقِّد
فَمَنْ كَانَ أوْ مَنْ قَدْ يَكُونُ كَأَحْمَد نظامٌ لحَقٍّ أوْ نَكالٌ لمُلْحِد

قال أبو عبيد: فَضَل حسانُ الشعَراءَ بثلاث: كان شاعرَ الأنصارَ في الجاهلية، وشاعرَ النَّبيِّ في النبوّة، وشاعرَ اليمن كلِّها في الإسلام. وقال أيضاً: أجمعت العربُ على: أنَّ أشعرَ أهل المدر: حسان بن ثابت. وقال أبو عبيد، وأبو عمرو بن العلاء: حسان أشعر أهل الحضر. وقال الأصمعي: حسان أحدُ فحول الشعراء، فقال له أبو حاتم: تأتي له أشعارٌ ليّنة ! فقال الأصمعي: نُسبت له وليست له، ولا تصح عنه. ورُوي عنه أنه قال: الشعر نَكدٌ يقوى في الشر ويسهلُ، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسَّان فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط. وقيل لحسان: لان شعْرُكَ، أو هَرِمَ شعرُك في الإسلام يا أبا الحسام ! فقال: إن الإسلامَ يحجزُ عن الكذب، يعني: أن الشعر لا يجوِّده إلا الإفراطُ والتزيُّن في الكذب، والإسلامُ قد منع ذلك، فقلَّ ما يَجُود شعْرُ من يتقي الكذب. وتوفي حسان قبل الأربعين في خلافة عليٍّ – رضيَ الله عنهما – وقيل: سنة أربع وخمسين، ولم يختلفوا أنه عاش مئة وعشرين سنة، منها: ستون

أبي هريرة فقال: أَنْشُدُك الله ! أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول: "أَجبْ عنِّي، اللهم أيِّده بروح القُدُسِ؟ !" قال: اللهم ! نعم.

في الجاهلية، وستون في الإسلام، وكذلك عاش أبوه وجَدُّه، وأدرك النابغة الذبياني والأعشى، وأنشدهما من شعره، فكلاهما استجاد شعره، وقال: إنك شاعر.

و(قوله: إنَّ عمر مرَّ بحسان وهو ينشدُ الشّعرَ في المسجد، فلحظ إليه) أي: أومأ إليه بعينيه: أن اسكت، وهذا يدلُّ على أن عمر — رضي الله عنه — كان يكرهُ إنشادَ الشعر في المسجد، وكان قد بنى رحبة خارج المسجد، وقال: من أراد أن يلغط أو ينشد شعراً فليخرجْ إلى هذه الرحبة. وقد اختلف في ذلك، فمن مانع مطلقاً، ومن مُجيزٍ مطلقاً، أولى التفصيل. وهو أن يُنْظَر إلى الشعر، فإن كان ممَّا يقتضي الثناءَ على الله تعالى أو على رسوله ﷺ أو الذَّبَّ عنهما، كما كان شعر حسان، أو يتضمن الحضَّ على الخير، فهو حسن في المساجد وغيرها، وما لم يكن كذلك لم يجز؛ لأن الشعرَ في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب، والتَّزيين بالباطل، ولو سلم من ذلك فأقلُّ ما فيه: اللغو، والهذر، والمساجدُ منزَّهةٌ عن ذلك، لقوله تعالى: ﴿في بُيُوتٍ أَذنَ الله أَن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ﴾[1]، ولقوله ﷺ: "إنَّ هذه المساجدَ لا يَصلَحُ فيها شيءٌ من كلامَ الناس، إنما هي لذكر الله، والصَّلاة، وقراءة القرآن" وقد تقدَّم هذا المعنى.

و(قوله ﷺ لحسان: "أجب عني، اللهم أيّده بروح القدس") إنما قال النبيُّ ﷺ ذلك؛ لأنَّ نفراً من قريش كانوا يهجون النبيَّ ﷺ وأصحابه، منهم: عبد الله بن الزِّبْعري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب، وقيل لعليٍّ: اهجُ عنا القوم الذين

---

(1)– سورة النور، الآية 36.

وعن البراء بن عازب، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: "اهْجُهُم – أو: هَجِّهِمْ – وجبريلُ معك".

وعن مسروق، قال: دخلت على عائشة وعندها حسانُ بنُ ثابتٍ يُنْشِدُها شعراً يشبِّب بأبيات له؛ فقال:

حَصانٌ رَزَانٌ مـــا تُزَنُّ بِرِيْبَـــةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحُومِ الغوافِلِ

يهجُونا، فقال: إن أذنَ لي رسولُ الله ﷺ فعلتُ، فأعلم بذلك رسول الله ﷺ: "إنَّ علياً ليس عنده ما يُراد من ذلك"، ثم قال: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسولَ الله أن ينصروه بألسنتهم؟". فقال حسان: أنا لها؟ وأخذ طرف لسانه، وقال: والله ما يسرُّني به مِقْولٌ ما بين بصري وصنعاء.

وكان طويلَ اللسان، يضربُ بلسانه أرنبةَ أنفه، وكان له ناصيةٌ يسدلها بين عينيه، فقال رسولُ الله ﷺ: "كيف تهجوهم وأنا منهم؟ وكيف تهجو أبا سفيان، وهو ابنُ عمي؟"، فقال: والله لأسُلَّنَّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين. فقال: "ائت أبا بكر؛ فإنه أعلمُ بأنساب القوم منك". فكان يمضي لأبي بكر ليقفَهُ على أنسابهم، وكان يقول: كفَّ عن فلان وفلانة، واذكر فلاناً، وفلانة. فجعل حسان يهجوهم، فلما سمعتْ قريشٌ شعرَ حسان قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عنه ابنُ أبي قحافة. فقال حسان:

أَبْلِغْ أبا سُفْيـــانَ أنَّ مُحَمَّداً ... هُوَ الغُصْنُ ذُوا الأفْنَان لا الوَاحدُ الوَغْدُ
ومَالَكَ فيهمْ مَحْتـــدٌ يَعْرِفُونَهُ ... فَدُونَكَ فَالْصَقْ مثـــلَ مَا لَصقَ القَرْدُ
وإن سَنامَ المَجـــدِ في آلِ هَاشِمٍ ... بَنُو بِنْت مَخـــزُومٍ وَوَالِدُكَ العَبْدُ
وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءُ زُهْرَةَ مِنْهـــمُ ... كرامٌ وَلَمْ يَقْرُبْ عَجَائِزَكَ المَجْدُ
وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ ولا كَابْنِ أُمِّـــهِ ... وَلكِنْ لَئِيمٌ لا يَقُومُ لَهُ زَنْدُ
وإنْ امْرَأَ كانَتْ سُمَيَّـــةُ أُمَّـــهُ ... وَسْرَاسَ مَغْمُـــوزٌ إذا بَلَغَ الجَهْدُ
وأَنْتَ هَجِينٌ نِيـــطَ في آلِ هَاشِـــمٍ ... كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِـــبِ القَدَحُ الفَرْدُ
.....

الأفنان: الأغصان، واحدها: فنن. والوغد" الذنيء من الرجال، والمَحْتد: الأصل. و دونك" ظرف قُصد به الإغراء، والمغرى به محذوف تقديره: فدونك مَحْتِدَك فالصق به، والعرب تغري بـــ (عليك) و(إليك) و(دونك). وسنام المجد: أَرْفَعُه، والمجد: الشرف. قال أبو عمر: بنت مخزوم هي فاطمة بنت عمرو بن عابد بن عمران بن مخزوم هي فاطمة بنت عمرو بن عابد بن عمران بن مخزوم، وهي: أم أبي طالب، وعبد الله، والزبير، بين عبد المطلب.

و(قوله: ومن ولدت أبناء زهرة منهم) يعني: حمزة وصفيَّة، أمُّهما: هالة ابنة أُهيب بن عبد مناف بن زهرة، والعباس: هو ابن عبد المطلب، وابن أمه: شقيقه ضرار بن عبد المطلب، أمهما نسيبة: امرأة من النمر بن قاسط. وسميَّة: أم أبي سفيان، وسمراء: أم أبيه. واللؤم: اسم للبخل، ودناءة الأفعال والآباء. المغموز: المعيب المطعون فيه، والهجين: من كانت أمُّه دنيَّة، والمقرف: من كان أبوه دنياً. ونيط: ألصق وعلق، والقَدَح: يعني به:

قدح الراكب الذي يكون تعليقه بعد إكمال وقر البعير؛ لأنه لا يحفل له. ومنه الحديث: "لا تجعلوني كقَدح الراكب"[1].

و(قوله ﷺ: "اللهم أيّده بروح القدس") أيّده: قوّه، والأيد: القوة. ومنه قوله تعالى: ﴿والسَّماءَ بَنَيْنَهَا بأَيْيْد﴾[2] أي: بقوة، وروح القدس: هو جبريل – عليه السلام –، كما قالَ في الرواية الأخرى: "اهجهم، أو هاجهم، وجبريل معك" أي: بالإلهام، والتذكير، والمعونة.

فقالت عائشة: لكنَّك لَسْتَ كذلك ! قال مسروقٌ: فقلت لها: لمَ تأذنين له يدخُلُ عليك؛ وقد قال الله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عظيمٌ﴾؟[1].

و(قول حسان:

حَصَـــانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِريبَـــة وتُصْبِحُ غَرثَى مِنْ لُحُومِ الغَوافِـــلِ)

حصان: عفيفة، وقد تقدَّم القولُ في وجوه الإحصان. ورزان: كاملة الوقار والعقل. يقال: رزن الرجل رزانة، فهو رزين: إذا كان وقوراً، وامرأة رزان وغرثى: من الغرث، وهو الجوع، يقال: رجل غرثان، وامرأة غرثى، كعطشان وعطشى. والغوافل جمع تكسير غافلة، يعني: أنهن غافلات عمَّا رُمين به من الفاحشة، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَت الغَفلَت المُؤْمنَت﴾[2]، ويعني حَسَّان بهذا البيت: أن عائشة – رضي الله عنها – في غاية العفَّة، والنزاهة عن أن تُزَنَّ بريبةٍ، أي: تُتَّهم بها.

---

[1]– قال السخاوي. رواه عبد بن حُميد، والبزار في مسنديهما، وعبد الرزاق في جامعه، وابن أبي عاصم في الصلاة، والتيمي في الترغيب، والطبراني والبيهقي في الشعب، والضياء، وأبو نعيم في الحلية. ومن طريقه الديلمي. كلهم من طريق موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف. والحديث غريب. عن الخمسة في تعليقهم على هذا الحديث

[2]– سورة الذاريات، الآية 47.

[1]– سورة النور، الآية 11.

[2]– سورة النور، الآية 23.

ثم وَصَفها بكمال العقل والوقار، والورع المانع لها من أن تتكلمَّ بعرض غافلة، وشبَّهها بالغرثى، لأنَّ بعض الغوافل قد كان هو آذاها فما تكلَّمتْ فيها، وهي: حَمْنَةُ بنت جحش، فكأنها كانت بحيث تنتصرُ ممن آذاها، بأن تقابلَها بما يؤذيها، لكن حجزها عن ذلك دينُها، وعقلُها، ووَرَعُها.

و(قول عائشة – رضي الله عنها – لحسان – رضي الله عنه –: لكنَّك لست كذلك) تعني: انه لم يصبحْ غرثان من لحوم الغوافل، وظاهرُ هذا الحديث: أنَّ حسان كان ممَّن تكلَّم بالإفك، وقد جاء ذلك نصّاً في حديث الإفك الطويل، الذي يأتي فيه: أن الذين تكلَّموا بالإفك: مسطحٌ،

فقالت: وأيُّ عذاب أشدُّ من العمى، فقالت: إنَّه كان ينافح – أو: يُهَاجى – عن رسول الله ﷺ.

وعن عائشةَ، قالت: قال حسان: يا رسول الله ! ائذن لي في أبي سفيان ! قال: "كيف بقَرابتي منه؟" قال: والذي أكرَمَك ! لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين. فقال:

وإنَّ سَنامَ المجد مِنْ آلِ هاشمٍ بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ ووالدُكَ العَبْدُ

قصيدته هذه.

وحسانٌ، وحمنة، وعبد الله بن أبيّ ابن سلول، غير أنه: قد حكى أبو عمر: أن عائشة – رضي الله عنها – قد برَّأت حسَّان من الفرية، وقالت: إنه لم يقلْ شيئاً، وقد أنكر حسانُ أن يكون قد قال من ذلك شيئا في البيت الثاني الذي ذكره متصلاً بالبيت المذكور آنفا، فقال:

فإنْ كـــانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُه فلا رَفَعَـــتْ سَوْطي إلَيَّ أَنَامِلِي

فيحتمل أن يقال: إنَّ حسان يعني: أن يكونَ قال ذلك نصّا وتصريحاً، ويكون قد عرَّض بذلك، وأومأ إليه، فنُسب ذلك إليه، والله أعلم، وقد اختلف الناسُ فيه، هل خاضَ في الإفك أم لا؟ وهل جُلِد الحدَّ أم لا؟ فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

و(قول عائشة — رضي الله عنها -: وأيُّ عذاب أشدُّ من العمى؟) ظاهِرُهُ يدلُّ على: أنَّ حسانَ كان ممن تولَّى كِبْره، وهذا بخلال ما قاله عروة عن عائشة — رضي الله عنها -: إنَّ الذي تولّى كِبْره هو عبدُ الله بن أُبيّ ابن سلول، وأنه هو الذي كان يستوشيه، ويجمعه.

وعنها، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "اهج قريشاً؛ فإنَّه أشدُّ عليها من رشْقٍ بالنَّبْلِ". فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهْجُهُم فهجاهم فلم يُرض، فأرسلَ إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسَّانَ بن ثابت، فلمَّا دخل عليه، قال حسان: قد آن لكُم أن ترسلوا إلى هذا الأَسد الضَّارب بذنبه، ثم أدلع لسانه، ثم جعل يحرِّكه، فقال: والذي بعثك بالحق؛ لأفرينَّهم بلساني

و(قول عائشة: قال رسولُ الله ﷺ: "اهْجُ قريشاً") هكذا وقع في بعض النُّسخ، أهْجُ: على أنه أمرٌ لواحد، ولم يتقدَّمْ له ذكرٌ فكأنَّه أمرٌ لأحد الشعراء الحاضرين، ووقع في أصل شيخنا أبي الصَّبر أيوب: "اهجوا" بضمير الجماعة، فيكون أمراً لجميع مَن حضر هناك من الشعراء.

و(قوله: "فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ بالنَّبل") الضمير في (إنه) عائدٌ على الهجو الذي يدلُّ عليه: "أهج قريشاً". وفي (عليها): لقريش، ورَشْق — بفتح الراء -: وهو الرَّمْيُ، ففيه دليلٌ: على أن الكافرَ لا حُرْمةَ لعِرْضه،

كما أنه لا حرمةَ لماله، ولا لدمه، وأنه يُتَعَرّضُ لنكايتهم بكلِّ ما يؤلمهم من القول والفعل.

و(قوله: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه) هذا من حسان مَدْحٌ لنفسه، شبَّه نفسه بالأسد إذا غضب فحمي، وذلك أنه غضب لهجو قريشٍ للنبيّ ﷺ واحتدَّ لذلك، واستحضر في ذهنه هجو قريش فتصوَّره وأحسَّ أنه قد أعين على ذلك ببركة دعوة النبي ﷺ، وليفخرَ بمعونة الله تعالى له على ذلك. وتنزَّلَ هذا الافتخارُ في هذا الموطن منزلةَ افتخار الأبطال في حال القتال؛ فإنَّهم يمدحُون أنفسهم، ويذكُرون مآثرهم ومناقبهم في تلك الحالَ نظما ونثراً، وذلك يدلُّ على ثبوت الجأش، وشَجاعة النَّفس، وقوة العقل، والصَّبر، وإظهار كل ذلك للعدو، وإغلاظ عليهم، وإرهاب لهم، وكلُّ هذا الافتخار: يُوصِلُ إلى رضا الغفَّار، فلا عتب ولا إنكار.

فَرْيَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: "لا تَعْجَل، فإنَّ أبا بكرٍ أعلمُ قريشٍ بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسباً، حتى يُلَخِّصَ لك نسبي". فأتاه حسَّان، ثم رجع فقال: يا رسول الله ! قد لخّص لي نسَبَك. والذي بعثك بالحقِّ لأسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين !.

قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان: "إنَّ روح القُدُس لا يزالُ يؤيِّدُك، ما نافحْتَ عن الله ورسوله".

و(قوله: ثم أدلع لسانه) أي: أخرجه وحرَّكه، كأنَّه يعدُّه للإنشاد.

و(قوله: والذي بعثك بالحقِّ لأفرينَّهم بلساني فَرْيَ الأديم) أي: لأمزقنَّهم بالهجو، كما يُمَزّقُ الجلدُ بعد الدِّباغ؛ فإنه: يقطع خفافاً ونعالاً، وغير ذلك، وتشبيهُ حسان نفسه بالأسد الضارب بذَنَبه بحضرة النبي ﷺ

وأصحابه – رضي الله عنهم – وإقرار الكُلِّ عليه: دليلٌ على بطلان قول من نَسَب حسَّانَ إلى الجُبْن، ويتأيَّد هذا بأنَّ حسان لم يزلْ يُهاجي قريشاً وغيرهم من خيار العرب، ويُهاجونه، فلم يُعيِّره أحدٌ منهم بالجبن، ولا نسَبه إليه، والحكاياتُ المنسوبةُ إليه في ذلك أنكرها كثيرٌ من أهل الأخبار، وقيل: إنَّ حسَّانَ أصابه الجبنُ عندما ضربه صفوان ابن المعطَّل بالسيف؛ فكأنه اختلَّ في إدراكه، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "إن روح القدس لا يزالُ معك ما نافحتَ عن الله ورسوله") أي: مدة منافحتك. والمنافحةُ: المخاصمةُ والمجادلة، وأصلها: الدَّفع. يقال: نفحت الناقةُ الحالبُ برجلها، أي: دَفَعتْهُ. ونفحه بسيفه، أي: ضربه به من بعيد.

وقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "هَجاهُم حسانُ فشفَى واشْتَفَى".

و(قوله ﷺ: "هجاهم حسَّانُ فشفى واشتفى") أي: شفى الألم الذي أحدثه هجوهم، واشتفى هو في نفسه، أي: أصاب منهم بثأره شفاء. وأنشج حسان:

هَجَوتَ مُحَمّداً فَأَجَبْتُ عَنْـــه .....

لم يرو مسلم أوَّلَ هذه القصيدة، وقد ذكرها بكمالها ابنُ إسحاق، وذكر أوَّلها:

عَفَتْ ذاتُ الأَصَابِعِ فَالجِوَاءُ إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُها خـــَلاءُ

فلنذكرها على ما ذكرها ابنَ إسحاق ونفسِّر غريبها؛ فإنها قصيدة حسنة مشتملة على فوائد كثيرة.

وقوله: عفت: معناه: درستْ وتغيَّرت، وذات الأصابع والجِواء: موضعان بالشام، وعَذْراء: قرية عند دمشق، وإنما ذكر حسانُ هذه المواضع؛ لأنه كان يَردُها كثيراً على ملوك غسان يمدحهم، وكان ذلك قبل الإسلام. وخلا: خال ليس به أحدٌ.

ديارٌ مـــنْ بَني الحَسْحاسِ قَفرٌ تُعفِّـــها الرَّوَامـــسُ والسَّـــماءُ
وَكَانتْ لا يَزَالُ بهَا أَنيـــسٌ خـــلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وَشَـــاءُ

الدِّيار: المنازل.وبنو الحسحاس: قبائل معروفون، وتعفيها: تُغيِّرها. والروامس: الرِّياح، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها ترمس الآثار، أي: تغيّرها، والرمس والرسم: الأثر الخفي. والسماء: المطر. والسماء: كلُّ ما علاك فأظلَّك. خلال: بمعنى بين. ومُروج: جمع مرج، وهو الموضعُ المنبت للعشب المختلف الذي يختلط بعضه ببعض. والنَّعم: الإبل خاصة، والأنعام: يتناول: الإبل، والبقر، والغنم. والشاء: الغنم:

.....

فَدَعْ هذَا ولَكِنْ مَنْ لِطَيْفٍ يُؤَرِّقُنِي إذَا ذَهبَ العِشاءُ

الطيف: ما يراه النائمُ في منامه، وهو في الأصل مصدر: طاف الخيال، يطوف طيفا، ولم يقولوا في هذا طائف في اسم الفاعل، قال السُّهيليُّ: لأنه تخيُّل لا حقيقةَ له، فأما قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طائفٌ من رَبِّكَ﴾[1]، فلا يقال: فيه طيف؛ لأنه اسم فاعل حقيقة، ويقال: إنَّه جبريل، فأما قوله تعالى: ﴿إذَا مَسَّهُمْ طَائفٌ منَ الشَّيْطَان تَذَكَّرُوا﴾[2]، فمن قرأه (طائف) اسم فاعل؛ فإنه أرادَ به الشَّيطان نفسه، ومن قرأه (طيف) أراد به تخيُّلَه ووسواسه، وهي لا حقيقة لها. ويُؤرِّقُني: يسهرني.

---

(1)– سورة القلم، الآية 19.
(2)– سورة الأعراف، الآية 201.

إذا ذهبت العشاء؛ أي: بعد العشاء في الوقت الذي ينامُ فيه الناس، يعني: أنه يسهرُ لفكَرته في الطيف، أو للوعته به كلَّما غمض.

لْشَعْـثاءَ الـتي قَـدْ تَيَّمَتْهُ فَلَيْـسَ لْقَلبِه منْهـا شفَـاءُ

قيل: إنَّ شعثاءَ هذه: هي ابنةُ كاهنِ امرأة حسان، ولدت له ابنته أم فراس. وتيَّمته: ذلَّلته.

كَأَنَّ سَبِيَّـةٌ مِنْ بَيْـتِ رأْسٍ يَكُونُ مِزَاجَـها عَسَلٌ وَماءُ

السبيه: الخمر. وبيت رأس: موضعُ فيه خمر عالية، وقيل: رأس: رجل خمَّار نُسبت إليه، ومزاجها: خلطها. وقد جعل الخبر معرفة، والاسم نكرة، وهو عَكسُ الأصل، وإنما جاز ذلك؛ لأن عَسَلاً وماءً: اسمان من أسماء الأجناس، فأفاد منكَّره ما يفيد معرَّفه، فكأنهما معرفتان، وخبر كأن: محذوف، تقديره: كأنَّ فيها سبيَّةٌ مستلذَّة، وهذا إنما اضطر إلى ذلك مَنْ لم يروِ في القصيدة قوله:

.....

عَلَى أَنْيابِهـا، أوْ طَعْـمُ غَضٍّ مِـنَ التُّفَّاحِ هَصَّرهُ الجَنـاءُ

وذلك أنَّ هذا البيتَ لم يقعْ في رواية ابن إسحاق، فمن صحَّ عنده هذا البيت، جعل خبر كأن: على أنيابها، ولم يحتجْ إلى تقدير ذلك المحذوف. والأنياب: هي الأسنانُ التي بين الضَّواحك والرَّباعيات. والغضُّ: الطريُّ، وهصَّره: دلاَه وأدناه. الدناء: أي الاجتناء، وهو بكسر الجيم والمد، والجَنى – بالفتح والقصر -: ما يُجتنى من الثمرة، قال أبو القاسم السُّهيلي: وهذا البيت موضوع.

إذَا مَـا الأشْرِباتُ ذُكِرْنَ يَوْمـاً فهُنَّ لطيِّـب الريـح الفـدَاءُ

الأشربات: جمع أشربة، فشراب الواحد، وجمع قلته المكسر أشربة، وجمع سلامته أشربات. والراح: من أسماء الخمر، واللام هنا: للعهد، أي: الخمر السيئة المتقدمة الذكر.

نُوَلِّيـها المَلاَمَـةَ إنْ أَلَمْنـا إذا مـا كانَ مَغْثٌ[1] أوْ لحَـاءُ
ونَشْرَبُهـا فَتَتْرُكُنـا مُلُوكـاً وأُسْـدا مَا يُنَهْنِهُنَـا الْـقَـاءُ

ألمنا: أي أتينا ما نلام عليه. والمَقْتُ: مما يمقت عليه؛ أي: يبغضُ، كالضرب، والأذى، والأذى. واللحاء: الملاحاة باللسان، يريد إن فَعَلْنا شيئاً من ذلك اعتذرنا بالسكر، وينهنهنا: يضعفنا، ويفزعنا.

عَدمْنَا خَيْلَنَـا إنْ لَمْ تَرَوهَـا تُثيرُ النَّقْـعَ مَوْعِدُها كَـداءُ
يُنَازِعْنَ الأَعِنَّـة مُصغيـات علَى أَكْتَافِها الأَسَـلُ الظِّمَاءُ

الضميرَ في (ترَوْهَا) عائد على الخيل، وإنَ لم يَجرِ لها ذكر، لكنها تفسِّرها الحالُ والمشاهدة، وتُثير: تُحرِّك. والنقع: الغبارَ، وكداء: التثنية التي بأعلى مكة، وكُدى – بضم الكاف والقصر –: تثنية بأسفل مكة،

.....

وقد تقدَّم ذكرها. وينازعن: يجاذبن. والأسل: الرِّماح. والظماء: العطاش. ووصف الرماح بذلك؛ لأنَّ حامليها يريدون أن يطعنوا أعداءهم بها فيروووها من دمائهم. ومُصْعدات: مرتفعات، ومصغيات: مائلات.

تَظَـلُّ جِيـادُنـا مُتَمَطِّـرَاتٍ تُلَطِّمُهُـنَّ بالخُمُـرِ النِّسـاءُ

الجياد: الخيل. متمطرات: يعني بالعرق من الجري، والرواية المشهورة: يطمهنَّ: من اللطم، وهو: الضرب في الخد، ويعني: أن هذه

---

[1]– يقول الأربعة: لم يعثر في كتب اللغة على معنى المغث بما ذهب إليه الشارح. والرواية الصحيحة قطعا هي: مغث بالغين لا مقت.

الخيل لكرمهن في أنفسهن، ولعزّهن عليهم تباذر النساءُ فيمسحن وجوهَ هذه الخيل بالخُمُر. وكان الخليلُ يروي هذا اللفظ: يطلمهن بتقديم الطاء على اللام، ويجعله بمعنى ينفض، وقال ابنُ دريد: الطلم: ضربك خبز الملة بيدك لينتفض ما به من الرماد. ورواية مسلم لهذا الحديث: (ثَكِلتُ بُنيّتي) بدل (عدمنا خيلنا). والثكل: فقد الولد. وبُنيّتي: تصغير بنت. ومعنى صَدر هذا البيت على الروايتين: الدُّعاء على نفسه إن لم يغز قريشاً. ووقع أيضاً لبعض رواة مسلم: موعدها كداء، ولبعضهم: غايتها بدل موعدها. والمعنى متقارب. ووقع في بعض النسخ مكان موعدها: من كنفي كداء على الإقواء[1]، وليس بشيء؛ إذ لا ضرورةَ تحوج إليه مع صحَّة الروايات المتقدِّمة، وكنفا كداء: جانباها.

فإمَّا تُعْرِضـــوا عنَّا اعْتَمَرْنَـــا وَكانَ الفَتْحُ وانْكَشَـــفَ الغِطَـــاءُ

هذا يدلُّ على أنَّ حسانَ قال هذه القصيدة قبل يوم الفتح كما قال ابنُ هشام. وظاهرُه أنَّ ذلك كان في عُمْرة الحديبية حين صدُّوا رسولَ الله ﷺ عن البيت، وقال ابنُ إسحاق: إنَّ حسان قالها في فتح مكة، فيه بُعْدٌ.

.....

وَإلاَّ فَاصْبِـــرُوا لِجـــلاَدِ يَـــوْمٍ يُعِـــزُّ اللهُ فيـــه مَـــنْ يَشَـــاءُ

هذا من باب إلهام العالم؛ لأن حسان قد علم: أنَّ الله قد أعزَّ نبيَّه، وقد قال تعالى: ﴿ولله العزَّةُ ولرَسُوله، وللْمُؤْمنينَ﴾[1]، وقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ ءَامنُوا مِنكُمْ وعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَيَستَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ..﴾ [2] الآية،

---

[1]– "الإقواء": هو اختلاف حركة الإعراب في القوافي.

[1]– سورة المنافقون، الآية 8.

[2]– سورة النور. الآية 55.

وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[3] إلى غير ذلك، وقد دلَّ على هذا قوله بعد هذا:

وَجِبْريـــلٌ رَسُـــولُ اللهِ فينَـــا وَرُوحُ القُـــدْسِ لَيْسَ لَـــهُ كِفَـــاءُ

أي: لا يقاومه أحد، ولا يُماثله. وروح القدس: هو جبريل – عليه السلام – والقُدُس: الطهارة، وهو معطوف على رسول الله، والكفاء؛ الكفو، وهو المثل:

وقَـــالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْـــتُ عَبْداً يَقُـــولُ الحـــقَّ إنْ نَفَـــعَ البَلاء

أي: الابتلاء، هو الاختبار، وقد ضمن صدر هذا البيت معنى الابتلاء، ولذلك أشار بقوله: البلاء؛ لأنَّ الامَ فيه للعهد لا للجنس، فتدبَّره، ورواية مسلم في هذا البيت:

..... يقـــول الحق ليس به خفـــاء

ثم شهد حسَّانُ بتصديقه فقال:

شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُـــوا صَدِّقُـــوهُ فَقُلْتُـــمْ لاَ نَقُـــومُ وَلاَ نَشـــاءُ

.....

أي لا نقوم لتصديقه، ولا نريده، فعاندوا، ولما كان ذلك قال:

وقَـــالَ اللهُ قَدِ يَسَّرْتُ جُنْداً هُمُ الأنْصَارُ عُرْضَتُها اللِّقَـــاءُ

أي: قصدها وهمُّها: لقاؤكم، وقتالكم. يعني: أنهم لما ظهر عِنادُهُم، نَصَرَ اللهُ نبيَّه بجند الأنصار، ولم يذكر المهاجرين؛ لأنهم لم يظهرْ لهم أثر إلا عند اجتماعهم بالأنصار، والله تعالى أعلم.

---

[3]– سورة الحج، الآية 40.

لَنا في كُلِّ يَـــمْ مِن مَعَـــدٍّ سِبابٌ أوْ قِتَالٌ أَوِ هِجـــاءُ

هكذا روايةُ ابن إسحاق، ويُروى سباء من السَّبي، ومعناه واضح، فالهمزة مكان الباء، والذي في كتاب مسلم: نلاقي كل يوم من معدٍّ سباب. ويعني بمعدٍّ: قريشاً، نسبهم لمعدِّ بن عدنان، و(أو) في البيت للتنويع، ويعني بالسِّباب: السَّب نثراً، وبالهجاء: السبَّ نظماً. والله تعالى أعلم. وقد دلَّ عليه قولُه:

فَنُحكِمُ بالقَوَافي مَن هَجَانـــا ونَضرِبُ حينَ تَختَلِطُ الدِّمـــاءُ

فنحكم: نمنع، ويعني: أنه يجيبُ الهاجي بأبلغ من هجائه، وأصعب عليه، فيمتنع من العود، ويعني باختلاط الدماء: التحام الحرب، ومخالطة الدماء عند الحرب.

ألاَ أَبْلِـــغْ أَبَـــا سُفْيَـــانَ عَنِّي مُغَلْغَلَـــةً فقَدِ بَـــرِحَ الخَفَـــاءُ

أبو سفيان هذا: هو ابن الحارث، وهو كان الهاجي أولا، وقد تقدّم أنه كان أحدَ الشُّعراء. والمُغَلْغَلة: الرسالة تُحمل من بلد إلى بلد. وبرح الخفاء: أي انكَشَفَ السِّرُّ، وظهر المضمر، وهو مثل.

قال حسان:

هَجَوْتَ محمَّداً فأَجَبْتُ عَنْه وعنْدَ الله في ذاكَ الجَزاءُ
هَجَوْتَ محمَّداً برّاً تقيّا رَسُولَ الله شِيمَتُه الوَفاءُ

فإنَّ سُيُوفَنا تَرَكْتَكَ عَبْداً وعَبودُ الدارِ سَادَ بِها الإمَاءُ

عبداً: يعني ذليلاً ذلّ العبيد.

هَجَوْتَ مُحمّداً وَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ الله في ذاكَ الجَزاءُ

الخطاب لأبي سفيان، ورُوي أن النَبيَّ ﷺ لما أَنشده هذا البيت قال له: "جزاؤك عند الله الجنة".

هَجَوْتَ مُحَمَّداً بَرّاً حَنيفاً رَسُولَ الله شيمَتُهُ الوَفَاءُ

البَرُّ: التَّقي، والحنيف: المائل عن الأديان كلِّها إلى دين إبراهيم. والشِّيمة: السَّجيَّة، السَّليقة، والخليقة، والجبلَّة كلها: الطبيعة.

و(قوله:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفءٍ فَشَرُّكُما لِخَيرِكُما الفِداءُ)

هذا يتضمَّن الدعاءَ لإنزالِ المكاره بأكثر الرجلين شرّا، وإنزال الخير بأكثرهما خيراً، وعند ذلك يتوجَّه عليه إشكال، وهو أنَّ شرّا وخيراً هنا للمفاضلة، والمعقول من المفاضلة اشتراكُ المتفاضلين فيما وقعت فيه، واختصاص أحدهما بزيادة فيه، فيلزم منه: أن يكون في النبيّ ﷺ شرٌّ، وهو باطل، فتعيَّن تأويل ذلك، فقال السُّهيلي: إن شرّا هنا بمعنى أنقص، وحُكي عن سيبويه أنه قال: تقول مررت برجل شر منك، أي: أنقص عن أن تكون مثله، قال السُّهيلي: ونحو منه قوله ﷺ: "شرُّ صفوف الرِّجال آخرها" يريد نقصان حظّهم عن حظّ الصف الأول، ولا يجوزُ أن يريدَ به التفضيلَ في الشرّ.

فإنَّ أبي وَوَالِدَاهُ وعِرْضِي ... لعِرَض مُحمَّد منْكُم وِقَاءُ
عَدِمْنَا خَيلَنَا إنْ لم تَرَوْهَا ... تُثِيْرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَدَاء
يُبَارِينَ الأَعنَّة مُصْعَدات ... على أكتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جيَادُنَا مُتَمَطِّرَات ... تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ
فمنْ أعْرَضْتُمُوا عنَّا اغْتَمَرنا ... وكَانَ الفتْحُ وانْكَشَفَ الغِطَاءُ
وإلا فاصْبِرُوا لضراب يَومٍ ... يُعِزُّ اللهُ فيه مَنْ يشَاءُ
وقال اللهُ: قَدْ أرْسَلْتُ عَبْدًا ... يَقُولُ الحقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

قال الشيخ رحمه الله: وأوضحُ من هذا، وأبعدُ من الاعتراض أن يُقالَ: إنَّ الأصلَ في أفعل ما ذكر، غير أنَّ المعنى الذي يُقصد به المفاضلة فيه قد يكون معنى وجودياً، كما يقال: بياض الثلج أشدُّ من بياض العاج، وقد يكون المعنى توهُّمياً بحسب زعم المخاطب، كما قال تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمونَ مَنْ هُوَ شرٌّ مَّكاناً ﴾[1] وذلك أنَّ الكفارَ زعموا: أنَّ المؤمنين شرٌّ منهم، فأُجيبوا بأنْ قيل لهم: ستعملون باطلَ زعمكم بأن تشاهدُوا عاقبةَ من هو الموصوفُ بالشر، وعلى هذا يخرجُ معنى البيت، فإنهم كانوا يعتقدون في النبيّ ﷺ شرّاً، فخاطبهم بحسب زعمهم، ودعا على الأشرِّ من الفريقين منهما له، وهو يعنيهم قطعاً، فإنهم هم أهلُ الشر، لكنهم أتاهم بدعاء نَصَف يُسْكِت الظالم، ويُرْضي المظلوم.

وقوله:

فإنَّ أبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرضِ مُحمَّـدٍ مِنْكُمْ وِقَـاءُ

قال ابنُ قتيبة: يعني بالعِرَض هنا: النفس، فكأنه قال: أبي وجدِّي، ونفسي وقاية لنفس محمدٍ، وقال غيرُه: بل العِرْضُ هنا هو الحرمةُ التي

---

[1]ـ سورة مريم، الآية 25.

وقَال الله: قَدْ يَسَّرتُ جُنْداً هُمُ الأنْصارُ عُرْضَتُها اللّقــاءُ
لَنــا في كُلِّ يــوم منْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أو قِتَــالٌ أو هجــاءُ
فَمَنْ يَهْجُوا رَسُولَ الله مِنْكُــمْ ويَمْدَحُــهُ وَيَنْصُــرُهُ سَــوَاءُ
وجبريلُ رســولُ الله فينــا ورُوحُ القُدْسِ ليسَ له كِفَــاءُ

رواه مسلم.

تُنتهك بالسبِّ والغيبة التي قال فيها النبيّ ﷺ: "إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا".

وقوله:

لِســاني صارِمٌ لا عَيْبَ فِيهِ وَبَحْري لا تُكَدِّرُهُ الــدِّلاءُ

الصَّارم: السَّيف القاطع، ولا تكدِّره الدِّلاء: أي لا تُغيِّره. وهذا مثلٌ يُضْرَبُ للرجل العظيم الحليم القوي؛ الذي لا يُبالي بما يَرِدَ عليه من الأمور، وبهذا البيت كني حسّان: أبا الحسام — رضي الله عنه وجازاه خيراً —.

* * *

باب فضائل أبي هُرَيْرة – رضي الله عنه –

عن أبي هريرة، قال: كنتُ أدعو أمّي إلى الإسلام وهي مشركةٌ، فدعوتُها يوماً، فأسمَعَتني في رسول الله ﷺ ما أكرهُ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ وأنا أبكي، فقلتُ: يا رسول الله ! إنّي كنتُ أدعو أمّي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتُها اليومَ فأسمَعَتْني فيكَ ما أكرهُ، فدعُ الله أن يهديَ أمَّ أبي هريرة، فقال رسولُ الله ﷺ: "اللهُمَّ ! اهْد أمَّ أبي هريرة". فخرجتُ مستبشراً بدعوة نبيِّ الله ﷺ، فلما جئتُ فَصِرْتُ إلى الباب، فإذا هو مُجَافٌ، فسمعتْ أمِّ خَشْفَ قَدَميَّ، فقالتْ: مكَانَكَ يا أبا هريرةَ ! وسمعتُ خَضْخَضَةَ الماء. قال: فاغتسلَتْ، ولَبسَتْ درعَها، وعجلَتْ عن خمَارها، ففتحت البابَ، ثم قالتْ: يا أبا هريرة ! أشهد أن لا إله إلا الله، وأَشهدُ أنّ محمداً عبدُهُ ورسولُه. قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ، فأَتَيْتُهُ

ومن باب: فضائل أبي هريرة – رضي الله عنه –

اختلف في اسم أبي هريرة، واسم أبيه اختلافاً كثيراً، انتهت أقوالُ النقلة في ذلك إلى ثمانية عشر قولاً، وأشبهُ ما فيها أن يُقال: إنه كان له في الجاهلية اسمان: عبد شمس، وعبد عمرو، وفي الإسلام:: عبد الله، عبد الرحمن بن صخر، وقد اشتهر بكنيته حتى كأنّه ما له اسمٌ غيرها، فهي أولى به، وكنّي بأبي هريرة؛ لأنه وَجَد هرَّةً صغيرة فحملها في كُمِّه، فكنّي بها وغلب ذلك عليه، وقيل: إنَّ الرسولَ ﷺ كنَّاه بذلك عندما رآه يحملها. أسلم أبو هريرة عام خيبر، وشهدها مع رسول الله ﷺ ثم لازمه، وواظب عليه، رغبةً في العلم، راضياً بشبع بطنه، فكانت يدُه مع يد رسول الله ﷺ وكان يدور معه حيثما دار، فكان يحضر ما لا يحضره غيرُه،

وأنا أبكي من الفَرَح. قلتُ: يا رسولَ الله ! أبشرْ قد استجابَ الله دَعْوَتَكَ وهدى أمَّ أبي هريرة. فحَمدَ الله. وقال خيراً. قال: قلتُ: يا رسولَ الله ! ادعُ الله أن يُحبِّبَني أنا وأمِّي إلى عباده المؤمنين، ويُحَبِّبَهُمْ إلَيْنا. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: "اللهمَّ ! حبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا – يعني أبا هريرة – وأُمّه إلى عبادك المؤمنين، وحَبِّبْ إليهمُ المؤمنين". فما خُلِقَ مؤمنٌ يَسمعُ بي، ولا يرانِي إلا أحبَّني.

ثم اتفق له أن حصلتْ له بركةُ دعوة النبيّ ﷺ في الثوب الذي ضمَّه إلى صدره، فكان يحفظُ ما سمعه ولا ينساه، فلا جرم حُفِظ له من الحديث عن رسول الله ﷺ ما لم يُحفظ لأحد من الصحابة – رضي الله عنهم – وذلك خمسة آلاف حديث وثلاثمئة وأربعة وسبعون حديثا، أخرج له منها في الصحيحين ستمئة وتسعة أحاديث، قال البخاري: روى عنه أكثر من ثمانمئة رجل من بين صحابيٍّ وتابعيّ، قال أبو عمر: استعمله عمر على البحرين ثم عزله، ثم أراده على العمل فأبى عليه، ولم يزلْ يشكن المدينة، وبها كانت وفاتُه سنة سبع وخمسين، وقيل: سنة ثمان، وقيل: سنة تسع، وقيل: توفي بالعقيق، وصلى عليه الوليدُ بن عتبة بن أبي سفيان، وكان أميراً يومئذ على المدينة ومروان معزول، وكان – رضي الله عنه – من عُلماء الصَّحابة وفضلائها، ناشراً للعلم، شديد التواضع والعبادة، عارفاً لنعم الله، شاكراً لها، مُجتهداً في العبادة. كان هو وامرأته، وخادمه يتعقبون الليل أثلاثاً، يصلِّ هذا ثم يُوقظ هذا، ويصلِّ هذا، ثم يوقظ هذا، وكان يقول: نشأتُ يتيماً، وهاجرتُ مسكيناً، وكنتُ أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني، وعقبة رحلي، فكنتُ أخدمُ إذا نزلوا، وأحدو إذا ركبوا، فزوَّجنيها الله، فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وجعل أبا هريرة إماماً.

حديث إسلام أمه ليس فيه شيء يُشْكِل.

وعن عُروة بن الزُّبير حَدَّثَهُ: أنَّ عائشة قالتْ: أَلاَ يُعَجِّبُكَ أبو هريرةَ؟ جاء فجلس جَنْب حُجْرَتي يحدِّثُ عن النبي ﷺ، يُسمعُني ذلك، وكنتُ أُسبِّح، فقام قبل أن أَقْضيَ سُبْحَتي، ولما أَدْرَكْتُه لرَدَدْتُ عليه: إنَّ رسولَ الله ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحديثَ كسَرْدِكُمْ.

وقال ابن المسيب: إنَّ أبا هريرة قال: يقولون: إنَّ أبا هريرة قد أكثَر، والله المَوْعِدُ. ويقولون: ما بالُ المهاجرين والأنصار لا يتحدّثون مثلَ أحاديثه؟ وسأُخْبِرُكُم عن ذلك: إنّ إخواني من الأنصار مكان يَشْغَلهُم عملُ أرَضيهم، وإن إخواني من المهاجرين كان يشْغَلُهُمْ الصَّفَقُ بالأسواق، وكنت ألْزَمُ رسولَ الله ﷺ على مِلْءِ بَطْني، فأشهدُ إذا غابُوا، وأحفظُ إذَا

و(قوله عائشة – رضي الله عنها –: ألا يُعَجِّبك) هو بضم الياء وفتح العين وكسر الجيم مُشدَّدة، ومعناه: ألاَ يحملك على التعجب النظر في أمره؟ قالت: هذا مُنكرةٌ عليه إكثارَهُ من الأحاديث في المجلس الواحد، ولذلك قالت في غير هذه الرواية: إنما كان النبيُّ ﷺ يُحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه. تعني: أنه كان يُحدِّث حديثاً قليلاً، ويُحتمل أن تريدَ بذلك: أنه كان يُحدِّث حديثاً واضحاً مُبيناً، بحيث لم عُدَّتْ كلماتُه أُحصيتْ لقلَّتها، وبيانها، ويدلُّ على صحَّة هذا التأويل قولها: ما كان رسولُ الله ﷺ يسردُ الحديث سردكم هذا. والصَّفق بالأسواق: التجارة فيها، وقد تقدَّم أنهم كانوا يتواجبون بالأيدي، فيصفق أحدُهما في كفِّ الآخر، فإذا فعلوا ذلك وجب البيع، فسُمِّي البيعُ صَفْقاً بذلك، وقد تقدَّم هذا. والسُّبحة: النافلةُ، وأسبِّحُ: أصلِّي، مأخوذ من التسبيح.

و(قوله أبي هريرة – رضي الله عنه –: يقولون قد أكثر أبو هريرة والله المَوْعِدُ) أي: الرجوع إلى الله بحكم الوعد الصَّادق، فيجازي كلاً على صدقه وفعله.

نسُوا، ولقدْ قال رسولُ الله ﷺ يوماً: "أيكم يبْسطُ ثوبه فيأخُذُ من حديثي هذا، ثم يَجْمَعُهُ إلى صدره، فإنه لم يَنْسَ شيئاً سَمعَه؟ فبسطتُ بُرْدَةٌ عليَّ حتى فرغَ من حديثه، ثم جمعتُها إلى صدري، فما نسيتُ بَعْدَ ذلك شيئاً حدثني به، ولولا آيتان أنزلَهُما الله في كتابه ما حدّثتُ شيئاً أبداً: ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ البيِّنَت والْهُدَى...﴾ إلى آخر الآيتين.

وفي رواية : إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثرُ الحديثَ عن رسول الله ﷺ.

و(قوله: يقولون: ما بالُ المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه) هذا الإنكارُ خلافُ إنكار عائشة — رضي الله عنها — فإنها إنما أنكرتْ سردَ الحديث، وهؤلاء أنكروا على أبي هريرة أن يكون أكثرَ الصَّحابة حديثاً، وهذا إنكارُ استبعاد وتعجُّب، لا إنكار تهمة، ولا تكذيب لما يعلم حفْظه، وعلْمه، وفَضْله، ولما يعلم أيضاً من فضلهم، ومعرفتهم بحاله، ولذلك بيَّن لهم الموجبَ لكثرة حديثه، وبيَّن أنه شيئان:

أحدهما: أنه لازم النبيَّ ﷺ ما لم يلازموا، فحضر ما لم يحضروا.

والثاني: بركة امتثال ما أرْشَد إليه رسولُ الله ﷺ من بَسْط ثوبه، وضمِّه إلى صدره، فكان ذلك سَبَبَ حفْظه، وعدم نسيانه، فقد حصلت لأبي هريرة ولأمه من بركات رسول الله ﷺ وخصائص دعواته، ما لم يحصلْ لغيره، ثم إنَّ أبا هريرة — رضي الله عنه — لما حَفظ علماً كثيراً عن رسول الله ﷺ وتحقق أنه وَجَب عليه أن يبلِّغه غيره، ووَجد من يقبل عنه، ومن له رغبة في ذلك، تفرَّغ لذلك مخافة الفوت، ومعاجلة القواطع أو الموت، ثم إنه لما آله الإنكارُ هَمَّ بترك ذلك، والفرار. لكنه خاف من عقوبة الكتمان المنبَّه عليها في القرآن، ولذلك قال: لولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثْتُ حديثاً، ثم تلا قوله: ﴿إنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ مَا أنزَلْنَا منَ البيِّنَت والهُدَى من بَعْد مَا بَيَّنَهُ للنَّاس في الكتَب...﴾ الآيتين[1] وفيهما بحثٌ وتفصيلٌ يَحتاجُ إلَى نظر طويل يُذكر في تفسير القرآن وأحكامه.

---

[1]— سورة البقرة، الآية 109-106.

باب قصة حاطب بن أبي بَلْتَعَة
وفضل أهل بدر وأصحابه الشجرة

عن عليٍّ — رضي الله عنه —، قال: بعثَنا رسولُ الله ﷺ أنا، والزُّبَيْرَ، والمِقْدَادَ، فقال: "ائتوا رَوْضَةَ خاخٍ؛ فإنّ بها ظَعينةً؛ معها كتابٌ؛ فخذوه منها"، فانطلقْنَا تَعَادَى بنا خَيْلُنا، فإذا نحنُ بالمرأة، فقلنا: أخرجي الكتابَ ! فقالتْ: ما معي كتابٌ ! فقلنا: لتُخْرِجْنَّ الكتابَ، أو لتُلْقِيَنَّ الثيابَ ! فأخرجتْه من عِقَاصِها، فأتيْنا به رسولَ الله ﷺ. فإذا فيه: من حَاطِب بن أبي بَلتَعَة إلى نَاسٍ من المشركين من أهل مكةَ، يُخْبِرهُم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسولُ الله ﷺ: "يا حاطبُ ! ما هذا؟" قال: لا

ومن باب: فضائل أهل بدر والحديبية
وحاطب بن أبي بلتعة

واسمه عمرو بن راشد من ولد لخم بن عديٍّ. يُكنى: أبا عبد الله، قيل: أبا محمد، وهو حليف للزبير بن العوَّام، وقيل: لبني أسد، وقيل: كان عبداً لعبيد الله بن حميد، كاتَبه فأدَى كتابتَه يوم الفتح، شهد بدراً والحديبية. مات سنة ثلاثين بالمدينة، وهو ابن خمس وستين سنة، وصلَّى عليه عثمان، وقد شهد له بالإيمان في قوله تعالى: ﴿يأَيُّها الَّذينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أَوْلياءَ﴾ وقد شهد له رسول الله ﷺ بالإيمان والصدق، وبأنه لا يدخل النارَ على ما تضمَّنه الحديثان المذكوران في الأم. وروضة خاخ: موضع معروف قريب من المدينة. والظعينة: الهودج، كان فيه امرأة، أو لم يكن، وتسمّى المرأة ظعينة إذا كانت في الهودج. وتجمع الظعينة: ظُعْنٌ وظُعْنٌ وظعائن. وأظعان. والعِقَاص: الشعر المعقوص، أي: المضفور. والملصق في القوم: هو الذي لا نَسبَ له فيهم، وهو الحليف، والتريل، والدَّخيل.

تعجلْ عليَّ يا رسول الله ! إني كُنتُ امرءاً مُلْصَقاً في قريش. — قال سفيان: كان حليفاً لهم، ولم يكن من أنفسها — وكان ممَّن معك من المهاجرين لهم قَراباتٌ يَحْمُونَ بها أهليهم، فأَحْبَبْتُ؛ إذْ فَاتَنِي ذلك من النَّسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يَحْمُونَ بها قرابتي، ولم أفعله كفراً لا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعدَ الإسلام ! فقال النَّبيُّ ﷺ: "صدقَ". فقال عمر: دَعْنِي يا رسول الله ! أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المنافق !

و(قوله: وكان ممن معك) كذا وقع هذا اللفظ "ممن" بزيادة من، وفي بعض النسخ "من معك" بإسقاط "من"، وهو الصَّوابُ؛ لأن من لا تزاد في الواجب عند البصريين وأكثر أهل اللِّسان، وقد أجاز ذلك بع الكوفيين.

و(قوله عمر — رضي الله عنه -: دعني أضربْ عنقَ هذا المنافق) إنما أطلقَ عليه اسمَ النِّفاق؛ لأن ما صدرَ منه يُشبه فعل المنافقين؛ لأنه والي كفَّار قريش، وباطنَهم، وهمَّ بأن يُطلعَهم على ما عزمَ عليه رسولُ الله ﷺ من غزوهم، مع أن رسولَ الله ﷺ قد كان دعا فقال: "اللهم أخف أخبارَنا عن قريش" لكنَّ حاطباً لم ينافق في قلبه، ولا ارتد عن دينه، وإنَّما تأوَّل فيما فعل من ذلك: أن إطلاعَ قريش على بعض أر رسول الله ﷺ لا يضرُّ رسولَ الله ﷺ ويخوِّف قريشاً. ويُحكى: أنه كان في الكتاب تفخيمُ أمر جيش رسول الله ﷺ، وأنهم لا طاقةَ لهم به، يُخوِّفهم بذلك ليخرجوا عن مكَّة، ويَفرُّوا منها، وحسَّن له هذا التأويلَ: تعلُّق خاطره بأهله، وولده؛ إذ هم قطعةٌ من كبده، ولقد أبلغَ من قال: قلَّما يفلحُ من كانَ له عيالَ ولكنْ لَطَفَ الله به، ونجَّاه لما علم من صحَّة إيمانه، وصدقه، وغفر له بسابقة بدر، وسَبْقه.

و(قوله ﷺ: "وما يَدريكَ لعلَّ الله قد اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم") معنى يُدريك: يُعلمك، ولعلَّ: الترجِّي، لكن هذا الرجاء محقّق للنبيّ ﷺ بدليل ما ذكر الله تعالى في قصة أهل

فقال: "إنّه قدْ شهد بدراً، وما يُدْريك لعلَّ الله قد اطَّلعَ على أَهْل بَدْر فقال: اعملوا ما شئْتُم فقد غفرتُ لكم"، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ .

وفي رواية: بعثني رسولُ الله ﷺ وأبا مَرْثَدٍ الغَنَويَّ، والزبَيْرَ بن العوام، وكُلُّنا فارسٌ.

بدر في: آل عمران، والأنفال. من ثنائه عليهم، وعفوه عنهم، وبدليل قوله ﷺ للذي قال في حاطب إنه يدخل النَّارَ، وأقسمَ عليه: "كذبتَ، لا يدخلُها فإنَّه شهدَ بدراً". فهذا إخبارٌ محقَّق لا احتمالَ فيه، ولا تَجوُّزَ، وظاهرُ قوله ﷺ: "اعملوا ما شئتم" إباحةُ كلّ الأعمال،و التخيير فيما شاؤوا من الأفعال، وذلك في الشرعية محال؛ إذ المعلوم من قواعدها: أن التكليفَ بالأوامر والنواهي، متوجهة على كل من كان موصوفاً بشرطها إلى موته، ولَّما لم يصحَّ ذلك الظاهرُ اضطرَّ إلى تأويله، فقال أبو الفرج الجوزي: ليس قوله: اعملوا ما شئتم للاستقبال، وإنما هي للماضي، وتقديره: أيُّ عمل كان لكم فقد غفرتُه، قال: ويدلُّ على ذلك شيئان:

أحدهما: أنه لو كان للمستقبل كان جوابُه فسأغفر.

والثاني: أنه كان يكون إطلاقاً في الذنوب، ولا وجه لذلك، ويُوضح هذا: أن القومَ خافوا من العقوبة فيما بعد، فقال عمر: يا حذيفة هل أنا منهم؟.

قال الشيخ رحمه الله: وهذا التأويل، وإن كان حَسَناً غير أنَّ فيه بُعْداً. تنبيه: إنَّ (اعملوا) صيغته صيغة الأمر، وهي موضوعةٌ للاستقبال، و لم تضع العربُ قطُّ صيغةَ الأمر موضع الماضي، لا بقرينة، ولا بغير قرينة، هكذا نصَّ عليه النحويون، وصيغةُ الأمر إذا وردت بمعنى الإباحة: إنما هي

وعن جابر: أنَّ عبداً لحاطب جاء رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ! ليدخلنَّ حاطبٌ النار ! فقالَ رسول الله ﷺ: "كَذَبْتَ، لا يدخُلُها، فإنَّه شهد بدراً، الحذيبية".

بمعنى الإنشاء والابتداء، لا بمعنى الماضي، فتدبَّرْ هذا؛ فإنه حَسَن، وقد بيَّنتُه في الأصول بأشبع من هذا، واستدلاله على ذلك بقوله: فقد غفرتُ لكم، ليس بصحيح؛ لأنَّ (اعملوا ما شئتم) يستحيل أن يُحمل على طلب الفعل، ولا يصحُّ أن يكون بمعنى الماضي لما ذكرناه، فتعيَّن حَمْلُه على الإباحة والإطلاق، وحينئذ يكون خطابَ إنشاء، فيكون كقول القائل: أنت وكيلي، وقد جعلتُ لك التصرف كيف شئت، فإنَّ ذلك إنما يقتضي إطلاق التصرف في وقت التوكيل، لا قبل ذلك، وقد ظهر لأي وَجْهٌ آخر، وأنا أستخير الله فيه وهو: أن الخطاب خطابُ إكرام وتشريف تضمَّن: أنَّ هؤلاء القوم حصلتْ لهم حالةٌ غُفرت لهم بها ذنوبُهم السالفة، وتأهَّلوا بها لأن هؤلاء القوم حصلتْ لهم حالةٌ غُفرت لهم بها ذنوبُهم السالفة، وتأهلوا بها لأن يُغفر لهم ذنوبٌ مستأنفة إن وقعتْ منهم، لا أنهم نُجِّزت لهم في ذلك الوقت مغفرة الذنوب اللاحقة، بل: لهم صلاحية أن يُغفر لهم ما عساه أن يقع، ولا يلزم من وجود الصَّلاحية لشيء ما وجودُ ذلك الشيء؛ إذ لا يلزمُ من وجود أهلية الخلافة وجودها لكلِّ من وجدت له أهليَّتها، وكذلك القضاء وغيره، وعلى هذا فلا يأمن من حصلت له أهليةُ المغفرة من المؤاخذة على ما عساه أن يقعَ منه من الذنوب، وعلى هذا يُخرَّج حالُ كلِّ مَن بشَّره رسولُ الله ﷺ بأنه مغفورٌ له، وأنه من أهل الجنَّة، فيتضمَّن ذلك مغفرة ما مضى، وثبوت الصَّلاحية للمغفرة والجنة بالنسبة لما يستقبل. ولذلك لم يزل عن أحد ممَّن بُشِّر بالمغفرة، أو بالجنة خوف التبديل والتغيير من المؤاخذة على الذنوب، ولا ملازمة التوبة منها، والاستغفار دائماً، ثم إنَّ الله تعالى أظهر صِدْقَ رسوله ﷺ للعيان في كلِّ مَن

وعن أمِّ مُبَشر، قالتْ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ عند حفصة: "لا يدخُلُ النَّارَ – إن شاءَ اللهُ – من أصحاب الشجرة أحدٌ" – الذين بَايَعُوا تَحْتَها-

---

أخبر عنه بشيء من ذلك؛ فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة من أمور الدِّين، ومراعاة أحواله، والتمسُّك بأعمال البرِّ والخير إلى أن توفوا على ذلك، ومَن وقع منهم في معصية، أو مخالفة لجأ إلى التوبة، ولازمها حتى لقي الله تعلى عليها، يَعْلَم ذلك قطعاً مِن أحواله مَن طالع سيرهم، وأخبارهم.

وفي حديث حاطب هذا أبوابٌ من الفقه وأدلَّةٌ على صحة نبوَّة نبيِّنا محمد ﷺ وعلى فضائل أهل بدر، وحاطب بن أبي بلتعة، فمن جملة ما فيه من الفقه: أنَّ ارتكابَ الكبيرة لا يكونُ كفراً، وأن المتأوِّلَ أعذر من العامد، وقبول عذر الصادق، وجواز الاطلاع من عورة المرأة على ما تدعو إليه الضَّرورة. ففي بعض رواياته: أنهم فتَّشُوا من المرأة كلَّ شيءٍ حتى قُبُلَها. ومنه: ما يدلُّ على أن الجاسوسَ حكمه بحسب ما يجتهدُ فيه الإمام على ما يقوله مالك. وقال الأوزاعي: يُعاقب، ويُنفى إلى غير أرضه. وقال أصحابُ الرأي: يُعاقب ويُسجن. وقال الشافعي: إن كان من ذوي الهيئات كحاطب عُفي عنه، وإلا عُزِّر. وجميعُ أهلِ بدر ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً باتفاق أئمة السِّير والتواريخ. واختلف في طائفة نحو الخمسة هل شهدوها، أو لا؟ وتفصيلُ ذلك في كتب السِّير.

و(قوله ﷺ: "لا يدخل النار – إن شاء الله – أحد الذين بايعوا تحتها") هذه الشجرةُ: هي شجرةُ بيعة الرّضوان التي قال الله تعالى فيها: ﴿لَّقَدْ رضيَ اللهُ عنِ المُؤْمِنينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[1]، وكانت

---

[1]– سورة الفتح، الآية 10.

قالتْ: بلى، يا رسول الله ! فانْتَهَرها. فقالت حفصة: ألم يقل الله: ﴿وَإن

بالحذيبية التي تقدَّم ذكْرُها. والمبايعون تحتها: كانوا ألفاً وأربعمئة، وقيل: وخمسمئة، كانوا بايعوا رسولَ الله ﷺ على الموت، أو على ألا يفرُّوا، على خلاف بين الرواة. ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ صَالَحَ أهلَ مكة، وكفى الله المؤمنينَ القتال، وأحرزَ لهم الثواب. وأثابهم فتحاً قريباً، ورضواناً عظيما. واستثناؤه ﷺ هنا بقوله: "إن شاء الله" استثناءٌ في واجب قد أعلمه الله تعالى بحصوله بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ الله عن المُؤْمنينَ﴾ وبغير ذلك، وصار هذا الاستثناء كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرامَ إن شاءَ الله ءَامِنِينَ﴾[1].

و(قول حفصة: بلى) قول أخرجه منها الشهامة النفسية، والقوة العمرية، فإنَّها كانت بنت أبيها، وهذا من نحو قول عُمر — رضي الله عنه — للنبيِّ ﷺ في المنافقين: أتصلي عليهم؟ وتمسُّكها بعموم قوله تعالى: ﴿وَإن مِّنكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا﴾[2] دليلٌ على أنَّ (منكم) للعموم عندهم، وأن ذلك معروفٌ من لغتهم، وانتهار النبيِّ ﷺ لها تأديبٌ لها وزَجرٌ عن بادرة المعارضة، وترك الحرمة، ولما حصل الإنكار صرَّحتْ بالاعتذار، فذكرت الآية، وحاصلُ ما فهمتْ منها: أنَّ الورودَ فيها بمعنى الدخول، وأنها قابلتْ عمومَ قوله ﷺ: "لا يدخلُ النارَ أحدٌ ممن بايعَ تحت الشجرة" بعموم قوله تعالى: ﴿وإن مِّنكُمْ إلاَّ وَارِدُها﴾[3]، وكأنها رجَّحتْ عمومَ القرآن. فتمسَّكتْ به، فأجابها النبيُّ ﷺ بأنَّ آخرَ الآية يبيِّنُ المقصودَ، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَإن الَّذينَ اتَّقُوا وَّنَذَرُ الظَّلمينَ فيهَا جثِيّاً﴾[4]. وحاصلُ الجواب:

---

(1)— سورة الفتح، الآية 27.
(2)— سورة مريم، الآية 71.
(3)— سورة مريم، الآية 71.
(4)— سورة مريم، الآية 72.

منكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا﴾ ، فقال النبيُّ ﷺ: "وقد قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقُوا وَّنَذَرُ الظَّلِمِينَ فيهَا جِثِيًّا﴾ .

تسليمُ أنَّ الورودَ دخولٌ، لكنه دخولُ عبور، فينجو من اتقى، ويترك فيها من ظلم، وبيانُ ذلك: أنَّ جهنم – أعاذنا الله منها – محيطةٌ بأرض المحشر، وحائلةٌ بين الناس وبين الجنة، ولا طريقَ للجنة إلا الصِّراط الذي هو جسرٌ ممدود على متن جهنم، فلا بدَّ لكلِّ مَن ضمَّه المحشرُ من العبور عليه، فناجٍ مُسلَّمٌ، ومخدوشٌ مرسل، ومُكَرْدَسٌ في نار جهنم كما تقدَّم، وهذا قولُ الحسن وقتادة، وهو الذي تعضده الأخبارُ الصحيحة، والنَّظر المستقيم. والورود في أصل اللغة: الوصولُ إلى الماء، وإنَّما عبَّر به عن العبور؛ لأن جهنم تتراءى للكفار كأنها سرابٌ فيحسبونه ماءً، فيقال لهم: ألا تريدون؟ كما صحَّ في الأحاديث المتقدّمة.

وفي حديث حفصة هذا أبوابٌ من الفقه، منها: جوازُ مراجعة العالم على جهة المباحثة، والتمسك بالعمومات فيما ليس طريقه العمل، بل: الاعتقاد، ومقابلة عموم بعموم. والجوابُ: بذكر المخصّص، وتأديب الطالب عند مجاوزة حدِّ الأدب في المباحثة. والمتقي: هو الحَذِرُ من المكروه الذي يتحرّز منه بإعداد ما يُتّقى به. ونذر: نترك. والظالم هنا: هو الكافر؛ لأنه وضَعَ الإلهية والعبادةَ في غير موضعهما. وجثيا: جمع جاث، وأصله: الجالسُ على ركبتيه، والمرادُ به هاهنا: المكبوبُ على وجهه، وهو: المكردسُ المذكورُ في الحديث، والله تعالى أعلم.

باب في فضائل أبي موسى الأشعري والأشعريين

عن أبي موسى قال: كنتُ عندَ النبيِّ، وهو نَازلٌ بالجِعْرَانَةِ بين مكةَ

ومن باب:فضائل أبي موسى الأشعريِّ – رضي الله عنه –

واسمه: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضّار – بفتح الحاء المهملة والضاد المعجمة المشددة – ويقال: حضَار – بكسر الحاء، وتخفيف الضاد –: من ولد الأشعر، وهو نبتُ بن أَدد، وقيل: من ولد الأشعر بن سبأ أخي حمير. قال أبو عمر: ذكرتْ طائفةٌ: أنَّ أبا موسى قدم مكَّةَ، فحالف سعيد بن العاصي، ثم أسلم بمكة، ثم هاجر إلى أرض الحبشة، ثم قدم مع أهل السفينة، ورسولُ الله ﷺ بخيبر. وقال أبو بكر بن عبد الله بن الجهم – وكان علامة نسَّابة –: ليس كذلك، ولكنه أسلم قديماً بمكة، ثم رجع إلى بلاد قومه، فلم يزلْ بها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله ﷺ، فوافق قدومهم قدوم أهل السفينتين: جعفر وأصحابه من أرض الحبشة، ووافوا رسولَ الله ﷺ بخيبر. قال أبو عمر: وإنما ذكره ابنُ إسحاق فيمن هاجر إلى أرض الحبشة؛ فبقوا فيها، ثم خرجوا مع جعفر وأصاحبه: هؤلاء في سفينة، وهؤلاء في سفينة، فوافوا رسولَ الله ﷺ حين افتتح خيبر، فقيل: إنه قَسَم لأهل السَّفينتين, وقيل: لم يقسم لهم، ثم ولَّ عمر بن الخطاب أبا موسى البصرة؛ إذ عَزَل عنها المغيرة في وقت الشَّهادة عليه، وذلك سنة عشرين، فافتتح أبو موسى الأهواز، ولم يزلْ على البصرة إلى صدرٍ من خلافة عثمان، ثم عزله عنها وولاّها عبد الله بن عامر بن كرز،

والمدينة ومعه بلالٌ، فأتى رسولَ الله ﷺ رجلٌ أعرابيٌّ، فقال: ألاَ تُنْجزَ لي يا محمدُ ما وعدتني؟ ! فقال له رسولُ الله ﷺ: "أبشرْ". فقال له الأعرابيُّ: أكثرتَ عليَّ مِنْ أَبشرْ ! فأقبلَ رسولُ الله ﷺ على أبي موسى وبلال كهَيئةِ الغضْبان، فقال: "إنَّ هذا قد ردَّ البُشْرَ، فاقبَلا انْتُما"، فقالا: قَبِلنا يا

فنزل أبو موسى حينئذٍ الكوفة وسكنها، ثم لما دفع أهل الكوفة سعيدَ بن العاصي ولَّوا أبا موسى، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يوليه فأقرَّه، فلم يزلْ على الكوفة حتى قُتِل عثمان، واستخلف عليٌّ، فعزله عنها. قال أبو عمر: فلم يزلْ واجداً منها على عليٍّ؛ لأنه عزله، ولم يستعمله، وغلبه أهلُ اليمن في إرساله في التحكيم فلم يجر لهم، ثم انقبض أبو موسى إلى مكة، ومات بها، وقيل: مات بالكوفة في داره بجانب المسجد، واختلف في وقت وفاته، فقيل: سنة اثنتين وخمسين. وكان — رضي الله عنه — من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، ولذلك قال له النبيُّ ﷺ: "أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود". وسُئل عليٌّ — رضي الله عنه — عن موضع أبي موسى من العلم، فقال: صُبغ في العلم صبغة. ورَوى عن رسول الله ﷺ ستمئة وستين حديثاً، أخرج له منها في الصَّحيحين ثمانية وستون حديثاً.

و(قول الأعرابي: أكثرتَ عليَّ من أبشر) قولُ جلف جاهل بحال النبيّ ﷺ وبقدر البشرى التي بشَّره بها النبيُّ ﷺ لو قبلها، لكنها عُرضت عليه فحُرِمَها، وقُضيت لغيره فقَبلَها. والبشْرة: خبرٌ بما يسرُّ، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها تظهر السُّرور في بشرَة المبشر، وأصله في الخير، وقد يقال في الشر توسُّعاً كما قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [1]، وفيه ثلاثُ

---

[1]— سورة التوبة، الآية 34.

رسول الله ! ثم دعا رسولُ الله ﷺ بقدَح فيه ماءٌ. فغَسَلَ يَدَيه ووجهَه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال: "اشرَبا منهُ، وأَفْرِغا على وُجُوهكُما ونُحُوركُما، وأبْشرا"، فأخَذَ القَدَحَ، ففعلا ما أمَرَهُما به رسول الله ﷺ، فنادَتْهُما أمُّ سَلَمَةَ من وراء السِّتْر: أفْضِلاَ لأُمِّكُما ممَّا في إنائكما ! فأَفْضَلا لها منهُ طائفةٌ.

وعن أبي بُردَة، عن أبيه، قال: لَمَّا فرَغَ النبيُّ ﷺ من حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عامرٍ على جَيْشٍ إلى أوطاس، فلَقِي دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة، فقُتل دُريدٌ وهزمَ الله أصحَابَهُ، فقال أَبو موسى: وبَعَثَني مع أبي عامرٍ. قال: فرُمي أبو عامرٍ في

لغات: أبشر – رباعياً – فتقول: أبشرته أبشره إبشاراً، ومنه: ﴿وأبشروا بالجَنَّة التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، وبشَّر – مشدَّداً يبشر تبشيراً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ﴾[2]، والثالثة: بَشَرْتُ الرجل – ثلاثياً، مفتوح العين – أبشره بالضم بشراً بالسكون وبشوراً، والاسم البُشارة – بكسر الباء وضمِّها –، والبُشرى: تقتضي مُبشَّراً به، فإذا ذكر تعيَّن، وإذا سكت عنه، صَلُح أن يُراد به العموم.

و(قوله النبي ﷺ: "أبشر") ولم يذكر له عين ما بشَّره به؛ لأنه – والله أعلم – قَصَد تبشيره بالخير على العموم الذي يصلح لخير الدنيا والآخرة، ولما جهل ذلك ردَّه لحرمانه وشقْوته، ولما عَرَض ذلك على من عرف قدره بادر إليه وقبله، فنال من البشارة الخير الأكبر، والحظَّ الأوفر، وذلك فَضْلُ الله يُؤتيه مَن يشاء. وكونه ﷺ غسل وجهه في الماء، وبصق فيه، وأمره بشرب ذلك، والتمسُّح به مبالغةٌ في إيصال الخير والبركة لهما؛ إذ قد ظهرت بركتُه ﷺ فيما لمسه، أو باشره، أو اتصل به منه شيءٌ، ولما تحقَّقت

---

[1]– سورة فصلت، الآية 30.

[2]– سورة الزمر، الآية 17-18.

رُكْبَته؛ رماه رجلٌ من بني جُشَم بَسَهمٍ فأثْبَتَه في رُكْبَته، فانتهيت إليه فقلتُ: يا عمِّ ! من رَمَاكَ؟ فأشار أبو عامر إلى أبي موسى، فقال: إنَّ ذاك قاتلي، تراهُ ذاك الذي رماني؟ قال أبو موسى: فقَصَدْتُ له فاعتَمَدتُه، فلَحقْتُهُ، فلمَّا رآني وَلَّى عنِّي ذاهباً، فأتَّبعْتُه وجعلتُ أقولُ لَهُ: ألا تستَحي؟ ألستَ عَرَبياً؟ ألا تَثُبتُ؟ فكفَّ، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا أنا وهو ضَرْبَتَيْن، فضربتُه بالسَّيف فقتَلْتُه، ثم رجعتُ إلى أبي عامر فقلتُ: إنّ الله قَد قَتَلَ صاحبَكَ ! قال: فانزعْ هذا السَّهم ! فنَزَعْتُه فنَزَا منه الماءُ، فقال: يا بن أخي ! انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرِئه منِّي السّلام، ومكث يسيراً،

أمُّ سلمة ذلك سألتهما أن يتركا لهما فضلةٌ من ذلك ليصيبَها من تلك البشرى، ومن تلك البركة حظٌّ، وفيه ما يدلُّ على جواز الاستشفاء بآثار النبي ﷺ وبكلماته، ودعواته، وعلى جواز النشرة بالماء الذي يُرقى بأسماء الله تعالى، وبكلامه، وكلام رسوله ﷺ، وقد تقدم ذكْر الخلاف في النشرة في كتاب الطب. وأوطاس: موضعٌ قريبٌ من حنين، وبَعْثُ أبي عامرٍ إنما كان لتتبُّع منهزمة هوازن بحُنين، ويُسمَّى خيله: خيل الطلب، وأبو عامر هذا: اسمه عبيد بن سليم بن حضّار الأشعري، وكان أبو عامر هذا من كبار الصحابة، عقد له رسولُ الله ﷺ لواءٌ يوم ولاّه على هذا الجيش، وخَتَم الله تعالى له بالشهادة، وبدعاء رسول الله ﷺ بالمغفرة.

و(قوله أبي عامر: إن ذاك قاتلي، تراه ذاك الذي رماني) كذا الرواية الصحيحة، تراه: بالتاء باثنتين من فوقها، والكلام كله لأبي عامر، وكأن الذي رمى أبا عمر كان قريباً منهما، فأشار إليه بذلك مرتين تقريبا له، وأكَّد ذلك بقوله: تراه، فكأنه قال: الذي تراه، ووقع في بعض النسخ ذلك بلام البعد، وفيه بُعْدٌ، وقرأه بالفاء، فكأنه من قول الراوي خبراً عن أبي موسى أنه رأى القاتل، والأول أصحُّ.

ثم إنه ماتَ، فلمَّا رجعتُ إلى رسول الله ﷺ دخلتُ عليه، وهو في بيت على سرير مُرْمَلٍ، عليه فراشٌ، قد أثَّر رمالُ السرير بظهر رسولِ الله ﷺ وجَنْبيه، فأخبَرتُهُ بخَبرنَا وخَبَر أبي عَامرٍ. وقلتُ له: قال: قل له: يستغفر لي. فدعا رسولُ الله ﷺ بماءٍ فتوضأ منه، ثم رفع يديه، ثم قال: "اللَّهم اغْفِر لعُبيْدٍ – أبي عَامِرٍ –" حتى رأيتُ بياضَ إبْطيْه، ثم قال: "اللهمَّ اجعله يوم

و(قوله: فنزا منه الماء) أي: خرج الماء بسرعة إثر خروج السهم، وأصل النزو: الارتفاع والوثب.

و(قوله: واستعملني عامرٌ على الناس) فيه ما يدلُّ على: أنَّ الوالي إذا عَرَض له أمرٌ جاز أن يستنيبَ غيره.

و(قوله: فوجدته على حصير مُرْمَل، قد أثر رُمَال الحصير في ظهره) صحيحُ الرواية فيه: مرملٌ بضم الميم الأولى، فسكَّن الراء، مفتوح الميم الثانية. وهو من أرملت الحصير؛ إذا شقَقْته ونسجته بشريط أو غيره. قال الشاعر:

إذْ لا يَزالُ عَلَى طَريقٍ لاحبٍ وكأنَّ صَفْحَتَـهُ حَصيرٌ مُرَمَـلُ

ويُقال: رملتُ الحَصيرَ أيضا – ثلاثياً – ورُمَال الحصير: هو ما يؤثر منه في جَنْب المضطجع عليه.

و(قوله: وعليه فراش) كذا صحَّتِ الروايةُ بإثبات الفراش، ويقال القابسيُّ: الذي أعرف: وما عليه فراش.

قلتُ: وأستبعدُ أن يكون عليه فراشٌ ويؤثر في ظهره، وإنما يستبعدُ ذلك إذا كان الفراشُ كثيفاً، وثيراً، ولم يكن فراشُ النبي ﷺ كذلك، فلا يستبعد.

القيامة فوقَ كثيرٍ من خَلْقكَ – أوْ: من الناس-". فقلتُ: وَلي يا رسول الله فاستغفر ! فقال النبيُّ ﷺ: "اللهُمّ اغفرْ لعبد الله بن قيس ذنبَه، وأدخله يوم القيامةِ مُدْخَلاً كريماً". قال أبو بُردة: إحداهُما لأبي عامر، والأخْرَى لأبي موسى.

و(قوله: فدعا رسولُ الله ﷺ بماء فتوضأ منه، ثم رفع يديه) ظاهرُ هذا الوضوء: أنه كان للدُّعاء؛ إذ لم يُذكر أنه صلى في ذلك الوقت بذلك الوضوء، ففيه ما يدلُّ على مشروعية الوضوء للدُّعاء، ولذكر الله، كما تقدَّم من قوله ﷺ: "إني كرهتُ أن أذكرَ الله إلا على طهارة".

و(قوله: ثم رفع يديه حتى رأيتُ بياض إبطيه) دليلٌ: على استحباب الرَّفع عند الدُّعاء، وقد فعل النبيُّ ﷺ ذلك يوم بدر، في الاستسقاء، وقد رويتْ كراهيةُ ذلك عن مالك، ويمكن أن يُقال: إنما كره أن يُتَّخذ ذلك سُنَّةٌ راتبةٌ على أصله في هذا الباب، أو مخافة أن يعتقدَ الجهَّالُ مكاناً لله تعالى، والذي يزيلُ هذا الوهم: أن يقال: لا يلزمُ من مدِّ الأيدي إلى السَّماء أن يكون مكاناً لله، ولا جهةٌ، كما لا يلزمُ من استقبلا الكعبة ان يكون الله تعالى فيها، بل السماءُ قبلةُ الدُّعاء، كما أن الكعبةَ قبلةُ الصلاؤ، والباري تعالى مُنزّهٌ عن الاختصاص بالأمكنة والجهات، إذ ذاك من لوازم المحدثات، ولقد أحسن مَن قال: لو كان الباري تعالى في شيءٍ لكان محصوراً، ولو كان على شيءٍ لكان محمولاً، ولو كان من شيءٍ لكان محدثاً، وقد حصل أبو موسى على مثل ما حصل لعمه أبي عامر من استغفار رسول الله ﷺ وزاده: "وأَدْخلْه مدخلاً كريماً" ليلحقه بمنزلة أبي عامر في الجنة لأنه قَتَل قاتله، والله تعالى أعلم.

وعن أبي موسى، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "أني لأعرفُ أصواتَ رُفْقَة الأشعريين بالقرآن حين يدخُلونَ باللَّيل، وأعرفُ مَنازلَهُم من أصواتهم، بالقرآن باللَّيل، وإنْ كنتُ لَمْ أرَ منازلَهُم حين نزلوا بالنَّهار، ومنهم حَكيمٌ إذا لَقي الخَيْلَ – أو قال العدو – قال لهم: إن أصحابي يأمرونكم أن تَنْظُرُوهُم".

و(قوله ﷺ: "إني لأعرفُ أصواتَ رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل") كذا صحَّت الروايةُ فيه بالدال المهملة والخاء المعجمة، من الدخول، وقد رواه بعضُهم: يرحلون بالراء والحاء والمهملة، من الرحيل قال بعضُ علمائنا: وهو الصوابُ، يشير إلى أنهم كانوا يلازمون قراءةَ القرآن في حال رحيلهم، وفي حالة نزُولهم، وكأنَّ الأشعرين كثيرٌ فيهم قراءةُ القرلآن بسبب أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – فإنه كان من أحسنِ النَّاس صوتاً بالقرآن، فكان يقرأُ لهم، فتطيبُ لهم قراءته، فيتعلَّموا منه القرآن. وأحبُّوه فلازموه، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "ومنهم حكيم إذا لقي الخيل، أو العدو قال لهم: إنَّ أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم") وحكيم: بمعنى محكَّم، ويعني به هنا: أنه مُحكَّم لأمور الفروسية الشَّجاعة، ولذلك سَبَق قومَه إلى العدو، كما فعل النبيُّ ﷺ حين ركب فرس أبي طلحة واستبرأ خبر العدو، ثم رجع، فلقي أصحابه خارجين، فأخبرهم بأنهم: لا روع عليهم. وقد يجوز أن يكون ذلك الحكيمُ هو أبو موسى أو أبو عامر، ويكون النبيُّ ﷺ قال هذا قبل قَتْله. والله تعالى أعلم.

وعنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ الأشْعَرِيّينَ، إذا أرْمَلُوا في الغَزْوِ، أو قلَّ طعامُ عِيَالِهم بالمدينة، جمعوُا ما كان عندهُم في ثَوْبٍ واحدٍ، ثم اقْتسموه بينهُم في إناءٍ واحدٍ بالسَّويّة، فهم منِّي وأنا مِنْهُم".

(وقوله ﷺ: "إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم، ثم اقتسموه") هذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ الغالب على الأشعريين الإيثار، المواساة عند الحاجة، كما دلَّ الحديثُ المتقدِّمُ على أنَّ الغالبَ عليهم القراءة والعبادة، فثبت لهم بشهادة رسول الله ﷺ: أنَّهم علماءُ عاملون، كرماءُ مؤثرون. ثم إنه ﷺ شرَّفهم بإضافتهم إليه، ثم زاد في التَّشريف بأنْ أضاف نفسه إليهم، ويمكنُ أن يكون معنى: "هم مني": فَعَلُوا فعلي من القراءة والعبادة والكرامة، و"أنا منهم": أفعلُ من ذلك ما يفعلون، كما قال بعضُ الشعراء:

وَقُلتُ أَخي قَالُوا أَخٌ وَكَرامةُ ... فقُلتُ لَهُمْ إنَّ الشُّكُولَ أَقَاربُ
نَسِيبي فِي رَأْيي وَعَزْمِي وَمَذْهَبِي ... وإنْ خَالَفَتْنا في الأُمُورِ المَناسِبُ

باب فضائل أبي سفيان بن حرب – رضي الله عنه –

عن ابن عباس، قال: كان المسلمون لا يَنْظُرون إلى أبي سفيانَ، ولا يُقاعدُونَه، فقال للنَّبيِّ ﷺ: يا نبيَّ الله ! ثلاثٌ أعْطنيهنَّ. قال: "نعم". عندي أحسنُ العرب وأجمَلُهُ؛ أمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيانَ أزَوِّجُكَها ! قال:

ومن باب: فضائل أبي سفيان بن حرب

واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأمويُّ، وكان من أشراف قريش، وساداتها، وذوي رأيها في الجاهلية، أسلم يومَ فتح مكة، وقد تقدّم خبرُ إسلامه، وشهد حُنيناً، وأعطاه النبيُّ ﷺ من غنائمها مئةَ بعير، وأربعين أوقية وَزَنَها له بلال. قال أبو عمر: واختلف في حُسن إسلامه، فطائفةٌ تروي: أنه لما أسلم حَسُن إسلامُه، وذكروا عن سعيد بن المسيّب عن أبيه قال: رأيتُ أبا سفيان يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد يقاتل. يقول: يا نصرَ الله اقترب. وُروي عنه أنه قال: فقدت الأصوات يومَ اليرموك إلا صوت رجل واحد يقول: يا نصرَ الله اقتربْ، قال المسيِّب: فذهبتُ أنظر، فإذا هو أبو سفيانَ بن حرب تحت راية ابنه. وقد روي: أنَّ أبا سفيان كان يومَ اليرموك يقفُ على الكراديس فيقول للناس: الله ! الله ! إنكم ذادةُ العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادةُ الروم، وأنصار المشركين، اللهم ! هذا يومٌ من أيامك، اللهم ! انزل نَصْرَكَ على عبادك.

وطائفةٌ تروي: أنه كان كهفاً للمنافقين منذ أسلم، وكان في الجاهليةُ يُنسب إلى الزَّندقة، وكان إسلامُه يوم الفتح كرهاً كما تقدَّم من حديثه، ومن قوله في كلمتي الشهادة حين عُرِضَتْ عليه: أما هذه ففي النفس منها شيءٌ. وفي خبر ابن الزُّبير أنه رآه يومَ اليرموك قال: فكانت الرومُ إذا ظهرت قال أبو سفيان: إيه بني الأصفر !.

"نعم". قال: ومعاويةُ، تجعَلُهُ كاتباً بينَ يَدَيكَ. قال: "نعم". قال: وتُؤمِّرُني

و(قول ابن عباس: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان بن حرب ولا يقاعدونه) إنما كان ذلك لما كان من أبي سفيان من صنيعه بالنبيّ ﷺ وبالمسلمين في شرْكه؛ إذ لم يصنعْ أحدٌ بهم مثل صهيعه، ثم إنه أسلم يوم الفتح مكرهاً، وكان من المؤلفَّة قلوبهم، وكأنهم ما كانوا يثقون بإسلامه، وقد ذكرنا اختلافَ المسلمين في نفاقه.

و(قوله: عندي أحسن العرب وأجمله أمّ حبيبة بنت أبي سفيان أزوِّجكما؟ قال: "نعم") الضمير في (أجمله) عائد على الجنس الذي دل عليه العرب، وأمُّ حبيبة هذه اسمُها رملة، وقيل: هند، والأول هو المعروف والصحيح، وإنما هند بنت عتبة زوجةُ أبي سفيان، وأم معاوية. وظاهرُ هذا الحديث أنَّ أبا سفيان أنكح ابنتَه النبيَّ ﷺ بعد إسلامه، وهو مخالفٌ للمعلوم عند أهل التواريخ والأخبار، فإنهم مُتَّفقون على أنَّ النبيّ ﷺ تزوَّج بأم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح، وقبل إسلام أبيها، فإن أبا سفيان قبل الفتح، وقبل إسلام أبيها، فإن أب سفيان قدم قبل الفتح المدينة طالباً تجديدَ العهد بينه وبين رسول الله ﷺ وأنه دخل بيتَ أمّ حبيبة ابنته، فأراد أن يجلسَ على بساط رسول الله ﷺ فنزعته من تحته، فكلَّمها في ذلك، فقالت: أنّه بساطُ رسول الله ﷺ وأنت مشركٌ ! فقال لها: يا بنية ! لقد أصابَك بعدي شرّ، ثم طلب من عليٍّ، ومن فاطمة ومن غيرهما أن يُكلِّموا النبيَّ ﷺ في الصلح، فأبوا عليه، فرجع إلى مكة من غير مقصود حاصل، وكلُّ ذلك معلومٌ لا شك فيه، ثم إنَّ الأكثرَ من الروايات والأصحّ منها: أنَّ النبيَّ ﷺ تزوج أمَّ حبيبة، وهي بأرض الحبشة، وذلك أنها كانت تحت عبد الله بن جحش الأسدي، أسد خزيمة، فولدت له حبيبة التي كُنِّيت بها، وأنها أسلمت وأسلم زوجُها عبيد الله بن جحش وهاجرَ بها إلى أرض الحبشة،

حتى أقاتل الكفارَ؛ كما كنتُ أقاتلُ المسلمين. قال: "نعم". قال أبو زميل:

وذلك أنها كانت تحت عبد الله بن جحش الأسدي، أسد خزيمة، فولدت له حبيبة التي كُنِّيت بها، وأنها أسلمت وأسلم زوجُها عبيد الله بن جحش وهاجرَ بها إلى أرض الحبشة، ثم أنَّ زوجَها تنصَّر هناك، ومات نصرانياً، ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ خطبها وهي بأرض الحبشة فبحث شرحبيل بن حسنة إلى النجاشي في ذلك. روى الزبير بن بكار عن إسماعيل بن عمرو: أن أم حبيبة قالت: ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشي جارية يقال له: أبرهة، كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فاستأذنت عليَّ فأذنتُ لها، فقالتْ: إنَّ الملكَ يقولُ لك: إن رسول الله ﷺ كتب أن أزوِّجَكه، فقلت: بشَّرَكِ الله بخير، وقالت: يقول لك الملك: وكّلي من يزوِّجك، فأرسَلْتُ إلى خالد بن سعيد فوكَّلْتُه، وأعطيتُ أبرهة سوارين من فضَّة كانتا عليَّ، وخواتم فضَّة، كانت في أصابعي سُروراً بما بشَّرتني به، فلما كان العشيُّ أمر النجاشيُّ جعفرَ أبنَ أب طالب، ومَن هناك من المسلمين يحضرون، وخطب النجاشيُّ فقال: الحمدُ لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزي الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشَّر به عيسى ابن مريم، أما بعد: فإنَّ رسول الله ﷺ، وقد أصدقْتُها أربعمئة دينار، ثم سكب الدَّنانير بين يدي القوم، فتكلم خالد بن سعيد، فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كلِّه، ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسولُ الله ﷺ وزوَّجْتُه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله. ودفع النجاشيُّ الدنانير إلى خالد بن سعيد، فقبضها، ثم أرادوا أن يوقوموا فقال: اجلسوا فإن سُنَّةَ الأنبياء إذا تزوَّجوا أن يُؤكل طعامٌ على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا،

ولولا أنَّه طلب ذلك من النَّبيّ ﷺ، ما أعْطَاه ذلك؛ لأنَّه لم يكُنْ يُسْأَلُ شيئاً إلا قال: نعم.

ثم تفرَّقوا. قال الزبير: قدم خالدُ بن سعيد، وعمرو بن العاص بأمِّ حبيبة م أرض الحبشة عام الهدنة. وقال بعضُ الرواة: إنما أصدقها أربعةُ آلاف درهم، وأنَّ عثمان بن عفان هو الذي أولم عليها، وأنَّه هو الذي زوَّجها إيَّاه، وقيل: زوَّجها النجاشي.

قال الشيخ رحمه الله: ويصحُّ الجمعُ بين هذه الروايات، فتكون الأربعمئة دينار صرفت، أو قوِّمت بأربعة آلاف درهم، وأن النجاشي هو الخاطب، وعثمان هو العاقد، وسعيد الوكيل، فصحَّت نسبةُ الترويج لكلِّهم، وهذا هو المعروف عند جمهور[1] أهل التَّواريخ والسِّير، كابن شهاب، وابن إسحاق، وقتادة، ومُصعب، والزُّبير وغيرهم.

وقد روي عن قتادة قولٌ آخر: أنَّ عثمان بن عفان وزَّجها من النبيِّ ﷺ بالمدينة بعدما قدمتْ من أرض الحبشة. قال أبو عمر: والصحيح الأول، وروي أنَّ أبا سفيان قيل له؛ وهو يحاربُ رسولَ الله ﷺ: إن محمداً قد نكح ابنتك ! فقال: ذلك الفحلُ الذي لا يُقْدَعُ أنفه[2]. وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: تزوَّج رسولُ الله ﷺ أمَّ حبيبة سَنَة ستّ من التاريخ، قال غيرُه: سنة سبع، قال أبو عمر: توفيتْ أمُّ حبيبة سنة أربع وأربعين.

قال الشيخ رحمه الله: فقد ظهر أنَّه لا خلافَ بين أهل النقل أنَّ تزويج النبيِّ ﷺ مُتقدِّمٌ على إسلام أبيها أبي سفيان، وعلى يوم الفتح، ولَمَّا ثبت

---

(1)- في (ز): أهل.

(2)- معناه: لا يُضرب أنفه، وذلك إذا كان كريماً، وأصله للفحل إذا كان غير كريم وأراد ركوب الناقة الكريمة، فيضربون أنفه بالرمح وغيره ليرتدع. يريد أبو سفيان: أنه كفءٌ كريم لا يُردُّ.

.....

هذا تعيَّن أن يكونَ طَلَبُ أبي سفيان تزويجَ أمِّ حبيبة للنبيّ ﷺ بعد إسلامه خطا ووهماً، وقد بحث النقَّادُ عمَّن وقع منه ذلك الوهمُ فوجدوه قد وقع من عكرمة بن عمار.

قال أبو الفرج الجوزي: اتهموا به عكرمةٌ بن عمار، وقد ضعَّفَ أحاديثه يحيى بن سعيد، وأحمد بن حنبل، ولذلك لم يُخرِّج عنه البخاريُّ، وإنما أخرجَ عنه مسلم؛ لأنه قد قال فيه يحيى بن معين: هو ثقة. وقال أبو محمد علي بن أحمد الحافظ: هذا حديثٌ موضوعٌ، لاشكَّ في وضْعه، والآفةُ فيه من عكرمة بن عمار، قال بعضُهم: ومما يُحقِّق الوهمَ في هذا الحديث قولُ أبي سفيان للنبيِّ ﷺ: أريدُ أن تؤمِّرني. فقال له: "نعم". ولم يسمع قطُّ أنَّ النبيَّ ﷺ أمَّر أبا سفيان على أحدٍ إلى أن تُوفِّي، فكيف يخلف النبيُّ ﷺ الوعد؟ هذا ما لا يجوزُ عليه.

قال الشيخ رحمه الله: قد تأوَّل بعضُ من صحَّ عنده ذلك الحديث، بأن قال: إنَّ أبا سفيان إنما طلبَ من النبيِّ ﷺ أن يُجدِّد معه عقداً على ابنته المذكورة ظناً منه: أنّ ذلك يصحُّ، لعدم معرفته بالأحكام الشرعية، لحداثة عهده بالإسلام، واعتذر عن عدم تأميره مع وعده له بذلك؛ لأن الوعدَ لم يكن مؤقَّتاً، وكان يرتقبُ إمكانَ ذلك فلم يتيسَّر له ذلك إلى أن توفي رسولُ الله، أو لعلَّه ظهر له مانعٌ شرعيٌّ منعه من توليته الشَّرعية، وإنما وعده بإمارة شرعية فتخلّف لتخلُّف شَرْطِها، والله تعالى أعلم.

باب فضائل جعفر بن أبي طالب
وأسماء بنت عميس وأصحاب السفينة

عن أبي موسى، قال: بلَغَنا مَخْرجُ رسولِ الله ﷺ ونحنُ باليمن، فخرجنا

ومن باب: فضائل جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه –

يُكنى: أبا عبد الله، كان أكبرَ من عليٍّ أخيه – رضي الله عنهما – بعشر سنين، وكان من المهاجرين الأوَّلين، هاجر إلى أرض الحبشة، وقدم منها على رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فتلقَّاه النبيُّ ﷺ، وعانقه، وقال: "ما أدري بأيِّهما أنا أشدُّ فرحاً، بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر؟". وكان قدومه من الحبشة في السنة السَّابعة من الهجرة، واختطَّ له النبيُّ ﷺ إلى جَنْب المسجد، وقال له النبيُّ ﷺ: "أشبهتَ خَلْقي". ثم غزا غزوةَ مُؤتة، وذلك في سنة ثمان من الهجرة، فقُتل فيها بعد أن قاتل فيها حتى قطعتْ يداه جميعاً، فقال رسولُ الله ﷺ: "إن الله أبدله بيديه جناحَين يطيرُ بهما في الجنة حيث يشاء". فمن هنالك قيل له: ذو الجناحين.. ولَما أتى النبيَّ ﷺ نعيُ جعفر أبى امرأته أسماءَ بنت عُميس، فعزَّاها في زوجها، فدخلت فاطمة تبكي وهي تقول: واعماه! فقال لها رسول الله ﷺ: "على مثل جعفر فلتبك البواكي". وأما أسماء فهي: ابنةُ عُميس بن معدٍّ بن الحارث بن تيم بن كَعب بن مالك الخثعمية، من خثعم أنمار، وهي أخت ميمونة زوج النبي ﷺ وأخت لبابة – أم الفضل – زوجها العباس، وأخت أخواتها، وهنَّ: تسع، وقيل: عشر. هاجرتْ أسماءُ مع زوجها جعفر إلى أرض الحَبشة، فولدتْ له هنالك محمداً، وعبد الله، وعوفاً، ثم هاجرتْ إلى المدينة. فلما قتل جعفر، تزوَّجها أبو بكر الصِّدِّيق – رضي الله عنهما – وولدت له محمد بن أبي بكر، ثم مات عنها فتزوجها علي بن أبي بكر، ثم مات عنها فتزوجها علي بن أبي طالب، فولدت يحيى بن عليٍّ، لا خلافَ

مهاجرينَ إليه، أنا وأَخَوان لي، أنا أَصغَرُهُما، أحَدُهُما أبو بُرْدَة، والآخرُ أبو رُهْم – إما قَال: بْضعاً، وإمَّا قال: ثلاثةٌ وخمسينَ، أو اثنين وخمسينَ رجُلاً من قومي – قال: فرَكِبْنا سفينةٌفألْقَتْنا سَفينتُنا إلى النجاشيِّ بالحبشة، فوافقْنا جعفَر بنَ أبي طالب وأصحابَه عنْدَه، فقال جعفرٌ: إنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَنا هَاهُنا، وأَمَرَنا بالإقَامة، فأقيموا معنا. قال: فأقمنا معه حتى قَدمْنا جميعاً. قال: فوافقنا رسولَ الله ﷺ حينَ افْتَتَح خيبر، فأَسْهَمَ لَنا – أو قَال: أعطانَا منْها – وما قَسَم لأحد غابَ عن فتْح خيبر منْها شيئاً. إلا لَمن شَهدَ معه، إلا لأصْحَاب سَفينَتنا مع جعفر وأصحابه. قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُم. قالَ: فكان ناسٌ من الناس يقولونَ لَنا – يعني لأهلَ السَّفينة –: سبقناكم بالهجرة ! قال: فدخَلَتْ أَسماء بنتُ عُمَيْس – وهي ممّن قدمَ مَعَنا – على حفصةَ زوْجِ النبيّ ﷺ زائرةٌ – وقدْ كانتْ هاجرتْ إلى النَّجاشيِّ فيمنْ هاجَرَ إليه – فدخل عمرُ على حفصة وأسماءُ عندها. فقال عمرُ حين رأى أسماءَ: من هذه؟ قالتْ: أسماءُ بنت عميس. قال عمرُ: الحبشة هذه؟

في ذلك، وقيل: كانت أسماء بنت عُميس تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له ابنة تسمى: أمة الله. وقيل: أمامة، ثم خَلَف عليها بعده شداد بن الهادي الليثي، فولدت له: عبد الله وعبد الرحمن، ثم خلف عليها بعده جعفر ثم كان الأمرُ كما ذكر.

و(قول أبي موسى: إما قال: بضعة، وإما قال: ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً؟) كذا صواب الرواية بإثبات هاء التأنيث في بضعة؛ لأنه عَدَدٌ مُذَكَّرٌ، وبالنصب على الحال من: خرجنا المذكور، وإما: موطئة للشك، وما بعدها معطوفٌ عليها مشكوكٌ فيه، وقد وقع في بعض النسخ، إما قال: بضع – بإسقاط الهاء – وبالرفع مع نصب: وخمسين، وذلك لحنٌ واضح، والأول الصواب.

البحريَّة هذه؟ فقالتْ أسماءُ: نعم ! فقال عمر: سَبَقْناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغَضِبَتْ، وقالتْ كلمةً: كَذَبْتَ يا عمرُ ! كَلا والله كنتُم مع رسول الله ﷺ يُطْعَمُ جائعكُمْ، ويعظُّ جاهلَكُم، وكنّا في دار — أو في أرض — البُعَدَاء البُغَضَاء في الحبشة، وذلك في الله، وفي رسُوله. وايم الله ! لا أَطْعَمُ طَعَاماً، ولا أَشْرَبُ شَراباً حتى أذْكُرَ ما قلتَ لرسول الله ﷺ ! ونحن كنا نؤذَى ونُخَافُ. وسأذكرُ ذلك لرسول الله ﷺ وأسألُهُ ووالله ! لا أكذِبُ، ولا أزيغُ، ولا أزيد على ذلك قال: فلمّا جاءَ النبيّ ﷺ؛

و(قول عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟) نَسَبَها إلى الحبشة لمقامها فيهم، وللبحر لمجيئها فيه، وهو استفهامٌ قَصَد به المطابيةَ والمباسطة، فإنه كان قد علم مَ، هي حين رآها.

و(قول عمر: سبقناكم فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم)، صدَرَ هذا القولُ من عمر — رضي الله عنه — على جهة الفرح بنعمة الله، والتحدُّث بها، لما علم من عظيم أجر السَّابق للهجرة. ورفعه درجته على اللاحق، ولا على جهة الفخر والتَرفُّع، فإنَّ عمر — رضي الله عنه — مُنَزَّهٌ عن ذلك، ولما سمعتْ أسماءُ ذلك، غضبتْ غَضَبَ منافسة في الأجر وغيره على جهة السَّبْق، فقالت: كذبتَ يا عمر ! أي: أخطأتَ في كنّك، لا أنها نسبته إلى الكذب الذي يأثمُ قائلُه، وكثيراً ما يُطلق الكذبُ بمعنى الخطأ، كما قال عُبادة بن الصامت — رضي الله عنه -: كذب أبو محمد[1] لما زعم أن الوتر واجب.

و(قولها: كلا والله) أي: لا يكونُ ذلك، فهي نفيٌ لما قال، وزجْرٌ عنه، وهذا أصلُ كلاّ، وقد تأتي للاستفتاح بمعنى ألا. والبُعداء: جمع بعيد. والبُغضاء: جمع بغيض، كظريف وظرفاء، وشريف وشرفاء.

---

[1]— هو مسعود بن زيد، واسمه: أبو محمد الأنصاري. انظر: أسد الغابة (161/5).

قالت: يا نبيّ الله ! إنّ عُمر قال: كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: "ليس بأحقَّ بي منكم، له ولأصْحَابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكن أنتم أهلَ السَّفينة هجرتان". قالت: فلقد رأيتُ أَبَا موسى وأصحابَ السفينة يأتوني أَرْسالاً؛ يسألوني عن هذا الحديث، ما منَ الدُّنيا شيءٌ هُمْ به أفرحُ، ولا أعظمُ في أَنْفُسِهم ممّا قالَ لَهُمْ رسولُ الله ﷺ.

و(قوله ﷺ: "ليس أحقَّ بي منكم") يعني في الهجرة لا مطلقاً. وإلا فمرتبة عمر – رضي الله عنه – وخصوصيَّة صُحبته للنبيِّ ﷺ معروفةٌ بدليل قوله ﷺ: "له ولأصحابه هجرةٌ واحدة، ولكم أهلَ السفينة هجرتان". وسَبَبُ ذلك أن عمرَ وأصحابَهُ هاجروا من مكَّة إلى المدينة هجرةٌ واحدة في طريق واحد، وهاجر جعفرُ وأصحابُه إلى أرض الحبشة، وتركوا رسولَ الله ﷺ بمكة، ثم إنَّهم لَمَّا سمعوا بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ابتدؤوا هجرةٌ أخرى إليه، فتكرَّر الأجرُ بحسب تكرار العمل والمشقة في ذلك.

و(قولها: يأتوني أرسالاً) أي: مُتتابعين جماعة بعد جماعة، وواحد الأرسال: رَسْل، كأحمال جمع حمل. يقال: جاءت الخيل أرسالاً: أي: قطعة قطعة، ففيه قبول أخبار الآحاد، وإن كان خبر امرأة، وفيما ليس طريقاً لعمل، والاكتفاء بخبر الواحد المفيد لغلبة الظَّنِّ مع التمكُّن من الوصول إلى اليقين؛ فنَّ الصَّحابةَ – رضي الله عنهم – اكتفوا بخبرها، ولم يراجعوا رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ من ذلك، وخبرُها يفيدُ ظنَّ صِدْقها، لا العلم بصدقها، فافهمْ هذا.

و(قولها: ما من الدُّنيا شيءٌ هُم أَفْرَحُ به، ولا أعظمُ في أنفسهم مما قال لهم رسولُ الله ﷺ تعني: ما من الدنيا شيءٌ يحصلُ به ثوابٌ عند الله تعالى هو في نفوسهم أعظمُ قدراً، ولا أكثرُ أجراً، مما تضَمَّنه هذا القول؛ لأنَّ أصلَ أفعل أن تُضاف إلى جنسها، وأعراضُ الدنيا ليست من جنس ثواب الآخرة، فتعيَّن ذلك التأويل، والله تعالى أعلم.

باب فضائل سلمان وصهيب – رضي الله عنهما –

عن عائذ بن عمرو: أنَّ أبا سفيانَ أتى على سَلْمان، وصهيبٍ، وبلال

ومن باب: فضائل سلمان وصهيب – رضي الله عنهما –

أما سلمان، فيُكنى: أبا عبد الله، وكان ينتسبُ إلى الإسلام، فيقول: أنا سلمانُ ابن الإسلام، ويُعَدُّ من موالي رسول الله ﷺ؛لأنه أعانه بما كُوتبَ عليه، فكان سَبَبَ تقه، وكان يُعرف بسلمان الخير، وقد نسبه النبيُّ ﷺ إلى أهل بيته، فقال: "سلمانُ منَّا أهلَ البيت", وأصله فارسيٌّ من رام هرمز، من قرية يقال لها: جَيّ. ويقال: بل من أصبهان، وكان أبوه مجوسياً من قوم مجوس، فنبَّهه الله لقبح ما كان عليه أبوه وقومُه، وجَعَلَ في قلبه التشوُّفَ إلى طَلَب الحقِّ، فهرب بنفسه، وفرَّ من أرضه إلى أن وصل إلى الشام، فلم يزلْ يجولُ في البلدان، ويختبرُ الأديان، ويستكشفُ الأحبارَ والرُّهبان، إلى أن دُلَّ على راهب الوجود، فوصل إلى المقصود، وذلك بعد مكابدة عظيم المشقَّات، والصبر على مكاره الحالات، من: الرق، والإذلال، والأسر، والأغلال، كما هو منقولٌ في إسلامه في كُتُب السِّير وغيرها.

وروى أبو عثمان النّهدي عن سلمان أنه قال: تداوله في ذلك بضعة عشر ربّاً من ربٍّ إلى ربٍّ حتى أفضى إلى النبيّ ﷺ.

قال غيره: فاشتراه رسولُ الله ﷺ للعتق من قوم من اليهود بكذا وكذا درهماً، وعلى أن يغرسَ لهم كذا وكذا من النَّخل، يعملُ فيها سلمان حتى تدرك، فغرس رسولُ الله ﷺ النخلَ كلَّها بيده، فأطعمتِ النخلُ من عامها.

في نَفَرٍ، فقالوا: ما أخذتْ سيوفُ الله من عُنُقِ عدوِّ الله مأخَذَها ! قال:

وأوّلُ مشاهده مع رسول الله ﷺ الخندقَ، ولم يَفْتُهُ بعد ذلك مشهدٌ معه. وقد قيل: إنه شهد بدراً وأُحُداً، والأوّلُ أعرف. وكان خيِّراً فاضلاً حَبْراً عالماً زاهداً مُتَقشِّفاً. رُويَ عن الحسن أنه قال: كان عطاءُ سلمان خمسةَ آلاف، وكان إذا خرج عاؤه تصدَّق به، ويأكل من عمل يده، وكانت له عبادة يفترش بعضها ويلبسُ بعضها.

وذكر ابن وهب، وابن نافع عن مالك قال: كان سلمانُ يعملُ الخوصَ بيده فيعيش منه، ولا يقبلُ من أحد شيئاً، قال: ولم يكن له بيت؛ إنما كان يستظلُّ بالجُدُر والشجر؛ وإن رَجلاً قال له: ألاَ أبني لك بيتاً تسكنُ فيه؟ فقال: ما لي به حاجة، فما زال به الرجلُ حتى قال له: إنِّي أعرفُ البيتَ الذي يوافقك، قال: فصفه لي. فقال: أبني لك بيتاً إذا أنت قمتَ فيه أصابَ رأسَك سقفُه، وإذا أنت مددتَ رجليكَ أصابك الجدار. قال: تعم، فبني له.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: "لو كان الدينُ في الثريا لناله سلمان"، وفي رواية: "رجال من الفرس". وقالت عائشة – رضي الله عنها –: كان لسلمان مجلسٌ من رسول الله ﷺ ينفردُ به بالليل حتى كان يغلبنا على رسول الله ﷺ. وقال ﷺ: "إنَّ الله أمرني أن أحبَّ أربعة، وأخبرني أنه يحبُّهم: عليٌّ، وأبو ذرّ، والمقداد، وسلمان". وقال أبو هريرة: سلمانُ صاحب الكتابين، وقال عليٌّ: سلمان عَلِمَ العلمَ الأول والآخر، بحرٌ لا يترف، هو منَّا أهل البيت. وقال عليٌّ – رضي الله عنه – أيضاً: سلمان الفارسي مثل لقمان الحكيم. وله أخبارٌ حسان، وفضائلُ جَمَّة. توفي سلمان – رضي الله عنه – في آخر خلافة عثمان – رضي الله عنه – سنة خمس وثلاثين، وقيل: مات بل سنَة ستٍّ في أولها، وقد قيل: توفي في

فقال أبو بكر: تقولون هذا لشيخ قريشٍ وسيِّدهم؟ فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه،

خلافة عمر، والأوَّل أكثر. قال الشعبيُّ: توفي بالمدائن، وكان من المعمَّرين، أدرك وصيَّ عيسى ابن مريم، وعاش مئتين وخمسين سنة، وقيل: ثلاثمئة وخمسين سنة. قال أبو الفرج: والأول أصح، وجملة ما حُفظ له عن رسول الله ﷺ ستون حديثاً، أخرج له منها في الصَّحيحين سبعة.

وأما صُهيب، فهو ابنُ سنان بن خالد بن عبد عمرو — من العرب— بن التمر ابن ساقط، كان أبوه عاملاً لكسرى على الأُبُلَّة، وكانت منازلُهم بأرض الموصل في قرية على شطّ الفرات، مما يلي الجزيرة والموصل، فأغارت الروم على تلك الناحية فسبتْ صُهيباً، وهو غلام صغير، فنشأ صهيب بالروم، فصار ألكن، فابتاعته منه كلب، ثم قدمتْ به مكة، فاشتراه عبد الله بن جُدْعان، فأعتقه، فأقام بمكة حتى هلك ابن جُدْعان، وبُعِث النبيُّ ﷺ وأسلم هو وعمار بن ياسر في يوم واحد بعد بضعة وثلاثين رجلاً، فلما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة لحقه صُهيب، فقالت له قريش حين خرج يريدُ الهجرة: أتفجعنا بنفسك ومالك؟ فدلَّهم على ماله، فتركوه، فلما رآه النبيُّ ﷺ قال له: "ربح البيعُ أبا يحيى". فأنزل الله عز وجل في أمره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ...﴾ [1] الآية.

وروي عنه أنه قال: صحبتُ النبيَّ ﷺ قبل أن يُوحى إليه.

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحبَّ صهيباً حُبَّ الوالدة ولدها".

---

[1]— سورة البقرة، الآية 207.

فقال: "يا أبا بكر ! لعلَّك أغْضَبْتَهم، لئن كُنْتَ أغْضَبْتَهم لقد أغضبت ربَّك". فأتاهمْ، فقال: يا إخْوَتاه ! أغضبتُكم؟ قالوا: لا، يغفرُ الله لك يا أُخَيَّ.

وقال ﷺ: "صهيب سابقُ الروم، وسلمان سابقُ فارس، وبلال سابقُ الحبشة". وإنما نسبه النبيُّ ﷺ للروم لما ذكر أنه نشأ فيهم صغيراً، وتلقَّف لسانهم.

وقد تقدَّم ذِكْرُ نسبه.

وقال له عمر: ما لك يا صهيب تُكنى أبا يحيى، وليس لك ولد، وتزعم أنك من العرب، وتطعم الطعام الكثير، وذلك سرف؟ فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كنَّاني بأبي يحيى، وإني من النمر بن قاسط من أنفسهم، ولكني سُبيت صغيراً أعقل أهلي وقومي، ولم انفلتْ عني روثة لانتميتُ إليها، وأما إطعام الطعام؛ فإن رسولَ الله ﷺ قال: "خيارُكم مَن أطعم الطَّعام، أفشى السلام".

توفي صهيب بالمدينة سنة ثمان وثلاثين في شوّالها، وقيل: سنة تسع، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، ودُفِن بالبقيع.

و(قوله ﷺ لأبي بكر – رضي الله عنه –: "لئن كنتَ أغضبتهم لقد أغضبتَ ربَّك") يدلُّ على رفعة منازل هؤلاء المذكورين عند الله تعالى، ويُستفاد منه احترامُ الصَّالحين، واتِّقاءُ ما يغضبهم، أو يُؤذيهم.

باب فضائل الأنصار – رضي الله عنهم –

عن جابر بن عبد الله، قال: فينا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَان منكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾ بَنُوا سلمةَ وبنو حارثةَ، وما نحبُّ أنَّها لم تَنزِلْ لقوله الله: ﴿والله وَلِيُّهُمَا﴾.

ومن باب: فضائل الأنصار – رضي الله عنهم –

(قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَان منكُم أَن تَفْشَلاَ﴾[1] يعني بذلك: يوم أُحُد، وذلك: أنه لَمَّا خرج النبيُّ ﷺ لَلقاء المشركين رجع عنه عبد الله بني أبيٍّ بجمع كثيرٍ فشلاً عن الحرب ونكولاً، وإسلاماً للنبيِّ ﷺ وأصحابه للعدو، وهمَّ بنو سلمة، وبنو حارثة بالرُّجوع، فحماهم الله تعالى من ذلك، مما يضرُّهم من قبل ذلك، وعظيم إثمه، فلحقوا بالنبيِّ ﷺ وبالمسلمين إلى أن شاهدوا الحرب، وكان من أمر أُحُد ما قد ذكر.

و(قول جابر: ما نحبّ ألاّ تنزل) إنّما قال ذلك لما في آخرها من تولّي الله تعالى لتينك الطَّائفتين من لُطْفه بهما، وعصمته إياهما، مما حلَّ بعيد الله بن أُبيٍّ من الإثم، والعار، والذَّمِّ، وذلك قوله تعالى: ﴿والله وليهما﴾ أي: متولّي حِفْظهما وناصرهما.

و(قوله: فقام ممتثلا يروي هكذا هنا، ويروى أيضاً مُمْثلاً، وفيهما بُعدٌ؛ لأن مثَّل: معناه: صوّر مثاله، وتمثّل هو في نفسه؛ أي: تصوّر، وكلاهما ليس له معنى هنا، وإنما الذي يُناسب هذا أن يكون ماثلاً. يقال: مثل بين يديه قائماً، أي: انتصب قائماً، فيعني به: أنه قام منتصبَ القامة فعل المتبشبش بمن لقيه. وقد رواه البخاري فقال: فكا ممتثلا، ممتناً من الامتنان، وهو وإن كان فيه بُعدٌ أنسب مما رواه مسلم، والله تعالى أعلم.

---

[1]– سورة آل عمران، الآية 122.

وعن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: "اللهُمَّ اغفر للأنْصار، ولأبناء الأنْصار، وأبْناء الأنْصَار".

وعن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ استغفر للأنصار. قال – وأحْسِبُهُ قال-: "وَلِذَرَاري الأنْصار، وَلِموالي الأنْصارِ" لا أشكُّ فيه.

وعنه؛ أنَّه قال: إنَّ النبيَّ ﷺرأى صبياناً ونساءً مُقْبلينَ من عُرْسٍ، فقام نبيُّ الله ﷺ متمثلاً؛ فقال: "اللهم ! أنتم من أحبِّ النَّاس إليَّ. اللهم ! انتُم من أحبِّ الناس إليَّ" – يعني: الأنصار-.

وعنه؛ قال: جاءت امرأةٌ من الأنصار إلى رسول الله ﷺ. قال: فخلا بها رسولُ الله ﷺ[1]. وقال: "والذي نفسي بيده ! أنَّكم لأحَبُّ النَّاس إليَّ – ثلاث مرات –".

وعنه؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: "إنَّ الأنصارَ كَرِشي وعَيْبَتي، وإنَّ الناسَ سَيَكْثُرون، ويَقِلُّونَ، فاقبلوا من مُحْسِنِهم، واعفوا عن مُسيئهم".

و(قوله ﷺ: "الأنصار كَرِشي وعيبتي") أي: جماعتي التي أنضمُّ إليها، وخاصَّتي التي أفضي بأسراري إليها. والكَرِش: لما يجترُّ كالمعدة للإنسان، والحوصلة للطائر، والكرش مؤنثة، وفيها لغتان: كَرِش – بفتح الكاف، وكشر الراء –. وكِرْش – بكسر الكاف وسكون الراء –: مثل: كَبِد وكِبْد، وكرشُ الرجل: عيالُه وصغارُ ولده، والكرش: الجماعة، وهي المعنيةُ بالحديث. وأصلُ العيبة: ما تُجعل فيه الثياب الرفيعة، والجمع عِيَب، كَبَدْرَةٍ وبِدَر، وتُجمع أيضا: عِياباً، وعَيْبات.

---

[1]– قال النووي: هذه المرأة إما محرم له كأم سليم وأختها. وأما أن المراد بالخلوة، أنها سألته سؤالا خفيا بحضر أناس...

وعنه؛ قال: خرجتُ مع جرير بن عبد الله البجَليِّ في سفر، فكان يخْدُمُني، فقلت له: لا تفعل ! فقال: إنِّي قد رأيتُ الأنصارَ تصنعُ برسول الله ﷺ شيئاً آليتُ أنْ لا أصْحَبَ أحداً منهم إلا خَدَمْتُهُ – وكان جريرٌ أسنَّ من أنس –.

باب خير دور الأنصار – رضي الله عنهم –

عن أبي أُسَيد، قال: قال رسول الله ﷺ: "خيرُ دورِ الأنصال بنو النَّجَّار، ثم بَنو عبدِ الأشهلِ، ثُمَّ بنُو الحارث بن الخَزْرج، ثم بَنُوا ساعدة، وفي كُلِّ دُور الأنْصارِ خَيْرٌ". فقال سعدٌ: ما أُرى رَسُول الله ﷺ إلا قدَ فَّل عَلَيْنا ! فقيلَ: قد فضَّلكم على كثير.

و(قوله: "اللهم اغفر للأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار") ظاهره الانتهاءُ بالاستغفار إلى البطن الثالث، فيمكن أن يكون ذلك؛ لأنهم من القرون التي قال فيها النبيُّ "خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ويمكن أن تشملَ بركةُ هذا الاستغفار المؤمنين من نَسْل الأنصار إلى يوم القيامة مبالغة في إكرام الأنصار، لا سيما إذا كانت نية الأولاد فعل مثال ما سبق إليه الأجداد، ويُؤيّد ذلك قوله في الرواية الأخرى: "ولذراري الأنصار".

ومن باب: خير دور الأنصار – رضي الله عنهم –

(قوله ﷺ: "خير دُور الأنصار: دور بني النجار") أصلُ الدار: المنزل الذي يُقام فيه، ويُجمع في القلَّة: أدْور، بواو مضمومة، وقد أبدلوا من الضمة همزة استثقالاً للضمَّة على الواو، ويُجمع في الكثرة على ديارٍ ودور، والدار مؤنثة، ثم قد يُعبَّر بالدار عن ساكنها كما جاء في هذا

وقال أبو أسيد: لو كُنتُ مؤثراً بها أحداً لآثَرتُ بها عشيرتي.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ - وهو في مجلس عظيم من المسلمين -: "أُحدِّثكم بخَيْر دور الأنصار؟ قالوا: نَعَمْ يا رسول الله؟ ! قال: رسولُ الله ﷺ: "بنو عبد الأشْهَلِ". قالوا: ثم مَنْ يا رسول الله؟ ! قال: "ثم بنو النجار". قالوا: ثم مَنْ يا رسول الله؟ ! قال: "ثم بنو الحارث بن الخزرج". قالوا: ثم من يا رسول الله؟ ! قال: "ثم بَنو سَاعدة". قالوا: ثم من يا رسول الله؟ ! قال: "ثم في كلِّ دورِ الأنصار خيرٌ". فقام سعدُ بن عُبَادَة مُغْضَباً؛ فقال: أنحنُ آخر الأرْبَع؟ حين سَمَّى رسولُ الله ﷺ دارَهُم، فأراد كلامَ رسول الله ﷺ فقال له رجال من قومه: أجلس. ألا ترضى أنْ سَمى رسولُ الله ﷺ دارَكم في الأربع الدّور التي سمَّى؟ فمن ترك فلَمْ يُسمَّ أكثرُ ممَّن سمَّى ! فانتهى سعدُ بن عُبادَةَ عن كَلام رسول الله ﷺ.

الحديث، فإنه أراد بالدِّيار: القبائل. وخير: يعني أخير، أي: أكثر خيراً، وتفضيل بعض هذه القبائل على بعض إنما هو بحسب سبقهم للإسلام، وأفعالهم فيه. وتفضيلُهم خبر من الشارع عمَّا لهم عند الله تعالى من المنازل والمراتب، فلا يُقدَّمُ من أخّر، ولا يؤخّر من قدّم. وقد اختلفت الرواياتُ في بني النَّحار، وبني عبد الأشهل، ففي رواية أبي أُسَيْد: تقديم بني النجَّار على بني عبد الأشهل، ومَن بعدهم، وفي رواية أبي هريرة: تقديم بني عبد الأشهل على بني النجار ومَن بَعْدَهم، وهذا تعارضٌ مُشْكِل، غير أنَّ الأوْلى روايةُ أبي أُسَيْد لقرابة بن النجار من رسول الله ﷺ دون غيرهم، فإنهم أخوالُه، كما قدَّمنا، ولاختصاص نزول رسول الله ﷺ بهم، وكونه عندهم، وهذه مزيَّةٌ لا يلحقهم أحدٌ فيها. وغَضبَ سعد بن عبادة لَّما ذُكرتْ دارُه آخر الديار بادرةٌ أصدرها عنه منافستُه في الخير، وحرصُه

باب دعاء النبي ﷺ لغفار وأسلم

عن أبي ذرٍّ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: "ائْت قومَكَ فقلْ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: أَسلَمُ سَالَمَها الله. وغِفَارُ غَفَرَ الله لها".

زاد من حديث أبي هريرة: "أما إنِّي لم اقُلْها. ولكن قالها الله".

وعن خُفَاف بن إيماءَ الغفاريِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "اللهم! الْعَنْ بني لحْيَانَ، ورِعْلاً، وذَكْوَانَ، وعُصَيَّةَ، عَصَوُا الله ورسوله! غِفَار غفر الله لها! وأَسْلَمُ سَالَمَها الله!".

ونحوه، وعن ابن عمر.

على تحصيل الثواب والأجر؛ فما نُبِّه على ما ينبغي له سلَّم السَّبق لأهله، وشكر الله تعالى على ما آتاه من فضله.

وقد تقدم القولُ في: أسلَم، وغِفَار، وبني لِحْيان، ورِعْل، وذكْوان، وعُصَيَّة — قبائل من هُذَيل — وهم الذين قتلوا أصحابَ الرَّجيع عاصماً وأصحابه، وقد تقدم حديثُهم.

* * *

باب فضل مزينة وجهينة وأشجع وبني عبد الله

عن أبي أيوبَ، قال: قال رسول الله ﷺ "الأنصارُ، ومُزَيْنةُ، وجُهَيْنَةُ، وغِفَارُ، ومَنْ كان من بني عبد الله؛ مَوَالِيَّ دون الناس، والله ورسولُه مَولاهُم".

ومن حديث أبي هريرة: "قريشٌ والأنصار". وذكر نحوه غير أنه لم يذكر بني عبد الله.

ومن باب: فضائل مزينة، وجهينة، وأشجع، وبني عبد الله

هؤلاء القبائل، وأسلم، وغفار، ومَن كان نحوهم، كانوا بالجاهلية حاملين، لم يكونوا من سادات العرب، ولا من رؤسائها كما كانت بنو تميم، وبنو عامر، وبنو أسد، وغطفان، ألا ترى قول الأقرع بن حابس للنبيِّ ﷺ: إنما بايعك سرَّاقُ الحجيْج من أسلم، وغفار، ومزينة وجهينة، لكن هؤلاء القبائل سبقوا للإسلام، وحسُن بلاؤهم فيه، فشرَّفهم الله تعالى به، وفضَّلهم على مَن ليس بمؤمن من سادات العرب بالإسلام، وعلى من تأخَّر إسلامُه بالسَّبق، كما شرَّف بلالاً، وعمَّاراً، وصُهيباً، وسلمان على صناديد قريش، وعلى أبي سفيان ومعاوية وغيرهم من المؤلفة قلوبُهم كما تقدَّم، فأعزَّ الله بالإسلام الأذلاء، وأذلَّ به الأعزاءَ بحكمته الإلهية، وقسمته الأزلية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وعلى هذا فقوله ﷺ: "مزينة، وجهينة، وغفار، وأشجع، ومن كان من بني عبد الله مواليَّ دون الناس" جَبْرٌ لهم من كَسرهم، وتنويهٌ بهم من خمولهم، وتفخيمٌ لأمر الإسلام وأهله، وتحقيرٌ لأهل الشرك، ولمن دخل في الإسلام ولم يُخْلِص فيه، كالأقرع بن حابس، وغيره ممن كان على مثل حاله، وهذا التفضيل، والتنويه إنما وَرَدَ جواباً لمن احتقر هذه القبائلَ بعد إسلامها،

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نَفْسُ محمد بيده ! لَغفار، وأسلمُ؛ ومزينة؛ ومن كان من جهينةَ – أو قال: جهينةُ – ومَن كانَ من مزينَة خيرٌ عند الله يوم القيامة من أَسَدٍ وطيءٍ وغطفان".

وفي رواية: "من أسدٍ، وغطفانَ، وهوازن، وتميم".

وعن أبي بكرةَ: أنَّ الأقْرعَ بن حابسٍ جاءَ إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنما بَايَعَك سُرَّاقُ الحجيج من أسلَم، وغِفَارَ، ومُزَينَةَ، وجهينةَ ! فقال رسول الله ﷺ: "أرأيتَ إن كان أسلُم، وغِفَارُ، ومزينة، وجهينة خيراً من

وتمسَّك بفخر الجاهلية وطُغْيانها، فحيث وَرَدَ تفضيلُ هذه القبائل مطلقاً فإنه محمولٌ على أنهم أفضلُ من هذه القبائل المذكورين معهم، في محاورة الأقرع، وهو آخر حديث ذكرناه؛ فإنه مُفسِّرٌ لما تقدَّم، ومقيِّدٌ له.

و(قوله: "مواليَّ دون الناس") يعني: أنا الذي أنصرهم، وأتولى أمورَهم كلَّها، فلا ينبغي لهم أن يلجؤوا بشيءٍ من أمورهم إلى أحد غيري من الناس، وهذا كما قال ﷺ في الحديث الآخَر: "أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نَفسه، مَن ترك مالاً فلورثته، ومَن ترك دَيْناً أو ضَياعاً فعليَّ وإليَّ".

و(قوله: "والله ورسوله مولاهم") كذا الرِّواية بتوحيد مولاهم، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[1]. فوحَّد الضمير؛ لأنه عائدٌ على الله، ورفع رسوله بالابتداء، وخبره مُضمر تقدير: والله أحقُّ أن يرضوه، ورسوله كذلك، وعلى هذا: فتقديرُ الحديث: والله مولاهم، ورسوله كذلك.

و(قوله: "أرأيت إن كان أسلم، ومن ذكر معها خير من بني تميم، ومن ذكر معها، أخابوا وخسروا؟" قال: نعم) هذا يدلُّ: على أنه أراد: كفار هذه القبائل، لا مسلميها؛ لأنَّ الخيبةَ والخسرانَ المطلقَ لا يكون إلا

---

[1]– سورة التوبة، الآية 6.

بين تميم، وبني عامر، وأسد، وغطفانَ. أخابُوا وخَسِروا؟"، فقال: نعم. فقال: "فوالذي نفسي بيد ! إنهم لأخيرُ منهم".

وفي رواية: ومدَّ بها صوته.

باب من ذكر في طيئٍ ودَوْسٍ

عن عَديِّ بن حاتم، قال: أتيتُ عُمَرَ بنَ الخطاب، فقال لي: إنَّ أوَّل صدقة بيَّضَتْ وجْهَ رسول الله ﷺ، ووجوهَ أصحابِه؛ صدقوُ طيِّئٍ؛ جئتَ بها إلىَّ رسول الله ﷺ.

وعن أبي هريرة، قال: قَدمَ الطُّفَيْلُ وأصحابُهُ؛ فقالوا: يا رسولَ الله ! إنَّ دَوْساً كفرَتْ، وأبتْ، فادعُ الله عليها ! فقيل: فَلَكتْ دوسٌ فقال: "اللهمَّ ! اهدِ دَوْساً وائتِ بهم".

باب ما ذكر في بني تميم

عن أبي هريرة، أنّه قال: لا أزالُ أحبُّ بني تميم من ثلاث.

وفي رواية: بعد ثلاث سَمعْتُهُنَّ من رسول الله ﷺ سمعته يقول: "هم أشدُّ أمَّتي على الدَّجال". قال: وجاءتْ صَدقاتُهم، فقال النبي ﷺ: "هذه صدقاتُ قومنا". قال: وكانتْ سَبيَّةٌ منهم عند عائشة؛ فقال رسول الله ﷺ: "أعْتقيها فإنَّها من وَلَد إسماعيل".

وفي رواية: "هم أشدُّ النَّاس قِتَالاً في الملاحم" ولم يذكر الدَّجال.

لأهل الكفر، ويدلُّ عليه: مدحُ المسلمين من بني تميم في الحديث الآتي بعد هذا، والله تعالى أعلم.

و(قوله ﷺ في بني تميم: "هم أشدُّ أمَّتي على الدّجَّال") تصريحٌ بأنَّ بني تيم لا ينقطعُ نسلهم إلى يوم القيامة، وبأنهم يتمسَّكون في ذلك الوقت بالحقِّ، ويقاتلون عليه، وفي الرواية الأخرى: "هم أشدُّ الناس قتالاً من الملاحم" يعني: الملاحم التي تكون بين يدي الدجال، أو مع الدجال، والله تعالى أعلم.

باب خيار الناس

عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "تجدون النَّاسَ معادنَ؛ فخيارُهم في الجاهليَّة خيارُهم في الإسلام إذا فقُهُوا. وتجدون من خَيْر النَّأس في هذا الأمر، أكرهُهم لَهُ قبل أن يقع فيه. وتجدونَ من شِرَارِ النَّاسِ ذا الوجهين؛ الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ".

باب ما ورد في نساء قريش

عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "خير نساء رَكِبْن الأبلَ صالحُ نساء قُرَيشٍ"، وفي رواية: "نساءُ قريش"، بغير صالحٍ؛ "أَحْنَاه على يتيم". — وفي رواية: ""على ولدٍ في صغره" — وأرْعَاهُ على زوجٍ في ذات يده".

ومن باب: خيار الناس

(قوله ﷺ: "تجدون الناس معادن") أي: كالمعادن،وهو مثل، وقد جاء في حديث آخر: "الناسُ معادن كمعادن الذَّهب والفضة". ووَجْهُ التمثيل: أن المعادنَ مشتملةٌ على جواهر مختلفة، منها النفيس، والخسيس، وكلٌّ من المعادن يُخرجُ ما في أصله، وكذلك الناس كلٌّ منهم يظهرُ عليه ما في أصله؛ فمن كان ذا شرف وفَضْل في الجاهلية فأسلم لم يزدْه الإسلامُ إلا شرفاً؛ فإن تفقَّه في دين الله، فقد وصل إلى غاية الشرف؛ إذ قد اجتمعت له أسباب الشرف كلُّها، فيصدق عليه قوله: "فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا". والمعادن: واحدها مَعْدِن — بكسر الدال —؛ لأنه موضعُ العَدْن، أي: الإقامة اللازمة، ومنه: جنّات عدان، وسُمِّي المَعْدِن بذلك؛ لأنَّ الناسَ يقيمون فيه صيفاً وشتاءً. قاله الجوهري.

وفي أخرى: أنَّ النبيَّ ﷺ خَطَبَ أمَّ هانئٍ بنت أبي طالب، فقالت: يا رسول الله ! إني قد كَبِرْتُ، ولي عِيَالٌ فقال رسولُ الله ﷺ: "خير نساءٍ رَكِبْنَ الإبل...". ثمَّ ذكر نحوه.

و(قوله ﷺ: "وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له") هكذا الرواية: "من خير الناس" وهي لبيان جنس الخيرية؛ كأنه قال: تجدون أكرهَ الناس في هذا الأمر من خيارهم، ويصحُّ أن يُقال على مذهب الكوفيين: إنَّها زائدة؛ فإنهم يُجيزون ظيادةَ (من) في الموجب، كما تقدَّم. ويعني بالأمر: الولايات، وإنما يكون من يكرهُها من خير الناس، إذا كانت كراهتُه لها لعلَّة تعظيم حقوقها، وصعوبة العدل فيها، ولخوفه من مطالبة الله تعالى بالقيام بذلك كلِّه، ولذلك قال فيها: "نعمت المرضعة، وبئست الفاطمة"، وكفى بذلك ما تقدَّم من قوله ﷺ: "ما من أمير عشيرة إلا يُؤتى يوم القيامة مغلولاً، حتى يفكَّه العدل، أو يوبقَه الجَوْر". وذكْرُ ذي الوجهين: مُفَسَّرٌ في الحديث، وإنما كان ذو الوجهين شرَّ الناء؛ لأن حالَه حالُ المنافقين: إذ هو مُتملِّق بالباطل والكذب، يُدْخِل الفسادَ بين الناس، والشُّرور، والتقاطع، والعداوة، والبغضاء.

و(قوله ﷺ: "خيرُ نساء رَكِبْنَ الإبلَ: صالح نساء قريش") هذا تفضيلٌ لنساء قريش على نساء العرب خاصَّةً؛ لأنَّهم أصحابُ الإبلِ غالباً، وقد جاء في الرِّواية الأخرى: "خيرُ نساء ركبن الإبل؛ نساء قريش" ولم يذكر: (صالح). وهو مرادٌ حيث سكتَ عنه، ويُحمل مطلقُ إحدى الروايتين على مقيَّد الأخرى، وهو مما اتفق عليه من أقسام حمل المطلق على المقيَّد كما حقَّقناه في الأصول. ويعني بالصلاح هنا: صلاح الدِّين، وصلاح المخالطة للزوج وغيره، كما دلَّ عليه قولُه ﷺ: "أحناه على يتيم وولد، وأرعاه على زوج". والحنوُّ: الشفقة. والرَّعي: الحِفْظ والصِّيانة. والله أعلم.

باب في المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار

عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ آخى بين أبي عُبَيدةَ بنِ الجرّاح وبين أبي طلحة.

ومن باب: المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار

(قوله: آخى رسولُ الله ﷺ بين أبي عُبيدة بن الجراح، وبين أبي طلحة – رضي الله عنهما –) المؤاخاةُ: مفاعلة من الأخوة، ومعناها: أن يتعاقدَ الرجلان على التناصر والمواساة، والتوارث حتى يصيرا كالأخوين نسباً، وقد يُسمَّى ذلك: حلفاً، كما قال أنس – رضي الله عنه –: قد حالف رسولُ الله ﷺ بين قريش والأنصار في داره بالمدينة، وكان ذلك أمراً معروفاً في الجاهلية، معمولاً به عندهم، ولم يكونوا يُسمُّونه إلا حلْفاً، ولما جاء الإسلامُ عمل النبيُّ ﷺ به، وورَّث به على ماحكاه أهلُ السير، وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ رسولَ الله ﷺ آخى بين أصحابه مرتين: بمكة قبل الهجرة، وبعد الهجرة. قال أبو عمر: والصحيح عند أهل السير والعلم بالآثار والخبر في المؤاخاة التي عقدها رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين، فكانوا يتوارثون بذلك دون القرابات، حتى نزلت: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَبِ اللهِ﴾[1]، فآخى رسولُ الله ﷺ بين عليِّ بن أبي طالب ونفسه، فقال له: "أنت أخي وصاحبي"، وفي رواية "أنت أخي في الدنيا والآخرة". وكان عليٌّ – رضي الله عنه – يقول: أنا عبد الله، وأخو رسوله، لم يقُلها أحدٌ قبلي، ولا يقولها أحدٌ بعدي إلا كذابٌ مُفتَرٍ.

وآخى بين أبي بكر الصديق وبين خارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخي حسان

---

[1]– سورة الأنفال، الآية 95.

وعن عاصم الأحْوَل، قال: قيل لأنس بن مالكٍ: بلغك أنَّ رسولَ الله ﷺ

بن ثابت، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين الزبير وسَلَمة بن سلامة بن وَقْش، وبين طلحة وكعب بن مالك، وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ، وبين سعد ومحمد بن مسلمة، وبين سعيد بن زيد وأُبي بن كعب، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وبين عمار وحذيفة، حليف بني عبد الأشهل، وقيل: بين عمار وثابت بن قيس، وبين أبي حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر، وبين أبي ذر والمنذر بن عمرو، وبين ابن مسعود وسهل بن حنيف، وبين سلمان الفارسي، وأبي الدرداء، وبين بلال وأبي رويحة الخثعمي، وبين حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة، وبين عبد الله بن جحش وعاصم بن ثابت، وبين عبيدة بن الحارث وعمير بن الحمام، وبين الطفيل بن الحارث — أحيه — وسفيان بن بشر، وبين الحصين بن الحارث — أخيهما — وعبد الله بن جبير، وبين عثمان بن مظعون بن بيضاء ورافع بن المعلى، وبين المقداد بن عمرو وعبد الله بن رواحة، وبين ذي الشمالين ويزيدين الحارث من بين خارجة، بن عديّ، وبين عبد اله بن مظعون وقطبة بن عامر، وبين شماس بن عثمان وعنظلة بن أبي عامر، وبين الأرقم بن أبي الأرقم وطلحة بن زيد الأنصاري، وبين زيد بن الخطاب ومعن بن عدي، وبين عمرو بن سراقة وسعد بن زيد من بين عبد الأشهل، وبين عاقل بن البكير ومبشر بن عبد المنذر، وبين عبد الله بن مخرمة وفورة بن عمرو[1] البياضي، وبين خنيس بن حذيفة والمنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح، وبين أبي سبرة بن أبي رهم وعبادة بن الحسحاس، وبين مسطح بن أثاثة وزيد بن المزين، وبين أبي مرثد الغنوي وعبادة بن الحسحاس، وبين مسطح بن أثاثة وزيد بن المزين، وبين أبي مرثد الغنوي وعبادة بن الصامت، وبين عُكَّاشة بن محصن والمحذر

---

[1]— في (ز): عمير، وفي (م 4): عمر، والمثبت من أسد الغابة (357/4).

قال: "لا حلفَ في الإسلام؟" فقال أنس: قد حَالَفَ رسولُ الله ﷺ بين قريش والأنصار في داره.

وفي روايةٍ: في داره التي بالمدينة.

بن زياد حليف الأنصار، وبين عامر بن فُهيرة والحارث ابن الصِّمت، وبين مهجع مولى عمر وسُراقة بن عمرو النجاري.

قال: وقد كان رسولُ الله ﷺ آخى بين المهاجرين قبل الهجرة على الحق والمواساة فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، رضي الله عن جُملة المهاجرين والأنصار.

قال الشيخ رحمه الله: وقد جاء في كتاب مسلم من حديث أنس: أنه آخى بين أبي عبيدة ابن الجراح وبين أبي طلحة، وقال أبو عمر: إنه آخى بين أبي عبيدة وبين سعد بن معاذ. والأولى ما في كتاب مسلم.

و(قوله: "لا حلف في الأسلام") أي: لا يتحالفُ أهلُ الإسلام كما كان أهلُ الجاهلية يتحالفون، وذلك أن المتحالفَيْن كانا يتناصران في كلِّ شيء، فيمنع الرجلُ حليفَه؛ وإن كان ظالماً، ويَقومُ دونه، ويدفعُ عنه بكلِّ ممكن، فيمنع الحقوق، وينتصرُ به على الظلم، والبغي، والفساد، ولما جاء الشرعُ بالانتصاف من الظالم، وأنه يُؤخذ منه ما عليه من الحقِّ، ولا يمنعه أحدٌ من ذلك، وحدَّ الحدود، وبيَّن الأحكام، أبطل ما كانت الجاهليةُ عليه ممن ذلك، وبقي التعاقدُ والتحالف على نُصْرة الحقِّ، والقيام به، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عامّاً على مَن قدر عليه من المكلَّفين.

وعن حبير بن مُطْعِم، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "لا حِلْفَ في الإسلام وأيُّما حِلفٍ كان في الجاهلية، لم يزده الإسلامُ إلا شِدَّة".

ثم إنه ﷺ خصَّ أصحابه من ذلك بأن عقد بينهم حلْفاً على ذلك مرتين — كما تقدَّم — تأكيداً للقيام بالحقِّ والمواساة، وسمَّى ذلك أخوةً مبالغةً في التأكيد والتزام الحُرْمة؛ ولذلك حكم في بالتورات حتى تمكَّنَ الإسلامُ، واطمأنت القلوب، فنسخ الله تعالى ذلك بميراث ذوي الأرحام.

و(قوله: "وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزدُهُ الإسلامُ إلا شدَّة") يعني من نصرة الحق، والقيام به، والمواساة، وهذا كنحو حلف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق. قال: اجتمعتْ قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونَسَبه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألاّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها، وأو غيرهم، إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مظلمته، فسمَّت قريش ذلك الحلف: حلفَ الفضول، أي" حلف الفضائل، والفضول هنا جمع فضل للكثرة، كفَلْسٍ وفُلوس.

وروى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال: قال رسولُ الله ﷺ: "لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حلْفاً ما أُحِبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعَم،ولو أُدعى به في الإسلام لأجبتُ".

وقال ابنُ إسحاق: تحامل الوليدُ بن عتبة على حسين بن عليٍّ في مال له لسلطان الوليد؛ فإنه كان اميراً على المدينة. فقال له حسين: احلْ بالله لتنصفني من حقّي، أو لآخذنَّ سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعونَّ بحلف الفضول، قال عبدُ الله بن الزبير: وأنا أحلفُ بالله لئن دعانا لآخذنَّ سيفي، ثم لأقومنَّ معه حتى ينتصفَ من حقِّه، أو نموتَ جميعاً، وبلغت المسور بن مخرمة، فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الله بن عثمان بن عبيد الله التيمي، فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه.

باب قول النبي ﷺ: "أنا أمنةٌ لأصحابي وأصحابي أمنةٌ لأمتي"

عن أبي موسى، قال: صلَّيْنا المغربَ مع رسول الله ﷺ ثم قُلنا: لو جَلَسنا مع رسول الله ﷺ حتى نصلِّيَ معه العشاء ! قال: فجلسنا، فخرج علَيْنا، فقال: "ما زِلْتُم هاهُن؟" قلنَا: يا رسولَ الله ! صلينا معك المغربَ، ثمّ قُلنا: نجلسُ حتى نصلِّيَ معك العشاءَ. قال: "أحْسَنْتُم – أو: – أصبتم"، قال: فرفع رأسه إلى السَّماء – وكَان كثيراً ممّا يرفع رأسه إلى السماء – فقال: "النجوم أمنةٌ للسَّماء، فإذا ذهبتِ النجوم أتى السماءَ ما تُوْعَدُ، وأنا

ومن باب: قوله ﷺ:
"أنا أمنة لأصحابي" وخير القرون

الأمَنَة: المن، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾[1]، أي: أمناً. ويعني بذلك: أنَّ الله تعالى رفع مع أصحابه الفتنَ، والمحن، والعذاب مُدَّة كونه فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[2]، فلما توفي رسولُ الله ﷺ جاءت الفتنُ، وعظمت المحنُ، وظهر الكفرُ والنفاق، وكثر الخلافُ والشقاق، فلولا تدارُكُ الله هذا الدِّين بثاني اثنين لصار أثراً بعد عين، وهذا الذي وعدوا به.

و(قوله: "النجوم أمنة للسماء") أي: ما دامت النجومُ فيها لم تتغير بالانشقاق، ولا بالانفطار، فإذا انتشرتْ نجومُها، وكُوِّرت شمسُها، جاءها ذلك، وهو الذي وُعِدَتْ به.

و(قوله: "وأصحابي أمنة لأمتي" يعني: أنَّ أصحابه ما داموا موجودين كان الدّينُ قائماً، والحقُّ ظاهراً، والنصرُ على الأعداء حاصلاً، ولما ذهب

---

[1]– سورة الأنفال، الآية 11.
[2]– سورة الأنفال، الآية 33.

أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأُمَّتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمَّتي ما يُوعدون".

باب خير القرون قرن الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم

عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال: سُئل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الناسِ خيرٌ؟ قال: "قرني، ثم الذين يلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهُم، ثم يجيء قومٌ تَبْدُرُ شهادةُ أَحَدهم يَمِيْنَه، وتَبدُرُ يَمينُه شَهادَتَه". قال إبراهيم: كانا يَنْهَوْننا — ونحنُ غلمانٌ — عن العَهد والشَّهادات.

أصحابُه غلبت الأهواء، وأُديلت الأعداء، ولا يزال أمرُ الدّين مُتناقصاً، وجَدُّه ناكصاً إلى أن لا يبقى على ظهر الأرض أحدٌ يقول: الله، الله. وهو الذي وُعِدَتْ به أمَّتُه، والله تعالى أعلم.

و(قوله: "خيرُ أمتي قرني، ثم اللذين يلونهم، ثم الذين يلونهم") القرن — بسكون الراء — من الناس: أهلُ زمان واحدٍ. قال الشاعر:

إذَا ذَهَبَ القَرْنُ أَنْتَ فِيهِمُ وخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فأَنْتَ غَرِيبُ

وقيل: مقدار زمانه: ثمانون سنة، وقيل: ستون، ويعني: أنَّ هذه القرونَ الثلاثة: أفضلُ ممَّا بعدها إلى يوم القيامة، وهذه القرونُ في أنفسها مُتفاضلة، فأفضلُها: الأول: ثم الذي بعده، ثم الذي بعده. هذا ظاهرُ الحديث. فأمَّا أفضليَّةُ الصَّحابة، وهم القرنُ الأول على مَن بعدهم، أو مُساوٍ لهم في كتاب الطهارة. وأمَّا أفضليَّةُ مَنْ بعدهم، بعضهم على بعض، فحسب قربهم من القرن الأول، وبحسب ما ظهر على أيديهم من إعلاء كلمة الدين، ونشر العلم، وفَتْح الأمصار، وإخماد كلمة الكُفر. ولا خفاء: أن الذي كان من ذلك في قرن التَّابعين كان أكثر واغلب مما كان في أتباعهم،

وفي أخرى: "ثم يتخلَّف من بعدهم خَلْفٌ تسبقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه، ويمينُه شَهادَتُه".

وعن عِمْرانَ بن حُصَين: أنَّ رسول الله ﷺ قال: "إنَّ خَيْرَكم قرني، ثم الذين يلونَهُمْ، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلونَهُم". — قال عمران: فلا أدري أقال رسولُ الله ﷺ بَعْدَ قَرْنه: مرَّتين أو ثلاثاً — ثم يكونُ بعدَهم قومٌ يشهدونَ ولا يُستَشْهَدُونَ، ويَخُونُونَ ولا يؤتمنون، ويظهر فيهم السِّمَنُ".

وكذلك الأمر في الذين بعدهم، ثم بعد هذا غلبت الشُّرور، وارتُكبت الأمور، وقد دلَّ على صحة هذا قولُه في حديث أبي سعيد: "يغزو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صحب رسولَ الله ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح لهم..." الحديث. والفئام: الجماعةُ من الناس، لا واحدَ من لفظه، وهو مهموز، والعامة تترك همزه.

و(قول عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين، أو ثلاثاً) هذا الذي شكَّ فيه عمرانَ قد حقَّقه عبدُ الله بن مسعود بعد قرنه ثلاثاً، وكذلك في حديث أبي سعيد في البعوث؛ فإنه ذكر أنهم أربعة.

و(قوله: "تبدر شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته") يعني بذلك: أنه يقلُّ وَرَعُ الناس بعد القرن الرابع، فيَقْدمون على الأيمان والشهادات من غير توقف ولا تحقيق، وقال في حديث عمران: "يشهدون ولا يُستشهدون" أي: يسبقون بأداء الشهادة قبل أن يُسألوها، وذلك لهوى لهم فيها، ومَن كان كذلك رُدَّت شهادتُه، وقد بيَّنا فيما تقدَّم مواضعَ يتعين فيها على الشاهد الأداء وإن لم يُسأل، وذلك بحسب ما تدعو إليه الضَّرورةُ الشَّرعية، وعليه يُحمل قولُه ﷺ: "خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها". ويُحتمل أن يُرادَ بقوله: "ولا شاهدوه، والأول يشهدونه بالزُّور فيكون معناه: يشهدون بما لم يُستشهدوا به، ولا شاهدوه، والأول أولى؛ لأنه أصلُ الكلمة.

وفي أخرى: عن أبي هريرة: "يُحِبُّون السَّمانةَ".

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبيِّ ﷺ قال: "يأتي على النَّاسِ زمانٌ يغزو فئامٌ من الناس، فيقالُ لَهُم: فيكم من رأى رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فَيُفْتَحُ لهُم، ثم يَغْزُو فئاملإ من النَّاس، فيُقالُ لهم: فيكم من رأى من صَحبَ رسولَ الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فيُفْتَحُ لهم، ثم يغزو فئامٌ من الناس، فيقالَ لهم: فيكم من رأى من صَحِبَ من صَحِبَ رسولَ الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فيُفْتَحُ لَهُم".

و(قوله: "ويظهر فيهم السِّمَنُ") أي: يغلبُ عليهم النَّهم والشَّهوات، ويُكْثرون الأكل، فيظهر عليهم السِّمَنُ، وقد يأكلون ليسمنوا؛ فإنه محبوبٌ لهم، ومَن كان هذا حالُه خرج عن الأكل الشرعي، ودخل في الأكل الشَّرِّي الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: "ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرّاً من بطن، حَسْبُ ابن آدم لقيماتٌ يُقمْنَ صلبه، فإن كان ولابُدَّ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلث لنَفَسِه".

و(قوله إبراهيم النَّخعي: كانوا ينهوننا ونحن غلمان عن العهد والشهادات) يعني: من أدرك، وقد أدرك التابعين، فكانوا يزجرون الصّبيان عن اعتياد إلزام أنفسهم العهودَ والمواثيق، لما يلزم الملتزم من الوفاء، فيحرج أم يأثم بالترك، وكذلك عن تحمُّل الشَّهادات لما يلزم عليه من مشقَّة الأداء، وصعبة التخلص من آفاقها في الدُّنيا والآخرة، وكلُّ ذلك من السلف — رضي الله عنهم — تعليمٌ للصغار، وتدريبٌ لهم، على ما يجتنبونه في حال كِبَرهم.

و(قول: "ويخونون ولا يُؤتمنون") يعني: أنه تشتهرُ خيانتهم، فلا يأتمنهم أحدٌ، وهذا نحو ممَّا تقدَّم في حديث حذيفة في الأمانة.

وفي أخرى: "يأتي على الناس زمان يُبْعثُ منهم البَعثُ فيقولون: انظُرُوا هل تجدون فيكم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فيُوجَدُ الرجلُ فيُفْتَحُ لَهُم". هكذا إلى أن ذكر أربعة بعوث.

وعن عبد الله بن عمر، قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلة صلاةَ العشاء في آخر حياته؛ فلما سلَّم قام فقال: "أرأيْتَكُم لَيْلَتكُم هذه؟ فإنّ علَى رأس مئة سنةٍ منها لا يبقى ممّن هو على ظهر الأرض أحدٌ". قال ابن

و(قوله: "تغزو فئامٌ من الناس... إلى آخره") دليلٌ واضحٌ على صحة نبوَّة نبيِّنا محمد ﷺ إذ مضمونُه: خبرٌ عن غيب وَقَع على نحو ما أخبر.

و(قوله في حديث ابن عمر – رضي الله عنهما –: "أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأسَ مئة سنة من هذه لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد") هذا الحديثُ رواه مسلم من طريقين، ذكر الأول منهما متصلاً، ثم أردف عليه سنداً آخر فيه انقطاع، ولا يُعتب عليه في ذلك؛ إذ قد وفَّى بشرط كتابه في الطريق الأول، ثم زاد بعد ذلك السند المنقطع. وقد استشكل بعضُ من لم يثبت عنده حديث ابن عمر إذ لم يفهم معناه، فردَّه بأن ذلك حديث منقطع، وهذا ليس بصحيح على ما قررناه، ثم لو سُلِّم أنَّ حديثَ ابن عمر ليس بصحيح فحديث جابر وأبي سعيد في الباب صحيحان، فما قوله فيه؟ وقد رفع الصحابيُّ – أعني: ابن عمر ذلك الإشكالَ – بقوله: أراد بذلك أن ينخرم ذلك القرن، بل: قد جاء من حديث جابر بلفظ لا إشكالَ فيه، فقال: "ما من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مئةُ سنة، وهي حيَّةٌ يومئذ" وهذا صريحٌ في تحقيق ما قاله ابن عمر، وكذلك قول عبد الرحمن – صاحب السّقاية حيث فسَّره: ينقص العمر، وحاصل ما تضمنه هذا الحديث: أنه ﷺ أخبر قبل موته بشهر، أنَّ كلَّ مَن كان مِنْ بني آدم موجودا في ذلك الوقت لا يزيد عمره على مئة سنة، وإنما قلنا: إنه أراد

.....

بني آدم؛ لأنه قال: "من نفسٍ منفوسة، ولا يتناول هذا الملائكة، ولا الجنَّ؛ إذا لم يصحّ عنهم أنهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ إذ قال فيه: "ممن هو على ظهر الأرض أحد". وهذا إنما يُقال بأصل وضعه على مَن يعقل، فتعيَّن: أن المرادَ بنو آدم، وقد استدلَّ بعضُ الحُفَّاظ المتأخِّرين على بطلان قول من يقول: إن الخَضِر حيٌّ بعموم: "ما من نفس منفوسة" فإنه من أنصّ صيغ العموم على الاستغراق، وهذا لا حُجَّةَ فيه يقينية؛ لأنّ العموم — وإن كان مؤكداً للاستغراق — فليس نصّا فيه، بل: هو قابلٌ للتخصيص، لاسيما والخَضِر وإن كان حيّا — كما يُقال فليس مشاهداً للناس، ولا ممَّن يُخالطهم حتى يخطرَ ببالهم حالةُ مخاطبة بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله كما لم يتناولْ عيسى — عليه السلام —؛ فلأنه لم يمت، ولم يُقْتَل، فهو حيٌّ بنصِّ القرآن، ومعناه. وكما لم يتناول الدجال مع أنه حيٌّ بدليل حديث الجسَّاسة على ما يأتي؛ فإن قيل: إنما لم يتناولْ هذا العموم: من كان من النفوس على ظهر الأرض، كما نصَّ عليه في حديث ابن عمر. فالجواب: يمنعُ عموم الأرض المذكورة فيه؛ فإنه اسم مفرد دخل عليه الألف واللام، وهي محتملةٌ للعهد والجنس، وهي هاهنا للعهد؛ لأن الأرضَ التي يخاطبون بها، ويخبرون عن الكون فيها: هي أرضُ العرب، وما جرت عادتهم بالتصرُّف إليها وفيها غالباً، دون أرضِ يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزائر الهند السند، مما لا يقرع السمع اسمه، ولا يعلم علمه، ولا جواب عن حديث الدجال. وعلى الجملة: فمن يستدل في المباحث القطعية بمثل هذا العموم فليس لكلامه حاصل ولا مفهوم. وسيأتي القولُ على قوله ﷺ: "إنْ عُمِّر هذا لم يدركه الهرمُ حتى تقومَ الساعة" في آخر كتاب الفتن.

عمر: فوَهَلَ الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ تلك، فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مئة سنة، وإنَّما قال رسول الله ﷺ: "لا يبقى ممّن هو اليومَ على ظهر الأرض أحدٌ". يريدُ بذلك أن يَنْخَرِمَ ذلك القرنُ.

وعن جابر بن عبد الله، يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: "تَسْأَلوني عن السَّاعة؟ وإنّما علْمُهَا عند الله، وأقسم بالله ! ما على الأرض من نفسٍ منفوسةٍ يأتي عليها مئة سنةٍ".

وفي أخرى: قال سالم: تَذَاكرْنا: إنَّما هي مَخْلُوقة يومئذ.

وفي أخرى: "ما من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مئةُ سنة، وهي حيَّة يومئذ". وفسرها عبد الرحمن صاحبُ السِّقاية قال: نَقْصُ العمرِ.

وعن أبي سعيد نحو الحديث.

و(قول ابن عمر: فَوَهَل الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ) الرِّوايةُ الصَّحيحة: وَهَل – بفتح الهاء – قال أبو عبيد: يريد: غلط، يقال: وَهَلَ إلى الشيء يَهِلُ، ووَهَمَ إلى الشيء يَهِمُ، وَهْلاً ووَهْماً. قال أبو زيد: وهل في الشيء، وعن الشيء يوهل وَهَلاً: إذا غلط فيه وسها، ووهَلت إليه – بالفتح – وَهَلاً: إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريدُ غيره.

قال الشيخ رحمه الله: وعلى ما حكاه أبو زيد يكون الصوابُ في وَهِل الذي في هذا الحديث: كسر الهاء؛ لأنه هو الذي يتعدى ب، (في)، ويشهدُ له المعنى، وأما وَهَل بالفتح فيتعدى بـ (إلى)، والمعنيان متقاربان، ويمكن أن يقال: إن وهل في الشيء فيه لغتان: الفتح والكسر. والله أعلم.

باب وجوبُ احترام أصحاب النبيّ ﷺ والنَّهي عن سبِّهم

عن أبي هريرة، قال: رسولُ الله ﷺ: "لا تَسُبُّوا أصْحابي ! فوالذي نفسي بيده ! لو أنَّ أحَدَكُم أنْفَقَ مثل أُحُدٍ ذَهَباً، ما أَدْرَكَ مُدَّ أحَدِهم، ولا نَصِيفَهُ !".

ومن باب: وجوب احترام أصحاب رسول الله ﷺ

من المعلوم الذي لا يُشَكُّ فيه: أنَّ الله تعالى اختار أصحابَ نبيِّه لنبيِّه ﷺ، ولإقامة دِيْنه، فجميعُ ما نحن فيه من العلوم،و الأعمال، والفضائل، والأحوال، والمتملّكات، والأموال، والعزّ، والسلطان، والدّين، والإيمان، وغير ذلك من النّعم التي لا يُحصيها لسانٌ، ولا يتّسع لتقديرها[1] زمان إنما كان بسببهم. ولما كان ذلك وَجَب علينا الاعترافُ بحقوقهم والشكرِ لهم على عظيم أياديهم، قياماً بما أوجبه الله تعالى من شكر المنعم، واجتنابا لما حرمه من كُفران حقِّه، هذا مع ما تحقَّقناه من ثناء الله تعالى عليهم، وتشريفه لهم، ورضاه عنهم، كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمنينَ إذْ يُبَايعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة...﴾ إلى قوله: ﴿... مُحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﴾[2]، وقوله: ﴿وَالسَّبِقُونَ الأوَّلُونَ منَ الْمُهَجرينَ والأَنْصَار﴾[3]، وقوله: ﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهَجرينَ﴾[4] إلى غير ذلك، وكقوله ﷺ: "إنَّ الله اختار أصحابي على العالمين سوى النَّبيين والمرسلين" إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمِّنة للثناء عليهم – رضين الله عنهم أجمعين -. وعلى هذا فمن تعرَّض لسبِّهم، وجَحَد عظيمَ حقِّهم، فقد انسلخ من الإيمان، وقابلَ الشكر بالكُفران، ويكفي في هذا الباب ما رواه التِّرمذي من حديث عبد الله بن مغفّل –

---

(1)– في (ز)/ لتعديدها.
(2)– سورة الفتح، الآية 18-29.
(3)– سورة التوبة، الآية 100.
(4)– سورة الحشر، الآية 8.

وعن أبي سعيد، قال: كان بين خالدٍ بن الوليد وبينَ عبدِ الرحمن بن

رضي الله عنه – قال: قال رسولُ الله ﷺ: الله ! الله ! في أصحابي، لا يتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبَّهم فبحبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومَن آذى الله يوشك أن يأخذه". فقال: هذا حديثٌ غريب. وهذا الحديثُ، وإن كان غريبَ السَّند فهو صحيح المتن؛ لأنه معضودٌ بما قدَّمناه من الكتاب وصحيح السُّنَّة بالمعلوم من دِيْن الأمَّة؛ إذ لا خلافَ في وجوب احترامهم، وتحريم سبِّهم، ولا يختلفُ في أنَّ من قال: إنَّهم كانوا على كُفْرٍ أو ضلالٍ كافر يُقتل؛ لأنه أنكر معلوماً ضروريا من الشَّرع، فقد كذَّبَ الله ورسولَه فيما أخبرا به عنهم. وكذلك الحكم فيمن كفَّر أحدَ الخلفاء الأربعة، أو ضلَّلهم. هل حُكْمُه حُكْمُ المرتد فيُستتاب؟ أو حُكْم الزِّنديق فلا يُستتاب ويُقتل على كلِّ حال؟. هذا ممَّا يُختلف فيه، فأما مَن سبَّهم بغير ذلك؛ فإن كان سبّاً يُوجبُ حداً كالقذف حُدَّ حدّه، ثم يُنكَّل التَّنكيلَ الشَّديد من الحبس، والتَّخليد فيه، والإهانة ما خلا عائشة – رضي الله عنها – فإنَّ قاذفَها يُقتل؛ لأنه مُكذِّبٌ لما جاء في الكتاب والسنة من برائتها. قاله مالك وغيره. واختلف في غيرها من أزواج النبيِّ ﷺ فقيل: يُقتل قاذفُها؛ لأنَّ ذلك أذى للنبيِّ ﷺ وقيل: يحدُّ ويُنكَّل، كما ذكرناه على قولين. وأمَّا مَن سبَّهم بغير القذف؛ فإنه يُجلد الجلدَ الموجع، ويُنكَّل التَّنكيل الشَّديد، قال ابنُ حبيب: ويخلد سجنه إلى أن يموت. وقد رُوي عن مالك: مَن سبَّ عائشة قُتِل مطلقاً، ويُمكن حَمْلُه على السَّبِّ بالقذف، والله تعالى أعلم.

عوف شيءٌ؛ فسبَّه خالدٌ؛ فقال رسولُ الله ﷺ: "لا تسبُّوا أحداً من أصحابي فإنَّ أحدكم لم أنفق مثل أُحُدٍ ذَهباً، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه".

و(قوله ﷺ: "لا تسبُّوا أصحابي... إلخ") رواه أبو هريرة مجرَّدا عن سَبَبه، وقد رواه أبو سعيد الخُدري، وذكر أنَّ سَبَبَ ذلك القول هو: أنه كان بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوف شيءٌ، أي: منازعة، فسبَّه خالد، فقال رسولُ الله ﷺ ذلك القول، فأظهر ذلك السَّبَبُ أنَّ مقصودَ هذا الخبر زجر خالد، ومَن كان على مثل حاله ممن سُبِق بالإسلام، وإظهار خصوصية السَّابق بالنبيّ ﷺ، وأنَّ السَّابقين لا يلحقهم أحدٌ في درجتهم؛ ون كان أكثرَ نفقةٌ وعملاً منهم، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي منكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وقَتَلَ﴾[1]، ويدلُّ على صحة هذا المقصود: أن خالداً وإن كان من الصَّحابة – رضي الله عنهم – لكنَّه متأخِّر الإسلام. قيل: أسلم سنة خمس، وقيل: سنة ثمان. لكنه ﷺ لما عدل عن غير خالد وعبد الرحمن إلى التَّعميم دلَّ ذلك على: أنه قَصَد تقعيدَ قاعدَة تغليظ تحريم سبّ الصَّحابة مُطلقاً، فيحرم ذلك من صحابيٍّ وغيره؛ لأنَّه إذا حرم على صحابي فتحريمُه على غيره أولى. وأيضاً: فإنَّ خطابَه ﷺ للواحد خطابٌ للجميع، وخطابه للحاضرين خطابٌ للغائبين إلى يوم القيامة. والنصيف لغةٌ: في النصف، كذلك الثمين لغة في الثمن.

وفي هذا الحديث دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الصَّحابةَ – رضوان الله عليهم – لا يلحقهم أحدٌ ممن بعدهم في فضلهم كما تقدم رضي الله عنهم وعن تابعيهم بإحسان.

---

[1]– سورة الحديد، الآية 10.

باب ما ذكر في فضل أويس القرني – رضي الله عنه –

عن عمر بن الخطَّاب، قال: إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "إنَّ خَيرَ التابعينَ رجلٌ يقالُ له: أويس، وله والدةٌ، وكان به بياضٌ فَمُرُوه فلْيستغفِر لكم".

ومن باب: ما ذكر في أويس القرني – رضي الله عنه –

اختلف في نَسَبه، فقيل: أُويس بن عامر بن جزء بن مالك، وهو الصَّحيح. وقيل: أويس بن أنيس، وقيل: أويس بن الخليص المرادي، ثم القَرَني – بفتح الراء – منسوب إلى قَرَن، فبيلة معروفة. كان – رحمه الله – من أولياء الله المختفين الذين لا يُؤبَه لهم، ولولا أنَّ رسولَ الله ﷺ أخبر عنه، ووصَفَه بوصفه، ونعته، وعلامته لما عرفه أحَد، وكان موجُوداً في حياة رسول الله ﷺ وآمن به، وصدَّقه، حيث قال: "إنَّه خيرُ التابعين". وقد اختلف في زمن موته، فروي عن عبد الله بن مسلم قال: غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ومعنا أُويس القَرَني، فلما رجعنا مرض علينا، فحملناه فلم يستمسك فمات، فنزلنا، فإذا قبرٌ محفور، وماءٌ مسكوب، وكَفَن وحَنُوط، فغسلناه، وكفَّناه، وصلَّينا عليه، فقال بعضُنا لبعضٍ: لو رجعنا فعلَّمنا قبره، فإذا لا قبر، ولا أثر[1].

وروي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادى رجلٌ من أهل الشام يوم صفّين: أفيكم أويس القرَني؟ فقلنا: نعم. قال إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: أويس القرَني خيرُ التابعين بإحسان". وعتطف دابته فدخل على أصحاب علي. قال عبد الرحمن: توجد في قتلى أصحاب عليٍّ – رضي الله عنهما –.

---

[1]– لابدّ أن تراجع رحلة ابن بطوطة حول هذه المعلومة التي نقلها الرحالة المغربي عن كتاب المقدمة... تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تأليف ابن بطوطة تقديم وتحقيقد. عبد الهادي التازي ج I، 222 مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1417=1997.

وعن أُسَيْر بن جابر؛ قال: كان عمرُ بن الخطَّاب إذا أتَى عليه أمدادُ أهلِ اليَمَن، سألَهم: أفيكُم أويس بنُ عامر؟ حتى أتى على أُوَيْس، فقال: أنتَ أويسُ بنُ عامر؟ قال: نعم. قال: من مُرَاد، ثم من قَرَن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برَص فَبرأتَ منه إلا مَوْضعَ درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدةٌ؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "يأتي عليكم أُويسُ بنُ عامر مع أمداد أَهْلِ اليمن، من مُرَاد؛ ثم من قَرَن، كان به بَرَصٌ فبَرَأَ منه إلاَّ مَوْضعَ درهَم، لَهُ والدةٌ هو بها بَرٌّ، لو أقسمَ على الله لأبرَّه، فإن استطعتَ أنَ يستغفر لكَ فافعل". فاستغفرْ لي ! فاستغْفَرَ له. فقال له عمرُ: أين تريدُ؟ قال: الكوفةَ. قال: ألاَ اكْتُبُ لك إلى عاملها؟ قال: أكونُ في غَبْرَاءِ الناس أحَبُّ إليَّ. قال: فلمّا كان من العام المُقْبل حَجّ رَجُلٌ من أشرافِهم، فوافق عُمَرَ، فسأله عن أويس. قال: تركْتُه رثَّ البيتِ، قليل المتاع!

وله أخبارٌ كثيرة، وكراماتٌ ظاهرة، ذكرها أبو نعيم، وأبو الفرج الجوزي في كتبهما. وأويس: تصغير أوس، وأوس: الذئب، وبه سُمِّي الرجل، وقيل: إنه سُمِّي بأوس الذي هو مصدر أُسْتُ الرجل أوساً: إذا أعطيته، فالأوس: العطية.

و(قوله ﷺ: "إن استطعتَ أن يستغفرَ لكَ فافعلْ") لا يُفَهَمُ منه انه أفضلُ من عمر، ولا أنَّ عمر غيرُ مغفور له؛ للإجماع على أنَّ عمرُ — رضي الله عنه — أفضلُ منه؛ ولأنَّه تابعيٌّ، والصَّحابيُّ: أفضلُ من التابعي، على ما بيَّنَّه غير مرَّة، وإنما مضمونُ ذلك: الإخبارُ بأنَّ أويساً ميَّن يُستجابُ دعاؤه. وإرشادُ عمر إلى الازدياد من الخير، واعتنام دعوة من تُرتجى إجابته، وهذا نحو مما أمرنا النبيُّ ﷺ به من الدُّعاء له، والصلاة عليه، وسؤال الوسيلة له، وإن كان النبيُّ ﷺ أفضلَ ولد آدم. ويُروى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لرجل خرج ليعتمر: "أشْرِكْنا في دعائك يا أُخَيَّ".

و(قوله: "في أمداد أهل اليمن") أي: في جماعاتهم، جمع مدد، وذلك أنهم يُمَدُّ بهم القومُ الذين يَقْدَمون عليهم.

قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "يأتي عليكم أُوَيْسُ بن عامرٍ مع أمداد أهل اليمن من مُراد ثم من قَرَن، كان به قَرَصٌ فبَرَأَ منه إلا موضعَ درَهَم، له والدة؛ هو بها بَرٌّ؛ لو أقسم على الله لأَبرَّه، فإن اسْتَطَعْت أن يَسْتَغْفِرَ لك فافْعل". فأتى أويساً؛ فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهداً بسَفَر صالح، فاستغفر لي ! قال: استغفر لي. قال: أنت أحدثُ عهداً بسفر صالح فاستغفر لي ! قال: لَقيتَ عمر؟ قال: نعم. فاستغفر له. ففَطنَ له الناس فانطلقَ على وجهه. قَال أُسَيْرٌ: وكَسَوتُهُ بُرْدَةٌ، فكان كلّما رآه إنسانٌ قال: مِنْ أَيْنَ لأويس هذه البردةُ؟

و(قوله: أحدث عهداً) أي: أقرب، وعهدا: منصوب على التمييز، كقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئياً﴾[1].

و(قوله: أكون في غَبْراء الناس) الروايةُ الجيدةُ فيه: بفتح الغين المعجمة، وسكون الباء الموحدة، وهمزة ممدودة، ويعني به: فقراء النّاس وضعفاءهم. والغبراء: الأرض، ويقال للفقراء: بنو غبراء، كأن الفقر والحاجة ألصقتهم بها، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[2]، أي ذا حاجة ألصقته بالتراب، ومن هنا سَمُّوا الفقرَ: أباَ متربة. وقد روي ذلك اللفظ في غُبَّر الناس-بضم الغين وتشديد الباء- جمع غابر، نحو: شاهد وشُهّد، ويعني به: بقايا الناس ومتأخريهم، وهم ضعفاء الناس؛ لأنَّ وجوهَ الناس ورؤساءهم يتقدَّمون للأمور، وينهضون بها، ويتفاوضون فيها، ويبقى الضعفاءُ لا يُلْتَفَتُ إليهم، ولا يُؤْبَهُ بهم، فأراد أويسٌ أن يكونَ بحيث يبقى لا يُلتفت إليه، طالباً السلامة، وظافراً بالغنيمة.

وحديثُ أويس هذا دليلٌ من أدلة صحَّة صدْق رسول الله ﷺ؛ فإنه أخبر عنه باسمه، ونسَبه، وصفَته، وعلامته، وأنه يجتَمعُ بعمر-رضي الله عنه- وذلك كلُّه من باب الإخبار بالغيب الواقع على نحو ما أخبر به من غير ريْب.

---

[1]- سورة مريم، الآية 74.

[2]- سورة البلدالآية 16.

باب ما ذكر في مصرَ وأهلِها وفي عُمان

عن أبي ذرٍّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "إنَّكم ستفتحون مصْرَ، وهي أرضٌ يُسمَّى فيها القيرَاطُ؛ فتحتموها فأَحْسِنوا إلى أهْلِها، فإنَّ لهم ذمَّةً ورَحِماً – أو قال: ذمةً وصِهْراً – فإذا رأيت رجلين يَخْتصمانِ فيها في موضع

ومن باب: ما ذكر في مصر وأهلها وأهل عُمان

(قوله: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرضٌ يُسَمَّى فيها القيراط") هذا إخبارٌ بأمر غيب، وقع على نحو ما أخبر، فكان دليلاً من أدلَّة نبوَّته ﷺ. ومعنى يُسمَّى فيها القيراط: يعيني به: أنه يدورُ على ألسنتهم كثيراً، وكذلك هو، إذ لا ينفكُّ متعاملان من أهل مصر عن ذكْره غالباً؛ لأنَّ أجزاء الدُّنيا الأربعة والعشرين يُسمُّونها: قراريط، وقطع الدَّراهم يسمُّونها: قراريط، بخلاف غيرهم من أهل الأقاليم، فإنهم يسمُّون ذلك بأسماء أخر، فأهلُ العراق يسمُّون ذلك: طسُّوجاً ورزة، وأهل الشام: قرطيس، ونحو ذلك.

و(قوله: "فإذا فتحتموها فأحسنُوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّةٌ ورَحِماً، أو قال: صهْراً") الذمةُ:الحرمة. والذِّمام: الاحترام، وقد يكون ذلك لعهدٍ سابق كعهد أَهل الذمَّة، وقد يكون ذلك ابتداءُ إكرام، وهذا هو المرادُ بالذِّمة هنا، والله تعالى أعلم؛ إذ لم يكن لأهل مصر من النبيِّ ﷺ عهدٌ سابق، وإنما أراد: أنَّ لهم حقّاً لرحمهم، أو صِهْرهم، ويُحتملُ أن يكون معناه: أنهم يكون لهم عهدٌ بما يُعْقَدُ لهم من ذلك قبل الفتح. وهذا التأويلُ على بُعْده يعضدُه ما رواه ابنُ هشام من حديث عمر – مولى غُفْرة –: أن رسولَ الله ﷺ قال: "الله ! الله في أهل المدرة السوداء السُّحم الجعاد؛ فإنَّ لهم نسباً وصهراً". قال عمر: فنسبهم: أن أم إسماعيل منهم، وصهرهم: أن

لَبنة، فأخرجْ منها". قال: فرأيتُ عبدَ الرحمنِ بنَ شُرَحْبيل بنِ حَسَنة وأخاهُ رَبيعةَ يختصمانِ في موضع لَبِنَةٍ فخرجتُ منها.

وفي أخرى: "فاستوصُوا بأهلها خيراً فإنَّ لهم ذمةٌ ورَحِماً".

رواه أحمد، ومسلم.

رسولَ الله ﷺ تسرَّى منهم. قال ابنُ لهيعة: أم إسماعيل هاجر من أم العرب: قرية كانت امام الفرَما، وأم إبراهيم مارية سُرِّيَّة النبيّ ﷺ التي اهداها له المقوقس من حَفْن من كورة أَنْسنا. والمدرة: واحدة المدر، والعرب تُسمِّي القرية: المدرة، وأهل المدر: أهلَ القرى. والسحم: السود، جمع أسحم، وهذه أوصافُ أهل صَعيد مصر غالباً،و قد تقدَّم ذكرُ هاجر. والفرَما: قرية من عمل صعيد مصر، سُمِّيت باسم بانيها، وهو الفَرَمان بن قليقس، ويقال: ابن قليس، ومعناه: محبّ الغَرْس، وهو أخو الإسكندر حين بني الإسكندرية، قال: أبني مدينةٌ فقيرة إلى الله غنيةٌ عن الناس، وقال الفرما: أبني مدينةٌ غنيةٌ عن الله فقيرة إلى الناس، فسلَّط الله عليها الخراب سريعاً، فذهب رَسْمُها وبقيت الإسكندرية. وسميت مصر بمصر بن النبيط ولد كوش بن كنعان، وقال أبو العباس: اشتقاقُ مصر من المصر، وهو القطع، كأنها قُطعت من الخراب، ومنه: المصر: الحاجز، ومصور الدار: حدودُها. وحفْنَ: قرية مارية سُرِّية النبيِّ ﷺ بالصَّعيد معروفة، وهي التي كلَّم الحسنُ بن عليٍّ معاويةَ أن يضعَ الخراجَ عن أهلها لوصية رسول الله ﷺ بهم، ففعل معاوية ذلك، ذكره أبو عبيد في "الأموال". وأَنْصنا: مدينة السحرة، وحَفن من عَمَلها، والمقوقس: هو ملك مصر بعث له رسولُ الله ﷺ حاطبَ بن أبي بلتعة، وجبراً مولى أبي رُهْم بكتاب، فلم يبعدْ عن الإسلام، وأهدى له مارية، ويُقال: وأختها سيرين، وبغلة تسمَّى: الدّلدل. والدلدل: القنفذ العظيم. والمقوقس: المطوِّل للبناء. يُقال في المثل: أنا في القوس، وأنت بالقوقوس فمتى نجتمع؟ !.

وعن أبي برزةَ، قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ رجلاً إلى حيٍّ من أحياء العرب فسَبُّوه، وضربُوه، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال رسولُ الله ﷺ، "لو أنَّ أهلَ عُمانَ أتيتَ؛ ما سَبُّوكَ ولا ضربُوكَ".

رواه مسلم.

و(قوله: "فإذا رأيتم رجلين يختصمان فيها في موضع لَبِنةٍ فاخرجْ منها") يعني بذلك: كثرة أهلها، ومشاحتهم في أرضها، اشتغالهم بالزراعة والغرس عن الجهاد، وإظهار الدّين، ولذلك أَمَره بالخروج منها إلى مواضع الجهاد، ويحتملُ أن يكونَ ذلك؛ لأنَّ الناسَ إذا ازدحموا على الأرض، وتنافسوا في ذلك كثرتْ خصومتُهم، وشرورُهم، وفشا فيهم البخلُ، والشرُّ، فيتعيَّن الفرار من محلٍّ يكون كذلك، إن وجد محلاّ آخر خليّا عن ذلك، وهيهات ! كان هذا في الصدر الأول، وأما اليوم، فوجودُ ذلك في غاية البعد، إذ في كلِّ وادٍ بنو سعد. والَّبِنَةُ: المطوبة، وتُجمع لَبِن. وفيه من الفقه: الأمر بالرِّفق بأهلِ أرياف مصر، وصعيدها، والإحسان إليهم، وخصوصاً أهل تينك القريتين، لما ذكر من تينك الخصوصيَّتين.

و(قوله ﷺ: "لو أنَّ أهل عُمان أتيتَ ما سبُّوك ولا ضربوك") يُروِّي عُمان – بضم العين، وتخفيف الميم – وهو موضعٌ بالشام[1]، ويعني: أن أهلَ عُمان قومٌ فيهم علم، وعفاف، وتثبُّت، والأشبه: أنهم أهلُ عمان التي قبل اليمن؛ لأنهم ألينُ قلوباً، وأرقُّ أفئدة، وأما أهلُ عُمان الشام فسلامة لك منهم وسلام، وأهلُ هذين الأسمين مِن عمن بالمكان: أقام به، ويُقال: أعمن الرجل: إذا صار إلى عُمان.

---

[1]– هذا الموضع ذُكر بفتح العين وتشديد الميم. انظر: اللسان ومعجم البلدان.

باب في ثقيفٍ كذابٌ ومبيرٌ

عن أبي نوفل، قال: رأيتُ عبد الله بن الزُّبَير على عَقَبَة المدينة. قال: فجَعَلَتْ قريشٌ تمرُّ عليه والناسُ، حتى مرّ عليه عبدُ الله بنُ عُمَر، فوقف عليه، فقال: السّلام عليك أبا خُبَيْب ! السَّلامُ عليكَ أبا خُبَيْب ! السَّلام عليك أبا حبيب ! أمَا والله ! لقد كنتُ أنهاك عن هذا ! أما والله ! لقد كنت

ومن باب: في ثقيف كذّاب ومُبير

(قول أبي نوفل: رأيتُ عبدَ الله بن الزبير على عَقَبة المدينة) يعني: أنه رآه مَصْلُوباً على خشبة على عَقَبة المدينة، صلبه الحجاجُ — بعد أن قُتل في المعركة — منكساً، وكان من حديثه ما قد تقدّم بعضُه، وذلك أنه لما مات معاويةُ بن يزيدَ بن معاويةَ بن أبي سفيان، ولم يولِّ أحداً، بقي الناس لا خليفة لهم، ولا إمام مُدَّةً قد تقدَّم ذكْرُها، فعند ذلك بايع الناسُ لعبد الله بن الزُّبير بمكة، واجتمع على طاعته أهلُ الحجاز، وأهلُ اليمن، والعراق وخراسان، وحجَّ بالناس ثماني حجج، ثم بايع أهلُ الشام لمروان بن الحكم، واجتمع عليه أهلُ الشام، ومصر، والمغرب، وكان ابنُ الزبير أولى بالأمر من مروان وابنه على ما قاله مالك — وهو الحقُّ — لعلم ابن الزبير، وفَضْله، وبينه، فجرتْ بينهم حروبٌ وخطوبٌ عظيمة، إلى أن توفي مروان وولي عبد الملك، واستفحل أمرُه بالحجّاج، فوجَّه الحجاجَ إلى مكة في جيش عظيم، فحاصر فيها عبدَ الله بن الزبير مدة ستة أشهر وسبعة عشر يوماً، ثم دخل عليه، فقُتل يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى. وقيل: جمادى الآخرة، سنة ثلاث وسبعين، وهو اثنتين وسبعين سنة — قال المدائني: بُويع له بالخلافة سنة أربع وستين — ثم بقي مصلوباً على خشبة إلى أن رحل عروةُ بنُ الزبير إلى عبد الملك بن مروان، فرغب إليه أن يترل من الخشبة فأشعه، فأُنزل. قال ابنُ أبي مليكة: كنتُ الآذنَ

أنهاك عن هذا ! أما والله ! لقد كنتُ أنهاك عن هذا ! أما والله ! إن كنتَ مَا علمتُ صوّاماً، قوّاماً، وَصُولاً للرَّحم، أما والله لأُمَّةٌ أنْتَ شَرُّها لأمَّةٌ خيرٌ. ثم نفذ عبدُ الله بنُ عمر. فبلغ الحجّاجَ موقفُ عبد الله وقولُه، فأرسل إليه، فأنزلَ عن جِذْعِه، فألقي في قُبُور اليهود، ثمَّ أرسلَ إلى أُمّه أسماء بنتِ

لمن بشَّر أسماء بنزول ابنها عبد الله بن الزبير من الخشبة، فدعت بمركن وشبّ يمان، وأمرتني بغسله، فكنّا لا نتناولُ عضواً ألا جاء معنا، وكنا نغسلُ العضو، ونضعه في أكفانه حتى فرغنا منه، وكانت أُمُّه أسماء تقولُ قبل ذلك: اللهم لا تُمتني حتى تُقرَّ عيني بجثته، فما أتتْ عليها جمعةٌ حتى ماتت. وفي مدّة صَلْبه مرَّ به ابنُ عمر فقال: السلام عليك أبا خُبيب ! كنَّاه بابنٍ له يُسمَّى خبيباً، وكنيتُه الشهيرة أبو بكر.

و(قول ابن عمر: أما والله لقد أنهاكَ عن هذا) أي: عن التعرُّض لهذا، وكأنه كان أشار عليه بالصُّلح، ونهاه عن قتالهم لما رأى من كثرن عدوّه، وشدَّة شوكتهم، ثم إنه شهدَ بما علم من حاله فقال: أما والله إن كنتَ ما علمتُ صوَّاماً، قوَّاماً، وصولا للرحم. وكان يصومُ الدهر، ويواصلُ الأيام، ويُحيي الليل، وربما قرأ القرآن كلَّه في ركعة الوتر ! و(إنْ) التي مع كمت مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، تقديره: إنك كنت، وما مع الفعل بتأويل المصدر.

و(قوله: أما والله ! لأمَّة أنت شرها لأمةٌ خيرٌ) يعني بذلك: أنهم إنما قتلوه وصلبوه؛ لأنه شرُّ الأمة في زَعْمهم، مع ما كان عليه من الفضل والدّين والخير، فإذا لم يكن في تلك الأمة شرٌّ منه، فالأمة كلُّها أمة خير، وهذا الكلام يتضمَّن الإنكارَ عليهم فيما فعلوه به.

و(قوله: فبلغ الحجَّاج موقفُ عبد الله وقَوْلُهُ، فأرسل إليه، فأنزل عن جِذْعه) ظاهرُ هذا: أنه إنما أنزله ع الخشبة لقول عبد الله وموقفه، وقد نقلنا:

أبي بكر، فأبتْ أنْ تأتيَهُ، فأعاد عليها الرسولَ: لَتأتينِّي، أو لأبعَثَنَّ إليك من يَسْحَبُك بُقُرونك ! قال: فأبتْ، وقالتْ: والله ! لا آتيكَ حتى تبعثَ إليَّ من يَسْحَبُني بقُروني ! قال: فأبتْ، وقالتْ: والله ! لا آتيك حتى تبعثَ إليَّ من يَسءحبُني بقُروني ! قال: فقال: أرُوني سِبْتَيَّ ! فأخَذَ نَعْلَيْه، ثم انطلقَ يَتوذّفُ؛ حتى دخل عليها. قال: كيف رأيْتِني صَنَعْتُ بعدو الله؟ ! قالتْ: رأيتُكَ أفسدْتَ عليه دُنْياه، وأفسد عليك آخرَتَكَ ! بلغني أنّك تقولُ: يا بنَ ذات النِّطاقين ! أنا والله ! ذاتُ النطاقين؛ أمَّا أحدُهما فكنتُ أرفُع به طعامَ رسول الله ﷺ وطعامَ أبي بكر من الدوابِّ، وأمّا الآخرُ فنطاق المرأة التي لا تَسْتَغْني عنه، أما إنَّ رسول الله حدَّثنا: أنّ في ثقيف كذّاباً ومُبيراً، فأمَّا الكذّاب فرأيناهُ، وأمّا المُبير فلا إخالُكَ إلا إياه ! قال: فقام عنها، ولم يُراجِعْها.

رواه مسلم.

اجتمع إذنُ (عبد الملك)، وموقفُ عبد اله، فكان إنزالهُ عنهما. و(نسحبُك): نجرُّك. و(قُرونها): الثوبُ الذي تنتطقُ به المرأة، أي: تحتزمُ. و(يتوذَّف): يمشي متبخترا، وقيل: مسرعاً. و(المُبير): المهلك، وكذلك كان الحجاجُ؛ فإنه روي أنه أُحصي مَن قَتَله الحجاجُ صبْراً، فوجدزهم ثلاثين ألفاً، وأمَّا من قتل في الحروب فلم يحصوا.

وأما الكذاب فهو: المختار بن أبي عبيد الثقفي، فإنه ادَّعى النبوة، وتبعه على ذلك خلْقٌ حتى قتله الله تعالى كما تقدم.

و(قوله: فقام عنها، فلم يراجعها) قد حُكي عنه أنه قال: اللهم ! مبيرٌ لا كذّاب.

و(إخالك): أظنُّك، وكسر همزة إخالك لغة فصيحة، الفتح الأصلُ والقياس.

باب ما ذكر في فارس

عن أبي هريرة، قال: كنّا جُلُوساً عند النَّبيّ ﷺ، إذْ نزلتْ عليه سورة الجُمعة، فلما قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، قال رجلٌ: مَن هؤلاء يا رسول الله؟ ! فَلَم يُراجعه النبيُّ ﷺ حتى سأَله مرةً، أو مرتين، أو ثلاثا — قال: وفينا سَلْمانُ الفارسيُّ — قال: فوضع النبيُّ ﷺ يَده على سلمانَ، ثم قال: "لو كانَ الإيمان عند الثُّريَّا لَنالَه رجالٌ من هؤلاء".

وفي رواية: "لو كان الدّينُ عند الثريَّا لذهب به رجلٌ من فارسَ — أو قال: من أبْنَاء فارس — حتى يَتَناوَلَه.

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، والنَّسائي في الكبرى.

ومن باب: ما ذكر في فارس

(قوله تعالى: ﴿وَءَاخرينَ منْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾[1] هو مخفوضٌ معطوفٌ على الأميين[2]، ويجوز أَن يكونَ منصوباً معطوفاً على الضَّمير في يُعَلِّمُهُم. ولما يلحقوا بهم: أي لم يدخلوا في الإسلام، ولم يوجدوا وسيوجدون وأحسن ما قيل أنهم أبناءُ فارس بدليل نصّ هذا الحديث، وقد كثرتْ أقوالُ المفسرين في ذلك. وقد ظهر فيهم الدّينُ، وكثر فيهم العلماءُ، فكان وجودُهم كذلك دليلاً من أدلَّة صِدْق النبي ﷺ.

---

(1)— سورة الجمعة، الآية 3.

(2)— أي: من قوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم.... ﴾

باب عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: "منْ أشدِّ أمَّتي لي حُبّا ناسٌ يكونون بعدي، يودُّ أحدُهم لو رآني بأهله وماله".

رواه البخاريُّ تعليقاً، ومسلم.

وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: "تجدونَ الناسَ كإبلٍ مئةٍ لا تَجِدُ فيها راحلةٌ".

رواه أحمد، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ.

باب

و(قوله: تجدون الناسَ كإبل مئة، لا تجدُ فيها راحلة) قال الأزهري: الراحلة: الناقةُ النجيبة والجمل النجيب، الهاء فيها للمبالغة. كرجل داعية ونسّابة. وسُمِّيت بذلك لأنها تُرتحل، فهي فاعلة بمعنى مفعولة راضية أي: مرضية. قال: ومعنى الحديث عندي: أنَّ الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل.

قال الشيخ رحمه الله: ويقع لي أن الذي يناسبُ التمثيلَ بالرَّاحلة إنما هو الرجلُ الكريم، الجوادُ؛ الذي يتحمَّل كلَّ الناس وأثقافهم بما يتكلَّفه من القيام بحقوقهم، والغرامات عنهم، وكَشْف كُرَبهم، فهذا هو القليلُ الوجود، بل: قد يصدق عليه اسمُ المفقود، وهذا أشبهُ القولين، والله تعالى أعلم[1].

كمل كتابُ المناقب، والحمد لله.

---

[1]– أقول: عبد الهادي التازي: إن ما علق به صاحب المفهم أو إلى المعنى وأدق في التعبير من التفسيرات الأخرى كتاب البر والجهل.